

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

تميز
الخطوط بين الحروف
في تحريرها إلى يومنا هذا

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

تميز المخطوطات في في تحرير الدين وتوضيح الرسلين

تأليف
الإمامة الشيخ محمد طه آلانصوري المحمدي المكي
المتوفى سنة (١٣٧٩هـ) رحمه الله

تمتقيقه وتعليقه
علي بن حسن بن علي بن عجمت الحميري
الحسن بن الأثيري

دار ابن الجوزي

حقوق الطبع محفوظة لدار ابن الجوزي

الطبعة الثانية

جمادى الأولى ١٤٢١هـ

حقوق الطبع محفوظة © ١٤٢١هـ لا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب
أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه ونسخه في أي
نظام ميكانيكي أو إلكتروني يمكن من استرجاع الكتاب أو ترجمته
إلى أي لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر



دار ابن الجوزي

للنشر والتوزيع
الملكية العربية السعودية

الدمام - شارع ابن خلدون، ت: ٨٤٨١٤٢ - ٨٤٧٠٩١ - ٨٤٧٠٩٠

صرب: ٢٩٨٥ - الرزاز البيدي: ٣١٤١١ - فاكس: ٨٤١٢١٠٠

الإحسان - الهدوف - شارع الجامعة - ت: ٥٨٨٣١٢٢

جدة: ت: ٥١٦٥٤٩

الرياض: ت: ٤٢١٢٣٩

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

مقدمة التحقيق

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ؛ نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ
أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ إِعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ؛ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ؛ فَلَا هَادِيَ
لَهُ.

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.
وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

أَمَّا بَعْدُ:

فَإِنَّ لِلْقُرْآنِ الْعَظِيمِ وَقْعًا فِي نَفُوسِ النَّاسِ لَهُ، وَثَائِرٌ عَجِيبٌ فِي عُقُولِ
الْمُتَدَبِّرِينَ لِأَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ.

وقد أَسْرَنَّا رَبَّنَا جُلَّ وَعَلَا بِتَدْبِيرِ آيَاتِهِ، وَتَأَمَّلْ مَحْشَوَاتِهِ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ:
﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾^(١)، فَكَانَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ
زَاجِرَةً لِكُلِّ مَنْ يَقْرَأُ بِهَا تَذَكُّرًا، وَيَتْلُو دُونَ تَأَمُّلٍ وَتَفَكُّرٍ، تَفَرِّغُ الْأَسْمَاعُ، وَتَهْزُ الْأَفْتِدَةُ
وَالْقُلُوبُ.

(١) محمد: ٢٤.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ
اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

[يوسف: ١٠٨]

ثم إن الآيات القرآنية قد تنوعت أساليبها، وتعددت طرائق خطابها، فمنها القصص، ومنها الأحكام، ومنها العقائد، وهكذا...

ومنها أيضاً الخطاب بـ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾، والخطاب بـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾... وغير هذا وذلك.

وكل من هذين الخطابين: لهُ وَقَعَةٌ، وَلهُ عَائِيَةٌ، وَلهُ تَأْوِيلُهُ.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: «إذا سمعت الله تعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾؛ فأوعه سمعك؛ فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه»^(١).

ولقد جمَعَ مصنف هذا الكتاب رحمه الله تعالى كثيراً من الآيات التي فيها هذان النوعان من الخطاب؛ مقسماً إياها على قسمين؛ عموماً وخصوصاً^(٢).

وقد قال رحمه الله (ص ٨٩) بعد إيراد الآيات التي فيها الخطاب بـ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾: «فاعلم أن هذه الأربعين آية؛ كل واحدة منها موجهة من الله رب العالمين إلى كل فرد من أفراد بني آدم، لا يخرج من هذه الخطابات الصريحة أحد منهم... فكلمهم مخاطبون بهذه الخطابات، وأمورون ومكلفون بهذه الأمور...».

ثم قال (ص ٣١٨) بعد إيراد الآيات التي فيها الخطاب بـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾: «فهذه مئة آية... قد خاطب الله تعالى بها عباده المؤمنين كلهم، وناداهم، وأمرهم، ونهاهم، وبشرهم، وأنذروهم، وجزّهم، وخوفهم، فقال:

(١) والإتيان (٣ / ١٠٠) للسبيعي.

(٢) وقد وصف ابن المصنف عبدالرحمن المعصومي كتاب أبيه في خامسة وعقد الجواهر الثمين (ص ٢٢٣) بأنه «لم تر عين الزمان مثله».

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، ولم يقل: يَا أَيُّهَا العلماء، أو: يَا أَيُّهَا العرب، أو: يَا أَيُّهَا السادات والأشراف، ولكن قد خاطب كل المؤمنين بـ (أنتم)، و(كم)، و(كنتم)، فإذا؛ كل المؤمنين سواء في التكليف، وكلهم مخاطبون بهذه الخطابات الإلهية، كما أن كل البشر مخاطبون بخطابات ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾، و﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾، فهذا قد ترجّح الخطاب إليهم، وكل واحد منهم أهل لفهم ذلك ما دام قادراً بالغا، ولأنهم لو لم يكونوا أهلاً؛ لما خاطبهم الله تعالى، ولما كلفهم...».

هذه هي الخطة العامة للكتاب.

ولكن المصنف رحمه الله تعالى قد ضمن تفسيره لهذه الآيات الكريمة أنواعاً من العلوم الشرعية، والمسائل الدينية، وصوراً من التنبيهات الوعظية، والوئام من النصائح الرجعية.

وقد ذكر المؤلف (ص ١٦٢) تاريخ تأليفه لهذا الكتاب، وهو سنة (١٣٦٦هـ)، غيب انتهاء الحرب العالمية الثانية، وهي مرحلة حرجية في التاريخ الحديث، أحدثت اضطراباً وانقساماً في العالم كله بعامته، وعالمنا الإسلامي بخاصة.

ولمشابهة المرحلة التي نعيشها اليوم - بعواصفها ومحنها - صار هذا الكتاب كأنة مكتوب اليوم لأبناء القرن الخامس عشر الهجري، وما يعيشونه من هموم وأحزان.

ولكي لا أطيل على الآخر القاري الانتظار؛ أحصر الكلام، واقتصر المقام، حتى ينهل من التفسير السلفي الثغري لكتاب الله تعالى، ويتقيد - ليتقيد -

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

موجز ترجمة المصنف^(١)

من عادات العلماء أن يترجموا لأنفسهم في بعض مؤلفاتهم؛ ذاكرين أحوالهم العلمية، وما يتصل بها^(٢).

وقد استن مؤلفنا رحمه الله تعالى بهؤلاء العلماء، فكتب ترجمة لنفسه في عدة من كتبه؛ منها «حكم الله الواحد الصمد...» (٤٧ - ٩٦)، وهي ترجمة مطوَّعة، وكذا في مقدِّمة «حبل الشرع المتين» (١٤ - ١٦)، وهي مختصرة، ومنها أنقل - بالتَّمام - ترجمته بقلمه.

قال رحمه الله: «إن العبد الفقير، وإن لم أكن مستحقاً للذكر^(٣)، ولكن

(١) وقد أشار المصنف رحمه الله في كتابه هذا إلى بُد من مهمات مجريات حياته؛ كما في (ص ٢٣٨) عند ذكر هجرته، وفي (ص ١٦٢) عند ذكر الفتن التي ابتلي بها، وغيرهما.

تنبيه: وقد ترجمت للمصنف بنوع من التفصيل في مقدِّمتي على رسالته ومفتاح الجنة لا إله إلا الله، (ص ٣ - ٦)، فلتراجع.

(٢) ولأخينا الفاضل الشيخ بكر أبو زيد رسالة لطيفة جمع فيها أسماء «الذين ترجموا لأنفسهم من العلماء»، وهي مطبوعة.

(٣) هذا من تواضع العلماء، وهضبههم أنفسهم.

من التوجيهات العلمية، والتنبيهات العملية التي نثرها المؤلف رحمه الله عبر طيات كتابه؛ سائلاً المولى عز وجل أن يجعل لهذه الأمة من أمرها فرجاً، وأن يسرَّ لها من فتنها مخرجاً؛ إنه سميع مجيب.

وأخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وكتبه

أبو الحارث الحلبي الأثري

عفا الله عنه بمته

١٩ شعبان ١٤١١ هـ

الزرقاء - الأردن

●●●●●

تأشياً بالأسلاف الكرام ؛ أدتُ هنا بُذنةٌ من ترجمةٍ حالي للثُكُرة ؛ ليذكُرني من يأتي بعدي بالخير، فأقول :

أنا الفقيرُ الحقيرُ^(١) أبو عبد الله الكريم محمد سلطان، كُنيتُ به نفسي بعدما وُلِدَ ابني الأعزُّ الأرشُدُ أبو البركاتِ عبد الكريم عام ١٣١٨هـ، ثم كُنَّيْتُ أستاذي وشيخي شيخ الإسلام ببلد الله الحرام الشيخ صالح كمال المكي المُفتي وقت مُجاورتي بمكةَ بأبي الأنوار سلمه الله الكريم الغفَّارُ.

واسمُ والدي أبو عبد الله محمد أروون ابنُ مُلّا مير سعيد ابنِ مُلّا عبد الرحيم بن عبد الله بن عبد الصمد بن عبد اللطيف بن معصوم الخُجَندِي الحنفيُّ السُلفيُّ، المنسوبُ إلى جدِّه الأعلى محمد معصوم المَعصُومِي، عاملهم الله تعالى بلطفه الخفي وفضله الجلي.

إنِّي وُلِدْتُ في خُجَندة في العَشرِ الأوسطِ من شهرِ ربيعِ الأولِ سنة سبعمِ وتسعينَ ومِئتينَ وألفَ، فربَّاني الوالدانِ الكريمانِ إلى أن عُلِّماني الحُطَّ وقراءةِ الكتبِ الفارسيةِ والتركيةِ والقرآنِ الكريمِ.

ثم قرأتُ على بعضِ فضلاءِ البلدِ كَمُلّا صابراً ومُلّا عبد الله «الضُرفَ والنَّحوَ للزُّنْجاني، و«عواملُ الجُرجاني، و«كافية ابن الحاجب»، وبعضَ الفقهِ والمنطقِ ؛ كـ «مختصرِ الوقاية»، و«الإيساغوجي»، و«السُّمُسيَّة».

ثم سافرتُ إلى خُوند، ثم إلى بُخارى، وأقيمتُ فيها سبعَ سنينَ، فأخذتُ عن علمائها الأعلامِ ؛ كمحمد عوض الخُجَندِي، وعبد الرزاق المَرغيناني، وقرأتُ لديهم : الفقهَ، وأصوله، والمنطقَ، والحكمةَ، وبعضَ

(١) وهذا - كما سبقه - من تواضع العلماء، ومضيقهم أنفسهم.

التفسيرِ، والأحاديثَ، وغيرها ممَّا تعارفَ هناك، فاستجرتُهم، فأجازوني مع كُتُبِ سَنَدِ الإجازةِ.

ثم أُشْرِبَ في قلبي محبةَ زيارةِ الحرمين الشريفين، فعزمتُ متوكِّلاً على الله عزَّ وجلَّ في يومِ الاثنينِ السابعِ والعشرين من شَوَّالِ سنة ثلاثٍ وعشرين وثلاثِ مئةٍ وألفَ، فتشرَّفتُ ببلدِ الله الأمينِ يومَ الترويةِ، فبعدَ الوقفةِ في الموقفِ الشَّريفِ غرقاتٍ، أقمتُ فيها إلى ما شاءَ الله تعالى، فأخذتُ عن عُلَمائها الأعلامِ والواردينَ عليها من الأفاضلِ الكرامِ ؛ كالشيخِ شُعيبِ الذَّكَّالِي المغربيِّ، والشيخِ حَسِبِ الله، والشيخِ مُحَمَّدِ سعيد بانصِل، والشيخِ عبد الحيِّ المكناسيِّ، وغيرهم.

ثم بعدَ عامين سافرتُ إلى المدينةِ الطَّيِّبَةِ^(١)، فأقيمتُ فيها مدَّةً، فأخذتُ عن عُلَمائها أيضاً ؛ كالسيدِ أحمدَ البرَزَنْجِي، والشيخِ عبد الله النَّابُلُسيِّ القُدُوميِّ، والشيخِ خليلِ الخُزبُوطي، وغيرهم.

ثم سافرتُ إلى الشامِ عن طريقِ خيبرَ والمُلا، وكانَ الخطُّ الحديديُّ وصلَّ إلى محطةِ الأخضرِ، فركبنا القطارَ (سَمَنْدُف)، فوصلنا تبروكَ، ثم مُعانَ، ثم الرُّزقا، ثم دمشقَ الشامَ، فنزلتُ في مدرسةِ دارِ الحديثِ الشَّريفةِ، وكانَ المُدَرِّسُ فيها الشيخُ بدر الدين يوسفَ، والشيخُ عبد الحكيم القنْدهاريُّ، فأخذتُ عنهما علوماً جمَّةً، وكذا عن السيدِ أبي الخيرِ ابنِ عابدينَ، والسَّيِّدِ عارفِ المُنَيَّرِ، وغيرهم.

ثم قَدِمْتُ بَيْتَ المقدسِ عن طريقِ بيروتَ، وأخذتُ عن الشيخِ

(١) وهي مدينة النبي ﷺ.

يوسف النبهاني^(١) والشيخ عبدالرحمن الدرويش الحوت.

وقدمت مصر القاهرة، ونزلت الجامع الأزهر، وأقيمت في الرواق
السليماني منها، ثم قدمت الإسكندرية، ثم استأنبت عن طريق اليونان
وبيره وأقنة، وأخذت في كلها عشرين كان موجوداً من العلماء المشهورين،
فكلهم أجازوا لي بإجازات متعددة وإرشادات متوافرة.

وبالجملة؛ إني قد أخذت عن مئة شيخ تقريباً.

ثم رجعت إلى وطني حجة، وتشرفت بزيارة والديين الكريمين؛
نفخني الله تعالى بهما في الدارين، وجعل الفردوس الأعلى موتهما آمين،
فهما بنيا مدرسة جميلة ذات عُرُفاتٍ، فاشتغلت بالتدريس والتأليف
والتعليم خالصاً لله عز وجل.

هذه خلاصة الترجمة وإجمال الحال، والتفصيل يُطلب من رجلي
«اللالى» الغالية في السفر والرحلة الحجازية» وذيلها «الفوائد الربحية» في
ذيل الرحلة الحجازية» اهـ.

قلت: هذه بطولها ترجمة المؤلف رحمه الله بقلمه^(٢).

(١) وهو من أكابر مبتدعة القرن المنصرم؛ كما بيته في مقدمتي على «التعريف
بآداب التأليف» للسبكي.

وتلمذة المؤلف عليه لم تمنعه رحمه الله - من كشف حاله، والتحذير منه، حيث
حذر في كتابنا هذا - «تميز المحظوظين» (ص ٢٥٣) من كتابه «صلوات اللسان»؛ واصفاً إياه
بأنه «من البدع المنكرة»! وأن فيه «المنكرات»، بل الأكاذيب والكفريات!

قلت: هكذا فلتكن الصراحة في الحق، وعدم المداينة والمواربة فيه.

(٢) وقد فاتت هذه الترجمة الأخ الشيخ أبو زيد في كتابه الذي سبقت الإشارة
إليه، فلستذكر عليه.

ومما رأيت لزوم ذكره في هذا المقام ممّا له صلة مرتبطة بالترجمة
من جهة وكتاب «تميز المحظوظين»... من جهة أخرى: ما قاله ابن
المؤلف عبد الرحمن المعصومي في خاتمة كتاب أبيه «عقد الجواهر الثمين»
(ص ٢٣١) نقلاً عن أمه، فيما يتعلق بالإشاعات التي أشاعها حساده
والحاقدون عليه من أهل البدع والخرافين؛ مصيرة إياه، حادثة له على
التيّبات، وقالت:

«... وكما أشاعوا في عام ١٣٧١ هـ حينما كنت في الرياض في
واقعة فتنة المُفسرين في شأن كتابك «تميز المحظوظين» عن المحرومين»
أن الملك عبدالعزيز رحمه الله غضب عليه وحبسهُ وقتلَهُ، والحال أنك
مكرّم في دار ضيافته، وأنت منصوب على أعدائك أعداء الله المتبذعين
المفسدين، فرجعت سائلاً وغانماً منصوراً، ورؤساء أعدائك هلكوا خسداً
وكمداً».

قلت: فالحذر الحذر من كيد أهل الأهواء وأصحاب البدع.

وهذا يدل على أن لكتاب «تميز المحظوظين» موقعاً عظيماً وأثراً
جليلاً، جعل المبتدعة والخرافين يلجؤون - كسائر ضعاف النفوس
والعقول - إلى الإشاعات واتهام الأبرياء من الناس بالباطل من القول!

مؤلفاته

أحصى عبدالرحمن المعصومي في خاتمة «عقد الجواهر الثمين» (٢٢٠ -
٢٢٨) عدد مؤلفات أبيه، وأسماها، فبلغت أربعة وتسعين كتاباً^(٣)، ولولا خشية

(١) من المطبوع والمخطوط والمفقود.

الإطالة لَسَرْدُهَا بالتفصيل .

ولقد سَرَدَ مصفِّنا رحمه الله في كتابه هذا أسماء عددٍ من مؤلفاته المشهورة:

ذكر (ص ١٦٥ - ١٦٦):

- ١ - «حُكْمُ الله الواحد الأحد في حُكْمِ الطالب من المِيتِ المَدَد» .
- ٢ - «أوضح البرهان في تفسير أُمِّ القرآن»^(١) .
- ٣ - «مفتاح الجنة لا إله إلا الله» .
- ٤ - «البرهان الساطع على تبرُّؤ المتبوع من التابع»^(٢) .
- ٥ - «العقود الدُّرُية السُّلطانية فيما ينسب إلى الأيام النيروزية»^(٣) .
- ٦ - «وَحَفَّة الأبرار في فضائل سيِّد الاستغفار»^(٤) .

وذكر (ص ٣٥٤) كتابه الشهير:

- ٧ - «هدية السلطان إلى مسلمي بلاد جابان»، وهو الذي طُبِعَ واشتهرَ باسم «هل المسلم ملزمٌ باتِّباع مذهب معيْن؟» .

(١) وذكر أنه مطبوع في مكة .

(٢) وكرَّر ذكره ناضحاً به في (ص ١٤٩) ، وذكر (ص ٣٦٠) أنه مطبوع في مصر .

(٣) وذكر أنه مطبوع في مصر .

(٤) وذكر أنه مطبوع في الصين ، وقال في (ص ٣١٧) أنَّ طبعه كان في سنة

١٣٥٠هـ .

وانظر (ص ٥٥ - ٥٦) من كتابنا هذا؛ ففيه ذكر شيء أيضاً عن مؤلفاته .

ومن عجب إنكار بعض المقلِّدين - كالبوطي - لهذا الكتاب ، بل لشخصيَّة مؤلفه!

قلت: ولعلِّي في مقام آخر - إن شاء الله - أطوِّل في ترجمة المعصومي ، وذكر آثاره ، والتنبية على مآثره .



رفيع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

تَمْيِيزُ الْمَحْظُوظِينَ عَنِ الْمَحْرُومِينَ

[في تَجْرِيدِ الدِّينِ وَتَوْحِيدِ الْمُرْسَلِينَ]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي أَوْجَدَنَا مِنَ العدم ، وَجَعَلَنَا أَهْلًا لِفَهْمِ خُطَابِهِ وَكَلَامِهِ ،
فَنَحْنُ الْمُخَاطَبُونَ بِخُطَابِهِ عُمُومِيًّا وَخُصُوصِيًّا :

فالعموميُّ شاملٌ لكلِّ بني آدَمَ مِنْ عَرَبٍ وَعَجَمٍ ، مَا دَامَ عَاقِلًا بِالْعَاقِلِ ، وَلَا
يُخْرِجُ مِنْهُ إِلَّا الصَّبِيَّانَ وَالْمَجَانِيْنُ .

وَأَمَّا الْخُصُوصِيُّ ؛ فَمُخْتَصٌّ بِالْمُؤْمِنِيْنَ الَّذِينَ تَشَرَّفُوا بِشَرْفِ الْإِيمَانِ ،
وَصَارُوا مِنْ أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ سَيِّدِ الْإِنْسِ وَالْجَانِّ ﷺ ، وَخَارِجٍ مِنْهُ غَيْرُ
الْمُؤْمِنِيْنَ مِنْ جَمِيعِ أَصْنَافِ الْكُفَّارِ ؛ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمَجُوسِ وَالْمُشْرِكِيْنَ
وَالذُّهْرِيِّينَ الْأَشْرَارِ .

أَمَّا بَعْدُ ؛ فَهَذَا أَنَا عَبْدُ اللَّهِ ، الْفَقِيرُ إِلَيْهِ جُلٌّ وَعَلَا ، أَبُو عَبْدِ الْكَرِيمِ . وَأَبُو
عَبْدِ الرَّحْمَنِ ، مُحَمَّدٌ سُلْطَانُ الْمَعْصُومِيَّ الْخُجَنْدِيَّ ثُمَّ الْمَكِّيَّ ؛ إِنِّي حِينَمَا كُنْتُ
فِي الطَّائِفِ مُتَصِفًا عَامَ ١٣٦٥ هـ كُنْتُ أَتْلُو كِتَابَ اللَّهِ الْقُرْآنَ مُتَذَبِّرًا مَعَانِيَهُ ، إِذْ
تَبَيَّنَ لِي قِصُورُ بَنِي آدَمَ بِسَبَبِ جَهْلِهِمْ بِمَعَانِيِ كَلَامِ رَبِّهِمْ ، فَلَهَذَا ضَلُّوا وَأَضَلُّوا
كَثِيرًا .

ولا شك أنَّ سبب الضلال عدم فهم كلام ربِّ العالمين الذي أنزله الله تعالى لإهداية جميع العالمين، والحال أنَّهم مخاطَبون ومكَلَّفون بفهمه وتدبره والعمل بالاعتاط به.

فها أنا أدكرُ هنا أولاً الخطابَ الإلهيَّ العموميَّةَ الموجهةَ إلى عموم البشر وكافة بني آدم عرباً أو عجماً، فهم كلُّهم مكَلَّفون بفهم هذا الخطاب، وامتنثال هذا الأمر، والرَّبِّ العليم الحكيم ناداهم أمراً بإِثامهم بالتقوى والتَّوحيُّد، وأن لا يعبدوا إلهاً إلَّا إيَّاهُ.

فيجبُ على كلِّ إنسانٍ عاقلٍ بالغٍ تعلُّم القرآن وفهم معناه والعمل بمقتضاه، ولا يُعذَّر أحدٌ في ترك ذلك، سواء كان عربياً أو عجمياً أو فارسياً أو تركياً أو رومياً أو هندياً أو جاوياً^(١) أو حبشياً أو صينياً أو جابانياً أو أمريكياً؛ لأنَّه يلزم حبشيد إهمال خطاب الله ربِّ العالمين وأمره، أو نسبة الجهل إلى الله الرِّبِّ الحكيم، حيث خاطَبَ ونادى وأمرَ من لا يستأهل الخطاب ولا يفهم، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

وعلى هذا أوجب الشَّارِع طلب العلم^(٢) على كلِّ مكَلَّفٍ كما هو مقررٌ في

عامَّة الكتب الإسلاميَّة الدينيَّة، وما لا يتِمُّ الواجبُ إلَّا به؛ فهو واجب^(٣). فتعلَّم القرآن وفهم معناه واجبٌ على كلِّ إنسانٍ، خصوصاً المسلمون؛ فإنَّهم هم المخاطَبون بخطاباتٍ خاصةٍ لهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، فتدبر.

وما شاع وداع فيما بين متأخري أدعياء العلم من المسلمين من أنَّ فهم القرآن والعمل به مختصٌّ بأهل الاجتهاد، وهم قد انفرَضوا منذ عهد بعيد؛ فيمن أبطل الباطل وأفسد الفاسد، إنَّما دسَّ هذه العقيدة الفاسدة أعداء الإسلام؛ لإبعاد المسلمين عن معرفة كلام ربِّهم، فصاروا بذلك محرومين من فهم كلام ربِّهم العليم الحكيم، وقد صرفوا كلَّ أعمارهم في دراسة الفلسفة، وجحمة الهند واليونان، ومباحث الإشراقيين والمُشائين^(٤)، وأفكار ابن سينا^(٥)

(١) انظر فوائد مهمَّة متعلِّقة بهذه القاعدة الفقهيَّة في كتابي «الدعوة إلى الله بين التجنُّع والحزبي والتعاون الشرعي» (ص ١١٨ و ١١٩)، نشر المكتبة الإسلامية عمان.
(٢) الإشراقيون: هم أصحاب المكاشفة (١). والمُشائون: هم أصحاب البحث والقياس العقلي، وسدوا بذلك لأن زعيمهم وسيد طريقتهم - وهو أرسطو - كان يعلم تلاميذه وهو يشي معهم (١).

وانظر: «رسائل الإصلاح» (١ / ١٩١) للعلامة محمد الخضر حسين.
(٣) قال الذهبي في «سير أعلام النبلاء» (١٧ / ٥٣٥): «... وهو رأس الفلاسفة الإسلامية، لم يأت بعد الفارابي مثله، فالحمد لله على الإسلام والسنة، وله كتاب «الشفاء وغيره، وأشباه لا تحتمل، وقد كفره الغزالي في كتاب «المقصد من الضلال» وكفر الفارابي» اهد.

وانظر كلام شيخ الإسلام ابن تيمية في ابن سينا ضمن كتابه «دره تعارض العقل والنقل» (١ / ٨ - ١٠).
توفي سنة ثمان وعشرين وأربع مئة.

(١) جاوة: الجزيرة الأكثر سكاناً في إندونيسيا، وفيها عاصمتها.

(٢) كما في قوله ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم»، وهو حديث حسن بمجموع طرقه الكثيرة.
والإمام السيوطي رحمه الله جزء مفرد في تخريجه، طبع بتحقيق سنن نحو ثلاث سنوات، وانظر ما سيأتي (ص ٢٢٥ - ٣٢٦).

والفسارابي^(١)، ودراسة «ديوان» المتنبي^(٢) وابن الفارض^(٣)، وأهل بخارى بـ «ديوان» ميرزا عبدالقادر البيلده^(٤) الذي يقول بأن أصل الإنسان القرد^(٥)، ورباعيات الخيام^(٦) الرندي، أو بالضرير والنحو والبيان^(٧)، ولكن لم يصلوا إلى المقصد الأصلي من فهم كتاب الله وأحاديث رسول الله ﷺ والعمل بهما، فبذلك ضيعوا أعمارهم، وأفسدوا أعمالهم، وأبطلوا عقائدهم، فصاروا من المحرومين من السعادتين: سعادة الإيمان الصحيح في الدين، وسعادة الدنيا من الخلافة الإسلامية فيما بين العالمين، وإن ادعوا واعتزوا بأنهم مسلمون

(١) قال الذهبي في «السير» (١٥ / ٤١٧): «له تصانيف مشهورة، من ابنتي الهدى منها؛ ضلّ حجاز، منها تخرج ابن سينا، نال الله التوفيق».

توفي سنة تسع وثلاثين وثلاث مئة.

(٢) هو أحمد بن الحسين الكوفي، توفي سنة أربع وخمسين وثلاث مئة.

قال التنيني: «خرج المتنبي إلى بني كلب، وأقام فيهم، وزعم أنه علوي، ثم تنبأ [أي: ادّعى النبوة] فافضح، وحبس دهرًا، وأشرف على القتل، ثم تاب».

نقله الذهبي في «السير» (١٦ / ٢٠٠).

و«ديوانه» مشهور، فيه شعر فائق.

(٣) هو من كبار منصرفي الصوفية، انظر نبذة عنه في تعليق على «الفارق بين المصنّف والسارق» (ص ٦١) للسيوطي، نشر دار الهجرة، الدمام.

(٤) من شعراء العجم المتأخرين، وإنما ذكره المصنّف لأنه بلديّ.

(٥) كما هي نظرية دارون البائدة الباردة!!

(٦) قال الزركلي في «الأعلام» (٥ / ٣٨): «وقدح أهل زمانه في عقيدته».

وتوفي سنة خمس عشرة وخميس مئة.

وقد ألف بعض المعاصرين رسالة سبّأها وعمر الخيام بين الكفر والإيمان، فلتنظر.

(٧) مفسّحين زهرة أعمارهم في تشييع فروع ودقائقه. وقد أشار إلى هذا إشارة حسنة الحافظ ابن رجب الحنبلي في «فضل علم السلف» (ص ٢٤ - بحقيقته)، فلتنظر.

وعلماء وسادات ومشايخ، بل أقطاب وأتاد وأبدال ونُجباء^(١)، كما هو غير خفي على أولي الألباب.

والمحظوظون إنما كانوا المسلمين الأولين من الصحابة والتابعين وتابعيهم، الذين اتفقوا سنة رسول الله ﷺ، فنالوا رضى الله، حتى رضى الله عنهم ورضوا عنه، فنالوا خلافة^(٢) في الأرض، ورفعوا علم الإسلام في شرق الأرض وغربها، مع ما نالوا من الأجر والغنيمة، فهم المحظوظون من الإيمان والإسلام بالحظ الأوفر.

وأما المتأخرون، الذين قرعوا دينهم، وكانوا شيعة، وصاروا مذاهب وفرقا، واكتفوا بأراء الرجال، واعتمدوا عليها، واتخذوهم أئدادا من دون الله، فبذلك صاروا محرومين من فهم أوامر ربهم، وتباعدا عن الحق بعذ الشرفين، وقد صاروا محرومين من خلافة الأرض كما صاروا محرومين من فهم كلام ربهم ودراسته، بل صار أكثرهم محروما من الإيمان الصحيح وتوحيد الله ورب العالمين ربوبيّة وإلهيّة وأسماء وصفات، وبدلوا ذلك بالشرك والإلحاد، وعبادة الأرواح والقبور والأجساد، فتبّيه وتدبر هذا الله عز وجل.

وإنّي أذكر هنا أولاً الخطابات والأوامر الإلهيّة القرآنيّة الموجّهة إلى عامّة بني البشر ليظهر لطلاب الحق الصواب من الخطأ، والحق من الباطل،

(١) وهذه هي القاب الصوفية ودرجاتهم، وكلّها مبتدعة لا أصل لها.

(٢) وهذا اللفظ ليس دقيقاً، فإن لفظ (الخلافة) يستلزم غياب الخلف.

ينظر تفصيل هذا الإجمال في «مجموع فتاوى ابن تيمية» (٢ / ٤٦١)، والسلسلة الضعيفة (١ / ١٢٠)، و«معجم المناهي اللفظية» (ص ١٥٦).

رفع
عبر الرمح (السجري)
أسسه (الله النوروزي)

فيرجعوا إلى أصل دينهم، فبالوا رضى ربهم في الدارين.

ولَقَبْتُ ما نويتُ جُمُوعاً: «تمييز المحظوظين عن المحرومين».

فَأَسْأَلُ الله تعالى الكريم الوهاب أن يُوفّقني للعمل به، ويجعله خالصاً
لوجهه الكريم، وأن يَنْقُضَ به العبادَ في عامّة البلاد، فهو حَسْبِي ونعم الوكيل.

●●●●●

[فصل]

الآيات والخطابات القرآنية الموجهة إلى عامّة البشر

الآية الأولى في سورة البقرة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ
وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ . الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً
وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ
تَعْلَمُونَ﴾^(١)

اعلم أن الله تعالى ربّ العالمين نادى وخاطبَ عامّة الناس عريهم
وعجمهم كلّهم، وأمرهم أن يعبدوا ربهم الذي خلقهم وخلق جميع من قبلهم
من الأنبياء والأولياء، فخالق الكلّ واحد لا شريك له، وكلّ الناس من أولهم
إلى آخرهم؛ صالحيهم وطالحهم، مؤمنهم وكافريهم؛ مخلوقون مربوبون،
ومحتاجون إلى الله خالقهم ورازقهم في حياتهم وموتهم أبداً.

فإن كان هكذا؛ فلا معبود إلّا الله^(٢)؛ كما أنه لا خالق إلّا الله، ولا رازق
إلّا الله، ولا مُصَرِّف في الكون حقيقة إلّا الله عز وجلّ وحده.

(١) البقرة: ٢١ - ٢٢.

(٢) الأدق أن يُقال: لا معبود بحقّ إلّا الله؛ إذ المعبودات الباطلة كثيرة!

ثم رأيت تصحيحها في قائمة التصحيحات (ص ٢٦٩) من الطبعة الأولى.

﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾، ولا تظنُّوا - فضلاً عن أنْ تعتقدوا - أنَّ الملائكة تُربِّكم أو تضرِّكم أو تنفعكم، أو أنَّ الأنبياء أو الأولياء أو أرواحهم يربُّونكم أو ينفعونكم أو يضرونكم أو يشفعون لكم يوم القيامة بنفسيهم بدون إذن الله وأمره.

فإنْ كان الأمر هكذا؛ فلا تحبُّوا إلَّا الله، ولا ترجوا إلَّا الله، ولا تخافوا إلَّا الله، ولا تدعوا إلَّا الله، ولا تطلبوا إلا من الله، ولا تنذروا إلا الله؛ لأنَّ الله ربُّكم الذي خَلَقَكُمْ بأمره حي لا يموت أبداً، وهو أقرب إليكم من حبل الوريد؛ يجيب الدُّعوات، ويقضي الحاجات، ويرزق من يشاء بغير حساب.

فالنَّاسُ كلُّهم مخاطَبون بهذه الآية وما شأنُها، فأمرهم الله تعالى جميعاً بأنْ يعبدوه وحده، ويؤمنوا بأنَّه الإله الحقُّ والمعبود الحقُّ وحده، فمن لم يعبد الله وحده ولم يؤمن بأنَّه المعبود الحقُّ وحده؛ فهو كافر بالله العظيم، يستحقُّ عذاب جهنَّم ويُسَمَّى المصير.

فحيثُ خاطَبهم الله تعالى وناداهم مسماً إِيَّاهم ناساً؛ فكلُّ البشر ناسٌ - سواء كان عرباً أو عجماً؛ فارسياً تركياً هنديةً رومياً صينيّاً حبشياً روسياً جابانياً - أمريكيّاً، - يجب على كلِّ واحدٍ منهم أنْ يعرفَ هذا الخطأ؛ لأنَّهم أهلٌ لمعرفة ذلك، ولؤلُهم تكونوا أهلاً؛ لَمَا خاطَبهم الله تعالى أصلاً، فمن لم يعرفَ هذا الخطأ؛ فقد ضلَّ أهليَّته، أو خرج عن دائرة الإنسانيَّة، وأدخَلَ نفسه في حظيرة الحيوانيَّة، وليس بداخلٍ في تلكِ الحظيرة أصلاً، فمِمَّنْ هذا يتمنَّى يومَ القيامة أنْ يكونَ تراباً كالحيوانات^(١)، وليس بصائرٍ.

(١) وفي ذلك عدة آثار موقوفة ومقطوعة، انظرها في «الدر المنثور» (٨ / ٤٠١ - ٤٠٢)، وليس في المرفوع شيء منه.

والإنسانُ لَهُ أهليَّةٌ للتعلُّمِ والتعليم، فلماذا جعله الله تعالى أهلاً للخلافة في الأرض، وسخَّرَ لَهُ ما في السَّمَاوَاتِ وما في الأرض، فلماذا نرى سلمانَ الفارسيَّ وبلالَ الحبشيَّ وصهيباً الرُّوميَّ وأمثالهم من الأعاجامِ رضيَ اللهُ عَنْهُمْ قد نالوا الدرجةَ العليا بالإيمانِ باللهِ ورسوله، ومعرفة الحقيقةِ بمعرفة كلامِ ربِّهم وكلامِ رسولِ الله ﷺ.

وكذلك الإمامُ محمد بنُ إسماعيلَ البخاري، ومسلم بنُ الحُجَّاجِ النيسابوري، وأبو عبد الرحمن السَّائي، وأبو داود السَّجِسْتاني، وأبو عيسى الترمذِيُّ^(٢)، والإمامُ أبو حنيفة النعمانُ، وغيرهم؛ كلُّهم من الأعاجامِ^(٣)، رحمهم اللهُ تعالى ورضيَ عَنْهُمْ، تعلَّموا العربيَّة، واشتغلوا بعلوم القرآن والحديث، فبلغوا الدُّرَّةَ العليا من الكمال.

فالإنسانُ من حيثِ إنَّه إنسانٌ أهلٌ لذلك بلا ريبٍ، ولكنَّه هو الذي ضلَّعَ أهليَّته، وصرَّفها في السَّفاسِفِ والتَّرهاتِ.

ألا ترى الذين اشتغلوا طويلاً عَنْهُمْ بدارسة كُتُب الصُّرَفِ والنُّحو والبيان، وفلسفة الهند واليونان، أو بدواوين الشعراء والألغاز والمعانيات، ودَقَّقوا تدقيقاً، وألفوا وأبدعوا إبداعاً، ولكنْ خرجوا عن الحقِّ خروجا، فسلُّوا وأصلُّوا كثيراً.

لماذا؟ لأنَّهم لم يصفروا تلكِ الأهليَّةَ لمعرفة كلامِ الله وكلامِ رسولِهِ حقَّ المعرفة، بل تَفَلَّسُوا وتَوَلَّوْا وتَجَوَّزُوا، فحَرَّفُوا تحريفاً، وبدَّلُوا تبديلاً، وغيرُوا

(١) وجميعهم من أئمة الحديث وحفَّظ الآثار.

(٢) ليسوا جميعاً كذلك، فمنهم من نُسِبَ إلى بلدة أعجميَّة؛ لتزوله فيها، لا لكونه أعجمياً، بل هو عربيٌّ أصيلاً.

تغيراً؛ مَسْمِينِ إِيَّاهُ تَأْوِيلًا!!

والله العظيم ؛ إنهم لو استعملوا تلك الأهلِيَّة في معرفة خطابات ربهم ؛ لعرفوا الله تعالى حق المعرفة، فعبدوه وحده لا شريك له، ولَعَرَفُوا حَقَائِقَ الأشياء كما هي، وسَخَرُوا الْعَالَمَ حَسْبَ سَيِّئِ اللَّهِ تَعَالَى فِي خَلْقِهِ كَمَا لَا يَخْفَى، فليس للإنسان إلَّا ما سَعَى .

فهذا هو دينُ العدالةِ ودينُ المساواةِ ودينُ الحُرِّيَّةِ كما أنَّه دينُ التوحيدِ ؛ لأنَّ كلَّ إنسانٍ يعاملُ بني جنسِهِ بِالْعَدْلِ، ويعدُّهُ كَنَفْسِهِ؛ لأنَّهُ إنسانٌ مثله، فيحبُّ له ما يحبُّ لنفسِهِ، ولا يظلمُهُ ولا يخذله ولا يخدعُهُ، و«كُنَّا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا»^(١) يكونُ شعارَهُ، ويعتقدُ كلُّ واحدٍ منهم أنَّه عبدٌ للهٍ مهما بلغَ مِنَ الكمالِ :

فالملائكةُ عبيدٌ للهٍ ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾^(٢).

والأنبياء والرُّسل عبيدٌ للهٍ، يُلْعَنُونَ إِلَى النَّاسِ أَوَامِرَ رَبِّهِمْ.

وكذا الأولياء والصديقون عبيدٌ للهٍ؛ يَعْمَلُونَ بِأَمْرِ رَبِّهِمْ ما استطاعوا.

فالكلُّ في عبودِيَّةِ اللَّهِ تَعَالَى سواء، وإنَّما الفرقُ في تقوى اللَّهِ وإستِمالِ الأمرِ، فهم عبادٌ مطيعون لربِّهِمْ، وأَمَّا الْكُفَّارُ وَالْفَجَّارُ؛ فعصاةُ مَخْلُوقِينَ لِأَمْرِ رَبِّهِمْ.

فحيثُ إنَّهم في العبوديَّةِ سواء، فلا يَتَعَبَّدُ أَحَدٌ أَحَدًا، ولا يعتقدُ أَحَدٌ في

أحدٍ - سواءَ كانَ حَيًّا أو مَيِّتًا - أنَّه يحييه أو يُمَيِّتُهُ أو يَرْزُقُهُ أو يَهْدِيهِ أو يَدْخِلُهُ الْجَنَّةَ أو يَنْجِيهِ مِنَ النَّارِ أو يُعْطِيهِ الْوَلَدَ أو نَحْوَ ذَلِكَ؛ فهذا هو المساواةُ؛ مساواةُ المخلوقِ مع المخلوقِ في العبوديَّةِ لله تَعَالَى، وهذا هو الحُرِّيَّةُ؛ يكونُ الإنسانُ حُرًّا في عقيدته، وحرًّا في إنسانيَّتِهِ وأَعْمَالِهِ، ولا يكونُ مُقْتَدًّا وَعَبْدًا في عقيدته وأَعْمَالِهِ لعبدٍ مثله، بل إنَّما يكونُ عبدًا لله الذي خَلَقَهُ، فلا يعبُدُ إلَّا إِيَّاهُ، ولا يخضعُ إلَّا لَهُ، ولا طاعةَ لمخلوقٍ في معصيةِ الخالقِ.

ولهذا قال اللهُ تَعَالَى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ؛ مِنْ الْمَلَائِكَةِ وَالْكَرُوبِيِّينَ^(١) وَالْأَنْبِيَاءِ وَالْجِنِّ، فلا تعبدوهم ؛ لأنَّهم مخلوقون مثلكم .

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ عَنِ الْإِشْرَاقِ بِرَبِّكُمْ، وتجنَّبون عبادةَ مخلوقٍ مثلكم، فإذا اتَّقَيْتُمْ عَن ذَلِكَ؛ وَتَقَاتُمُ اللَّهَ تَعَالَى عَنِ الشُّرْكِ وَالْكَفْرِ، وَتَقَاتُمُ عَذَابَ النَّارِ يَوْمَ الْفَرَارِ، وَتَجَاكُمُ مِنَ الذَّلَّةِ تَحْتَ سِيطَرَةِ الْأَشْرَارِ.

فيا أَيُّهَا النَّاسُ ! لا تجعلوا لله أنداداً تُجَاهِدُونَهُمْ كُحْبَ اللَّهِ، أو تعتقدون أنَّهم ينفعونكم أو يضرونكم، فتتذرون لهم ولمشاهِدِهِمْ ومراقِبِهِمْ، وتستغيثون بهم، والحالُ أنَّكم أنتم بأنفسكم تملعون قِيَمًا أَنَّهُمْ مخلوقون مثلكم، لا يقدرُونَ لأنفسِهِمْ نفعاً ولا ضرراً، وهم - ولو كُتِبُوا قَد بَلَّغُوا أَعْلَى الدَّرَجَاتِ - قد ماتوا وَتَحَوَّلُوا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا إِلَى عَالَمِ الْبَرْزَخِ، وَمِنْهُ سَيَحْيَوْنَ إِلَى عَالَمِ الْآخِرَةِ^(٢) وفيهم حديثٌ ضعيفٌ جداً؛ خَرَّجَهُ شَيْخُنَا الْأَلْبَانِي فِي «السَّلْسَلَةِ الضَّعِيفَةِ»

(٩٢٣)، فليراجع.

وإنما ذكرهم المصنِّف - والله أعلم - لكونهم يُذَكِّرُونَ عِنْدَ مَشَائِخِ بِلَدِهِ وَعَامَّةِ النَّاسِ

عنده!

(١) رَوَاهُ: الْبُخَارِيُّ (١٠ / ٤٠٣)، وَمُسْلِمٌ (٢٥٠٩)؛ عَنِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، وَأَوَّلُهُ:

«لَا تَحْسَدُوا، وَلَا تَدَابُرُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا...».

(٢) التَّحْرِيمُ: ٦.

دارِ الجِزَاءِ، ففريقٌ في الجنة وفريقٌ في السعيرِ.

فانظر يا أيُّها الإنسان إلى هذه الخطاباتِ الرُّبَائِيَّةِ، قد ناداك وخاطبتك، فأمرتك ونهاك، وأرشدك إلى ما فيه خلاصُك وسعادتك في دنياك ودنياك، وأعطى لك العقلَ، وجعلك مخاطباً ومكلفاً به، وميزك عن سائرِ الحيواناتِ بهذا العقلِ والخطابِ والتكليفِ، فإذا لم تُصِغْ إلى كلامِ ربِّك ولم تفهمْ خطابَ مولاك؛ فأنت أجهلُ الجاهِلِينَ، وأحسرُ الخاسِرِينَ، ولا ينفعُك ما تعلَّمتُ ما تدرستُ من فلسفتِكَ وأشعارِكَ والغازكِ ومُعْياتِكَ، ولا سُلطَتِكَ وأموالِكَ.

والله العظيم؛ لو تعلَّمتُ كلَّ يومٍ كلمةً كلمةً من كلامِ ربِّك؛ لكان ما تتعلَّمُ في الشهرِ ثلاثين كلمةً، وفي السنة ثلاث مئة وستين كلمةً.

فإذا عَلِمْتَ مثلاً معنى فاتحةِ الكتابِ وفهمتَ فهماً صحيحاً؛ كنتَ مؤمناً موحداً خالصاً، وتخلَّصتَ من داءِ الشُّرُكِ والضلالِ، وصيرتَ من الفالِحينَ.

وهل يظنُّ أحدٌ أن خطابَ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُم﴾ خاصٌّ بالعربِ، أو أنَّه خاصٌّ بالمجتهدين والعلماءِ؟! ولا يظنُّ هذا إلا مجنونٌ، أو جهلٌ الشَّيْبِيُّ إلى العلمِ من الأحنافِ ومن شاكلهم، فالخطابُ عامٌّ شاملٌ لكلِّ البشرِ؛ كما أنَّ وجوبَ الإيمانِ باللهِ ورسوله محمدٍ ﷺ وكذا عبادته تعالى عامٌّ شاملٌ لكلِّ البشرِ، فمن آمن باللهِ ورسوله، وعَلِمَ خطابهُ؛ فقد فازَ فوزاً عظيماً، وأما من جهلَ ذلك؛ فقد خسرَ خسراناً شديداً.

فاية ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُم﴾ مسوقةٌ لإثباتِ التَّوْحِيدِ، وتحقيقِ نبوةِ محمدٍ رسولِ اللهِ ﷺ، اللَّذِينَ هُمَا أَصْلُ الْإِيمَانِ.

والنِّدَاءُ عامٌّ لكلِّ البشرِ، يشملُ المؤمنينَ والكافرينَ والمُنافِقِينَ والمُشارِقَةَ

والمُغَارِبَةَ.

﴿اعْبُدُوا رَبَّكُم﴾؛ يَقُولُ لِلْكَفَّارِ والمُشْرِكِينَ: وَحَدُوا رَبَّكُم، ويقولُ للمُعاصِبِينَ: أَطِيعُوا رَبَّكُم، ويقولُ لِلْمُنافِقِينَ: أَخْلِصُوا بِالتَّوْحِيدِ معرفةَ رَبَّكُم، ويقولُ للمُطِيعِينَ الْمُؤْمِنِينَ: اثْبُتُوا عَلَى الْإِيمَانِ وَطَاعَةِ رَبَّكُم.

واللَّفْظُ مُحْتَمِلٌ لهذهِ الوجوه كلها، وهو من جوامعِ الكلامِ، فالأولونَ والآخرُونَ مخاطَبُونَ بالأمرِ بالتقوى، فحيثُ إِنَّ النَّاسَ كُلَّهُم مخاطَبُونَ؛ يَجِبُ عَلَيْهِمْ وَجوباً عينيّاً فهمُ هذا الخطابِ، فمن لم يطلبْ فهمَ الخطابِ؛ فقد أخرجَ نفسه عن صفتهِ الْإِنْسَانِيَّةِ، وصارَ كالحيوانِ في صورةِ إنسانٍ، فهؤلاءِ هُمُ الْخَاسِرُونَ.

وتَأْتِلُ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ سورةُ العصرِ؛ فَإِنَّهَا تَكْفِيكَ فِي كُلِّ شُؤْنِكَ، وتُرشدُكَ إلى نجاتِكَ وسعادَتِكَ، وتبينُ لك حالَكَ أَنْتَ مِنَ الْفَالِحِينَ أَوْ مِنَ الْخَاسِرِينَ.

فعليك بهذا الميزانِ الإلهيِّ، فزِنْ بِهِ فِي كُلِّ أَنْ تَنفَسَ، وعليكَ بالفهمِ والتَّفَهُمِ، واللهُ يَتَوَلَّى هَذَاكَ.

الآيَةُ الثَّانِيَّةُ فِي سورةِ البقرة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِنَّمَا فِي الْأَرْضِ حَلَالاً طَيِّباً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ . إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ . وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ﴾^(١).

لا شكَّ أَنَّ هذا الْخُطَابَ الْإِلَهِيَّ وَنِدَاءُ عامٌّ شاملٌ لَكافةِ البشرِ شرقاً

(١) البقرة: ١٦٨ - ١٧٠

وغرباً، ولا تختص به طائفة دون طائفة؛ فضلاً عن العرب خاصة؛ كما يزعم بعض الناس، فلكل الناس خلق الله الأرض كلها؛ شرقها وغربها، وسهلها وجبالها، فكل بني البشر مخاطبون به؛ سواء كانوا عرباً أو عجماء؛ لأنهم يأكلون مما في الأرض من الأرزاق، فأمرهم أن يأكلوا من الحلال الطيب.

ولا شك أن كل ما خرج من الأرض من الأرزاق فهو حلال طيب، وإنما الإنسان الجاهل يُحبُّه ويُحبُّه؛ كأنخذه العنب أو الحب خمرًا، أو غصبه أموال الناس وأرزاقهم.

ولهذا نهى الله تعالى عن اتباع خطوات الشيطان، وأمرهم أن يجتنبوا؛ لأن الشيطان يريد هلاك [بني] الإنسان وإهلاكهم؛ لأنه عليه اللعنة عدو مبين لبني آدم أجمعين.

ومن شأن الشيطان وخصائصه أنه يأمركم أيها الناس بالسوء والفحشاء؛ أي: ما يؤول ويُنَجِّع عاقبته السوء، وأنه يأمركم أيها الناس أن تقولوا على الله ما لا تعلمون؛ بأن تجلوا شيئاً، أو تحرموا شيئاً، أو توجبوا شيئاً، بلا استناد إلى دليل شرعي من كتاب الله أو سنة رسول الله ﷺ، مثل أن تقولوا: إن الإشارة بالسبابة^(١) في تشهد الصلاة حرام؛ كأكثر جهلة الأحناف؛ أو إن في عمل الموالد^(٢) ثوباً، أو إن قراءة «اللائل الخيرات»^(٣) فيها ثواب كذا وكذا، أو إن بناء

(١) ولي رسالة - كتبها قديماً - في هذه المسألة، اسمها: «قطع التردد في كيفية الإشارة في التشهد»، يسر الله لي نبضها ونشرها.
(٢) انظر: «المورد في عمل المولود للفاكهاني بتعليقي، نشر مكتبة المعارف، الرياض.

(٣) وهو كتاب مديح!! ملئ غلوًا وكفرًا وضلالاً والعباد بالله، وللشيخ عبدالله =

القبب على قبور الأولياء خير ثواب، أو إن التقليد بمذهب معين^(١) من المذاهب الأربعة لازم...

أو نحو ذلك، فكل هذا تقول على الله بلا علم ولا دليل.

فإذا قيل لهم: أتبعوا ما أنزل الله على رسوله محمد ﷺ، واتركوا ما أنتم عليه؛ من أمور الجاهلية، وتقليد من مضى من الناس في عبادة الأوثان، واتخاذ الأنداد، والاعتماد على الأرواح أو الاستمداد منها، والتوجه إلى القبور، والتذير إليها، وتقبيلها، وإسراج السُّجج عليها، وتقليد غير المعصومين في الدين، والتعصب للمذاهب والطرق؛ أجابوا قائلين: بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا، وما ألفيناهم عليه؛ لأنهم أعلم منا ومنكم. فقل لهم: أولئك آباؤكم لا يقولون شيئاً من كتاب الله ولا يعلمون شيئاً من سنة رسول الله ﷺ، بل ولا يهتدون إليه؛ لأن التقليد أعمى بصرتهم ويصيرتهم، والشياطين من الإنس والجن قد تصرفوا فيهم تصرفاً كلياً، فوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً؛ بأن يقول: إن الولي الفلاني فعل كذا، وإن القطب الفلاني استرد أرواح مريديه من يد قابض الأرواح عزرائيل^(٢) عليه السلام، وإن فلاناً العالم اعترض على المعارف الفلاني فصار كذا؟!!

فهؤلاء الذين لا يعرفون من الإسلام إلا اسمه، ولا من القرآن إلا رسمه

= الدُّويش رحمه الله تعالى نقد فضّل له تحت الطبع.

(١) والمصنف رسالة «هدية السلطان إلى مسلمي بلاد اليابان»، مطبوعة مراراً، آخرها تحقيق آخينا سليم الهالبي، وانظر مقدمة كتابنا هذا (ص ١٤).

(٢) لم يصح في السنة حديث في تسمية ملك الموت عزرائيل. انظر: «معجم الناهي المفظة» (ص ٢٣٨).

وَحُطُّهُ، يُطَيَّنُونَ بِكَلِمَاتِهِ، فالعوالم يصدِّقون هؤلاء الشياطين، فيقلِّدونهم في كلِّ ما قالوا من الباطل.

فيا أيُّها الإنسان! من حيث إنَّكَ إنسانٌ قد خاطَبَكَ رَبُّكَ العليمُ الحكيمُ بـ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾، فعليك أن تفهمَ خطابَ رَبِّكَ الموجَّهَ إليك؛ لأنَّكَ أهلٌ لذلك، فعليك بتعلُّمِ اللِّغةِ العربيَّةِ الفُصْحى، والاعتناء بالفهم والتفهيم، حتى تصيرَ إنساناً كاملاً، وتنال السعادة دينا ودنياً وأخرى، فنعيش حراً سعيداً، ونُخلِّص من الأغلال والسلاسل؛ أغلال الدُّجاليِّين والأباليِّس، وسلاسل المستعمرين والمستعبدين.

ويجب على سلاطين أهل الإسلام وأمرائهم ورؤسائهم وعلماهم وأغنيائهم الاعتناء الثَّام الكفِّي بتعليم عِلْمِ القرآن ولِغَتِهِ، وجعل التعليم فيه إجبارياً؛ حتى يعرف المسلمون أوامر ربهم وخطاباته الموجَّهة إليهم.

ألا ترى أنَّ الحكومات المتمدِّنة ذات الشَّأنِ اليومَ كيف تجتهد لجعل لِقَبتها وخطُّها عمومياً بين رعاياها، بل في العالمِ كُلِّهِ، وتصرف لذلك ملايين الملايين كلِّ عامٍ، فتُحَصِّل مفاصلها الدنيويَّة السياسيَّة، وتُقيِّد عقائد المسلمين إنساداً؟!

فالويلُ كلِّ الويل على المسلمين وعلماهم من هذه الغفلة، ومن هذا الكسل والجهالة، أليس كلُّنا راعياً وكلُّنا مسؤولٌ عن رعيته؟!

الآية الثالثة في أوَّل سورة النَّساء: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَنَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا

اللَّهُ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (١).

خطابُ عالمٍ ليسَ خاصّاً بقومٍ دونَ قومٍ، ولَفَقَطُ «النَّاسُ» اسمٌ لجنس البشر.

وقد اتَّفَقَ الأصوليون من المفسِّرين على أنَّ الخطابَ (٢) عالمٌ لجميع المكلفين، وهذا هو الأصحُّ، ولا وَجْهَ لتخصيص بعض المفسِّرين بأهل مَكَّة، والأصلُ أنَّ (ال) في «النَّاسِ» للاستغراق، وأنَّ جميعَ النَّاسِ مخلوقون بخلقِ اللهِ ومأمورون بالتقوى.

والتقوى هي الإيمان بالله عزَّ وجلَّ، وأنَّ تقِيَّ وتَحَفَّظَ نَفْسَكَ مِنَ اللهِ؛ أي: من غَضَبِهِ وَسَخَطِهِ وَعَقُوبَتِهِ.

ولا يَتيسَّرُ بل ولا يُمْكِنُ هذا إلا بعد معرفته ومعرفة ما يُرضيه وما يُسَخِّطُهُ، ولا يَعْرِفُ هذا إلا مَنْ فَهَمَ كِتَابَ اللهِ تعالى فهماً صحيحاً، وعَرَفَ سُنَّةَ نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ معرفةً صحيحةً، وَعَلِمَ سِيَرَةَ سَلَفِ الْأُمَّةِ الصَّالِحِ؛ مُطَالِباً نَفْسَهُ بِالاهْتِدَاءِ بِذَلِكَ كُلِّهِ.

فَمَنْ صَبَرَ وصَابَرَ وربَّطَ؛ لأجلِ حمايةِ الحَقِّ وأهله، ونَشَرَ دَعْوَتَهُ، واتَّقَى رِيبَهُ في سائرِ شُؤْنِهِ؛ فَقَدْ أَعَدَّ نَفْسَهُ بِذَلِكَ لِلْفَلَاحِ وَالْقَوَرِ بِالسَّعَادَةِ عِنْدَ اللهِ تعالى.

النَّاسُ مِنْ جِهَةِ التَّمْثَالِ أَكْثَرُ أَيْسُوهُمْ آدَمُ وَالْأُمُّ حَوَاءُ (٣)

(١) النساء: ١.

(٢) انظر: «أضواء البيان» (١ / ٢١٨) للعلامة الشنيطي.

(٣) من آيات في الفقيه والفتاوى (٢ / ٧٧).

فيجبُ على كلِّ فردٍ فردٍ من أفراد النَّاسِ أَنْ يَقُوا رِئْهَمَ، وَيُؤْمِنُوا بِهِ، وَيَتَّبِعُوا أَمْرَهُ، وَيَعْرِفُوا كَلَامَهُ، وَهَذَا لَا يَخْتَصُّ بِشَخْصٍ دُونَ شَخْصٍ؛ فَاللَّهُ تَعَالَى يَسْأَلُهُمْ كُلَّهُمْ عَنِ الْإِيمَانِ بِهِ وَبِكِتَابِهِ وَمَعْرِفَتِهِ، وَإِنَّهُ تَعَالَى وَقِيبٌ بِصِيرٍ عَلِيمٌ خَبِيرٌ، فَيُجَازِي كُلَّ أَحَدٍ عَلَى نِيَّتِهِ وَعَقِيدَتِهِ وَعَمَلِهِ.

فَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ هَكَذَا؛ فَعَلَيْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَلَا تُعْذِرُونَ بتركِ تَعَلُّمِ الْقُرْآنِ وَفَهْمِ مَعْنَاهُ؛ كَمَا لَا تُعْذِرُونَ بتركِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ؛ لِأَنَّكُمْ الْمَكْلُفُونَ الْمُخَاطَبُونَ بِذَلِكَ.

تَعْلَمُ فَلَيْسَ الْمَرْءُ يُولَدُ عَالِمًا وَلَيْسَ أَخُو عِلْمٍ كَمَنْ هُوَ جَاهِلٌ

الآية الرابعة في أواخر سورة النساء أيضاً: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾. إِنَّ يَسْأَلُ يَذْهَبُ إِلَيْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِي بآخِرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا^(١).

أَيُّ: أَيُّهَا النَّاسُ! إِذَا عَلِمْتُمْ أَنَّ لِلَّهِ تَعَالَى جَمِيعَ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنَ الْمَوْجُودَاتِ وَالْمَخْلُوقَاتِ، فَهُوَ جَلُّ جَلَالِهِ يَتَصَرَّفُ فِيهَا كَيْفَ يَشَاءُ؛ فَاعْلَمُوا أَنَّ تَعَالَى إِنْ يَشَاءُ يَذْهَبُ بِعَذَابٍ يَنْزِلُهُ عَلَيْكُمْ؛ كَمَا أَنْزَلَ عَلَى قَوْمِ نُوحٍ وَهُوَ وَصَالِحٌ وَلَوْ طَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، أَوْ أُمَّةٍ قَوْمَةٍ يَسْلُطُهَا عَلَيْكُمْ، فَتَسَلَّتْ اسْتِقْلَالَكُمْ، حَتَّى تَجْعَلَكُمْ عِبِيدًا أَوْ كَالْعَبِيدِ لَهَا؛ لَا تَسْتَطِيعُونَ أَنْ تَقْرُمُوا بِإِقَامَةِ شَعَائِرِ دِينِكُمْ، وَلَا بِمَصَالِحِكُمْ، وَيَأْتِي بآخِرِينَ يَحِلُّونَ مُحَلِّكُمْ فِي الْوُجُودِ، أَوْ

(١) النساء: ١٣٢ - ١٣٣.

الحكم والتصرف؛ كَمَا سَلَطَ يُخْتَصِّرُ^(١) عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَكَمَا أَنَّ الْبَحَارَيْنِ وَالْخَوَارِزْمَيْنِ مِمَّنْ يَدْعُونَ الْإِسْلَامَ لَمَّا غِيرُوا أَمَارَ رِئْهَمَ عَقِيدَةً وَعَمَلًا سَلَطَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِمُ الرُّوسَ وَبِلَاشِقَةَ وَالْأَدْيِيَّةَ فَفَتَلَتْهُمْ وَأَهْلَكَتْهُمْ وَفَرَّقَتْهُمْ أَيْ تَفَرَّقِي، وَكَذَا أَهْلَ الْهِنْدِ وَالْأَنْدَلُسِ سَلَطَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِمُ الْإِنْكَلِيزَ وَالْفَرَنْسِيِّينَ وَالْإِسْبَانِ، وَكَذَا الْأَسْمَانَ وَالطَّلِبَانَ لَمَّا طَغَتْ وَبَغَتْ سَلَطَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهَا بِالْإِسْلاَفَةِ وَالْإِنْكَلِيزِ وَالْأَمْرِيكَانِ.

وهكذا سنة الله في خلقه، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا.

فَالخَطَابُ بـ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ عَامٌ لَا يَخْتَصُّ بِأُمَّةٍ دُونَ أُمَّةٍ.

وَيُؤَيِّدُ مَا حَرَّرْنَاهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغْتَبَرًا بِنِعْمَةِ أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ...﴾ الْآيَةِ^(٢)، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾^(٣)، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَوْمٍ كَانَتْ ظُلُمُهُمْ وَأَنْشَاءُهُمْ يُغْذَاهُمْ قَوْمًا آخَرِينَ﴾^(٤)، وَقَوْلُهُ ﷺ رَايَةً عَنْ رَبِّهِ جَلُّ جَلَالُهُ: «إِذَا عَصَانِي مَنْ يَعْرِفُنِي سَلَطْتُ عَلَيْهِ مِنْ لِي يَعْرِفُنِي»^(٥).

فِيهَا أَيُّهَا النَّاسُ! اتَّقُوا اللَّهَ حَتَّى تَقْوَاهُ، وَلَا تَغْتَرُوا بِمَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ زُخَارِفِ الدُّنْيَا؛ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لِبَالِغُ الْعَرَادِ.

(١) انظر: «البداية والنهاية» (٢ / ٣٨ - ٤٠).

(٢) الأنفال: ٥٣.

(٣) الأنعام: ١٢٩.

(٤) الأنبياء: ١١.

(٥) هو من الأحاديث القدسية المشهورة على لسان النبي، ولم أجده أصلًا.

وقال شيخنا - بعد - عند سؤالي له عنه: «ليس له أصل».

فأفهموا كلامَ ربِّكم، وخطابَ مولاكم، واعملوا بموجبه في كلِّ الأمور؛
دنيويةً ودنيئةً وأخرويةً؛ فإنَّ الدنيا مزرعةُ الآخرة^(١)، وكم من النَّاسِ في طرفي
الإفراط والتَّفرُّط، وإمَّا السَّعادةُ في التَّوسطِ والاقتصاد، فتنبَّه.

الآية الخامسة في سورة النساء أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ
بِالحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾^(٢).

قد نادى الله تعالى بهذه الآية جميع النَّاسِ عموماً؛ عرَبهم وعجمهم،
شركيهم وغيرهم، في سياق خطاب أهل الكتاب، ودَكَرَ الرَّسُولَ هنا معرفاً؛ لأنَّ
أهل الكتاب قد بَشُرُوا به، وكانوا ينتظرون بعثته.

واختيارُ لفظِ الرَّبِّ هنا للإشعار بأنَّ هذا الحقَّ الذي جاء به يُقصدُ به تربيةُ
المؤمنين، وتكميلُ فطرتهم، وتركيزُ نفوسهم، فلهاذا قال: ﴿فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ﴾؛
أي: إذا كان الأمرُ كذلك، فآمِنُوا، فإنَّ تَوَمُّنًا؛ يَكُنُ الإيمانُ لكم خيراً؛ لأنَّه
يُزَكِّيكم ويظهرُكم من الأنداسِ الجسديَّةِ والمعنويَّةِ، ويؤهلُكم للسَّعادةِ الأبديَّةِ.

﴿وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، فهو تعالى غنيٌّ عن
إيمانكم وطاعتكم، فيجازيكم على كفرِكُم وسوءِ عملِكُم؛ لأنَّ له تعالى ما في

(١) بعضهم ينسب هذا الكلام للنبي ﷺ، ولا أصل لذلك.

قال السخاوي في «المقاصد» (رقم ٤٩٧): «ولم أقب عليه مع إيراد الغزالي له في
(الإحياء)».

(٢) النساء: ١٧٠.

السَّمَاوَاتِ وما في الأرض خَلْقًا وعبيدًا، وكلُّ يعبُدُه طوعاً أو كَرْهًا.

أما عبادة الكُفْرَ وعدم الاختيار؛ فبالخضوعِ للشَّيْطَانِ والأقدار، وهي عامَّةٌ
في جميع الخلق.

وأما عبادة الاختيار؛ فخاصَّةٌ بالمؤمنين الاختيارِ والملائكةِ الأبرارِ وأمثالهم
من جنودِ الله، اللهم اجعلنا منهم.

وإنَّ مَعْنَى اهْتَدَى بهذا الهَدْيِ وتَوَرَّعَ بهذا التَّوَرِّعِ الإلهي رجلاً من أهل
الغرب، من النوعِ المنتسبِ إلى النُّصْرانيَّةِ، فهذا الرجلُ طالعُ ترجمةٍ [معاني]
القرآنَ باللغة الإنكليزيَّةِ، فنوِّزَ الله تعالى بصره وبصيرته، فتعلَّم اللغةَ العربيَّةَ،
ففهمَ بعضَ معاني القرآن، وتيقَّن أنَّ الإسلامَ هو الدِّينُ الحقُّ الذي يُسعدُ
الإنسانَ في الدُّنيا والآخرة، فاعتنقَ الإسلامَ، وهاجرَ من بلاده قاصداً الإقامةَ في
ديار الإسلام، فأقامَ في الحرمين، ولكنَّ لما رأى المنتسبين إلى الإسلام هنا،
وأخلاقهم، ومعاملاتهم المخالفةَ لدين الإسلام وتعاليمه؛ تعجَّبَ وتخيَّرَ، فقد
ذكرَ لي قاتلاً: الحمد لله أنِّي قد أسلمتُ قبلَ ملاقةِ هؤلاء المسلمين، وهذا من
فضلِ الله عليَّ، ولو كنتُ رأيتهُم أولاً قبلَ ذلك لَنفرتُ عنهم وعن الإسلام،
ولكنِّي لما فهمتُ خطابَ الله بـ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾، وآتني من جملةِ النَّاسِ؛
وتجَبَّ عليَّ أنَّ اتَّقي الله الَّذي خَلَقني وربَّاني، وأؤمنَ به وبرسوله وكتابه، وتيقَّنتُ
أنَّ كُلَّ مَنْ اتَّقَى الله رُشِدَ سُبُغِ في الدَّارين، ومن كفرَ وجحدَ فإنَّ عَذَابَ اللهِ
شديدٌ، ولا يُعذَّرُ أحدٌ بالجهلِ ما دامَ عاقلًا... إلخ!

فأنظُرَ إلى هذا الرجلِ الأوروبيِّ كيفَ تعلَّم العلمَ وكيف اهتدى، فهكذا
كلُّ فردٍ من أفرادِ البشرِ له أهليَّةٌ للتعلُّمِ وفهمِ كلامِ ربِّه، فلهاذا قد خاطبَهُم اللهُ

تعالى بخطاب عام، وأمرهم بالإيمان والتقوى، وبالاتقاء بالرُّسولِ الَّذِي أَرْسَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِالْحَقِّ، وهذا الرُّسُولُ مبعوثٌ إلى كافَّةِ البشرِ وعامَّةِ الورى رحمةً للعالمين؛ إنهم وجنهم.

فيجب على كافَّةِ بني البشر الإيمان به، ومعرفة كلامه، ولا يُعذرُ أحدٌ بالجهل^(١) كما أسلفْتُ، فاعتبروا يا أولي الأبصار.

وهذا الرَّجُلُ المهتدي إلى الإسلام قد صاحني منذ عام ١٣٥٥هـ، وحضر دروسي، وكثيراً ما راجعني في تفهّم معاني بعض الآياتِ القرآنيّةِ والأحاديثِ النبويّةِ، وقد حسن إسلامه، فأسأَلُ الله تعالى أن يُثَبِّتِي وإيَّاهُ وسائرَ المسلمين على الإيمان، وأن يُدَيِّمَ لنا التوفيقَ، وأن يَرْزُقَنَا حَسَنَ الخاتمةِ، آمين.

الآية السادسة فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾. فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةِ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا^(٢).

وقد خاطبَ الله تعالى بهذا الخطاب العامَّ عامَّةَ البشر وكافَّةَ بني آدم، وأخبرَ أَنَّهُ قد جاء إِلَيْكُمْ برهانٌ من جانبِ رَبِّكُمْ العليم الحكيم، وهذا البرهانُ والحجَّةُ هو رسولُ الله مُحَمَّدٌ ﷺ، وقد جاءكم رسولُ الله يريذكُم إلى الحقِّ ويهديكُم إلى صراطٍ مستقيم، وهو رحمةٌ مهداةٌ لَكُمْ من رَبِّكُمْ اللطيف الحكيم.

(١) لأنه من المعلوم من الدين بالضرورة.

(٢) النساء: ١٧٤ - ١٧٥.

وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ القرآنَ نوراً مُبِيناً؛ تَنْتَوِرُونَ بِهِ، فَتَجْتَنِبُونَ ظلماتِ الشُّرُكِ وتلويطاتِ الأوثان والأنداد، فتعرفون ربكم الواحدَ الصَّمَدَ، فلا تعبدون إلا إياه وحده، فإن آمنتم بالله وصدقتم بوحدياتِهِ وكلامه ورسوله واعتصمتم بالله عاملين بكلامه وأوامره؛ فسَيُدْخِلُكُمْ في رحمةٍ منه وفضل، ويُنِيلُكُمْ سعادةَ الدارين، فيعدّ إيمانكُم ومُهورَ صلاحكُم وأهلِيَّتِكُم للهدايةِ بِوَفْقِكُم وبوصلِكُم إلى رضا ورضوانه صراطاً مستقيماً.

وإنما أَرْسَلَ اللهُ تعالى هذا الرُّسُولَ العربيَّ الأمِّيَّ لرحمتِكُم أيُّهَا النَّاسُ وتربيتِكُم وتزكيةِ نفوسِكُم، فهو ﷺ برهانٌ عظيمٌ وجليٌّ؛ يُبَيِّنُ لَكُمْ حقيقةَ الإيمانِ الصَّحِيحِ بالله عزَّ وجلَّ، وجميعَ ما تحتاجون إليه من أمر دينكُم ودنياكُم، فهو ﷺ بسيرته العملية برهانٌ وحجَّةٌ؛ كما أَنَّهُ ﷺ برهانٌ في دعوته العلمية الشرعيّة.

وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ بما أوحينا إليه كتاباً من لَدُنَّا، هو كالنور بينَ في نفسه ومبينٌ لكلِّ ما أُنْزِلَ لبيانهِ، فيه تنجلي لكم الحقائق، بحيث لا يشبه فيها من تدبره وعقل معانيه.

مثال ذلك: توحيدُ الله في ألوهيَّته وربوبيَّته، وهو أثبتُ الحقائق وأعلى ما يصلُ إليه البشرُ من المعارف، وأفضلُ ما تتزكى به النفوسُ وترتقى به العقولُ، وقد بُعِثَ به جميعُ رسلِ الله إلى جميعِ الأمم، فكان كلُّ منهم يدعو أمته إليه، ولكن من الأمم من لا يفقه معنى التوحيد فيلبسونه بالشُّرُكِ في الألوهيَّةِ؛ كأنَّه أخذَ المسيحَ إلهاً، بل اتخذَ من دونه من مُؤدِّسيه إلهاً أو أنصافَ إلهٍ، يزعمون أَنَّهُمْ وسطاءُ بينهم وبينَ الله في كلِّ ما ينفَعُهُمْ ويضرُّهم في معاشهم ومعادهم، وبالشرِكِ في الربوبيةِ باتخاذِ أبحارهم ورهبانهم أرباباً من دونِ الله، فيشرعون

لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ، وَجُلُّوا لَهُمْ، وَحُرِّمُوا عَلَيْهِمْ فَيَتَّبِعُوهُمْ.

فَأَرْسَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذَا الْبِرْهَانَ مُحَمَّدًا ﷺ؛ لِبَيَانِ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ؛ لِأَنَّ مَنْ أَشْرَكَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَأَمْثَلِهِمْ مِنَ الْأُمَمِ الْقَدِيمَةِ كَالْهِنْدِ وَالْكَلْدَانِيَيْنِ وَالْمِصْرِيِّينَ وَالْيُونَانِ وَالصِّينِيِّينَ كَانُوا يَقُولُونَ: إِنَّ الْإِلَهَ وَاحِدٌ، وَبَعْضُهُمْ كَانَ يَصْرَحُ بِمَثَلِ كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ عِنْدَنَا أَوْ بِهَا نَفْسِهَا، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا مَعَ ذَلِكَ مُشْرِكِينَ؛ يَزْعُمُونَ أَنَّ بَعْضَ الْبَشَرِ أَوْ الْحَيَوَانِ أَوْ الْجَمَادِ يَنْفَعُ أَوْ يَضُرُّ بِصِفَةِ خَارِقَةِ الْعَادَةِ، فَيَتَوَجَّهُونَ إِلَى تِلْكَ الْأَشْيَاءِ الْمَعْتَقَدَةِ تَوَجُّهُ الْعِبَادَةِ، وَبَعْضُهُمْ كَانُوا يَزْعُمُونَ أَنَّ مَا جَاءَتْ بِهِ رُسُلُهُمْ مِنْ أَحْكَامِ الدِّينِ غَيْرُ كَافٍ فِي بَيَانِ الدِّينِ، فَيَضَعُ رُؤُسَهُمْ أَحْكَامَ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، سَوَاءً وَافَقَ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ أَمْ لَا، فَيَهَذَا تَغْلَغَلَتْ الْوُثْنِيَّةُ فِي جَمِيعِ الْأَدْيَانِ، وَأَفْسَدَتْهَا عَلَى أَهْلِهَا، فَقَدْ بَعْضُهُمْ بَعْضًا فِيمَا وَرِثَهُ مِنْهَا.

فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى لِهَدَايَةِ الْبَشَرِ هَذَا النُّورَ الْمَيِّينَ الْقَرْنَ، فَكَانَ أَشَدَّ إِيَانَةً لِدَقَائِقِ مَسَائِلِ التَّوْحِيدِ وَخَفَايَاهَا مِنْ نُورِ الْكِبْرِيَاءِ الْمَتَّالِيِّ فِي هَذَا الْعَصْرِ، فَبَيَّنَ لِمَنْ يَفْهَمُ لُغَتَهُ حَقِيقَةَ التَّوْحِيدِ بِالْأَدْلَالِ، وَالْبَرَاهِينِ الْكُونِيَّةِ الْعَقْلِيَّةِ، وَضَرَبَ الْأَمْثَالَ الْمَادِيَّةِ وَالْمَعْنَوِيَّةِ، وَضَرَبَ الْقَضَائِصَ وَالْمَوَاطِظَ وَالْهَدَايَةَ إِلَى النَّظَرِ وَالتَّجَارِبِ، وَكَشَفَتْ مَا رَأَى عَلَى هَذِهِ الْعَقِيدَةِ مِنْ شُبُهَاتِ الْمُضِلِّينَ وَأَوْهَامِ الضَّالِّينَ الَّتِي مَرَّجَتْهَا بِالشُّرُكِ مَرَّجَاءً، وَجَعَتْ بَيْنَ الضَّالِّينَ بِلِ التَّقْيِيزِ جَمْعًا، وَتَمَكَّنَ فِي نَفُوسِ النَّاسِ، فَقَرَّرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ التَّوْحِيدَ، وَاجْتَنَبَ جَذُورَ الْوُثْنِيَّةِ بِالْبَرَاهِينِ الْقَطْعِيَّةِ.

فَالَّذِينَ يَعْتَصِمُونَ بِهَذَا الْقَرْنَ يُدْخِلُهُمُ اللَّهُ تَعَالَى فِي رَحْمَةٍ خَاصَّةٍ بِهِ، لَا

يُدْخِلُ فِيهَا سِوَاهُمْ، وَفَضْلٌ خَاصٌّ لَا يَفْضُلُ بِهِ عَلَى غَيْرِهِمْ، فَيَا خُسَارَةَ الْمُفْرِضِينَ! وَيَا طُوبَى لِلْمَحْتَصِمِينَ!

وَقَدْ صَدَّقَ وَعْدَ اللَّهِ لِلْمُصَادِقِينَ فَنَازَ مَنْ اعْتَصَمَ بِهِ مِنَ الْأَوَّلِينَ، وَخَابَ وَخَسِرَ مَنْ أَعْرَضَ عَنِ الْآخِرِينَ، فَعَسَى أَنْ يَتَغَيَّرَ بِذَلِكَ الْمُتَمَتِّنُونَ إِلَى هَذَا الدِّينِ فِي هَذَا الْعَصْرِ.

وَعَنْ هَذَا قَالَ بَعْضُ الْعَارِفِينَ^(١):

السَّيْلُ قَالَ اللَّهُ قَالَ رَسُولُهُ وَمَا سِوَى ذَلِكَ وَسُوسُ الشَّيَاطِينِ
كُلُّ الْعُلُومِ سِوَى الْقُرْآنِ مُشْغَلَةٌ إِلَّا الْحَدِيثُ وَالْإِيقَةُ فِي الدِّينِ
وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ:

أَهْلُ الْحَدِيثِ هُمْ أَهْلُ الرَّسُولِ وَإِنْ لَمْ يَصْحُبُوا شَخْصَهُ أَنْفَاسَهُ صَحِبُوا^(٢)

الآيَةُ السَّابِعَةُ مِنْ سُورَةِ الْأَعْرَافِ: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوَآتِكُمْ وَرِثًا وَلِبَاسَ الْتَقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾^(٣).

قَدْ نَادَى اللَّهُ تَعَالَى وَخَاصَّتْ بَنِي آدَمَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَأَمْثَلِهَا؛ عَزَمَهُمْ

(١) يُنْبِئُ نَحْوَهُمَا الشَّعْرُ لِلْإِمَامِ الشَّافِعِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ، فَانْظُرْ «دِيوانَ الشَّافِعِيِّ» (ص ١٣٨).

وَلَفْظُ (الْعَارِفِينَ) مِمَّا لَا نَجِدُ أَنْ يَسْتَعْمِلَهُ أَهْلُ السُّنَّةِ؛ لِأَنَّهُ مِنَ الْفَاطِطِ مُتَبَدِّعَةِ الصُّوفِيَّةِ.

وَانْظُرْ: «دُرُوسَةَ الْمُحْسِنِينَ» (ص ٤٠٢) لِلْعَلَّامَةِ ابْنِ الْقَيِّمِ.

(٢) انْظُرْ لَهُ: «الْحَقِيقَةُ» (ص ٢٧) بِتَحْقِيقِي.

(٣) الْأَعْرَافُ: ٢٦.

وَسَنَارُ، وهذا عالم في جميع بني البشر؛ من جنس الأبيض والأحمر والأسود والأصفر، ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ﴾.

الآية الثامنة فيها أيضاً: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(١).

هذا النداء عام أيضاً لجميع بني آدم؛ عَرَبِيهِمْ وَعَجَمِيهِمْ، قد خاطبَهُمُ اللَّهُ تعالى في مقام الوعظ والتذكير - ناهياً إِيَّاهُمْ - أَنْ لَا يَفْتِنُوا وَلَا يَفْتَنُوا بِسَاسِ الشَّيْطَانِ كَمَا وَسَّوسَ لِأَيِّ بَشَرٍ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِإِظْهَارِ النَّصِيحِ لَهُ وَالْمَحِيَةِ، حَتَّى أَخْرَجَ الْآدَمِيَّ مِنَ الْجَنَّةِ، فَمَنْ قَبْلَ وَسْوَةِ الشَّيْطَانِ؛ ابْتِلَى بِالْمَعْصِيَانِ، فَيَكُونُ مِنَ أَهْلِ الْخُسْرَانِ وَالْجَذَلَانِ، فنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ وَزَعَايِهِ وَسَاسِهِ.

ومن المصائب على البشر أَنَّ أَكْثَرَ الْمُؤْمِنِينَ يَطْبُقُ الدِّينَ الرُّوحِيَّ فِي هَذِهِ الْقُرُونِ الْآخِرَةِ لَا يَقِفُونَ فِيهَا عِنْدَ حُدُودِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَمَا فَهَمُّهُمْ مِنْ رَوَاتِهِ مِنَ السَّلَفِ الصَّالِحِ، بَلْ زَادُوا - وَمَا زَالُوا يَزِيدُونَ - فِيهِ مِنَ الْخُرَافَاتِ وَالْبَدْعِ وَالضَّلَالَاتِ، فَيُفْتَرُونَ عَلَى الدِّينِ الْمُعَلَّاهِ الْقَاصِرِينَ.

وَالشَّيَاطِينُ إِنَّمَا يَتَصَوَّفُونَ وَيُوسِسُونَ [فِي] مَنْ يَقْبَلُ قَوْلَهُمْ مِنَ الْمَشْرِكِينَ وَأَهْلِ الضَّلَالِ، لِأَنَّ سَهْلَ اللَّهِ قَدْ جَرَتْ فِي النَّاسِ بَيْنَ أَنْوَاعِ الْمَخْلُوقَاتِ الْمُتَجَانِسَةِ وَالْمُتَشَابِهَةِ، أَنَّ يَكُونَ الشَّيَاطِينُ الَّذِينَ هُمْ شَرُّ الْجِنِّ أَوْلِيَاءَ لِشَرِّ

(١) الأعراف: ٢٧

وَعَجَمِهِمْ، ذَكَرَهُمْ وَأَنَاءَهُمْ، فامْتَرُ عَلَيْهِمْ بَعْدَ أَنْ أَتَبَاهُمْ بِمَا كَانَ مِنْ عُرْيِ سَلَفِهِمْ الْأَوَّلِ، بِمَا أُنْعِمَ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنَ اللَّبَاسِ عَلَى اخْتِلَافِ دَرَجَاتِهِ وَأَنْوَاعِهِ مِنَ الْأَذَى الَّذِي يَسْتُرُ السَّوَاءَ عَنْ أَعْيُنِ النَّاسِ إِلَى أَنْوَاعِ الْحُلِيِّ الَّتِي تُشَبِّهُ رِيَشَ الطَّيْرِ فِي وَقَايَةِ الْبَدَنِ مِنَ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ بِسِتْرِ جَمِيعِ الْبَدَنِ، وَمَا فِي ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الزُّبَيَّةِ وَالْجَمَالِ اللَّائِقَةِ بِجَمِيعِ دُرُكِ الْبَشَرِ وَأَوْنَانِهِمْ.

فَهُوَ جَلُّ جَلَالِهِ يَقُولُ: يَا بَنِي آدَمَ! إِنَّا بِمَا لَنَا مِنَ الْقُدْرَةِ وَالنِّعْمَةِ وَالرَّحْمَةِ قَدْ خَلَقْنَا لَأَجْلِكُمْ وَمَنَافِعِكُمْ مَادَّةَ اللَّبَاسِ مِنَ الْقُطَنِ وَالصُّوفِ وَالْحَرِيرِ وَغَيْرِهَا، وَعَلَّمْنَاهُمْ بِمَا خَلَقْنَا فِيكُمْ مِنَ الْغَرَائِزِ وَالْقُوَى وَالْأَعْضَاءِ وَسَائِلِ صُنْعِ اللَّبَاسِ فِيهَا؛ كَالزَّرَاعَةِ، وَالْغَزْلِ، وَالنَّسِجِ، وَالْخِيَاطَةِ، وَإِنْ مَنَّ اللَّهُ تَعَالَى بِهِذِهِ الصَّنَاعَاتِ عَلَى أَهْلِ هَذَا الْعَصْرِ أَضَاعَفَ بَيْنَهُ عَلَى الْمُتَقَدِّمِينَ مِنْ شُعُوبِ بَنِي آدَمَ، فَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ شُكْرُهُمْ لَهُ تَعَالَى أَعْظَمَ.

فَيَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ! أَنْتَ الْمُخَاطَبُ بِهَذَا الْخِطَابِ الرُّبَّانِيِّ، أَفَلَا تَجْتَنِّهُدْ وَتَسْعَى فِيهِمْ خِطَابَ رَبِّكَ؟ أَفَلَا تُحَافِظُ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ بِهَذِهِ النِّعَمِ وَالْآيَاتِ؟ أَلَا تَتَّقِي الشُّرْكَ وَالْإِشْرَاقَ وَالْكُفْرَ وَالْإِلْحَادَ؟

وَلِبَاسُ الْقُوَى هُوَ الْخَيْرُ الدِّنِّيُّ، يَعْنِي: فَرَّقْ نَفْسَكَ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَزَكَّهَا بِتَوْحِيدِ اللَّهِ، وَهَذَا هُوَ الْخَيْرُ الْأَبَدِيُّ.

فَيَجِبُ عَلَيْكُمْ أَنْ تُلَاحِظُوا هَذِهِ النِّعَمَ الْإِلَهِيَّةَ لَعَلَّكُمْ تَتَذَكَّرُونَ وَحْدَانِيَّةَ رَبِّكُمْ وَقُدْرَتَهُ الْقَاهِرَةَ، فَلَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ، وَلَا تَخْضَعُوا لَهُ إِلَّا لَهُ جَلَّ جَلَالُهُ.

وهذه الآية ترشيدنا إلى الصناعات، والاكتساب، والزراعة، والحياكة، وأنواع الصناعة؛ كما أنها تنبهنا إلى الشر والتسرُّ، وأنَّ كُفْرَ الْعَوْرَةِ سُوءٌ وَعَارٌ

الإنس، وهم الكفار والمشركون وعشائر القبور والأرواح؛ ﴿إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ (١).

فأولياء الشيطان هم أصحاب الوسواس والأوهام والخرافات والطغیان من أهل الطواغيت والدجل والتفاني، فتعود بالله من شر الشيطان وشر أوليائه من الإنس والجنان.

فيا ابن آدم! إذا لم تفهم هذا الخطاب الإلهي ولم تعرف هذا الأمر الرباني؛ فأنت خارج عن حيز الأديمة، فتكون أسيراً بيد الشيطان، فهو يلعب بك كيف يشاء، وقد أخبر الله تعالى أن الشيطان وقيله يرون بني آدم في هذه الحياة الدنيا فيؤسسونهم ويضلونهم، وأما ابن آدم فلا يرى الشيطان على حقيقته وصورته، وإن رآه على غير صورته كالحية والشيخ المتصوف ونحوهم!

وعلى أي حال؛ فإن الشياطين إنما يؤثرون على من أطاعوهم من المشركين وعبيد القبور والأرواح، لا المؤمنين الموحدين المخلصين.

اللهم اجعلنا من عبادك المؤمنين الموحدين المخلصين، وعذنا يا ربنا من وسواس الشياطين ووسائيتهم، سواء شياطين الجن والإنس أجمعين.

الآية التاسعة فيها أيضاً: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (٢).

(١) الأعراف: ٣٠.

(٢) الأعراف: ٣١.

هذا النداء والخطاب الإلهي عام شامل لجميع بني آدم رجالاً ونساء، ويدل على بعثة النبي ﷺ إلى جميع البشر.

فستر العورة لازم على جميع بني آدم رجالاً ونساء، وهذا أصل من أصول الإسلام؛ لحفظ كرامة البشر، ورفعهم على سائر الحيوانات.

والدين الإسلامي إنما شرعه الله تعالى لإصلاح البشر ديناً ودنياً، فهو طب الخالق الحكيم العليم الخبير، ولذا قال: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾، بل الزموا الاعتدال والاقتصاد.

﴿إِنَّهُ﴾ تعالى ﴿لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾؛ أي: إن ربكم الذي أنعم عليكم بهذه النعم لمنفقكم لا يحب المسرفين في أمرهم كله، بل يعاقبهم على الإسراف.

فهذه الآية يرشد الله تعالى عباده عامة إلى الاقتصاد في المعيشة، وتبذير المنزل على اجتناب ما حظه الشرع من الإسراف والتبذير والبخل والتفكير.

فتدبر أيها الأدي كلام ربك الحكيم وتفهمه إن كنت من بني آدم.

وقد سمي الله الحكيم اللباس زينة، وهو في الحقيقة كذلك؛ فإن الإنسان إذا تفرغ عن اللباس يكون أقبح منظرًا وأشنع مظهرًا من الكلب والخنزير؛ كما هو غير خفي على أهل العقل والدين.

وكذلك الأكل والشرب؛ لاجل حفظ الحياة والفرة والصحة، وهذا إنما يعتدل بالاعتدال والتوسط، وأما إذا أكل فوق الشبع، أو شرب فوق الرقي؛ فتفسد معدته، وتتغير صحته، فيبتلى بأمراض مهلكة كما لا يخفى.

وكذلك الإفراط والتفريط في اللباس والبناء والاساس والجماع ، فكُلُّها مُضِرٌّ ومهلكٌ ، والخيرُ كُلُّ الخيرِ في التوسط والاقتصاد ، فتنبه .

حكاية تناسب المقام :

وهي ما ذكرها العلامة إبراهيم الأزرقي في كتابه «تسهيل المنافع» (١) :
«رَوَيْتُ أَنَّهُ اجْتَمَعَ عِنْدَ كِسْرَى أَوْبَرَةُ مِنْ أَرْبَعَةِ مِنَ الْحُكَمَاءِ : عِرَاقِي ، وَرُومِي ، وَهِنْدِي ، وَسُودَانِي ، فَقَالَ كِسْرَى لَهُمْ : لِيَصِفْتَ لِي كُلَّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ الدَّوَاءَ الَّذِي لَا دَاءَ مَعَهُ .

فَقَالَ الْعِرَاقِيُّ : الدَّوَاءُ الَّذِي لَا دَاءَ مَعَهُ أَنْ تَشْرَبَ كُلَّ يَوْمٍ عَلَى الرَّيْقِ ثَلَاثَ حُجْرٍ مِنَ الْمَاءِ السَّائِنِ .

وَقَالَ الرَّومِيُّ : الدَّوَاءُ الَّذِي لَا دَاءَ مَعَهُ أَنْ تَصِفْتَ كُلَّ يَوْمٍ قَلِيلًا مِنْ حَبِّ الرُّشَادِ» (٢) .

وَقَالَ الْهِنْدِيُّ : الدَّوَاءُ الَّذِي لَا دَاءَ مَعَهُ أَنْ تَأْكُلَ كُلَّ يَوْمٍ ثَلَاثَ حَبَاتٍ مِنَ الْهَلِيلِجِ الْأَسْوَدِ» (٣) .

والسوداني ساكتٌ ، وَكَانَ أَحَدُهُمْ وَأَصْفَرُهُمْ سَنًا .

(١) ذكره حاجي خليفة في «كشف الظنون» (١ / ٤٠٧) ، وقد طبع الكتاب طبعات كثيرة ، أولها سنة ١٣٠٤ هـ ، فانظر : «دخاتر التراث العربي الإسلامي» (ص ٣٣٥) .
وينبغي الحذر من بعض ما فيه من الخرافات والانحرافات .

(٢) هو نوع من البقول .

(٣) قال في «المعجم الوجيز» (ص ٢٩) : «شجرٌ ينبت في الهند وكابل والصين ، ثمرة على هيئة حب الصنوبر الكبار» .

فقال له الملكُ : أَلَا تَتَكَلَّمُ ؟

فَقَالَ : يَا مَوْلَانَا ! إِنَّ الْمَاءَ السَّائِنَ يَذِيبُ شَحْمَ الْكِلَى وَيُرَخِّي الْمِعْدَةَ ، وَحَبَّ الرُّشَادِ يُهَيِّجُ الصُّفْرَاءَ ، وَالْهَلِيلِجُ الْأَسْوَدُ يَهَيِّجُ الشُّوَاءَ .

فقال : فما الذي تقول أنت ؟

فقال : يَا مَوْلَانَا ! الدَّوَاءُ الَّذِي لَا دَاءَ مَعَهُ أَنْ لَا تَأْكُلَ إِلَّا بَعْدَ الْجُوعِ ، فَإِذَا أَكَلْتَ ، فَارْفَعْ يَدَكَ قَبْلَ الشَّبْعِ ؛ فَإِنَّكَ لَا تَشْكُو عِلَّةً إِلَّا عِلَّةَ الْمَوْتِ .

فَقَالُوا كُلُّهُمْ : صَدَقَ ، وَالْإِحْتِمَاءُ فِي وَقْتِ الصَّحَّةِ خَيْرٌ مِنْ شَرْبِ الْأَدْوِيَةِ عِنْدَ الْمَرَضِ .

قُلْتُ : وَتَصَدِّقُهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ .

الآية العاشرة فيها أيضاً : ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِذَا يَأْتَيْكُمْ رِشْلٌ مِنْكُمْ يَقْضُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنْ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١) .

هَذَا التُّدَاةُ وَالْخُطَابُ الْإِلَهِيُّ عَامٌ أَيْضاً لِكَافَّةِ بَنِي آدَمَ مِنْذُ بَعَثَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِمُ الرُّسُلَ عَلَيْهِمُ الصَّلَوَاتُ وَالتَّسْلِيمَاتُ ، وَهَذَا يُؤَدِّنُ بَأْنَ اللَّهِ تَعَالَى قَدْ خَاطَبَ كُلَّ أُمَّةٍ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهَا ، وَبَيَّنَّ لَهُمْ أَصُولَ دِينِهِمْ ، فَمَنْ اتَّقَى مَا نَهَى اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ ، وَأَصْلَحَ نَفْسَهُ بِمَا أَوْجَبَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ ؛ فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ مِمَّا يَتَرْتَّبُ عَلَى التَّكْذِيبِ وَالْعَصْيَانِ مِنْ عَذَابِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ عِنْدَ الْجَزَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

(١) الأعراف : ٣٥

فيا آدمي! إِنَّ كُنْتَ مِنْ بَنِي آدَمَ؛ فَاجْتَهِدْ فِي فَهْمِ خُطَابِ رَبِّكَ؛ لِأَنَّ أَهْلَ لَذَلِكَ، وَلَا تَضَيِّعْ أَهْلِيكَ تَفْكَونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ الْمَهْلِكِينَ.

وهذه الآيةُ كقولهِ تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ. الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾^(١)، فتدبّر.

الآيةُ الحادية عشرةُ في الأعرافِ أيضاً: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾^(٢).

هذا خطابُ عالمٍ لجميعِ البشرِ مِنَ العربِ والعجمِ، وَجْهَهُ إليهمِ محمدٌ ابنُ عبدِاللهِ بنِ عبدِالمطلبِ بنِ هاشمٍ العَرَبِيُّ الْأُمِّيُّ بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى، يَنْبُئُهُمْ بِهِ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ تَعَالَى إِلَيْهِمْ كَافَّةً، لَا إِلَى قَوْمِهِ الْعَرَبِ خَاصَّةً، فَهُوَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾^(٣).

اللَّهُ ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾، فَهوَ التَّصَوُّرُ وَالتَّدْبِيرُ فِي الْعَالَمِ كُلِّهِ، وَهُوَ رَبُّ الْعَالَمِينَ، لَا شَرِيكَ لَهُ، فَلَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَلَا مَعْبُودَ [يَحِقُّ] إِلَّا هُوَ؛ كَمَا أَنَّهُ لَا خَالِقَ إِلَّا هُوَ، وَلَا رَبَّ إِلَّا هُوَ.

﴿فَآمِنُوا﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ مِنْ أَيْ أَمَرٍ كُنْتُمْ؛ عَرَبًا أَوْ عَجَمًا، شَرْقًا أَوْ غَرْبًا ﴿بِاللَّهِ﴾ الْوَاحِدِ فِي رُبُوبِيَّتِهِ وَأُلُوهِيَّتِهِ، وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ الْمُتَمَازِ بِأَنَّهُ الْأُمِّيُّ الَّذِي بَعَثَهُ

(١) يونس: ٦٢.

(٢) الأعراف: ١٥٨.

(٣) سبأ: ٢٨.

فِي الْأُمِّيِّينَ الْعَرَبِ رَسُولًا إِلَى الْخَلْقِ أَجْمَعِينَ؛ يَعْلَمُهُمُ الْكِتَابُ وَالْحِكْمَةُ، وَيُزَكِّيهِمْ، وَيُطَهِّرُهُمْ مِنْ خُرَافَاتِ الشُّرْكِ وَالزُّدَالِ وَالْجَهْلِ وَالتَّفَرُّقِ وَالتَّعَادِي وَبَعْصِيَّاتِ الْأَجْنَاسِ وَاللُّغَاتِ وَالْأَوَاطِنِ^(١)؛ لِيَكُونُوا بِهَدَايَتِهِ أُمَّةً وَاحِدَةً يَتَحَقَّقُ بِهَا الْإِخَاءُ الْعَامُّ فِي الْبَشَرِ.

فيا أَيُّهَا النَّاسُ! اتَّبِعُوا هَذَا النَّبِيَّ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ إِلَى مَا فِيهِ سَعَادَتُكُمْ فِي الدَّارَيْنِ.

ومِمَّا يَدْخُلُ فِي اتِّبَاعِهِ ﷺ: تَعَلُّمُ لُغَتِهِ الَّتِي هِيَ لُغَةُ الْكِتَابِ الْإِلَهِيِّ الَّذِي أَوْحَاهُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ، وَأَمْرٌ جَمِيعٌ مِنْ أَتْبَاعِهِ وَدَانٍ بِدِينِهِ أَنْ يَتَعَبَّدَ بِهِ، وَأَنْ يَتَلَوَّهَ فِي الصَّلَوَاتِ وَغَيْرِ الصَّلَوَاتِ؛ مَعَ التَّدَبُّرِ وَالتَّأَمُّلِ فِي مَعَانِيهِ، وَذَلِكَ مَوْقُوفٌ عَلَى إِتْقَانِ لُغَتِهِ، وَهِيَ الْعَرَبِيَّةُ الْفُصِيحَةُ، فَجِبَّجْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَتَلَوُّوا الدَّعْوَةَ إِلَى كُلِّ قَوْمٍ بِلُغَتِهِمْ، حَتَّى إِذَا مَا هَدَى اللَّهُ تَعَالَى مَنْ شَاءَ مِنْهُمْ وَدَخَلَ فِي الْإِسْلَامِ؛ عَلَّمُوهُ أَحْكَامَهُ وَلُغَتَهُ، كَذَلِكَ كَانَ يَفْعَلُ الْخُلَفَاءُ الْفَاتِحُونَ فِي خَيْرِ الْقُرُونِ وَمَا بَعْدَهَا، إِلَى أَنْ تَغَلَّبَتِ الْأَعْجَامُ عَلَى الْعَرَبِ، وَسَلَبُواهُمْ الْمُلْكَ؛ كَأَنَّهُ مُسْلِمُ الْخِرَاسَانِيِّ^(٢)، فَإِنَّهُ مَنَعَ عَنْ تَعَلُّمِ الْعَرَبِيَّةِ، وَعَزَّرَ مَنْ يَتَكَلَّمُ بِهَا أَوْ يَعْلَمُهَا.

وَالْحَالُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى بَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً، وَأَوْجَبَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَعْلَمُوا لِسَانَهُ بِقَدْرِ مَا يُطِيقُونَهُ، وَلَا شَكَّ أَنَّ لِكُلِّ فَرْدٍ مِنْ أَفْرَادِ بَنِي آدَمَ أَهْلِيَّةً تَعَلَّمَ الْعَرَبِيَّةَ وَتَعَلَّمَ مَعْنَاهَا، وَلِهَذَا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى رَسُولَهُ أَنْ يَخَاطِبَهُمْ وَيَأْمُرَهُمْ وَيَنْهَاهُمْ فَبِطَبْعِهِ وَيُمِثِّلُوا أَمْرَهُ.

(١) بل وعصبيات المذاهب والأحزاب!

(٢) انظر: «البداية والنهاية» (١٠ / ٦٧ - ٧٤) لابن كثير، وما سياتي (ص ١٢٠).

وجملته القول: أَنَّ إقامته دين الإسلام متوقفة على فهم لغة كتابه المنزل من رب العالمين، وسنة نبيه المرسل رحمة للعالمين.

والماقل يفهم من هذه الآيات المحكمة أَنَّ القرآن هداية دينية عربية، وأنه حكومة دينية عربية، عربية اللسان عامة لجميع شعوب نوع الإنسان، وقد قضى الله تعالى أن يوحد به ألسنة جميع الأمم، فيجعلهم أمة واحدة بالمعاني والعبادات والآداب والشرع واللغة؛ ليكونوا بجمعته إخواناً.

وقد كتب رسول الله ﷺ كُتُبَهُ إلى قيصر الروم وكسرى الفرس ومقوقس مصر بلغة الإسلام العربية، وكذا الخلفاء الراشدين والصحابة والتابعون رضي الله عنهم صدعوا بهذا الأمر، ونشروا هذا الدين بلغته.

فالآية الجليلة تصرّح بأنه يجب على كل فرد من أفراد الإنسان أن يعلم أَنَّ الله عز وجل قد أرسل محمداً ﷺ إلى جميع الثقلين؛ الإنس والجن، وأوجب عليهم الإيمان به وبما جاء به وطاقته، وأن يحلّلوا ما حلّل الله ورسوله، ويحرّموا ما حرّم الله ورسوله، وأن يوجبوا ما أوجبه الله ورسوله، فمن لم يؤمن به؛ فهو كافر.

وهذا أصل متفق عليه بين المسلمين أجمعين.

واعلم أَنَّ الله تعالى ورسوله ﷺ إنما علّفوا الأحكام بالصفات المؤثرة فيما يحبه الله تعالى وفيما يبغضه، ولم يخص العرب بنوع من أحكام الشرع، إذ كانت رسالته ودعوته لجميع البرية عامة، وإِنَّمَا نَزَلَ اللهُ تَعَالَى الْقُرْآنَ بِلِسَانِهِمْ، وَهَذَا لِأَجْلِ التَّبْلِيغِ؛ لِأَنَّهُ بَلَّغَ قَوْمَهُ أَوَّلًا، ثُمَّ بَوَاسِطِهِمْ بَلَّغَ سَائِرَ الْأُمَمِ، وَأَمَرَهُ اللهُ تَعَالَى بِتَبْلِيغِ قَوْمِهِ أَوَّلًا، ثُمَّ بِتَبْلِيغِ الْأَقْرَبِ فَالْأَقْرَبِ إِلَيْهِ؛ كَمَا أَمَرَ بِجِهَادِ

الأقرب فالأقرب؛ كما ذكره الإمام أحمد بن حنبل في رسالته «إيضاح الدلالة في عموم الرسالة»^(١).

الآية الثانية عشرة في سورة يونس: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بُعِثْتُكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ مَا تَحْيَاةُ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(٢).

قد خاطب الله تعالى النَّاسَ كُلَّهُمْ؛ عزيزهم وعجمهم، أحرّهم وأسودهم، وأبيضهم؛ أَنْ ضَرَرَ بِغَيْبِكُمْ وظلمكم وشرككم وكفركم راجع على أنفسكم، فتستحقّون غضب الله ولعنته وعذابه يوم القيامة، وإِنَّمَا تَتَمَتَّعُونَ عِدَّةَ أَيَّامٍ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا الْفَانِيَةِ كَالْحَيَوَانِ وَالْوَحْشِ، ثُمَّ بَعْدَ الْمَوْتِ تُرْجَعُونَ إِلَى اللَّهِ، فَيُخَيَّرُكُمْ بِأَعْمَالِكُمُ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، فَيُجَازِيكُمْ عَلَيْهَا؛ إِنْ خَيْرًا فَيُخَيِّرُ، وَإِنْ شَرًّا فَتُشَرُّ، فَالنَّاسُ كُلٌّ فَرِدَ مِنْهُمْ مَخَاطِبُونَ وَمَكَلَّفُونَ مَا دَامَ عَاقِلًا بِالْعَمَلِ.

فتدبّر أيها الإنسان حتى لا تصير من أهل الخسران.

يَا أَيُّهَا الظَّالِمُ الْبَاغِي! إِنَّمَا تَبْغِي فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الْفَانِيَةِ عِدَّةَ أَيَّامٍ زَائِلَةٍ، ثُمَّ تَذَوِّقُ عَذَابَهُ وَعِقَابَهُ أَبَدَ الْأَبَدِينَ، وَتُذَرُّ الدَّاهِرِينَ، بَلَا انْقِطَاعٍ فِي دَارِ الْجَزَاءِ.

فالآية قد دلت على أَنَّ الْبَغْيَ يُجَازَى أَصْحَابُهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، أَمَا فِي الْآخِرَةِ؛ فَلَا شَكَّ فِيهِ الْبَلَاءُ؛ لِأَنَّهَا دَارُ الْجَزَاءِ بَلَاءً مَرَاءً، وَأَمَا فِي الدُّنْيَا فَشَاهِدٌ مَعْلُومٌ؛ لِأَنَّهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿إِنَّمَا بُعِثْتُكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ﴾.

(١) وهي مطبوعة ضمن «مجموعة الرسائل المنيرة»، فانظر (٩٧-١٥٢) منها.

(٢) يونس: ٢٣.

ويؤيده ويفسره قول رسول الله ﷺ: «مسا من ذنب يعجل الله تعالى لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخر له في الآخرة من البغي وقطيعه الرجيم»، رواه البخاري في «الأدب المفرد»، والترمذي، وابن ماجه^(١).

وعن أنس رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث هن راجع على أهلها: المكر والنكث والبغي»، ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بُعِثْتُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾، ﴿وَلَا يَجِئُ الْمَكْرُ الشَّيْءُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾^(٢)، «وَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْتَكُ عَلَى نَفْسِهِ»^(٣). رواه أبو الشيخ^(٤)، وابن مردويه^(٥).
والمراد: نكث اليهود مع الله تعالى، وكذا مع الناس.

(١) رواه: البخاري في «الأدب المفرد» (ص ٦٧)، والترمذي (٢٥١٣)، والطبرسي (٨٨٠)، وأبو داود (٤٩٠٢)، وابن ماجه (٤٢١١)، وابن حبان (٢٠٣٩)، والحاكم (٢ / ٣٥٦)، وأحمد (٥ / ٣٨٦)؛ عن أبي بكره القفي؛ بسند صحيح.
وهو في الإتمام... (٢٠٣٩٠) يشر الله تعالىه.
(٢) فاطر: ٤٣.

(٣) الفتح: ١٠.

(٤) رواه الخطيب في «تاريخه» (٨ / ٤٥٠) من طريق مروان بن صبيح عن عبد العزيز بن صهيب عن أنس.
قال الذهبي في «الميزان» (٤ / ٩٠) بعد أن ساقه من طريق أبي نعيم في ترجمة مروان: «لا أعرفه، وله خير مكره».
ثم أورد له هذا الحديث!
ووافقه الحافظ ابن حجر في «اللسان» (٦ / ١٦)، ووقع في النسخة خلط يصحح من أصله.

وأورد الحديث السيوطي في «الدر المنثور» (٣ / ٣٠٣)، وزاد نسبه للذيل، ومنه أخذ المصنف تخريجه!

وقد جرب أن البغي من أقوى أسباب العداوة والبغضاء بين الأفراد، وإيقاد نيران الفتن والثورات في الأعرام، والباغي لا يعيش، ولا يدم، وينتل عرشه عاجلاً.

وأما بغي أهل أوروبا على أهل آسيا وظلمها عليهم؛ فسبب ظلم وبغي. أهل آسيا على أنفسهم؛ فإنهم غيروا أمر الله، وأشركوا بعبادة الله، واعتمدوا على غير الله من الأموات والأرواح، وتلقوا بفساد الأخلاق والتقاطع والتخاذل. وترك كل ما هدى الله تعالى إليه في كتابه من أسباب السيادة والاستخلاف في الأرض كما بثها عليه مراراً، ومن يستخيمونهم من ملوكنا وأمرائنا وحكامنا هم أشد علينا منهم أنفسهم، بل لم يسودوا ولم يغلبونا في قطر من أقطارنا إلا بمساعدة ساداتنا وكبرائنا إياهم علينا، ولوثبنا نحن إلى الله؛ لتأب الله علينا، ولكن أين ثوبتنا وقد وجد في زماننا من هم أشد شركاً وكفراً بالتميم والمقيم الواحد الأحد جل جلاله، وهم قوم يدعون غير الله من الأموات في أشد أوقات الضيق والشدة والخطر، ويدعون مع ذلك أنهم مسلمون، ويصلون ويحيون، بل يدعون أنهم العلماء والعرفاء والسادات الكاملون؛ لأنهم ينطقون بكلمة التوحيد الموروثة بألسنتهم، وهم لا يعقلون معناها، ولا يراعون حدودها وحقوقها، والله تعالى يقول: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾^(١).

والعبد الضعيف قد كتب ألفت رسالة في هذه المسألة، وسميتها: وحكم الله الواحد الصمد في حكم الطالب من الميت المدد^(٢)، وهي مطبوعة في

(١) محمد: ١٩.

(٢) وقضت عليها قديمة مأكلة الأوراق، وهي من محفوظات خزانة أخينا الشيخ ربيع ابن هادي.

مصر منشورة، وكذا تفسيري على سورة فاتحة الكتاب «وأوضح البرهان في تفسير أم القرآن»، وهذا مطبوع في مكة في مطبعة أم القرى، وكذا رسلنا المسماة «مفتاح الجنة لا إله إلا الله»^(١)، وكذا «البرهان الساطع في تبارك المتبرع» من التابع، المطبوعان في مصر، ففي كلها تحقيق هذه المسائل حتى التحقيق، فليكن بمطالعها أيها الطالب للحق، وبالله التوفيق.

الآية الثالثة عشرة فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢).

وهذا النداء والخطاب عام شامل أيضاً لعامة الناس كلهم.

وهذا الذي جاء من الله تعالى إنما هو القرآن، وهو موعظة وتذكرة من ربكم الرحيم، وشفاء لما في الصدور والقلوب من أمراض الشكوك والشبه والكفر والشرك والنفاق والمقائد الفاسدة الزائفة، ويحصل به الهداية والرحمة من الله تعالى، ولكنه إنما ينتفع به المؤمنون المصدقون العاملون، وفي حقهم يكون شفاء وهُدًى ورحمة.

فأينما بالله ورسوله وهذا الكتاب واهدوا بهديه، وهذا لا شك خير وأفضل من أموال الدنيا وخارجها الغانية كلها، ولكن أكثر الناس لَمَّا لم يؤمنوا بهذا الكتاب ولم يهتدوا بهديه؛ ابتلوا وتَلَوْنُوا بالشُّركِ وعبادة الأوثان والدُّجلِ

(١) وقد جُذِّتْ طبعها قريباً بتعليقات وتحقيقات مفيدة إن شاء الله، نشر المكتبة الإسلامية، عمان.

(٢) يونس: ٥٧.

والخرافات، فاستَحَقُّوا النَّارَ وبَشِ المصيرُ.

واعلم أن هذا الكتاب جامع لكل ما يحتاج إليه البشر؛ من موعظة حسنة لإصلاح أخلاقكم وأعمالكم الظاهرة والباطنة، وحكمة بالغة لإصلاح أخلاق أنفسكم وشفاء أمراضها الباطنة، وهداية واضحة للضوابط المستقيمة الموصلة إلى سعادة الدنيا والآخرة، ورحمة خاصة للمؤمنين هي شِجَّةٌ^(١) من رحمة رب العالمين العائمة للخلق أجمعين؛ يتراحمون بها فيما بينهم، فتكمل بها رحمته تعالى لهم ورحمته تعالى للعالمين برسوله إليهم.

نكسر الله تعالى هذه الكلمات الأربع: «موعظة»، «شفاء»، «هُدًى»، «رحمة»؛ لتعظيم أمرهن وكمالهن، فيجب الانعاطف بها إيماناً وتسليماً؛ لأنها من مالك أمر الناس ومربيهم بفضلهم ورحمته وعلية وحكمته:

الأولى: الموعظة؛ أي: الوصية بالحق والخير واجتناب الباطل والشر بأساليب الترغيب والترهيب التي يرق لها القلب، فتبعث على الفعل أو الترك.

الثانية: شفاء ما في الصدور؛ أي: شفاء جميع ما في القلوب من أدواء الشرك والكفر والنفاق والجهل وسائر الأمراض النفسية التي يضيئ الصدر بها؛ من شك في الإيمان، ومخالفة للوجدان، وإفساد للحقد والحسد والبغى، والعدوان، وحُب الباطل والظلم والشر، وبغض للخير والحق والعدل...

الثالثة: الهدى، وهو بيان الحق المنقذ من الضلال في الاعتقاد بالبرهان

(١) أي: مشتقة من الرحمن. انظر: «مقاييس اللغة» (٣/ ٢٤٨).

مانحز من حديث نبوي صحيح، رواه الإمام مسلم (٢٥٥٥) عن عائشة.

وفي الباب عن عدد من الصحابة.

وفي العمل بيان الحكيم والمصالح في أحكام الأعمال.

الرابعة: الرحمة للمؤمنين، وهي ما تثيره لهم هداية القرآن، وتفيض على قلوبهم من رحمة ربهم الخاصة، فمن آثارها: إغاثة الملهوف، وبذل المعروف، وكف الظلم، ومنع التعدّي والبغي... وغير ذلك من أعمال الخير والبر ومقاومة الشر.

وقد وصف الله تعالى المؤمنين بقوله: ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾^(١)، وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة^(٢)، وهذه الرحمة لا توجد على كمالها إلا في المؤمنين المهتدين، ولا يحرمها إلا الكافرون الماديون.

وكان الصحابة رضي الله تعالى عنهم من أرحم الناس بإخوانهم المؤمنين، مع شدتهم على الكافرين المعاندين؛ كعمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه.

وقد قال رسول الله ﷺ: «لا تنزع الرحمة إلا من شقي». رواه أبو داود، والترمذي^(٣).

(١) الفتح: ٢٩.

(٢) البلد: ١٧.

(٣) رواه: أبو داود (٤٩٤٢)، والترمذي (١٩٢٤)، وأحمد (٢ / ٣٠١ و ٤٦١)؛ من طريق منصور بن المعتمر عن أبي عثمان مولى المغيرة عن أبي هريرة: وهذا سند حسن؛ لحال أبي عثمان؛ فقد روى عنه جمع، وثقه ابن حبان، وصححه له جماعة. وأورد الحديث الحافظ ابن حجر في «الفتح» (١١ / ٤٧٨) وسكت عنه، وهو دليل الحسن عنده غالباً.

وقال ﷺ: «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، اِرْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ». رواه الترمذي، وأبو داود^(١).

وقد خاطب الله تعالى بهذه الآية أمة الدعوة المحمدية، وهم جميع الناس.

فموصفة القرآن وما فيه من شفاء أمراض الكفر والتفارق والردائل، وهدية إلى الحق والفضائل، موجّهات إلى جميع الناس، وخمس المؤمنين بما تثيره الثلاث من الرحمة؛ لأنهم هم الذين يتفهمون بها.

فيا أيها المؤمنون! انتفعوا بمواعظ ربكم، واستشفوا بها من أمراضكم بسلوك سبيلها؛ كي تكونوا أهلاً لرحمة الله الرحيم الكريم، فتفوزوا بسعادة الدارين.

الآية الرابعة عشرة فيها أيضاً: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ

(١) رواه: أبو داود (٤٩٤١)، والترمذي (١٩٢٤)، وأحمد (٢ / ١٦٠)؛ من طريق عمرو بن دينار عن أبي قابوس عن ابن عمر. وقال الترمذي: «حسن صحيح». وتعليقه الحافظ ابن حجر في «الإسراع بالاربعين المتبينة بشرط السماع» (ص ٦٤) بقوله: «وكانه صححه باعتبار المتابعات والشرايد، ولا؛ فأبو قابوس لم يروعه سوى عمرو ابن دينار، ولا يعرف اسمه، ولم يوثقه أحد من المتقدمين. قلت: وقد وثقه ابن حبان، فكان الحافظ لم يعتد به! وهو به - في مثله - حقيق! وانظر: «المجلس الأول من مجالس ابن ناصر الدين» (ص ٥٩ - ٦٩)، و«السلسلة الصحيحة» (رقم ٩٢٥).

ديني فلا أعبدُ الذينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِنِ اعْبُدِ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ^(١).

يقولُ اللهُ تعالى لرسوله محمد ﷺ آمراً إِيَّاهُ: قُلْ يَا مُحَمَّدُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ! إِنَّ كُتُبَكُمْ فِي شَيْءٍ مِنْ صَحِّحَةٍ مَا جِئْتُكُمْ بِهِ مِنَ الدِّينِ الْحَنِيفِ الَّذِي أَوْحَاهُ اللَّهُ تَعَالَى إِلَيَّ، وَلَكِنِّي عَلَى يَقِينٍ أَنَّ مَا جِئْتُ بِهِ حَقٌّ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، فَأَنَا لَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَهُمْ أَنْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنَ المَلَائِكَةِ أَوِ الرُّوحَانِيِّينَ أَوِ الْأَوْلِيَاءِ أَوْ أَيِّ شَيْءٍ كَانَ، وَلَكِنْ إِنَّمَا أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ، وَأَنَا مُؤْمِنٌ بِاللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

وهذا الخطابُ عامٌّ لجميعِ البشر؛ عربهم وعجمهم، مغربيهم ومشرقيهم، فأكثرُ الناسِ مِنَ الهِنْدِ والصِّينِ والجَابَانِيِّينَ وَالْإِفْرِيقِيِّينَ وَالْأَوْرُوبِيِّينَ وَالْأَمْرِيكَانِيِّينَ وَالرُّوسِيِّينَ وَأَمْثَالِهِمْ لَمَّا لَمْ يَفْهَمُوا كَلَامَ اللَّهِ رَبِّهِمْ وَلَمْ يَعْتَنُوا بِهِ؛ لَمْ يَعْرِفُوا رَبَّهُمْ حَقَّ الْمَعْرِفَةِ، فَأَشْرَكُوا بِهِ شُرَكَاءَ مِنَ الْعُلُوفِ وَالشُّغْلَانِ؛ تَقْلِيداً لِأَبَائِهِمْ، أَوْ اكْتِفَاءً بِعَقُولِهِمْ وَأَرَادِيهِمْ، فَهَؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ لَمَّا يَرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنَّ الْحَيَوَانَاتِ الْعُجْمَ تَصِيرُ تُرَاباً بَعْدَ الْقِصَاصِ؛ يَقُولُونَ: يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَاباً!^(٢) وَأَنَّى لَهُ ذَلِكَ؟ بَلْ مَصِيرُهُ إِلَى النَّارِ وَبَشَرُ الْمَصِيرِ؛ لِمَاذَا؟ لِأَنَّهُمْ ضَيَّعُوا أَهْلِيَّتَهُمْ لِلْإِيمَانِ بِاللَّهِ تَعَالَى وَفُتِمَ كَلَامُ رَبِّهِمْ الْعَلِيمِ الْحَكِيمِ. فَتَنَّبَهُ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ! وَلَا تُضَيِّعْ أَهْلِيَّتَكَ فِي الْخُسْرَانِ.

(١) يونس: ١٠٤.

(٢) كما حكاه سبحانه عنهم في البأ: ٣٧-٤٠، وانظر ما سبق (ص ٢٦).

الآيَةُ الْخَامِسَةُ عَشْرَةُ فِيهَا أَيْضاً: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ^(١)﴾.

وهذا الخطابُ عامٌّ أَيْضاً، قَدْ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ أَنْ يَخْبِرَ النَّاسَ كُلَّهُمْ وَيَقُولَ لَهُمْ: إِنَّ الدِّينَ الَّذِي جَاءَهُمْ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى هُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَا مَرِيَّةَ فِيهِ وَلَا شَكَّ فِيهِ، فَمَنِ اهْتَدَى بِهِ وَأَمَنَ وَاتَّبَعَهُ؛ فَإِنَّمَا يَعُودُ نَفْعُ ذَلِكَ الْإِتْبَاعِ عَلَى نَفْسِهِ، وَأَمَّا مَنْ ضَلَّ عَنْهُ وَلَمْ يَهْتَدِ بِهِ وَلَمْ يَتَّبِعْهُ وَتَمَادَى عَلَى كُفْرِهِ وَشُرْكَهِ وَعَتَادِهِ بِاتِّبَاعِ آبَائِهِ وَأَحْبَارِهِ وَرَهْبَانِهِ؛ فَإِنَّمَا يَرْجِعُ وَبَالَ ذَلِكَ عَلَيْهِ.

فَأَنْتَ يَا مُحَمَّدُ قُلْ لَهُمْ: مَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ وَمَوْكَلٍ حَتَّى تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ بِهِ، وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ لَكُمْ، وَالْهَدَايَةُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، فَمَنْ هَدَاهُ اللَّهُ تَعَالَى وَوَزَّقَهُ التَّوْفِيقَ؛ يَكُونُ مِنَ الْمُحْفَظَاتِ وَأَهْلًا لِرَحْمَةِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَرِضَاهُ وَجَنَّتِهِ، وَأَمَّا مَنْ أَضَلَّهُ اللَّهُ تَعَالَى؛ فَهُوَ مِنَ الْمَحْرُومِينَ مِنَ الرَّحْمَةِ وَالْجَنَّةِ، بَلْ يَكُونُ مِنَ الْخَاسِرِينَ الْهَالِكِينَ، الَّذِينَ هُمُ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ.

الآيَةُ السَّادِسَةُ عَشْرَةُ فِي سُورَةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿وَإِذْ نَادَى النَّاسَ يَوْمَ أَيُّهُمْ الْمَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نَجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرَّسُولَ أَوَّلَمَ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ^(١)﴾.

(١) يونس: ١٠٨.

(٢) إِبْرَاهِيم: ٤٤.

قد أمر الله تعالى محمداً ﷺ أن يُبَيِّنَ للناس كلَّهم ويخوِّفهم عذاب يوم القيامة؛ ليحتجوا في تخليص أنفسهم منه.

وهذا الخلاص إنما يحصل بالإيمان بالله ورسوله وكتابه، والاهتداء به، وأتباعه؛ لأن الظالمين والكافرين سَيِّدَمُونَ ذلك اليوم لما يرون العذاب، ويقولون: ربنا أخرجنا إلى أجل قريب؛ نُجِبْ دَعْوَتَكَ، وَتُؤْمِنْ بِكَ، وَتَتَّبِعِ الرُّسُلَ محمداً ﷺ فمن قبله، ولكن لا يستجاب لهم؛ لأنهم كفروا وظلموا أنفسهم في دار التكليف، وافتتنوا بذنوبهم وما هم فيه من شؤون الملك والرياسة والمال والجاه والأنبياء، فيقال لهم: أولم تكونوا أيها الظالمون المعاندون الكافرون المنكرون مغرورين ومفتونين؟ وتَدْعُونَ أُنْكُمْ على الحق؟ وتَقْسِمُونَ أَنَّكُمْ مستمرون على ما أنتم عليه من العقيدة والمذهب والعمل ما لكم من زوال؟ فالיום لا ينفعكم الندم ولا التوبة؛ لأنه يوم الجزاء.

الآية السابعة عشرة فيها أيضاً: ﴿هَذَا بَلَغَ النَّاسِ وَلِيُعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (١).

يعني أنَّ هذا القرآن العربي بلَّغَ للناس كلَّهم؛ غريبهم وعجمهم، شرفهم وغربهم، يُبَلِّغُهُ مُحَمَّدٌ ﷺ لجميع الخلق أجمعين؛ من إنس وجن؛ ليُخْرِجَ به النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ، مِنْ ظُلُمَاتِ الْجَهْلِ وَالشُّكِّ وَالشَّرِكِ والخرافات إلى نور الإيمان والتوحيد، فمن آمن به وصدقهم ما فيه من الأوامر والنواهي والحكم الإلهية؛ فقد فاز فوزاً عظيماً، ومن تدبره وتذكره؛ يَعلَمُ يقيناً

(١) إبراهيم: ٥٢.

أَنَّ اللَّهَ إِلَهُ وَاحِدٌ، لَا مَعْبُودَ [بِحَقِّ] سِوَاهُ، كَمَا أَنَّه لَا خَالِقَ سِوَاهُ، وَلَا رَازِقَ سِوَاهُ، وَلَا رَبَّ سِوَاهُ.

فيا أيها الناس! إنَّ فِيهِمْ كَلَامَ رَبِّكُمْ الرَّؤُوفِ اللَّطِيفِ الرَّحِيمِ الْحَكِيمِ؛ فَلَكُمْ الْحِطُّ الْأَوْفَرُ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ، وَإِلَّا فَانْتُمْ مِنَ الْمَحْرُورِينَ الْخَاسِرِينَ.

وهذا الأمر الإلهي يرشدنا إلى أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ عَمُومًا، والعلماء ورثة الأنبياء (١) خصوصاً، أَنْ يَبْلُغَ كُلُّ فَرْدٍ مِنْهُمْ كَلَامَ الْقُرْآنِ إِلَى مَنْ يَلِيهِمْ مِنَ النَّاسِ، وَيُفْهَمُوهُمْ مَعْنَاهُ، وَيُتَّبِعُوا نَتَائِجَ الْعَمَلِ وَالْإِيمَانِ بِهِ، وَيُوضِّحُوا وَحَاةَ حَالِ مَنْ كَفَرَ بِهِ وَخَالَفَهُ أَوْ جَهِلَ مَعْنَاهُ.

وهذا هو الواجب على كُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ.

وَأَمَّا إِذَا لَمْ يُؤَدُّوا هَذِهِ الْوُظُفَةَ، وَتَسَاهَلُوا فِيهِ، أَوْ ضَيَّعُوا أَعْمَارَهُمْ فِي الْفَلَسَفَةِ وَالْأَدْبِيَّاتِ كَمَا هُمْ عَلَيْهِ الْيَوْمَ؛ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ تَعَالَى وَرَسُولَهُ وَعَامَّةَ الْخَلْقِ أَجْمَعِينَ، فَتَنَبَّهُ وَتَذَبَّرْ.

الآية الثامنة عشرة في سورة النحل: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٢).

(١) قطعة من حديث رواه: أبو داود (٣٦٤١)، وابن ماجه (٢٢٣/٢٦٨٣)، وأحمد (١٩٦/٥)؛ عن أبي الفداء بسند حسن.

وأوله: وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسْ مِنْهُ عِلْمًا، وَهُوَ مُخْرِجٌ فِي «الْإِسْلَامِ» (٢١٧٦٣).

(٢) النحل: ٤٤.

وهذا خطابٌ لرسول الله محمد ﷺ؛ أمراً إياه ليتبين للناس كلهم؛
عربهم وعجمهم، ما أنزل الله تعالى إليه من القرآن، لعل هؤلاء الناس يتفكرون
فيه، ويتدبرون معانيه، ويتفهمون بإرشاداته، فيهدوا، فيفوزوا بالنجاة والسعادة
في الدارين.

فأنت يا رسولي محمد ﷺ تفصل لهم ما أجيّل، وتبين لهم ما أشكّل
فالنبي ﷺ قد بين للناس كلهم كل ما في الذكر الحكيم من الأوامر
والنواهي والمصالح، فالأحاديث النبوية قولية وفعلية كلها بيان لما في القرآن
الحكيم.

فعليك أيها الإنسان أن تتعلم القرآن والأحاديث النبوية بالتدبر والتفكير
والفهم والتأمل؛ لتقف على حقائق الدين والإسلام كما هي، وتكون من
المحظوظين الفائزين، رزقي الله تعالى وإياك فوز الدارين.

فمن لا يعلم معنى القرآن، ولم يتدارس أحاديث رسول الله ﷺ، ولم
يطلع على كتب السنة والصحاح والمسانيد والسُنن؛ فهو لم يعرف من الدين
والإسلام إلا اسمه، كمن اغتر بالقشر الخالي عن اللب، وهذا لا شك من
المحرومين؛ لأنه محروم عن فهم الدين، ومحروم عن فهم كلام رب
العالمين، ومحروم عن فهم معاني أحاديث رسول الله ﷺ.

فتدبر أيها الإنسان بماذا يمتاز الإنسان عن الحيوان، وبماذا يمتاز الموحّد
المؤمن عن المشرك الكافر.

الآية التاسعة عشرة في سورة الإسراء: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا
الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَيُّ أَكْثَرِ النَّاسِ إِلَّا كُفْرًا﴾^(١).

أي: بينا للناس كلهم - عربهم وعجمهم - الحجج والبراهين الغاطمة،
ووضحنا لهم الحق، وشرحناه وبسطناه من كل وجه؛ من العبر والحكم
والأحكام والوعد والوعيد؛ ليعملوا عقولهم، ويفهموا ذلك، ولكن أي أكثر
الناس عن الإيمان به، وتدبر معانيه، إلا كفوراً؟ أي: جُحوداً للحق وإعراضاً
عنه، فبدّلوا نعمة الله كُفراً، واعتدوا على ما كتب أسلافهم من الفلسفة
والسفسطة^(٢) من الأشعار والدواوين والأغلوطين^(٣)، وطنوها حكماً وديناً وفضلاً
وكمالاً، وبذلك صاروا محرومين عن فهم كلام رب العالمين، وتمادوا على
كفرهم وضلالهم وشركهم وهم لا يشعرون، ولهذا يقولون يوم القيامة حين يُلقَوْنَ
في جهنم: ﴿والله ربنا ما كنا مُشركين﴾^(٤).

فمن كان في هذه الحياة الدنيا أعمى عن حُجج الله وآياته ويثبت فهو في
الآخرة أعمى وأضل سبيلاً^(٥)؛ عياداً بالله من ذلك.

(١) الإسراء: ٨٩.

(٢) انظر في بيانها «المتقى النفيس» (ص ٦٥ - ٦٧).

(٣) هي ما يُغلّف به من المسائل. «مختار الصحاح» (ص ٤٧٨).

(٤) وفي النهي عنها حديث لا يصح، رواه: أبو داود (٣٦٥٦)، وأحمد (٤٣٥ / ٥)،
والطبراني في «الكبير» (١٩ / ٣٨٠)، وسعيد بن منصور في «سننه» (١٧٩)، وغيرهم؛
عن معاوية، وفي سننه عبدالله بن سعد، وهو مجهول، وهو مخرّج في «الإمام»
(٢٣٣٧).

(٥) الأنعام: ٢٣.

(٥) إشارة إلى الآية ٧٢ من سورة الإسراء.

فهذه الآية تفيد أنه يجب على كل إنسان معرفة ربه، والإيمان به وبرسوله، ومعرفة كلامه معرفة تامة، وهذا لا يختص به شخص دون شخص، وفرد دون فرد؛ كما لا يخفى، فتدبر.

والعجب أن كثيراً ممن يدعون العلم والدين ويقولون القرآن كثيراً لا يفهمون من معاني القرآن إلا شيئاً يسيراً، ولا يمتحنون بفهم معانيه اعتناءهم بفهم كتب الفلسفة والمعميات والألغاز، بل يعتقدون أن فهم معانيه متعذر في هذه الأزمنة؛ لانسداد باب الاجتهاد، وإنما يعرف معنى القرآن والحديث الأئمة المجتهدين، وهم قد انقضوا منذ تاريخ أربع مئة عام، فنحن لا نعمل إلا بما قاله وكتبه من قبلنا من أثبتنا، فبذلك صاروا محرومين عن فهم كلام ربهم الرحمن الرحيم، فلماذا ترى أن أكثرهم ابتلوا بالشرك الأكبر والكفر الأوضح؛ كدعاء الأموات والاستمداد من أهل القبور وهم لا يشعرون؛ كما لا يخفى على من له أدنى عقل ودين.

الآية المشرونة في سورة الكهف: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا . وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأُولَى أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا﴾ (١).

فيا أيها الإنسان! إن ربك جل جلاله قد بين للناس في هذا القرآن طريق الحق، ووضح الأمور كلها وفضلها؛ كيلا تضل فتشقى، وأنت تكثير الجدال

(١) الكهف: ٥٤ - ٥٥

والمعارضة للحق بالباطل، وتقول: إن آباءنا وأسلاننا ما كانوا يعرفون الدين والإسلام قبل أن نعرفه أنت، وإن الشيخ الفلاني كان أعلم منك؛ لأنه كان سيداً عظيماً، وأكبر منك سناً.

فهذه المجادلات الباطلة صار تقليدهم الجامد لأبائهم سبباً لتزكيم الإيمان بالله وحده، فهم لا يرجعون ولا يتوبون إلا أن تأتيتهم سنة الأولين - وهي إهلاكهم إن لم يؤمنوا -، أو يأتيتهم العذاب قبلاً؛ كما أهلك قوم نوح بالطوفان وأغرقهم أجمعين.

وهذا ابن نوح رسول الله ﷺ لما لم يؤمن ولم يتب؛ لم ينفعه كونه ابن رسول الله، فيه عبرة عظيمة للذين يعتمدون على النسب، ويفتخرون بأنهم الأسياد أو الشرفاء، ولا يؤمنون بالله وحده، ولا يمتثلون أمره.

ولهذا قال علي رضي الله عنه:

إِنَّ الْفَسَى مَنْ يَقُولُ مَا أَنَا ذَا لَيْسَ الْفَسَى مَنْ يَقُولُ كَانَ أَبِي وَقِيل:

وَلَا يَنْفَعُ الْأَصْلَ مِنْ هَاشِمٍ إِذَا كَانَتِ السُّقْسُ مِنْ بَاهِلَةٍ وَكَمَا أَهْلَكَ قَوْمَ عَادٍ وَثمودَ وَقَوْمُ نِيعٍ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ، وَكَمَا أَهْلَكَ أَبَا جَهْلٍ وَشَيْبَةَ وَرَبِيعَةَ، وَكَمَا أَهْلَكَ كَسْرَى وَقَيْصَرَ، وَهَكَذَا كُلُّ ظَالِمٍ مُعَانِدٍ يَهْلِكُهُ اللَّهُ تَعَالَى وَيَأْخُذُهُ أَخْذُ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ.

فيا أيها الناس! تعلموا كلام ربكم، واتعظوا بمواعظه، واستغفروه على ما مضى من الذنوب، فإن تبتم؛ تاب الله عليكم، وإن أصررتم على ما أنتم عليه،

وافتتحت بزعارفتكم واختصارتكم، أو ما علمتُم أنها استدراج فتستكون سبياً
لنداماتكم حيث لا يفتنكم الندم.

الآية الحادية والعشرون في سورة الحج: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ
زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ (١).

وهذا خطاب عام لجميع الناس، فيا أيُّها الناس اتَّقوا ربَّكم الذي
خَلَقَكُمْ، وأَوْجَدَكُمْ مِنَ الْعَدَمِ، وصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ، وَرَكَّبَ فِيكُمْ الْعَقْلَ
وَالْفَهْمَ وَالْإِدْرَاكَ؛ أَي: فاحذروا عقابه بطاعته، فآمنوا به، ووحدوه، وخصصوا
العبادة له تعالى وحده، ولا تُشركوا به شيئاً، ولا ملكاً مقرباً، ولا نبيّاً مرسلًا، ولا
وليّاً من الأولياء، ولا تتخذوا له تعالى ندّاً، ولا تكونوا ممن يعبد الله على حرف،
ولا تجادلوا في الله ودينه بغير علم، لأن زلزلة الساعة شيء عظيم.

وهذه الساعة آتية قرينة لا ريب فيها، فاحذروا، ولا تتبعوا كلَّ شيطانٍ
مريد؛ مِنَ الرُّهْبَانِ وَالْأَحْبَارِ الْأَكَاكِينِ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ، وشيوخ الطرقِ
الدُّجَالين، والساداتِ الملحدين، والرؤساءِ الجاهلين، فاتَّقوا - أيها الناس -
ربكم وحده لا شريك له.

فالنَّاسُ كُلُّهُمْ مَخَاطِبُونَ وَمَكَلَّفُونَ فَبِهِمْ هَذَا الْخُطَابُ وَأَمْثَالُهُ مِنَ الْخُطَابَاتِ
الْعُمُومِيَّةِ، فَمَنْ فَهَمَهُ وَعَمِلَ بِهِ؛ فَقَدْ فَازَ فِي الدَّارَيْنِ، وصار مِنَ الْمُحْظُوظِينَ،
وَأَمَّا مَنْ أَعْرَضَ عَنْ فَهْمِهِ وَلَمْ يَعْمَلْ بِهِ؛ فَقَدْ صَارَ مِنَ الْمَحْرُومِينَ الْخَاسِرِينَ،

(١) الحج: ١.

وكذا مَنْ عَمِلَ بَعْضَهُ وَخَالَفَ بَعْضَهُ؛ كَأَكْثَرِ مَنْ يَدْعِي الْإِسْلَامَ مِنْ مُسْلِمِي هَذِهِ
الْأَعْصُرِ.

الآية الثانية والعشرون في سورة الحج أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي
رَيْبٍ مِنَ الْبُعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ نَرَابٍ ثُمَّ مِنْ نَظْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ
مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لَيْسَ لَكُمْ فِي الْآيَةِ (١).

وهذا الخطاب عام أيضاً لجميع بني آدم؛ أَحْرَمِهِمْ وَأَبْيَضِهِمْ، وَشَرَفِهِمْ
وَعَرِيبِهِمْ، وإعلامٌ منه تعالى أَنَّ كُلَّ فَرْدٍ مِنْهُمْ قَدْ خَلَقَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى وَأَصْلَهُ مِنْ
نَرَابٍ، وهو آدم أبو البشر عليه الصَّلاة والسلام، ثُمَّ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ نَظْفَةٍ مَتَّى .

فِيرْشُدُ اللَّهُ تَعَالَى النَّاسَ كُلَّهُمْ إِلَى أَنْ يَسْتَعْمِلُوا عَقُولَهُمْ، وَيَسْتَدْلُوا بِوُجُودِ
أَنْفُسِهِمْ وَسَائِرِ الْمَوْجُودَاتِ عَلَى وَجُودِ اللَّهِ تَعَالَى خَالِقِهِمْ وَوَحْدَانِيَّتِهِ وَقُدْرَتِهِ
وَعِلْمِهِ، وَهَذَا لَا يَحْصُلُ إِلَّا بِفَهْمِ كَلَامِهِ الْعَرَبِيِّ الْمُنَزَّلِ مِنْهُ تَعَالَى عَلَى رَسُولِ
اللَّهِ ﷺ.

الآية الثالثة والعشرون فيها أيضاً: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ
مِثْلُكُمْ﴾ (١).

أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ أَنْ يَخَاطِبَ النَّاسَ كُلَّهُمْ قَائِلاً: إِنَّمَا أَنَا

(١) الحج: ٥.

(٢) الحج: ٤٩.

لكم نذير مبين؛ أَي: إِنَّمَا أَرْسَلَنِي اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْكُمْ جَمِيعاً؛ نَذِيراً لَكُمْ، وَمَخَوَفاً
إِيَّاكُمْ بَيْنَ يَدَيِ عَذَابٍ شَدِيدٍ، فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ، وَلَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً؛ لَا فِي
الرُّبُوبِيَّةِ، وَلَا فِي الْخَالْقِيَّةِ، وَلَا فِي الْأَلوهِيَّةِ وَالْعِبَادَةِ.

وَأَمَّا إِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَمْ تُرْجِعُوا؛ فَاللَّهُ تَعَالَى يَعَذِّبُكُمْ عَذَاباً شَدِيداً فِي نَارِ
جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً، وَلَيْسَ إِلَهِ مِنْ حِسَابِكُمْ مِنْ شَيْءٍ، فَأَمْرُكُمْ إِلَى اللَّهِ
وَحْدَهُ، إِنْ شَاءَ عَجَّلَ لَكُمْ الْعَذَابَ، وَإِنْ شَاءَ أَخَّرَهُ عَنْكُمْ، فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ، وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِ اللَّهِ مُعَاجِزِينَ
يُطِطُّونَ النَّاسَ عَنْ مُتَابَعَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَالْعَمَلِ بِسُنَّتِهِ؛ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ.

الآية الرابعة والعشرون فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبٌ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ
إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ
الذُّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَفِيدُوا مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ﴾^(١).

يُخَاطَبُ اللَّهُ تَعَالَى عَامَّةَ النَّاسِ؛ عَرَبِهِمْ وَعَجَمِهِمْ، ذَكَرَهُمْ وَأَنَاءَهُمْ،
عَالِمَهُمْ وَجَاهِلَهُمْ، وَيَأْمُرُهُمُ بِالِاسْتِمَاعِ لَهُ وَتَفَهُمِ مَا يَقُولُ مِنَ الْمَثَلِ.

أَنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ فِي عِبَادَتِكُمْ أَوْ طُلَابِكُمْ وَقَضَاءِ حَاجَاتِكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ
مِنْ الْمَلَائِكَةِ أَوْ الْكَرُوبِيِّينَ أَوْ الرُّوحَانِيِّينَ أَوْ الْأَنْبِيَاءِ أَوْ الْأَوْلِيَاءِ أَوْ أَيِّ مَدْعُو كَان، لَنْ
يَسْتَطِيعُوا أَبَداً، وَلَا يَقْدِرُونَ قَطْعاً، أَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً، وَلَوْ اجْتَمَعَ أَوْلَهُمْ وَأَخْرَهُمْ
لَاجِلِ ذَلِكَ، وَالْحَالُ أَنَّهُ أَصْغَرُ الْمَخْلُوقَاتِ وَأَضْعَفُهَا، وَإِنَّمَا خَلَقَهُ اللَّهُ تَعَالَى
لِإِذْلَالِ الْجِبَارِينَ وَالتَّكْبِيرِينَ، ﴿وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَفِيدُوا مِنْهُ

(١) الحج: ٧٣.

ضَعُفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ﴾.

فَيَا أَيُّهَا النَّاسُ! إِنْ كَانَ الْأَمْرُ هَكَذَا؛ كَيْفَ ظَنَنْتُمْ فِي بَعْضِ الْمَخْلُوقِينَ
وَأَعْتَقَدْتُمْ أَنَّهُ بِضَرْبِكُمْ أَوْ بِفِعْلِكُمْ أَوْ بِنَفْعِكُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ، فَعَبَدْتُمُوهُمْ، وَنَذَرْتُمْ
لَهُ، أَوْ تَوَجَّهْتُمْ إِلَيْهِ، فَأَتَّخَذْتُمْ هَذِهِ الْأَنْدَادَ وَهَذِهِ الْأَصْنَامَ وَهَذِهِ الْأَوْثَانَ وَهَذِهِ
الْقُبُورَ الَّتِي يَنْتَحِلُ عَلَيْهَا الْقَبْرُ وَالنِّبَاتِ الشَّامَخَاتُ^(٢)، وَجَلَسْتُمْ مُتَوَجِّهِينَ إِلَيْهَا،
رَاجِينَ مِنْهُمْ وَسَائِلِينَ إِيَّاهُمْ وَخَافِينَ مِنْهُمْ، وَقَدْ أَخَذَ الشَّيْطَانُ عَقُولَكُمْ وَزَيَّنَ لَكُمْ
الشُّرْكَ بِاللَّهِ فَأَشْرَكْتُمْ بِرَبِّكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ؛ لَأَنْكُمُ جَهَنَّمُ مَعَانِي كِتَابِ رَبِّكُمْ
الْحَكِيمِ الْعَلِيمِ، وَأَخْرَجْتُمْ أَنْفُسَكُمْ عَنْ حَيِّزِ الْإِنْسَانِيَّةِ إِلَى حَضِيضِ الْحَيَوَانِيَّةِ،
بِلِ سَعِيرِ الشَّيْطَانِيَّةِ، فَمَثَلُكُمْ يَقُولُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَمَا يَرُونَ الْحَيَوَانَاتِ تُصَوِّرُ تَرَاباً
يَسْأَلُونَ إِلَى جَهَنَّمَ: يَا لَيْتَنَا كُنَّا تَرَاباً؛ لَأَنْكُمُ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِتَضْيِيعِكُمْ أَهْلِيَّتَكُمْ
لِلْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَفَهْمِ خَطَابِهِ، فَلَا تَلْمِزُوا إِلَّا أَنْفُسَكُمْ أَيُّهَا الْمَجْرُمُونَ، وَتَفَكَّرُوا يَوْمَ
فِي هَذِهِ الْأُمُورِ نَتِيباً؛ لِتَدَارَكَ ذَلِكَ قَبْلَ الْفَوَاتِ.

الآية الخامسة والعشرون في سورة الروم: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا
الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّ جِهَنَّمَ بَابٌ لِمَقُولِ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا
مُتَبَدِّلُونَ﴾^(٣).

وهذا التمثيل عام لجميع الناس؛ ليعتبروا ويتعظوا فيهدتوا ويتفقهوا،

(١) وفي كتاب ومعارج الآباب في مناهج الحق والصواب، للشمسي تفصيل هذه
المسألة، فانظره بتفريحي، نشر مكتبة المعارف، الرياض.

(٢) الروم: ٥٨.

ولكن أكثرهم لم يتعظوا ويهتدوا ويتفعلوا من خُبث عقيدتهم وتقليدهم لأسلافهم الجاهلين الخاسرين الذين اتَّخذوا الخرافات والتُّرَاهُت ديناً، ويقولون في حقِّ الرسل الذين جاؤوا بالبيَّاتِ والحجج الواضحات: ليس هؤلاء إلا مُبْطَلُونَ مَزُورُونَ كَذَّابُونَ، كذلك يطعنُ الله على قُلُوبِ الذين لا يعلمون، ولا يظنون علمَ الدين، ولا يجتهدون لفهم كلام ربِّ العالمين، بل يصرون على الخرافات التي اعتقدوها، والتُّرَاهُت التي ابتدعوها، كما لا يخفى. فتدبر.

الآية السادسة والعشرون في سورة لقمان: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَانٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا تَغُرَّنَّكُمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾^(١).

وهذا خطابٌ ونداءٌ عامٌ لكافة البشر، أسودهم وأبيضهم وأصفرهم، قد أمرهم الله تعالى بأن يتقوا ربهم الذي خلقهم، ويؤمنوا به، وكتبابه الذي أنزله، ونبيه الذي أرسله، وأمرهم أن يخشوا عذاب يوم الجزاء، ولا يفتخروا بأولادهم وأموالهم وكثرة أتباعهم؛ فإن في ذلك اليوم لا يجزي والدٌ عن ولده ولا مولودٌ عن والده شيئاً، ولا يسألُ حميمٌ حميماً، ففرق بين الجَنَّةِ وفريق في السَّعِيرِ.

وهذا وعْدٌ من الله حقٌّ لا ريب فيه، فلا تغرَّنكم زينة الحياة الدنيا، وأموالها، وأولادها، وعسارتها الشامخة، وحكماتها المستبدة، والمذاهب المبتدعة، والطُّرُق المخترعة، وجميع المريدين والأتباع والتلامذة؛ فإنها كلها فانية زائلة، بل غالبها وبالأغلب على أربابها، ففي ذلك يقولُ المغرورُ الكافر بالله

(١) لقمان: ٣٣.

وكتابه ورسوله: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِي . هَلْكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ﴾^(٢).

فيا أيُّها الإنسان! اتقِ الله حقَّ التقوى، واجتهد في فهم كلام ربِّ العالمين، وامتنال أمره، حتى لا تكون من المحرومين الخاسرين؛ لأنَّ الإنسان - والله العظيم - لفي خسِرٍ وخُسْرانٍ؛ إلَّا الذين جمعوا الأوصاف الأربعة وأنصفوا بها، فمن جَمَعَهَا فهو الناجي الرابع الفالح صاحبِ الحظِّ العظيم.

ولا شك أنَّ ذلك كله موقوفٌ على معرفة معاني القرآن معرفةً صحيحةً، وهذا لا يحصلُ إلَّا بالتعلُّم، والإنسان أهلٌ لذلك، ولهذا قد خاطبهم الله تعالى وأمرهم ونهاهم، وأما إذا لم يعرف الإنسان معنى كلام ربِّه معرفةً صحيحةً، فلا يمكنُ له عبادة الله حقّاً وصدقاً، فلا ينفعه قيامه في الأماكن المقدَّسة، ولا الطواف حول الكعبة؛ فإنَّ أباً جاهلٍ وأباً لهبٍ كانا من ساكنيها، فتدبر.

نحن قد شاهدنا وتربَّنا في هذا العصر أنَّ كثيراً من الدُّجاليين، وإنَّ زُطُنًا^(٣) برطانة العرب، ولكنهم يعتقدون أنَّ الرسول ﷺ صلى الله عليه وسلَّم يعلمُ الغيب، وأنَّ روحَ عبدالقادر الجيلاني^(٤) يتصرَّف في العالم، ويغيثُ من استغاث به، وهو القوَّةُ الأعظمُ... وهكذا له أمثلة كثيرة!

ولا شك أنَّ هذا الاعتقاد هو الشرُّ الأكبر، الذي لا يغيِّره الله تعالى

(١) الحاقة: ٢٨ - ٢٩.

(٢) تكلُّبوا.

(٣) توفي سنة (٥٥٦هـ)، طوَلُ الذهبي في «سير أعلام النبلاء» (٢٠ / ٤٣٩ - ٤٥١) ترجمته، وختمها بقوله: «وفي الجملة: الشيخ عبدالقادر كبير الشأن، وعليه تأخذ في بعض أقواله وادعائه، والله الموعِد، وبعض ذلك مكذوب عليه».

قلت: فمعظم هذه الأحوال التي جيَّكَت حوله هي من جهلٍ من ينتسبون إليه!

أصلاً، ومع ذلك هم مقيمون بالبلاد المقدسة والحرمين الشريفين، فإذا؛ من لم يفهم القرآن فهماً صحيحاً، ولم يتدبر ولم يتفكر فيه؛ لا ينتفع به كما لا يخفى، فيكون القرآن حجة عليه، ولا يغتر بأقوال الناس إلا المغرور المفتون.

الآية السابعة والعشرون في سورة سبأ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(١).

فكافة الأدميين - عربهم وعجمهم - مكلّفون بالإيمان بمحمد رسول الله ﷺ، وأنّه رسول الله، وأن القرآن أنزله الله تعالى إليه وحياً بواسطة جبريل عليه السلام؛ بشيراً للمؤمنين بالرضا والرضوان، ونذيراً للكافرين والزنادقة المملحين باللعنة والنيران، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ذلك؛ لغلبيّة الجهل عليهم، فيخالفون لهذا الرسول، فلا يتبعون سنته، ولا يتعلمون دينه وكلامه، ولو كانوا يعلمون حقيقة الأمر؛ لامنوا به، واتبعوا النور الذي أنزله الله تعالى إليه، وتعلموا وتفهموا كلامه بالاعتناء التام، فنبّه.

الآية الثامنة والعشرون في سورة فاطر: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّقُوا اللَّهَ تَتَّقُونَ﴾^(٢).

(١) سبأ: ٢٨

(٢) فاطر: ٣.

هذا الخطاب عام أيضاً لجميع الناس؛ شرقهم وغربهم، عالمهم وجاهلهم، وقد أمرهم الله تعالى جميعاً أن يذكروا ويتذكروا بنعم الله التي أنعمها عليهم؛ فإنّه هو الذي خلقهم، ورباهم، ورزقهم، وهياً لهم الأسباب، هل من خالق غير الله؟ كلا؛ لا خالق إلا هو وحده لا شريك له، ولا متصرف في الكون إيجاداً وإعداماً إلا هو وحده، فلا تعبدوا إلا هو وحده؛ فإنّه المستحق للعبادة حقاً.

فإن كان الأمر في الواقع هكذا؛ فأتى تؤفكون أنتم أيها المنكرون الجاهلون، وتشركون به تعالى في عبادته غيره، فتدعون غيره، وترجون من غيره، وتخافون من غيره، وتتذرون لغيره، وتحجون لبيت غيره وتطوفون بمرقده؛ أما تفيقون من سكرتكم؟ أما تفيقون عند حدكم في العبودية له تعالى وحده؟

ولما جهل الناس خطاب ربهم، فضّلوا وأضلّوا كما هو الشائع الدائع؛ صاروا يعبدون الأصنام والأنداد والقبور والمشاهد والأرواح؛ لأنهم ضيعوا عقولهم بتقليد آحبارهم ورجالهم وروسائهم، فصاروا من المحرومين، وإن ظنوا في هذه الحياة الدنيا أنهم من المحظوظين، والظن لا يغني من الحق شيئاً.

الآية التاسعة والعشرون فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّكُمْ الْهَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ. إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾^(١).

(١) فاطر: ٥ - ٦.

هذا خطاب عام أيضاً لكافة البشر أجمعين، وتنبه لهم أن لا يغترون بهذه الحياة الدنيا وزينتها ودولتها وشوكتها؛ فإنها كلها ذئبة فانية زائلة، وإنما الباقي ما أعدّه الله تعالى لأوليائه المؤمنين في دار الآخرة من الخير العظيم، ولا يغرنكم الشيطان، ويصرفكم عن الإيمان بالله وحده، وأتباع الرسول ﷺ؛ لأنه هو العدو المبين لكم؛ يجهت في إهلاككم الأبدى الدائم، فلا تطيعوه أصلاً، بل اتخذوه عدواً؛ لأنه إنما يدعو ويرغب حزبه ومن يطيعه ليكونوا كلهم من أصحاب الشيعر.

نسأل الله القوي العزيز أن يجعلنا أعداء الشيطان، وأن يرزقنا اتباع كتابه، والاتباع لطريق رسوله سيدنا محمد ﷺ.

فيا أيها الناس! إن وعد الله حق، فاستعملوا عقولكم، وتعلموا كلام ربكم، وتفهموا خطاب مولاكم؛ طالبين منه التوفيق للعمل به.

الاية الثلاثون فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾^(١).

يخاطب الله تعالى عامة الناس كلهم؛ نبههم وولّهم، وسعيدهم وشقيهم، وكبرهم وصغيرهم، وغنيهم وفقيرهم، ومليكهم ورعيهم، ومالكهم ومملوكهم؛ أن كلهم فقراء محتاجون إليه تعالى في وجودهم وحياتهم، وفي جميع حركاتهم وسكناتهم، وأما هو تعالى؛ فهو غني عن العالمين كلهم، فلا تنفعه عبادة العابدين، كما أنه لا يضره كفر الكافرين وشرك المشركين، وإنما

(١) فاطر: ١٥.

ضرب قهرهم وشركهم على أنفسهم، كما أن منفعة طاعتهم وعبادتهم لأنفسهم، والله تعالى حميد الفاعل في جميع ما يفعلُه ويقدرُه ويشعرُه.

فيا أيها الناس! أطعموا ربكم، وامتلوا أسرّة، واجتنبوا نهية، وتعلموا كلامه، وتفهموا خطابهم؛ لتفوزوا بسعادة الدنيا والدين والآخرة.

فيا خسارة من فاته فهم كلام ربّه! وبإشفاقه من شغل نفسه عن فهم خطاب ربّه بالسفسطة والسفسطة^(١) والأشعار والألغاز والأساطير والخرافات والترهات!

الاية الحادية والثلاثون في سورة يس: ﴿أَلَمْ أَهْذِ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ . وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ . وَلَقَدْ أَضَلُّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَفْقَهُونَ﴾^(١).

وهذا خطاب عام لجميع بني آدم بصيغة الاستفهام الإنكاري، وأمر منه تعالى بأنه قد أمر بني آدم أن لا يعبدوا الشيطان، وأن لا يطيعوه في مخالفة الله ومعاصيه؛ لأنه عليه اللعنة عدو مبين لجميعكم، إنما قصده إغواؤكم وإهلاككم بعضيكم بركم الرحمن الذي خلقكم ورزقكم، فاعبدوه وحده.

ألا تعلمون أن الشيطان قد أضل من قبلكم أناساً كثيرين؛ كفوم نوح وإبراهيم وهود وصالح وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام بتزيين الشرك

(١) انظر ما سبق (ص ٦٥).

(٢) يس: ٦٠-٦٢.

لَهُمْ، وَتَرْغِبُهُمْ إِلَى عِبَادَةِ يَغُوثٍ وَيَعُوقَ وَنُصْرَةَ^(١)؛ كَمَا زُيِّنَ لِلْمُتَأَثِّرِينَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ عِبَادَةُ عَبْدِ الْقَادِرِ الْجِيلَانِيِّ حَتَّى سَمَوْهُ وَاعْتَقَدُوهُ غَوْثًا عَظِيمًا، وَعِبَادَةَ بِهِاءِ الدِّينِ الْقَشْبَانْدِيِّ^(٢) وَاعْتَقَدُوهُ دَافِعَ الْبَلَاءِ، وَعِبَادَةَ مُعِينِ الدِّينِ الْجِشْتِيِّ^(٣) وَأَحْمَدَ الْبُدَوِيِّ^(٤)، وَهَكَذَا فِي كُلِّ أَقْلِيمٍ وَقَطْرِ.

فَبِذَلِكَ حَصَلَ الشَّيْطَانُ مَرَادَهُ، أَلَا وَهُوَ الشُّرْكَ الْأَكْبَرُ بِاللَّهِ فِي عِبَادَتِهِ، بَلْ فِي رِبُونِيَّتِهِ وَصِفَاتِهِ.

فَيَا أَيُّهَا النَّاسُ! أَلَا تَنْتَبِهُونَ مِنْ هَذِهِ الْجَهَالَةِ الْمَهْلِكَةِ، وَتَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَفِي خَلْقِ أَنْفُسِكُمْ؟ أَفَلَا تَعْقِلُونَ؟ أَفَلَا تُبْصِرُونَ؟ أَفَلَا تَسْتَعْمِلُونَ عَقُولَكُمْ؟!

الآيَةُ الثَّانِيَةُ وَالثَّلَاثُونَ فِي سُورَةِ الزُّمَرِ: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ . قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾^(١).

يعني: بَيَّنَّا لِلنَّاسِ كُلِّهِمْ - عَرَبِيهِمْ وَعَجِمِيهِمْ - فِي هَذَا الْقُرْآنِ الْعَرَبِيِّ كُلِّ شَيْءٍ بِضَرْبِ الْأَمْثَالِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ وَيَتَفَكَّرُونَ وَيَتَذَكَّرُونَ، فَيَسْمَعُوا بِإِرْشَادَاتِهِ وَنَصَائِحِهِ وَمَوَاعِظِهِ؛ لِأَنَّهُ قُرْآنٌ وَاضِحٌ الْبَيَانِ، لَا اعْجَاجَ فِيهِ، وَلَا انْحِرَافَ، وَلَا

(١) انظر: موارد الأمان... (ص ٤٤٦ - ٤٥٤) وتعليقي عليه.

(٢) هما من يعظمهما جهلة الأعاجم.

(٣) انظر كتاب «السيد البدوي بين الحقيقة والخرافة»؛ ففيه فوائد مهمة حول هذه الشخصية الغفلة!!

(٤) الزمر: ٢٧ - ٢٨.

لَيْسَ، وَلَا تَعْقِذَ، بَلْ هُوَ بَيِّنٌ وَضُوحٌ وَبَرَهَانٌ، وَإِنَّمَا جَعَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى كَذَلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ، وَيَحْذَرُونَ مَا فِيهِ مِنَ الرَّعِيدِ، وَيَعْمَلُونَ بِمَا فِيهِ مِنَ الْوَعْدِ.

وَلَا شَكَّ أَنَّ الَّذِي لَا يَفْهَمُ مَعْنَاهُ لَا يَتَذَكَّرُ وَلَا يَتَعَبَّرُ، فَلَا تَنْفَعُ بِهِ مَقُوفٌ عَلَى فِهْمٍ مَعْنَايِهِ فِهْمًا صَحِيحًا مُسْتَقِيمًا، بَلَا عِوَجٍ وَلَا تَأْوِيلَ، وَلَا تَحْرِيفَ، فَيَجِبُ عَلَى كُلِّ النَّاسِ فَهْمُهُ وَتَعَلُّمُهُ وَالِاعْتِقَادُ وَالْعَمَلُ بِمَوْجِبِهِ، وَأَلَّا يَكُونَ مَخْرُومًا مِنَ الْإِنْسَانِيَّةِ كَمَا صَارَ مَخْرُومًا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ وَجَنَّتِهِ، فَتَنِبَهُ.

الآيَةُ الثَّالِثَةُ وَالثَّلَاثُونَ فِيهَا أَيْضًا: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَأِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِمَا وَمَا أَنْتَ بِمُكِيلٍ﴾^(١).

يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى مُخَاطِبًا رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ: إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِهَدَايَةِ جَمِيعِ النَّاسِ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ وَالشَّرْقِيِّ وَالْغَرْبِيِّ؛ لِنُزْهِمَ بِهِ حَقًّا، فَمَنْ اهْتَدَى وَعَمِلَ بِمَا فِيهِ؛ فَنَفْسُهُ رَاجِعَةٌ إِلَى نَفْسِ ذَلِكَ الْمُهْتَدِي، وَأَمَّا مَنْ ضَلَّ وَعَادَى وَكَفَرَ وَلَمْ يَهْتَدِ بِهِ؛ فَإِنَّمَا ضَرُرُّ ضَلَالِهِ وَكَفَرِهِ وَجَهْلِهِ عَلَى نَفْسِهِ، وَلَسْتُ أَنْتَ يَا مُحَمَّدُ مُوَكَّلًا بِهِمْ أَنْ يَهْتَدُوا، وَأَنْ يَقْبَلُوا وَيَتَعَلَّمُوا مَا فِيهِ.

فَيَا أَخِي! إِنْ كَانَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْزَلَ هَذَا الْقُرْآنَ لِهَدَايَةِ جَمِيعِ النَّاسِ، وَإِرْشَادِهِمْ؛ فَهَلْ يَهْتَدِي وَيَسْتَرِشِدُ وَيَنْتَفِعُ مَنْ لَا يَعْرِفُ مَعْنَاهُ حَقَّ الْمَعْرِفَةِ؟ كَلَّا، وَالتَّرَاجُمُ لَا تَوْفِي تَمَامَ الْمَعْنَى أَبَدًا، فَإِنْ جَهَلْتَ مَعْنَى الْقُرْآنِ؛ فَقَدْ ضَلَلْتَ ضَلَالًا مُبِينًا، كَأَكْثَرِ النَّاسِ الَّذِينَ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ أَرْوَاحَ الْأَوْلِيَاءِ يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ،

ويتصرفون في الكون، فينفعون من يستغيث بهم، ويضررون أعداءهم، ومع ذلك يدعون أنهم على شيء؛ أي: أنهم عارفون واصلون إلى الله، وأنهم من محبي أولياء الله! ألا إنهم هم الكاذبون والخاسرون؛ لترتيبهم الهدى بكلام رب العالمين، واكتفائهم بكلام أناس غير معصومين!

الآية الرابعة والثلاثون في سورة الجاثية: ﴿هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾^(١).

يعني أن هذا القرآن بصائر للناس كلهم عامة، ولكن إنما ينتفع به من فتح بصره إليه ووجه بصيرته إلى تدبره وتفهم معانيه؛ يعني: أن كونه بصائر وإرشادات عامّة لعامة البشر؛ شرقيةهم وغربيةهم، وأما كونه هدى ورحمة؛ فخاص لقوم يوقنون به، فيعتنون بفهمه وتفهمه.

فالناس كلهم مكلفون بهذا كما لا يخفى، فمن علمه كله وعمل بكنهه؛ فهو الشاهد في الدارين جميعاً، وأما من علم بعضه وعمل بموجبه؛ فإنه ينتفع على قدره، كالإفرنج الذين اعتنوا بما يتعلق بالصنائع، والطابع، والآب الحديد، وعدة القوة، والحساب، والهندسة، والتجارة، والسياسة، فنالوا منها على قدر استعدادهم وسعيتهم كما لا يخفى.

وبالجملة؛ فإن معرفة معاني القرآن لازمة على كل إنسان؛ عربيهم وعجميهم، وهذا لا شك فيه ولا ريب.

(١) الجاثية: ٢٠

الآية الخامسة والثلاثون في سورة الأحقاف: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِالْبِرِّ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ الآية^(١).

فالإنسان من حيث إنه إنسان موصى من قبل ربه وأمره بالإحسان إلى الوالدين، فيجب على كل إنسان معرفة هذه الوصية الثمانية، والعمل بموجبها كما لا يخفى، وكما قال الله تعالى في سورة الإسراء^(٢): ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِلَٰهًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِنَّمَا تِلْكَ الْكَلِمَةُ الْكُبْرَىٰ أَخَذَهُمَا أَوْ يُلَاحِظَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا آفٌ وَلَا تُنْهَرُهَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا . وَخَفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا . رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾^(٣)، وقال تعالى: ﴿إِن اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾ الآية^(٤).

فالإنسان مأمور قطعاً بالإحسان إلى الوالدين وخدمتهما وإرضائهما بما يستطيع، وحرام عليه إيذاؤهما وجفاؤهما وترك خدمتهما، فلماذا قد عدّ رسول الله ﷺ عقوق الوالدين^(٥) وإيذاءهما من الكبائر والمواقب والمهلكات الشنع.

وقد قرّن الله تعالى شكره بشكر الوالدين، وقد ثبت في الصحيح أن الولد البار لوالديه ينال رضى الله تعالى، ويكون مجاب الدعوة^(٦)، وهذا هو عين

(١) الأحقاف: ١٥.

(٢) الإسراء: ٢٣ - ٢٥.

(٣) لقمان: ١٤.

(٤) كما رواه: البخاري (٥٩٧٦)، ومسلم (٨٧)، عن أبي بكر.

(٥) لعله يشير إلى قصة الثلاثة الذين أطيبت عليهم صخرة في الغار فدعا كل منهم =

الإنسانية، فثبته وتدبر.

الآية السادسة والثلاثون في سورة الحجرات: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾^(١).

يخاطب الله تعالى كل الناس جميعاً؛ معلماً إياهم أنه تعالى خلق جميعهم من ذكر وأنثى، وجعل منها زوجتها، وهما آدم وحواء عليهما السلام، وجعلهم شعوباً وقبائل.

وأفاد تعالى أن جميع الناس في الشرف بالنسبة الطيبة سواء، لا فضل لعربي على عجمي^(٢)، ولا لأبيض على أسود، وإنما يتفاضلون بالأمور الدينية، وهي الإيمان بالله، وطاعة الله تعالى، ومتابعة رسول الله ﷺ.

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ﴾، لا بالأحساب والأموال والأنباع.

بصالح عمله، نمشاً دعا به أحدهم بربه بالودية، ففرح الله عنهم كرمهم.

ويشير المصنف رحمه الله إلى الحديث الوارد في قصصهم (ص ١٨) فراجع.

(١) الحجرات: ١٣.

(٢) كما أخرجه أحمد في «مسنده» (٥ / ٤١١) من طريق إسماعيل بن عليّ عن سعيد الجريري عن أبي نضرة عن سمع رسول الله ﷺ.

وسنده صحيح، إذ رواية ابن عليّ عن الجريري قبل الاختلاط.

وتفصيل تخريجه في «الإنماء لتخريج أحاديث المسند الإمام» (٢٣٥٣٦).

وفي الباب عن عدة من الصحابة، فانظر: «مجمع الزوائد» (٨ / ٨٤)، و«الدر المنثور» (٦ / ٩٨).

والأولاد، ولذا قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ». رواه مسلم وابن ماجه^(١).

فهذا قد أفادنا الله تعالى أن دين الإسلام مبني على المساواة من حيث الإنسانية والمعيشة الدنيوية ومعاملاتها، وإنما يمتاز الفاضل عن المفضول عند الله يوم الدين، فالأكرم ها هنا هو المتقي الذي اتقى الشرك والظلم والكفر والمعاصي، والله تعالى عليم وحكيم وخبير بما في الصدور.

فانظر يا أخي كيف خاطب الله تعالى الناس جميعاً؛ أي: الجنس البشري كله على اختلاف دينه ولغانه وألوانه وتلدانه، ثم أراد أن يربط الناس جميعاً برابطة أقوى من رابطة القرابة والدم، فدعاهم إلى اعتناق دين واحد، وعبادة إله واحد؛ تدعوهم الفطرة السليمة إلى الإيمان به، فيؤلف بين قلوبهم.

فالله تعالى يدعو العالم كله إلى دين واحد، وإلى لغة واحدة، وهو تعالى قد حتم القراءة في الصلاة والعبادات كلها باللغة العربية، فالأهم التي دخلت

(١) رواه مسلم (٢٥٦٤) (٣٤)، وابن ماجه (٤١٤٣)، وأحمد في «مسنده» (٢ / ٢٨٤ و ٢٨٥ و ٥٣٩)، وفي «الزهد» (ص ٥٩)، والبخاري في شرح السنة (٤١٥٠)، وابن حبان (٣٩٤)، وأبو نعيم (٤ / ٩٨ و ١٢٤)، وابن المبارك في «الزهد» (٥٤٠)، من طريق جعفر بن برقان عن يزيد بن الأصم عن أبي هريرة.

وقد أعّل الحديث ابن أبي حاتم في «علله» (١٨٩٥) بالوقف، فقال: «إنما هو عن أبي هريرة موقوف، حدثنا به أبو نعيم عن جعفر، موقوف». قلت: لكن الأصم نوبع على رفعه.

رواه مسلم (٥٦٤) (٣٣) أيضاً من طريق أسامة بن زيد عن أبي سعيد مولى عبد الله ابن عامر بن كثر عن أبي هريرة مرفوعاً.

ثبت الرفع، والله الحمد.

في الإسلام تسارعَتْ إلى تعلُّم اللغة العربية وجذقيها وإجاديها.

ألا ترى الأندلس كيف ازدهرت فيها لغة العرب الفُصْحى ازدهاراً رائعاً؟
وخارى وما وراء النهر كيف نمت فيها لغة الضاد؟ والشاهد الإمام أمير المحدثين
محمد بن إسماعيل البخاري، والإمام مسلم بن الحجاج، وأبو عيسى الترمذي،
وأبو داود السجستاني، وأبو عبد الرحمن النسائي، وأبو الليث الفقيه السمرقندي،
وأبو بكر الففال الشاشي، وبرهان الدين علي القرغينائي صاحب «الهداية»^(١)،
وملك العلماء الكاساني صاحب «البدائع»^(٢)... وأمثالهم رحمهم الله تعالى.

ولكنَّ الخلف قد خالفوا السلف، فغيروا، فغيَّر الله عليهم.

وقد كان رسول الله ﷺ خطبَ يوم فتح مكة قائماً على باب الكعبة وقال:
«يا معشر قريش! إن الله تعالى قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء،
الناس من آدم، وآدم من تراب»، ثم تلا هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى... الآية.

كذا في «البداية والنهاية» لابن كثير (٤ / ٣٠١)^(٣).

(١) هو من أشهر كتب الأحناف، ونصب الراهة تخریج لأحاديثه.

(٢) هو «بدائع الصنائع»، مطبوع متداول.

وتراجم هؤلاء العلماء مشهورة معروفة.

(٣) روى الحديث: أبو داود (٥١١٦)، والترمذي (٣٩٥٦)، وأحمد (٣٦١ / ٢).

٥٢٤) عن أبي هريرة.

وسنده حسن.

وقد صحَّحه شيخ الإسلام ابن تيمية في «إقضاء الصراط المستقيم» (ص ٣٥).

الآية السابعة والثلاثون في سورة الحشر: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَنْثَاءُ نُصْرِبُنَهَا لِلْأَنْثَى لَمَنَّهُمْ يَتْفَكِرُونَ﴾^(١).

يقول الله تعالى: معظماً لأمر القرآن، وبيناً علو قدره، وأنه ينبغي أن
تخشع له القلوب، وتتصدع عند سماعه؛ لما فيه من الوعد الحق، والوعيد
الأكيد، فإذا كان الجبل في غلظه وقساوته لو فهم هذا القرآن فتلبس ما فيه لخشع
وتصدع من خوف الله عز وجل؛ فكيف يلقى بكم أيها البشر أن لا تلتين قلوبكم
وتخشع وتتصدع أفئدتكم من خشية الله وأنتم قد أمرتكم الله تعالى بفهمه
وتدبره؟!

فنفكروا أيها الناس! ولا تضيّعوا أهليتكم، وأنتم المكلفون بفهم هذا
القرآن والاعتبار بآياته ومواعظه، وإذا تفكروا وتدبرتم، تعلمون يقيناً أنه لا إله إلا
الله وحده لا شريك له، ولا معبود سواه؛ كما أنه لا خالق سواه، ولا رب سواه،
بل كل ما سواه من الملائكة والمقرئين والأنبياء والصديقين والأولياء كلهم
مخلوقون ومربوبون ومحتاجون في حياتهم ومماتهم وحشرهم ونشيرهم إلى الله
تعالى العتي القادر جلّ جلاله.

فيا أيها الناس! حيث أنكم جهلتم معاني كلام ربكم، ابتليتم بالداء
الغضال، بحيث صرتم لا تفرقون بين الخالق والمخلوق، والربّ والمربوب،
فتعبدون الله وتعبدون المخلوق، وتدعون الله وتدعون المخلوق، فمثلاً تقولون
حينما تقومون من مقعدكم: يا الله! يا رسول الله! وهذا هو الشرك الأكبر الذي

(١) الحشر: ٢١

لا يغفره الله تعالى أبداً، وذلك أن الله تعالى حي قريب مجيب يستجيب الدعوات ويقضي الحاجات، وأما رسول الله ﷺ؛ فقد مات، وروحهُ الشريف في أعلى عِلِّيِّين، لا يعلم الغيب، ولا يسمع النداء والدُّعاء، فإذا نداءٌ ودعاؤٌ في هذه الدنيا هباءً، بل إذا اعتقد القائل بأنه يعلم الغيب أو يسمع النداء؛ فقد أشرك بالله العظيم؛ للتسوية بين الخالق والمخلوق، وبعضهم يقول من نهاية جهله وسخافته حُجَّتُه: إنه يحب رسول الله، وهذا من محبته، والحال أنه قد خالفه وعصاه بتسويته برَبِّ العالمين الذي لا شريك له، ومحبته رسول الله ﷺ إنما تحصل باتباع سنته، والصلاة والسلام عليه في كل حين.

فيا أيها الإنسان الجاهل! لو تأملت أدنى تأمل وقلت: يا الله! صل على رسول الله، أو: اللهم صل وسلم على رسولك محمد، أو ما أشبه ذلك؛ لكنت آتياً بالصواب وداعياً بالحق.

الآية الثامنة والثلاثون في سورة الانفطار: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّبَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ . الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَّلَكَ﴾ (الآيات^(١)).

وهذا خطاب تهديد لكل بني الإنسان: ما خدعَكَ وسوَّلَ لك الباطل حتى أضعت ما وجب عليك من عبادة ربك وطاعته، ومعرفة أمره ونهيه، وغرَّكَ إمهالي إياك، وغرَّكَ الشيطان بإفباع الأمان في قلبك، وغرَّكَ الدنيا وزينتها، وغرَّكَ الجاه والنسب، حتى نسيت ربك الذي خلَقَكَ، وأشركت به في عبادته ودعائه، وساويت بينه وبين بعض مخلوقاته، ولم تفكر في نفسك

(١) الانفطار: ٦ - ٧.

ماذا كنت؟ وماذا تصير؟ ولم تندبر كلام الذي خلَقَكَ وجهه إليك وتخطبك وأمرَكَ ونهاك به، وأنت ساء لاي، فيا أسفى عليك يا عدو نفسك.

فيا أيها الإنسان! إن الله تعالى ربك الحكيم، قد خلَقَكَ على هذه الصورة، ومع ذلك أنت ما تعرفه، وتكره، وتتكبر، وتكبر يوم الجزاء، والحال أن عليك ملائكة مراقبين ومحافظين، يعلمون كل ما تفعل وتقول، ويكتبون كل ما يصدر منك، فيجازيك الله تعالى على ذلك، فيدخل الله تعالى المؤمنين الموحدين المخلصين الأبرار في جنات النعيم، ويجازي الله تعالى الفجار الكفار المشركين في نار الجحيم، ويضليهم على رؤوسهم منكوسين أبد الأبدن ودهر الداهرين، خالدين فيها أبداً، وهذا إنما يكون في يوم الدين يوم الجزاء، وهذا اليوم لا يعلم أحدٌ لأحدٍ فيه شيئاً؛ لا والد لولد، ولا عالمٌ لتلميذ، ولا شيخٌ لمرشد، بل ولا نبيٍّ لأئمةٍ إلا بإذن الله تعالى وأمره؛ لأن الأمر كله لله، لا شريك له، وأنت أيها الإنسان الجاهل! تغتر بشيخك، أو بمن تعتقه ولياً، وتظن أنه ينفَعُك أو ينجِّدك من النار ويدخلك الجنة، وإنما هذا صادر من نهاية جهلك، وغاية حماقتك، ولماذا هكذا؟ لأنك محرومٌ من فهم كلام الله رب العالمين، مكتفٍ بالزُهَامَاتِ والخرافاتِ ودجل الدجالين، فتنبه.

الآية التاسعة والثلاثون في سورة الانشقاق: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾^(١).

وهذا الخطاب عامٌ لجميع بني الإنسان؛ عربهم وعجمهم؛ يخاطبهم

(١) الانشقاق: ٦.

الله تعالى منها إياهم، فيقول: إِنَّكَ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ سَاعَ إِلَى رَبِّكَ سَعِيًّا، وعاملًا عملاً، فستلاقي ما سعيّت وعملت من خير وشراً يعني: إِنَّا أَرْسَدْنَاكَ إِلَى مَا فِيهِ سَعَادَتُكَ فِي الْحَيَاةِ وَبَعْدَ الْمَمَاتِ، فَإِنَّ أَنْتَ عَمِلْتَ بِإِرشَادَاتِنَا؛ تَكُنْ سَعِيداً، فتُعْطَى كِتَابُكَ بِمِيقَتِكَ، وتكون من أهل البمين، وأما إِذَا عَانَدْتَ وَعَصَيْتَ أَمْرَنَا أَوْ جَهَلْتَهُ؛ فَأَنْتَ الشَّقِيُّ، فتُعْطَى كِتَابُكَ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِكَ أَوْ شِمَالِكَ، فتكون من أهل الشَّمالِ، وتلقى في جَهَنَّمَ سَعيراً.

فيا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ! إِنَّكَ الْمَكْلُفُ الْمُخَاطَبُ بِالْإِيمَانِ وَالْأَعْمَالِ، فَإِنَّ ضِيعَتَ أَهْلِيَّتِكَ؛ فَأَنْتَ أَحْسَنُ مِنَ الْحَيَوَانِ، وَلَا يَنْفَعُكَ أُنْبَاؤُكَ وَأَمْوَالُكَ وَمَنْصِبُكَ وَجَاهُكَ الَّتِي كُنْتَ أَنْتَ مَغْرُوراً بِهَا وَمَسْرُوراً؛ لِأَنَّهُ قَدْ نَسِيَ رَبَّهُ، وَنَسِيَ الرَّجِيعَ إِلَيْهِ، وَالْحَالُ أَنَّهُ تَعَالَى بِصِيرِهِ.

الآية الأربعون في سورة الطارق: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ . خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ ذَافِقٍ . يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ۝﴾.

وهذا أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِلْإِنْسَانِ، وَكَلَّمَ بَنِي آدَمَ، أَنْ يَنْظُرَ نَظْرَ الْعَبْرَةِ وَالْإِتِبَارِ؛ أَنَّهُ مِمَّ خُلِقَ؟ فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ ذَافِقٍ؛ أَيُّ: قَوَارٍ خَارِجٍ بِالْقُوَّةِ، وَهُوَ الْمَنِيُّ وَالنُّطْفَةُ، يَخْرُجُ مِنْ صُلْبِ الرَّجُلِ وَصَدْرِ الْمَرْأَةِ عِنْدَ فِضَائِنِ الشَّهْوَةِ مِثْمَا، وَهَذَا الْمَاءُ هُوَ بَذَرُ الْإِنْسَانِ، يَزْرَعُهُ الرَّجُلُ فِي أَرْضِ رَحِمِ الْمَرْأَةِ، فَيَخْلُقُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْهُ هَذَا الْإِنْسَانَ الَّذِي يَتَكَبَّرُ وَيَتَخَفَّرُ وَيَقُولُ أَنَا وَأَنَا، فَيَنسَى رَبَّهُ الَّذِي خَلَقَهُ، وَيَكْفُرُ بِهِ، وَيُشْرِكُ فِي عِبَادَتِهِ، وَلَا يُؤْمِنُ بِهِ وَلَا بِكِتَابِهِ وَلَا بِرَسُولِهِ

(١) الطارق: ٧-٥.

وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَلَا يَتَفَكَّرُ أَنَّ الَّذِي خَلَقَهُ مِنْ مَّاءٍ ذَافِقٍ لَمْ يَخْلُقْهُ عَبَثًا، بَلْ إِنَّمَا خَلَقَهُ لِيَعْرِفَهُ وَيَعْبُدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، ثُمَّ يَحْيِيهِ وَيُعِيدُهُ، فَيَجَازِيهِ عَلَى عَقِيدَتِهِ وَعَمَلِهِ؛ إِنَّ خَيْرًا فَخِيرًا، وَإِنْ شَرًّا فَفَسْرًا، وَإِنَّمَا يَمَهِّلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَيَسْتَدْرِيجُهُمْ، ثُمَّ يَأْخُذُهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ.

●●●●●

فَاعْلَمْ أَنَّ هَذِهِ الْأَرْبَعِينَ آيَةً كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا مُوجَّهَةٌ مِنَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ إِلَى كُلِّ فَرْدٍ فَرْدٍ مِنْ أَفْرَادِ بَنِي آدَمَ، لَا يَخْرُجُ مِنْ هَذِهِ الْخُطَابَاتِ الصَّرِيحَةِ أَحَدٌ مِنْهُمْ، سِوَاكَ كَانُوا عَرَبًا أَوْ عَجَمًا أَوْ مِنْ أَيِّ جِنْسٍ كَانُوا؛ فَارِسِيًّا أَوْ هِنْدِيًّا، تَرْكِيًا أَوْ صِينِيًّا، جَاوِيًّا أَوْ جَابَانِيًّا، رومِيًّا أَوْ بَرْبَرْيًّا، حَبَشِيًّا أَوْ إِفْرِيقِيًّا، فَكُلُّهُمْ مُخَاطَبُونَ بِهَذِهِ الْخُطَابَاتِ، وَمَأْمُورُونَ وَمَكْلَفُونَ بِهَذِهِ الْأَوَامِرِ، وَهُمْ أَهْلٌ لَذَلِكَ، وَلَوْ لَمْ يَكُونُوا أَهْلًا؛ لَمَّا خَاطَبَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى، وَحَيْثُ إِنَّهُ تَعَالَى خَاطَبَهُمْ وَنَادَاهُمْ وَأَمَرَهُمْ وَنَهَاَهُمْ؛ فَقَدْ ثَبَتَ أَنَّهُمْ أَهْلٌ لَفَهْمِ ذَلِكَ وَالْعَمَلِ بِهِ.

وَلَا يَخْرُجُ عَنْ هَذَا الْخُطَابِ أَحَدٌ مِنَ الْبَشَرِ، حَيْثُ إِنَّهُمْ بِالْعَوْنِ وَعَاقِلُونَ، فَلَا يَخْرُجُ أَحَدٌ أَصْلًا إِلَّا الصَّبِيَّ وَالْمَجْنُونُ، وَأَمَّا الْعُجْمَةُ؛ فَلَا تَكُونُ مُسْقِطَةً لِلتَّكْلِيفِ وَتَوْبِخِهِ الْخُطَابِ وَفَهْمِهِ، فَتَنْبِتُ.

وهذه الْخُطَابَاتُ الْمَوْجَّهَةُ إِلَى كَافَّةِ بَنِي آدَمَ بِلَفْظٍ: (وَأَنْتُمْ)، وَ(كُم)، تَوَجَّهَتْ عَلَى كُلِّ الْبَشَرِ مَعْرِفَةً كَلَامَ رَبِّهِمْ، وَلَا يُغْذَرُ أَحَدٌ بِالْجَهْلِ بِهِ^(١)، فَهُوَ مُسْئُولٌ عَنْ إِضَاعَتِهِ أَهْلِيَّتِهِ.

(١) بتفصيل فقهي عقدي ليس هذا مكانه، وقد أفردها بعض إخواننا بالتأليف.

ولا شك أن كل إنسان أهل لمعرفة ذلك بالتعليم، وهذا هو الحد الفارق بين الإنسان والحيوانات البهيم، فالإنسان من حيث إنه إنسان قابل للفهم، وأهل للعلم والمعرفة، ومن هذا أخذ الله تعالى العهد من ذرية آدم بأجمعهم، وقال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟﴾^(١)، فأجابوا بـ ﴿بلى﴾، و﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ؟﴾^(٢).

فتفكر وتدبر وتأمل أيها الإنسان! هل ينادي الله تعالى ويخاطب ويأمر وينهى من لا يفهم الخطاب؟ كلا، تعالى الله وتقدس عن الغيب، وعمّا يقوله الظالمون علواً كبيراً، وعمّا يعتقده المبطلون تنزهاً وتقديساً.

والله العظيم؛ إن الذين يجهلون كلام ربهم، ولا يجتهدون في فهمه ومعرفة فيه؛ فهم المحرومون عن فضل ربهم، والمحرومون من هدايته وتوفيقه وجنته ورضوانه، وهم الذين إذا ألّفوا في نار جهنم؛ قال لهم خزنتها: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ؟﴾^(٣) فيقولون: بلى؛ قد جاءتنا النذير، ولكن ما صدقناهم، ولم نعتن بكتلاهم!

مع أن هؤلاء المحرومين يتفلسفون في العلوم الفلسفية تفلسفاً، ويدققون تدقيقاً، ويشقون الشرة مئة شق، ويعتنون بالأمور الدنيوية والزخارف الفانية اعتناء عظيماً، ولكن مع ذلك يجهلون كلام ربهم، وأوامر إلههم، فهل يُعذرون بهذا الجهل؟! كلا؛ أبداً لا يُعذرون قطعاً، كما روى الإمام البخاري في كتاب

(١) الأعراف: ١٧٢.

(٢) يس: ٦٠.

(٣) كما في سورة الملك: ٨.

الرقائق من «صحيحه»^(١) عن حذيفة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «أنه قال: «تَرْتَفِعُ الْأَمَانَةُ، وَيُقَالُ لِلرَّجُلِ: مَا أَخَذَهُ؟ وَمَا أَدَكَاهُ؟ وَمَا أَعْلَمَهُ؟ وَلَيْسَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ مِنْ إِيْمَانِهِ» الحديث.

وفي «الدرر المنيرة»^(٢) عن «مصنف ابن أبي شيبة» عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما؛ قال: «يأتي على الناس زمان يجتمعون ويصلون في المساجد وليس فيهم مؤمن».

وفي حديث آخر مرفوع^(٣): «يأتي زمان لا يبقى من القرآن إلا رسمه، ولا من الإسلام إلا اسمه، فيقولون: إنهم مسلمون، ولا يعرفون من الإسلام حقيقته، ويقرؤون القرآن، ولا يعرفون من معانيه إلا البعض اليسير».

فكل هذا حجة عليهم.

(١) برقم (٦٤٩٧)، واللفظ فيه مختلف جداً، مع طوله، لكن المعنى إجمالاً متفق، فاعمل المصنف برويه من ذاكرته.

(٢) (٦ / ٥٣).

وهو في «المصنف» (١٩٤٣٢)، و«المستدرک» (٤ / ٤٤٢)؛ بسند صحيح عنه. ورواه ابن عدي (٣ / ١٠٣٨) من الطريق نفسه مرفوعاً، ولا يصح، ففيه رواه بن الجراح؛ صدوق، اختلط بأخرة فترك، وفي حديثه عن الثوري ضعف شديد، فالمحفوظ الموقوف.

ويغني عنه - مرفوعاً - ما رواه ابن حبان في «صحيحه» (٦٧٢٣) عن ابن مسعود: «سبكون في آخر الزمان قوم يجلسون في المساجد جلقاً جلقاً، إمامهم الدنيا، فلا تجالسهم؛ فإنه ليس لله فيهم حاجة».

وسنده حسن.

(٣) ولكنه ضعيف جداً؛ كما شرحه مطرلاً شيخنا الألباني في «الضعيفة» (١٩٣٦)، وانظر أيضاً «مشكاة المصابيح» (١٩٣٦) وما سياتي (ص ٣٣٠).

رفع
حبر الرحمن (التجدي)
(أسكنه الله الفردوس)

فصل [الآيات والخطابات القرآنية الموجهة إلى المؤمنين]

وأما الآيات والخطابات والأوامر الموجهة إلى المؤمنين خاصة؛
فكثيرة جداً، لا تحفى على قارئ القرآن، وإني أذكرها هنا لزيادة البيان،
وجباً للكلام ربنا الرحمن؛ لأن من أحب شيئاً؛ أكثر ذكره، وإني أحب ربي
وأحب كلامه، ثم أحب رسوله محمداً ﷺ، وأحب كلامه وأحاديثه أيضاً.

أهل الحديث هم أهل الرسول وإن
لم يصحبوا شخصه أنفاسه صيحبوا^(١)

وهذا هو الواجب على كل مؤمن ومؤمنة.

ثم بعد ذكر الآيات أبين ما يتعلق بها من أحاديث رسول الله ﷺ؛
قولية وفعلية، وما ثبت عن الصحابة والسلف الصالحين رضي الله تعالى
عنهم، وجعلنا منهم، وخشعنا في زمهرهم؛ بفضلِهِ ومنه أمين.

●●●●●

الآية الأولى في سورة البقرة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا

(١) سبق لإبراهيم (ص ٤٣)

فيا أخي! بعد أن علمت أن هذه الخطابات العامة لكافة بني البشر، فهمم
بأجمعهم مكلفون بفهم ذلك، والإيمان به، والعمل بموجبه، وبذلك قد قامت
الحجة عليهم، وخصوصاً في هذه الأمانة الحاضرة، منذ ألهم الله تعالى لهم
اختراع هذه الآلات الحديثة (المذياع = الراديو)، فهي تبلغ الأصوات من الشرق
إلى الغرب في حينها، فهم بأنفسهم يتلون القرآن بأصوات موسيقية ونغمات
مصرية^(١)؛ لأغراضهم السياسية، أو للتجارة واكتساب الأموال، فهذه يقيمون
حجة الله على أنفسهم، وهم لا يشعرون، حتى لا يبقى لهم مجال لأن يقولوا ما
جاغنا من رسول ولا نذير، فسبحان الله الخالق الحكيم.

وإنما كرر الله تعالى هذه الخطابات العمومية في مواضع كثيرة من كتابه
للتفسير؛ كي يقرر الحجة عليهم، ويؤكد تأكيدهم، فتنبه وتدبر ولا تكن من
الغافلين المحرومين، والمفتونين الهالكين.

●●●●●

(١) لهمم بهتدون، وإلى الحق يرجعون.

وَقُولُوا انظُرْنَا واسْمِعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ^(١).

هذا خطاب قد خاطب الله تعالى به المؤمنين بأن لا يقولوا مثل ما قالت اليهود في معاملة رسول الله ﷺ من سوء الأدب، بل عليهم أن يراعوا معه الأدب، ويستمعوا لما يقوله ويلقوا إليهم، وأما إسائة الأدب مع رسول الله ﷺ في المخاطبة معه؛ فأتى من آثار الكفر الذي يستحقون به العذاب الأليم، فيجب الاحتراش منه؛ بترك الألفاظ الموهمة للمساواة المنافية للآداب.

ولا شك أن من يعامل أستاذه ومرشده معاملة المساواة في القول والعمل يقل احترامه له، وتزول هيئته من نفسه، حتى تقل الاستفادة منه أو تنعدم؛ لأن المدار في التربية على التأسى والقدوة؛ مثلاً: إن من أراه مثلي لا أراه إماماً وقُدوةً لي، فإن رضىته بالمواضعة والتقليد وكذبتي المعاملة؛ فأني قيمة لهذا الرضى!

والعبرة بما في الواقع ونفس الأمر، وهو أن من اعتقد أن فلاناً فوقه علماً وكمالاً، وأنه في حاجة للاستفادة من علمه وإرشاده وأخلاقه وأدابه؛ فإنه لا يستطيع أن يسوي نفسه به في المعاملة القولية والفعلية.

ولماذا كان ذلك كذلك؟ لأن رسول الله ﷺ إنما يتكلم عن الله عز وجل؛ لسعادة من يستمع ويعقل ويأخذ ما يؤمر به بالآداب، ويسأل عما لا يفهمه بالآداب، ومن فاتته هذه السعادة؛ فهو الشقي.

واعلم أن لَنْ جاء بعد رسول الله ﷺ حقاً من هذا الأدب، وليس هو

(١) البقرة: ١٠٤.

خاصاً بمن كان في عصره ﷺ من المؤمنين، فهذا كتاب الله الذي كان يتلوه عليهم، وكان يجب الاستماع له والإنصات لأجل تدبره، هو الذي يُلقى علينا بعينه، لم يذهب منه شيء، وهو كلام الله الذي به كان الرسول رسولاً تحب طاعته والاهتداء بهديه.

فانظر يا أيها المؤمن إلى الذي يقابله الأكثرون به؛ إنهم يلغعون في مجلس القرآن، فلا يسمعون، ولا يفتنون، ومن أنصت واستمع؛ فإنما نُصِتَ طرباً بالصوت، واستلذاً بتوقيع نغمت القارىء، وإنما يفعلون ذلك في مجالس الغناء بلا فرق، ولا يفتنون إلى شيء من معانيه إلا ما يزونه مدعاة لسرورهم مع الغفلة عما فيها من العبرة، أليس هذا أقرب إلى الاستهانة بالقرآن منه بالآداب اللاتق الذي ترشد إليه هذه الآية الكريمة وأمثالها وتوعّد على تركه بجعله مجاوراً للكفر الذي يسوق صاحبه إلى العذاب الأليم؟!

الآية الثانية فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ^(١)﴾.

قد خاطب الله تعالى المؤمنين؛ عزيمتهم وعصمتهم، وأمرهم بأن يستعينوا على تكميل الإيمان والثبات عليه بالصبر على جهاد النفس وعلى طعن الأعداء وسفاهة السفهاء؛ فإن أهل الحق يعاديهم أهل الباطل وأحزابه، ويؤذونهم في سبيل الحق والدعوة إلى الدين والتوحيد، خصوصاً توحيد الألوهية وتوحيد العبادة والمدافعة عنه وعن أنفسهم، فهو سبحانه وتعالى يأمرهم بالصبر على

(١) البقرة: ١٥٣.

ذلك كله، والدوام والاستمرار على الجهاد بالسَّانِ والبيان والبيان، والصبر على ذلك بالطَّوع والرغبة؛ فإنه تعالى وعَدَ وأكَّدَ أَنَّهُ مع الصَّابِرِينَ، والمُشْرِكُونَ يُؤْذِنُونَ المؤمنين ويَصْلُونُ النَّاسَ عَنْهُمْ في كُلِّ عَصْرِ وزمان، فَأَمَرَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَسْتَعِينُوا في مَقَامِهِ ذَلِكَ كُلَّهُ وفي سَائِرِ ما يَعْزِضُ لَهُمْ مِنَ الْمَصَائِبِ بِالصَّبْرِ والصَّلَاةِ.

أَمَّا الصَّبْرُ؛ فقد ذُكِرَ في الْقُرْآنِ سبعينَ مرَّةً، وأَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ الْأَنْبِيَاءَ كُلَّهُمْ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وهذا يدلُّ على عَظَمِ أَمْرِهِ، وكثَرَةِ نَتَائِجِهِ.

وقد جعلَ اللَّهُ تَعَالَى التَّوَصِّيَ بِهِ في سُورَةِ الْعَصْرِ^(١) مَقْرُونًا بِالتَّوَصِّيِ بِالْحَقِّ، إذ لا بدَّ لِلدَّاعِي إِلَى الْحَقِّ مِنْهُ.

والمرادُ بالصَّبْرَ في هذه الْآيَاتِ كُلِّهَا: مَلَكَ الثَّبَاتِ وَالاحْتِمَالِ الَّتِي تَهْوُنُ عَلَى صَاحِبِهَا كُلَّ مَا يَلَاقِيهِ فِي سَبِيلِ تَأْيِيدِ الْحَقِّ، ونُشْرِ الدِّينِ وَالتَّوْحِيدِ.

وإنَّما يَظْهَرُ الصَّبْرُ في ثَبَاتِ الْإِنْسَانِ عَلَى عَمَلِ اخْتِيَارِيٍّ يَقْصِدُ بِهِ إِثْبَاتَ حَقٍّ، أَوْ إِزَالَةَ بَاطِلٍ، أَوِ الدَّعْوَةَ إِلَى عَقِيدَةٍ، أَوْ تَأْيِيدَ فَضِيلَةٍ، أَوْ إِجَادَ وَسِيلَةٍ إِلَى عَمَلٍ عَظِيمٍ؛ لِأَنَّ أَمْثَالَ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ الَّتِي تَتَعَلَّقُ بِالْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ، هِيَ الَّتِي تَقَابِلُ مِنَ النَّاسِ بِالْمَقَاوِمَةِ وَالْمُحَادَّةِ الَّتِي يَعْزِزُ فِيهَا الصَّبْرُ وَمَصَارَعَةُ الشَّدَائِدِ، فَالثَّبَاتُ عَلَى الْعَمَلِ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْحَالِ هُوَ الصَّابِرُ وَالصَّابِرُ، وَلَيْسَ كُلُّ مُتَحَمِّلٍ لِلْمَكْرُوهِ مِنَ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّهُ مَعَهُمْ، وَيُشْرِكُهُمُ بِالْفَوْزِ، وَأَتَى عَلَيْهِمْ، بَلْ لَا يَدَّ مِنْ الْعَمَلِ لِلْحَقِّ وَالثَّبَاتِ فِيهِ، وَعَلَى ذَلِكَ جَرَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ عَلَيْهِمُ الرُّضَى وَالرُّضْوَانُ، حَتَّى فَازُوا بِعَاقِبَةِ

(١) ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾.

الصَّبْرِ الْمَحْمُودَةِ، وَنَصَرَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى مَعَ قَلِيلِهِمْ وَضَعَفَهُمْ عَلَى جَمِيعِ الْأَمْرِ مَعَ قُوَّتِهَا وَكَثَرَتِهَا، وَإِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ بِالصَّبْرِ فِي اللَّهِ وَلِلَّهِ.

وَالْمُتَحَمِّلُ لِلْمَكْرُوهِ مَعَ السَّابَةِ وَالصَّبْرُ لَا يُعَدُّ صَابِرًا، وَهُوَ شَأْنٌ مُتَحَلِي الْعِلْمِ وَمُدْعَى الصَّلَاحِ فِي هَذِهِ الْأَمْنَةِ، تَرَاهُمْ أَضْعَفُ النَّاسِ قُلُوبًا، وَأَشَدَّهُمْ اضْطِرَابًا إِذَا عَرَّضَ لَهُمْ شَيْءٌ عَلَى غَيْرِ مَا يَهْوُونَ، فَمَنْ لَمْ يَسْتَعِنْ عَلَى عَمَلِهِ بِالصَّبْرِ؛ لَا يَسْتَمُ لَهُ أَمْرٌ، وَلَا يَثْبُتُ عَلَى عَمَلٍ، لَا سِوَا الْأَعْمَالِ الْعَظِيمَةِ؛ كَتَبِيرَةِ الْأَمْرِ، وَالْإِنْتِقَالِ بِهَا مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ.

وَجَهُّ الْحَاجَةِ إِلَى الْإِسْتِعَانَةِ بِالصَّبْرِ عَلَى تَأْيِيدِ الْحَقِّ وَالْقِيَامِ بِأَعْيَالِهِ ظَاهِرٌ جَلِيٌّ، وَأَمَّا الْحَاجَةُ إِلَى الْإِسْتِعَانَةِ بِالصَّلَاةِ؛ فَتَرْجُحُهَا خَفِيُّ مُحْجُوبٌ، لَا يَكَادُ يَنْكَشِفُ إِلَّا لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ، وَهِيَ التَّوَجُّهُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَحُضُورُ الْقَلْبِ مَعَ سَجَانِهِ، وَاسْتِغْرَافُهُ فِي الشُّعُورِ بِهَيْبَتِهِ وَجَلَالِهِ وَكَمَالِ سُلْطَانِهِ، وَهِيَ الَّتِي قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهَا: ﴿وَأَنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾^(١)، وَلِأَنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ، وَالْإِنْسَانَ خَلَقَ هَلُوعًا، إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا، وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا، إِلَّا الْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ^(٢).

وَلَيْسَتْ هَذِهِ الصَّلَاةُ هِيَ الصُّورَةُ الْمَعْهُودَةُ مِنَ الْقِيَامِ وَالرُّكُوعِ وَالتَّلَاوَةِ بِالسَّانِ فَقَطْ، وَالَّذِي نَشَاهَدُهُ مِنَ الْمُتَعَاتِدِينَ عَلَيْهَا الْإِصْرَارَ عَلَى الْفَوَاحِشِ وَالْمُنْكَرَاتِ، وَارْتِكَابِ الْآثَامِ وَالسَّيِّئَاتِ.

(١) الْبَقَرَةُ: ٤٥.

(٢) كَمَا فِي سُورَةِ الْمَعَارِجِ: ١٨ - ٢٣.

وإن الله تعالى مع الصَّابِرِينَ، ولم يَقُلْ: معَكُمْ؛ ليفيدَ أَنَّ معونته إنما تمدهم إذا صار الصَّبرُ وصفاً لازماً لهم، ولكنْ أَكْثَرَ من يدَّعي الإيمانَ حيثُ إنَّه جاهلٌ بمعنى كلامِ رَبِّه، فهو محرومٌ من حقيقة الإيمانِ الصَّحيح، والصلاةِ الصَّحيحة، فلَهذا صار محروماً من نتائج الإيمانِ والصَّبرِ والصلاةِ، فتدبرُ وَكُنْ من المؤمنين الصادقين.

الآية الثالثة فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنَّ كُنتُم لَإِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (١).

قد خاطبَ اللهُ تعالى المؤمنين؛ أمراً بإياهم بالأكل من الحلال الطيب من رزقِ الله، ولا يضيِّقوا على أنفسهم - مثل متَّخِذِي الأنداد - بترك الأكل من الطَّيِّبَاتِ؛ تركِ أكل اللحم، فكلوا واشكروا لله الذي خَلَقَ لَكُمْ هذه الأشياء، وسَهَّلَ عليكم أسبابها؛ بأن تَتَّبِعُوا سنَّةَ الحكيمَةِ في طلب هذه الطَّيِّبَاتِ واستخراجها واستعمالها فيما خَلَقَتْ لأجله، والشأن عليه جلَّ جلاله وعَمَّ نواله، وأن هذه الطَّيِّبَاتِ من فضله وإحسانه لعباده، ليس لَمَن اتَّخَذُوا أنداداً لَهُ تأثيرُ فيها، ولذلك قال: ﴿إِنَّ كُنتُم لَإِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾؛ أي: إن كُنتُم تَحْصُونَهُ بالعبادة والاعتقاد بالانفراد بالسلطنة والتأثير؛ فاشكروا لَهُ جلَّ جلاله أَنَّهُ خَلَقَ هذه النعم وأباحها لَكُمْ، فلا تجعلوا لَهُ أنداداً تطلعون منهم الرزق، أو ترجعون إليهم في التحليل والتحرير، أو ترجون منهم جَلَبَ المنافع أو دَفْعَ المضار، وإلَّا كُنتُم كافرين بالله؛ كالذين من قبلكم؛ جهلوا معنى عبادة الله تعالى، فاتخذوا بينهم

(١) البقرة: ١٧٢.

وبينه وسطاء في طلب الرزق، ورؤساء يَحْلُون ويَحْرُمُون.

ومن الشكر لَهُ تعالى استعمالُ القُوَى التي عُدَّتْ بتلك الطَّيِّبَاتِ في نفع أنفسكم وأمتكم، وليس من الطَّيِّبَاتِ ما يأخذهُ شيوخُ الطريقة من مُريدِهِم من التَّدَوُّر، بل هو من الحَبَائِثِ والسُّخْتِ.

ولا يفهمُ هذه الآيةَ حتَّى فُهِمَها إلَّا مَنْ كَانَ عارفاً بتاريخ الملل والأمر عند ظهور الإسلام. وقيل؛ فَإِنَّ المَشْرِكِينَ وأَهْلَ الكُتُبِ كانوا فرقاً وأَصْنَافاً؛ يُحْرَمُونَ على أنفسهم أشياء، ويعُدُّون أنفسهم بصومِ الدَّهْرِ، وقد وَرَّثُوا هذه الأشياءَ عن آبائِهِم الوثنيين، الذين يرون أَنَّ التَّقَرُّبَ إلى الله تعالى محصورٌ في تعذيبِ النَّفْسِ، وتركِ حَظْوَةِ الجسدِ.

وقد تَفَضَّلَ اللهُ تعالى على هذه الأمة المَحمَديَّةَ بجعلها أُمَّةً وسطاً؛ تُعْطَى الجسدُ حقَّه، والروحُ حقَّها، فأحلَّ لنا الطَّيِّبَاتِ؛ لتَسْبَحَ نَعْمَةُ الجسديَّةِ علينا، وأمرنا بالشكر عليها؛ ليكونَ لنا منها فوائدٌ روحانيَّةٌ عقليَّةٌ، فلم تَكُنْ جَسَمَانِيَّاً محضاً كالانعام، ولا روحانيَّاً خالصاً كالملائكة.

فالْمُؤْمِنُونَ مَكْلُوفُونَ بمعرفة هذه الأشياء، فإذا لم يعرفوها؛ فقد ضيَّعوا صفةَ الإيمانِ، وصاروا مِنَ المحرومين من فضائل الإيمانِ وفهمِ كلامِ الله تعالى؛ القرآن.

الآية الرابعة فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرْ وَالْعُرْ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنْ اعْتَدَى بِغَدٍ

ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ . وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾

هذا خطاب خاص من الله تعالى، موجهٌ إلى المؤمنين، فمن كان مؤمناً؛ فليُعرف خطاب ربِّه الحكيم العليم، فإنه تعالى أرشد عباده المؤمنين إلى ما فيه صلاحهم وسعادتهم في حياتهم ومآلهم، ودنياهم ودينهم.

وقد فرض الله تعالى الحكيم على المسلمين الحدود؛ من القصاص والرَّجم والضرب، ولا شك أن القصاص بالعدل والمساواة هو الأصل الذي يربي الأمم والشعوب، وأن تركه المرأة يُغري الأشقياء بالجرائم على سفك الدماء، فقتل القاتل هو الذي يربي الناس في كل زمان ومكان، ويمنعهم من القتل؛ إلا إذا رضي أولياء المقتول، وغفروا بعاطفة الرحمة، أو ملاحظة المصلحة بأخذ الذية، فلا تمتنع الشريعة الإلهية، بل ترغِّبهم إليه.

وقوله تعالى: ﴿الرُّبُّ بِالْحَرْبِ﴾ الآية، مفهوم اللفظ غير مراد على إطلاقه؛ لأنه قد جرى العمل من عهد رسول الله ﷺ إلى الآن على قتل الرجل بالمرأة، ومنطوق الآية أن الحر يقتل بالحر. . . إلخ، وأما كون الحر يقتل بالعبد، والرجل بالمرأة؛ فهذا يؤخذ من لفظ القصاص، وصريح النفس بالنفس.

ففي إقامة القصاص الحياة الطيبة، وصيانة الناس من اعتداء بعضهم على بعض، وأمرهم بالقتل؛ ليقال القتل أو ينتهي؛ لأن من علم أنه إذا قتل نفساً يقتل بها؛ يرتدع عن القتل، فتُحفظ الحياة، وأما الاكتفاء بالدية أو بالحبس والثقي؛ فلا يردع كل أحد من سفك دم خصمه.

(١) البقرة: ١٧٨ - ١٧٩.

فالآية خطابٌ وأمر للمؤمنين كلهم، فيجب عليهم أن يستعملوا عقولهم في فهم خطاب ربِّهم؛ ليعرفوا دقائق الأحكام، وما فيها من المنفعة للأنام، فمن ينكر أو لا يعمل بإجراء القصاص بعد هذا البيان؛ فلا عقل له ولا تبيان، فالحكومات الإسلامية الحاضرة - كمصر وسورية والعراق وإيران وأفغان وتركيا وغيرها - وإن ادَّعت أنها إسلامية، ولكنها محرومة من العدل؛ بسبب عدم فهمها معاني القرآن، فاعتبروا يا أولي الأبصار!

الآية الخامسة فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ ﴿١٨٠﴾.

قد خاطب الله تعالى المؤمنين كلهم، وأعلمهم أنه قد فرض عليهم الصيام كما كان مفروضاً على الأمم السابقة، فأفاد أنه ركن من أركان الدين، وأنه من أقوى العبادات وأعظم ذرائع التهذيب، وفيه إشعار بوحدة الدين في أصوله ومقاصده، لا تدخل فيه الكيفية والكمية، وإنما فرض الله تعالى الصيام؛ لأنه يستعد به العبد المؤمن لتقوى الله تعالى، والله غني عنا وعن عملنا، وما كتبت علينا الصيام إلا لمنفعتنا.

ومعنى (لعل) الإعداد والتهيئة، وإعداد الصيام نفوس الصالحين لتقوى الله تعالى أنه أمر موكول إلى نفس الصائم، لا رقيب عليه فيه إلا الله تعالى، وسرَّ بين العبد وربِّه لا يشرف عليه أحد غيره سبحانه، فإذا ترك الإنسان شهراته ولذاته لأجل امتثال أمر ربِّه مدة شهر كامل في السنة؛ لا جرم أنه يحصل له

(١) البقرة: ١٨٣.

من تكرار هذه الملاحظة المصاحبة للعمل مَلَكَه المراقبة لله تعالى ، والحياء منه سبحانه وتعالى أن يراه حيث نهاه، وفي هذه المراقبة من كمال الإيمان بالله تعالى أكبر مدد للنفوس وموئل لها لسعادة الروح في الآخرة وفي الدنيا أيضاً .

انظر: هل يُضِلُّ مَنْ تَلَّسَّ هذه المراقبة قلبه على غش الناس ومخادعتهم؟ هل يسهُل عليه أن يراه الله تعالى أكلاً لأموال الناس بالباطل؟ هل يحتال على الله تعالى في منع الزكاة، وهُتَم هذا الركن الركين من أركان دينه؟ هل يحتال على أكل الربا؟ هل يفتُر المكرات؟

كلاً؛ إن صاحب هذه المراقبة لا يسترسل في المعاصي ، إذ لا يطول أمد غفلته عن الله تعالى ، وإذا نسي وألم بشيء منها ؛ يكون سريع التذكر ، قريب الفيء والرجوع بالتوبة الصحيحة : ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ (١) .

وهذا هو روح الصوم وسره؛ يورث هذه المراقبة، وهذا هو معنى كون العمل لله تعالى .

ويؤيد هذا ما ورد من الأحاديث المتفق عليها؛ كقوله ﷺ : «مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاجْتِسَابًا ؛ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ» (٢) .

فيا أيها العبد المؤمن ! أنت المخاطب بهم هذه الأشياء ، والعمل بها ،

(١) الأعراف : ٢٠١ .

(٢) رواه البخاري (٤ / ٩٩) ، ومسلم (٩٥٧) ؛ عن أبي هريرة .

وانظر كتابنا «صفة صوم النبي ﷺ في رمضان» (ص ٢٣ - الطبعة الثانية) ، فيه زيادة

فائدة .

والتَّحَلِّي بتقوى الله تعالى في سرِّك وجهرك ، وأما إذا لم تفهمه ، ولم تجتهد في تفهمه ؛ فأنت المحروم من فضل ربك ، كما صرت محروماً من فهم كلامه الذي وجهه إليك ، فتنبه وتدبر ولا تكن من المحرومين ؛ كأكثر من يدعي الإسلام من المسلمين الجغرافيين اليوم .

الآية السادسة فيها أيضاً : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السَّلَامِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (١) .

قد خاطب الله تعالى المؤمنين كافة وعامة عربهم وعجمهم ، شريفهم وغريبهم - أمراً بإمامهم بأن يدخلوا في حقيقة المسالمة والاتحاد عامة ، ويكونوا عباد الله المؤمنين إخواناً .

وبهذا يرشدنا الله تعالى إلى أن شأن المؤمنين الانساق والاتحاد والمسالمة ، ولهذا قد قال رسول الله ﷺ : «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده» ، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه» (٢) .

وقد شرف الله تعالى أهل الإيمان بهذا الخطاب .

و«السلم» : المسالمة ، والانقياد ، والتسليم ، والسلام ، والصلح ، ودين الإسلام .

(١) البقرة : ٢٠٨ .

(٢) رواه البخاري (١ / ٥٠) ، بلفظه ، ورواه مسلم (رقم ٤٠) مختصراً على الشطر

الاول .

فمعنى الآية: تمسكوا واعملوا بجميع شرائع الإسلام.

فهذا يوجب علينا أن ننظر في جميع ما جاء به الشارع^(١) محمد رسول الله ﷺ في كل مسألة؛ قولاً وعملًا، وأن نفهم المراد من ذلك كله، لا أن يأخذ كل واحد بكلمة ويجعلها حجة على الآخر، أو تحكيم الاحتمال بلا حجة ولا دليل، أو تعصب للمذهب.

والله تعالى يريدنا بهذه الآية أن نكون نحن المسلمين على منهج واحد في الدين، ونحن نجد في كلام كثير من علمائنا مثل هذا الكلام، والدعوة إلى الاتفاق، ولكن يسئله فتو الجهل، وتعصب أهل الجاه من العلماء لمذاهبهم التي إليها ينسبون، وبجاهها يعيشون ويكرمون، وتأيد الأمراء لهم؛ استماعة بهم على إخضاع العامة، وقطع طريق الاستقلال العقلي والنفسي على الأمة؛ لأن هذا أعون لهم على الاستبداد.

وهذه الآية تنبئ على «الذين جعلوا القرآن عضين»^(٢)؛ أي: أجزاء، حيث آمنوا ببعض وكفروا ببعض، «فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ تَسْلَوْنَهُمْ أَجْمَعِينَ». عما كانوا يعملون»^(٣)، وإنكار على الذين يؤمنون بكتاب وبعض يكفرون ببعض؛ أي: يعملون ببعضه على أنه دين ويتروكون بعضاً بالتأويل أو دعوى الشئخ.

ولا شك أن الأخذ بالقرآن والدين بجملته واجب على كل مؤمن، وكذا

(١) من الألفاظ المنهي عنها عند علمائنا. انظر تعليقي على «الفتاوى الممهتة»

نشر دار ابن الجوزي.

(٢) البجبر: ٩١.

(٣) البجبر: ٩٢.

فهم معناه، وفهم هدايته، فتدبر.

وهذه الآية كآية: «وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا»^(١)، وكآية: «وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ»^(٢).

ولكن؛ يا أسفا! نحن قد خالفنا كل هذه النصوص، ففترقنا، وتنازعنا، وشاق بعضنا بعضاً بشبهة الدين، إذ اتخذنا مذاهب متفرقة؛ كل فريق يتعصب لمذهب، ويعادي سائر إخوانه المسلمين لأجله؛ زاعماً أنه ينصر الدين وهو يخذله بتفريق كلمة المسلمين، هذا سني يقاتل شيعياً، وهذا شيعي ينازل إباضياً، وهذا شافعي يُغري التاتار على الحنفية، وهذا حنفي يقبس الشافعية على الذمية، وهؤلاء مقلدة الخلف يحادون من أتبع طريق السلف^(٣)، وسببه الانحراف عن الصراط المستقيم؛ بسبب الجهل بمعنى كلام رب العالمين؛ اتباعاً لخطوات الشيطان الرجيم. ولهذا قال الله تعالى: «وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ»^(٤)؛ أي: لا تسيروا سيره، ولا تتبعوا سبله في التفريق في الدين.

ويسئل الشيطان وخطواته هي كل أمر يخالف سبيل الحق والخير والمصلحة العامة.

ولا شك أن الذين يتبعون سبيل الله لا يفرقون في الدين؛ قال الله عز

(١) آل عمران: ١٠٣.

(٢) الأنفال: ٤٦.

(٣) وهؤلاء الحزبيون المعاصرون يوقع بعضهم ببعض، ويشتم بعضهم بعضاً، ويمرّق بعضهم بعضاً!! فلا قوة إلا بالله.

(٤) الأنعام: ١٤٢.

وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَرَعُوا دِيهَنَهُمْ وَكَانُوا شَيْعَاءَ لَسْتُ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ (١).

وأهل الحق إذا ذُبَ فيهم تنازع يرجعون حالاً إلى كتاب الله تعالى وسنة رسوله محمد ﷺ.

فالآيات يُفسَّر بعضها بعضاً، وطريق الحق هو التوحيد والوحدة والإسلام، وطريق الشيطان هي مثارات التفريق والخصام، والشيطان يزيّن طريقه.

فيا أيها المؤمن! تفهم خطاب ربك العليم الحكيم واعمل به؛ تكن سالمًا من العذاب والتكال في الدنيا والآخرة، وإلا تكن خاسراً من حزب الشيطان الرجيم، فتنبه.

الآية السابعة فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ يَوْمٌ لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٢).

قد نادى الله تعالى وخاطب المؤمنين من عباده؛ أمراً إياهم بإتقان الأموال في سبيل الله ومريضاته، وإعلاء شرعه وكلماته، ونشر دينه ومصالح عباده المؤمنين، وتربية الأيتام والعاجزين، مما رزقهم الله تعالى في هذه الحياة الدنيا، قبل فوات الفرصة، ولا يغثوا بذخل الدجالين الذين يفتنون الناس بأنهم وأسلافهم يشفعون في حقهم يوم القيامة، ويفسئون الله العلي العظيم والغني الحكيم بالمخلوقين من الأمراء والحكام؛ بأنهم بإرشادهم إياهم يستميلونهم؛

(١) الأنعام: ١٥٩.

(٢) البقرة: ٢٥٤.

رعاية لماليهم وديولهم، فيظن العرّ المفتون أن دار الآخرة كذلك!

قاله تعالى ربُّ العالمين يَبْهَمُ بأنه لا ينفع يوم القيامة لا الأخلاء ولا المشايخ ولا المال ولا السلطان، وإنما ينفع العبد المؤمن إيمانه وعمله الصالح الخالص لله عز وجل، فلا تكفروا نعم الله بالبخل وترك الإنفاق في مرضاة الله، ووضعيها في غير موضعيها.

والوثنيون كانوا يظنون أن الإنسان يمكن أن ينجو في الآخرة بقداء يقتدي به أو شفاعته من سلفه الرئاسيين؛ كذئاب الأمراء والسلاطين، وقصارى هذا الاعتقاد أن سعادة الآخرة هي المعروف للعامة من سعادة الدنيا، فمن كان يطلب في الآخرة السعادة؛ فعليه أن يعتمد على أحد المقربين عند الله؛ ليشفع له هناك.

وقد ردَّ الله جلَّ جلاله عليهم رداً ظاهراً، وأمر المؤمنين مخاطباً إياهم أن يطلبوا مرضاة الله بإتقان أموالهم في سبيل الله في هذه الحياة الدنيا، ولا يكونوا كافرين بأهل الدين؛ فإنه لا ينفع يوم القيامة بيع ولا خُلَّة ولا شفاعته.

والحاصل أيها العبد المؤمن! لا تعتمد على مالك، وتجاركت، وجاهك، وشيخك، وأبائك، وعلمك، وفضلك؛ فإنه لا ينفعك شيء من ذلك، بل يكون وبالاً وحسرة عليك، وإنما ينفعك إيمانك بالله، وامتثال أمره خالصاً له، والكافرون لنعم الله وفهم كلامه وامتنال أمره هم الظالمون الذين ظلموا أنفسهم وهم لا يشعرون.

الآية الثامنة فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَفْئِ كَالَّذِي يُثَقِّثُ غَالَهُ رِقَاهُ النَّاسُ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ ثَرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (١).

قد نادى الله تعالى وخاطب المؤمنين؛ ناهياً إياهم عن الأخلاق الذميمة مما يبطل الصدقات والخسبات، ألا وهو المنّ والمنّة والأفئ، نهى المؤمنين خاصاً بعد أن دُعِبَ إلى الإنفاق في سبيل الله وإعلاء كلمته ومصالح المسلمين؛ لأن الذي ينتفع بما اتفق وتصدق يوم القيامة إنما هو المؤمن بالله واليوم الآخر، المخلص لله تعالى وحده.

ثم مثل الله تعالى الذي يرأي أو يَمُنُّ بالتراب والغبار الذي على الحجر الأملس؛ يظنُّ الرائي أنه ترابٌ يصلح للزُّرع ونحوه، ولكن إذا جاء المطر الشديد؛ أزاله بالكلية، وترك الحجر صلدًا، فهكذا لا يقدر المرابي والمنان على شيءٍ مما كَسَبَ يوم القيامة، حينما يكونُ أحمقٍ إليه؛ لأن الله تعالى لا يهدي القوم الكافرين إلى الحق، ولا ينورُ بصَرْمَهُم ويصيرُهُم؛ لعدم صلاحيتهم للفضل والرحمة.

فيها أيها العبد المؤمن! أنت المخاطب بهذه المواعظ والنصائح، فعليك أن تفهمها وتتبناها، وإلا تكن جاهلاً غافلاً، بل كافراً (٢).

ومن نتيجة هذا الجهل نرى أكثر الناس يراوون في الأعمال،

(١) البقرة: ٢٦٤.

(٢) بجمودك لأوامر ربك.

ويتظاهرون بالصلاح والدين لأجل الناس والمصالح الدنيوية، ولذا قلَّ النفع والانتفاع فيما بين الأنبياء في هذه الحياة الدنيا، وأما في الآخرة فمعدوم النفع بالكلية؛ لأن شرط قبول العمل ونفعه في الآخرة كونه صادراً عن الإيمان بالله تعالى، ومخلصاً له تعالى، والمرابي والمنان ليس بمخلص، والكافر ليس بمؤمن، والله لا يهدي القوم الكافرين؛ لعدم صلاحيتهم، ونخب طينتهم على ما يعلمه الله تعالى، فنعود بالله من الشرك والكفر والرياء وكل ما يخبط العمل؛ كما نستعبد به تعالى من الشيطان وخطواته وسوايسه والشرك والتفاني.

واعلم أن الإنفاق في سبيل الله من أشق الأمور على النفوس، لا سيما إذا اتسعت دائرة المنفعة الدنيوية، وأما الإنفاق لهوى النفس؛ فسهل، ولذا ترى الإنفاق لنشر علم الدين قليلاً، وأما لما يُظنُّ فيه المنفعة الدنيوية من الحساب والفلسفة والإنكليزية؛ فتجده كثيراً معتنى به كل الاعتناء.

المن: هو أن يذكر المحسن إحسانه لمن أحسن إليه؛ يظهر به تفضله عليه. والاذى أعم منه، ومنه أن يذكر المحسن إحسانه لغير من أحسن إليه، وهذا ربما يكون أشدَّ عيماً مما لو ذكره له، أو يتناول عليه بسبب إنعامه عليه. وكل واحد من المن والاذى كافٍ وحده لإحباط العمل وعدم استحقاق الثواب على الإنفاق.

وقد خصَّ الله تعالى المؤمنين بهذا الخطاب وأمثاله، ونهاهم نهياً صريحاً أن يبطلوا صدقاتهم بالمن والأذى؛ مبالغة في التنفير عن هاتين الرذيلتين.

وقد مضت سنة الله عز وجل بأن الإيمان هو الذي يهدي قلب صاحبه إلى الإخلاص ووضع الفغات في مواضعها، فالكافر بمقتضى هذه السنة محروم

من هذه الهداية التي تجمع لصاحبها بين صلاح القلب والعمل ، وسعادة الدنيا والآخرة .

الآية التاسعة فيها أيضاً : ﴿وَمَا كُنْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَتِمُّوا الْخَيْرَ مِنْهُ تَتَّقُونَ وَلَسْتُ بِأَعْلِيهِ إِلَّا أَنْ تَقْضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ خَمِيدٌ﴾ (١) .

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين : أمرأ إياهم أَنْ يُتَّقُوا ويتصدقوا مِنْ أَطْيَبِ أَمْوَالِهِمْ ؛ كما أمرهم في الآية السابقة أَنْ يُتَّقُوا بخلوص نياتهم ، وَحَسَنِ طَوْبَاتِهِمْ ؛ لنفع عباد الله ؛ طالباً ثوابه من الله عز وجل .

والطَّيِّبُ : هو الخَيْرُ المستطابُ ، وضدَّه الخَبِيثُ المُسْتَكْرَهُ ، ولذلك قَالَ في مقابل هذا الأمر : ﴿وَلَا تَتِمُّوا الْخَيْرَ مِنْهُ تَتَّقُونَ﴾ ، والطَّيِّبُ الحَلَالُ ، والخَبِيثُ الحَرَامُ .

فينبغي أَنْ يُعْطِيَ المَرْكَبُ مِنْ أَوْسَطِ أَمْوَالِهِ ، بل من أعلاها ، لا من خَشْفِهِ ورديته ، وَيُؤَدَّى هذا قَوْلُهُ تعالى : ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا حُبِبْتُمْ﴾ (٢) .

وكيف تقصدون إعطاء المالِ الخَبِيثِ والحرامِ والرَّذِيءِ الدُّنْيَءِ في سبيلِ الله ولستم تَرْضَوْنَ لِأَنفُسِكُمْ أَنْ تَأْخُذُوهُ إِلَّا إِذَا تَسَاءَلْتُمْ مَعَ غَضِّ الْعَيْنِ ؟

واهدأ الرَّذِيءِ يُشْعِرُ بَقَلْبِهِ إِحْرَامَ الْمُهْدَى إِلَيْهِ ، ولا شك أَنَّ مَا يُبْذَلُ فِي

(١) البقرة : ٢٦٧ .

(٢) آل عمران : ٩٢ .

سبيلِ الله وابتغاء مرضاته هو كالمُعْطَى لَهُ ، فيجِبُ على المؤمن أَنْ يجعلَهُ مِنْ أَوْجُودِ مَا عِنْدَهُ وَأَحْسَنِهِ ؛ لِيَكُونَ جَدِيرًا بِالْقَبُولِ ؛ فَإِنَّ الَّذِي يَقْبَلُ الرَّذِيءَ مُغْبِضًا فِيهِ إِنَّمَا يَقْبَلُهُ لِحَاجَتِهِ ، والله تعالى لَا يَحْتَاجُ أَصْلًا ، بل غَنِيٌّ عَنْ ذَلِكَ وَعَنْ كُلِّ الْأَشْيَاءِ ، وَلِذَلِكَ قَالَ : ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ خَمِيدٌ﴾ .

ولم يبقَ بعدُ هذا التَّوْبِيغُ والتَّهْذِيبُ والتعليمُ الكَامِلُ والتَّأْدِيبُ الشَّامِلُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ الْمُؤْمِنُ بِهَذَا الْهَدْيِ أَشَدَّ النَّاسِ رَغْبَةً فِي الصَّدَقَةِ والإنفاقِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِحَسَبِ سَعَتِهِ وَحَالِهِ ، وَأَنْ يَكُونَ فِي بَذْلِهِ مُخْلِصًا مُتَحَرِّيًا مَوَاقِعَ الْفَائِدَةِ ، مُبْتَعِدًا بَعْدَ الْبَذْلِ عَمَّا يَذْهَبُ بِمُزْمَرِهِ مِنَ الْمُنِّ وَالْأَدْنَى وَالرِّيَاءِ ، وَلِكُلِّكَ تَجِدُ كَثِيرًا مِنَ الْمَلَاسِينِ لِبَاسِ الْإِيمَانِ يَقْبَلُونَ فِي النِّعَمِ وَهُمْ أَشَدُّ النَّاسِ لَهَا كَفْرًا ، إِذْ كَانُوا أَشَدَّ النَّاسِ إِسْمَاسًا وَبِخْلًا .

فَاعْتَبِرْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُ ! وَتَفَهَّمْ خُطَابَ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، وَلَا تَضِيعْ أَهْلِيَّتَكَ فِيمَا لَا فَائِدَةَ فِيهِ مِنَ الْأَشْعَارِ وَالْمَدَائِحِ وَالْخِرَافَاتِ وَالتَّهْزَاتِ وَسَفَاسِفِ الْخَيَالَاتِ ، فَتَكُونَ مِنَ الْمَحْرُومِينَ الْهَالِكِينَ .

الآية العاشرة فيها أيضاً : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِخَبْرٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتِمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ (١) .

فقد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين أَمْرًا إِيَّاهُمْ بِأَنْ يَقْرَءُوا ، ثُمَّ أَمَرَهُمْ بِتَرْكِ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا الَّذِي كَانُوا يُرَابُونَهُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَتَحَرُّزُونَ عَنْهُ كُلَّ

(١) البقرة : ٢٧٨ - ٢٧٩

الاحتراز ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ؛ أَيُّ : إِنْ كَانَ إِيمَانُكُمْ كَامِلًا صَادِقًا بِجَمِيعِ مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْأُمُورِ وَالنَّوَاحِي .

ف ﴿ذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرُّبَا﴾ يُؤَخِّرُ مِنْهُ أَنْ مَنْ لَمْ يتركْ مَا بَقِيَ مِنَ الرُّبَا بَعْدَ نَهْيِ اللَّهِ تَعَالَى عَنْهُ ، وَتَوَعَّدَهُ عَلَيْهِ ، لَا يَعُدُّ مِنْ أَهْلِ الْإِيمَانِ .

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُؤْمِنُ بَعْضَ الْكِتَابِ إِيمَانًا يَبْعَثُ عَلَى الْعَمَلِ ، وَيَكْفُرُ بَعْضُ ، فَلَا يُدْعَى لَهُ وَلَا يَعْمَلُ بِهِ ، فَهُوَ يَجْحَدُهُ بِفِعْلِهِ وَإِنْ أَقْرَبَ بِلِسَانِهِ ، وَلَا يَعْتَدُ اللَّهُ تَعَالَى بِإِيمَانٍ مِثْلَ هَذَا إِذَا صَدَّقَ قَلْبُهُ عَمَلُ لِسَانِهِ .

فَمَا أَهْلُهَا الْمُؤْمِنُونَ ! إِنْ لَمْ تَتَرَكُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرُّبَا كَمَا أُمِرْتُمْ ؛ فَاعْلَمُوا وَاسْتَعِينُوا أَنْتُمْ عَلَى حَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، إِذْ تَبَيَّنْتُ مَا جَاءَكُمْ بِهِ رَسُولُهُ بِالْخُرُوجِ عَنِ الشَّرِيعَةِ وَعَدَمِ الْخُضُوعِ لِلْحُكْمِ ، وَهَذَا يَقْتَضِي أَنْ يَكُونُوا عَالِمِينَ بِذَلِكَ . فَهَذَا إِعْلَامٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِلْمُسْلِمِينَ بِأَنَّكُمْ خَارِجُونَ عَنْ حُكْمِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، مُحَارِبُونَ لَهَا ؛ مَا دَعَّمْتُمْ تَعَامَلُونَ بِالرُّبَا .

فَبَعْدَ هَذِهِ النُّصُوصِ ؛ أَلَا يَجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَجْتَهِدُوا فِي تَفْهِمِ كَلَامِ رَبِّهِمْ ، وَلَا رَبِّ أَنْ الْعَمَلُ بِلَا عِلْمٍ وَفَهْمٍ لَا يَكُونُ صَحِيحًا مُسْتَقِيمًا ، وَلَكِنَّ الْمُسْلِمِينَ فِي ظُلُمَاتِ الْجَهَالَةِ مَغْمُوسُونَ ، وَفِي رَدَاغَاتِ التَّقْلِيدِ مَتَلَوْنُونَ ، فَهَذَا تَرَاهُمْ مِنْ فَهْمِ كَلَامِ رَبِّهِمْ مُحَرَمِينَ ، وَهَذِهِ مَصِيبَةُ عَظِيمَةٍ ابْتُلِيَ بِهَا الْمُسْلِمُونَ ، ف ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ (١) .

(١) البقرة : ١٥٦ .

الآيَةُ الْحَادِيَةُ عَشْرَةَ فِيهَا أَيْضًا : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَابَرْتُمْ بَيْنَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوا وَلِيَكُنْ بِبَيْنِكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْتِ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكُنْ وَلِيًّا لِلَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلِيَّتِي اللَّهِ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسَ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُبْلِغَ هُوَ فَلْيُمْلِ لَهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْتِ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَلُوا أَنْ تَكْتُبُوا صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكَمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارُ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَلَّلُوا فَإِنَّهُ مُسَوِّقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَمَعْلَمُكُمْ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُكْذِبِينَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آتِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ (٢) .

قَدْ نَادَى اللَّهُ تَعَالَى وَخَاطَبَ بِهِذِهِ الْآيَةَ الْعَظِيمَةَ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ خَاصَّةً أَيْضًا ، وَأَمَرَهُمْ وَأَرْشَدَهُمْ إِلَى مَا فِيهِ صِلَاحٌ دُنْيَاهُمْ وَمَعَامِلَتِهِمْ ، وَصَطِيطُ أُمُورِهِمْ ، وَحِفْظُ حَقَرِهِمْ ، وَتَوْثِيقُ ذَلِكَ بِكَاتِبٍ عَدْلٍ وَشَهِيدَيْنِ شَاهِدَيْنِ .

فَانْظُرْ إِلَى هَذَا الْإِرْشَادِ الْإِلَهِيِّ ، وَتَفْهَمُ مَعَانِيَهُ ، وَلَا حِطَّ مَنْفَعَةٌ وَفَوَائِدُهُ ؛ فَإِنَّهُ يَرْفِقُكَ إِلَى الْمَدِينَةِ الْمَلِيَّةِ وَالْإِنْسَانِيَةِ الْعَظْمَى .

وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِكِتَابَةِ الَّذِينَ وَالْإِشْهَادِ عَلَيْهِ وَأَخَذَ الرَّهْنَ إِذَا لَمْ يَتَيَسَّرْ

(١) البقرة : ٣٨٢ - ٣٨٣ .

الاستيثاق بالكتابة والإشهاد، وذلك أَنَّ مَنْ يُصَيِّعُ ماله بإهمالِ المحافظة عليه لا يكون محموداً عند الناس ولا مأجوراً عند الله؛ لأنَّ المال وقايةٌ للحياة والعرض، وإنما اللانكسابة من طرقِ الحُلِّ، وإنفاقه في سبيل الخير والبر؛ قال الله العزيز الحكيم: ﴿وَلَا تُؤْثِرُوا شَهَاءَ أَمْوَالِكُمْ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾ (١)؛ أي: تقوم وتثبت بها منافعكم ومصالحكم.

والَّذين الذي أمر الله بكتابتهم عام يشملُ الفُرَصَ والسَّلَمَ ويبيعُ الأعيان إلى أجل، وحيث إنَّ الله تعالى أمر المتداينين بالكتابة؛ فهذا يستلزم عليهما تعلُّم الكتابة وإتقانها؛ لأنَّ ما يتوقَّف عليه الشيءُ الضَّروريُّ ضروريٌّ.

وقد أرشد الله تعالى إلى أنَّ يكونَ بين المتعاملين كاتبٌ يكتبُ بالعدل بلا مَيلٍ ولا حيف، والعدلُ في الكاتبِ يستلزم كونَ الكاتبِ عالماً بالحقوق والشروط، فالعدلُ يَهْدِي الكاتبَ إلى العلم، وأما العلمُ فلا يَهْدِيهِ إلى العدل، فلهذا لا يقعُ الفسادُ من العَدْلِ، وإنما يقعُ الفسادُ من العلماءِ الفاقدين لصفة العَدَالَةِ كما لا يخفى.

وبهذا قد أرشد الله تعالى الأُمَّةَ الأُمِّيَّةَ إلى نظامِ المَدِينَةِ العُلَيَّا، لحفظِ الحقوق والأحكام فيها، حتى لا يقعَ التنازعُ، ثُمَّ أَكَّدَ تعالى ذلك بقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَسْأَلُوا أَنْ تَكْتُوبُوا ضَمِيرًا أَوْ كِبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ﴾؛ أي: لا تَمْلُوا ولا تَضَجِّرُوا أو لا تَكْسَلُوا من كتابةِ الذين والحق، سواء كان قليلاً أو كثيراً.

فهذا دليلٌ ظاهرٌ على أنَّ الكتابةَ يَعْمَلُ بها، وأنها من الأدلَّةِ التي تُعْتَبَرُ عند استيفاءِ شروطها، ودليلٌ أيضاً على أنَّ الكتابةَ واجبةٌ في القليلِ والكثير، ففي

(١) النساء: ٥.

الآيةِ إرشادٌ إلى عدمِ التهاونِ بشيءٍ من الحقوقِ أَنَّ يَذْهَبَ سدىً، وهي قاعدةٌ عظيمةٌ من قواعدِ الاقتصاد، والعملُ بها آيةُ الكياسةِ والعقلِ.

﴿ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ الآية؛ الخطابُ للمؤمنين، والإشارة في ﴿ذَلِكُمْ﴾ إلى جميع ما ذُكِرَ من الأحكامِ لا لواحدٍ منها، ﴿وَأَقْرَبُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَنْ لَا تُرْتَابُوا﴾، وأقربُ إلى انتفاءِ ارتيابِ بعضكم ببعضٍ؛ فإنَّ هذا الاحتياطُ في كتابةِ الحقوق، والإشهادِ عليها، وتقوى الله، والعدلُ من المتعاملين والكتابُ والشهداء، يمنعُ كلَّ ريبٍ، وكلُّ ما يترتبُ على الارتيابِ من المفاسدِ والعداواتِ والمخاصماتِ.

﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاصِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ لَا تَكْتُبُوهَا﴾؛ أي: نقداً نقداً، وبدأً بيدٍ؛ بأنَّ يأخذَ المشتري المبيعَ والبائعُ الثمنَ، فلا حرجَ في تركِ كتابتها ولا إثْمَ.

ففي نَفْيِ الجُنَاحِ إشارةٌ إلى أنَّ كتابةَ ذلك أَوْلَى وأضبطُ، فهو إرشادٌ إلى استحبابِ ضبطِ الإنسانِ لماله وإحصائه لما يَرُدُّ عليه وما يصدرُ عنه، وذلك من الكمالِ المدني، ومن أسبابِ ارتفاعِ أمورِ الكسبِ والتجارة، ولم يجعلِ الله تعالى هذا حتماً؛ لأنَّه مما يشأ على غير المرتفقين في المدنيَّة، والترخيصُ فيه دليلٌ على وجوبِ كتابةِ الديونِ المؤجلة، فتنبيهٌ.

ثُمَّ خَتَمَ الله تعالى بالموعظةِ التي تُعِينُ النفسَ على الامتنالِ في جميعِ الأعمالِ، فقال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾؛ أي: اتقوا الله في جميع ما أمسركم به ونهاكم عنه، وهو تعالى يَعْلَمُكم ما فيه قيامُ مصالحكم وحفظُ أموالكم وتقويةُ رابطتكم، وهو سبحانه العليمُ بكلِّ شيءٍ، فإذا

شرع شيئاً؛ فلإنما يشرعه عن علم محيط بأسباب درء المفاسد وجلب المصالح لمن أتبع شرعه.

وكثر الله لفظ الجلالة لكمال التذكير وقوة التأثير^(١).

فحيث إن الله خاطب المؤمنين أمراً بإتباعهم بكتابة الدين وحفظ الحقوق؛ يجب على كل مؤمن عاقل بالغ معرفة هذا الخطاب والعمل بمقتضاه، وليس فيه حرج أصلاً؛ لأن الإنسان قابل للتعليم والتفهم، وإن كان يرى في بادية الرأي حرجاً وصعباً، ولكن في الحقيقة هو عين السهولة والسعة واليسر، فالتعلم بالحرج باطل، كما أن التعلم بالحرج في تحريم أنواع الشرك والمعاصي واجتنابها باطل، فكما أنه لا يجوز أن يكون أحد من البشر مشركاً بنوع ما من أنواع الشرك، كذلك لا يجوز أن يفرط في شيء من الحقوق.

فالحق المحتم عليك أيها الإنسان أن لا تضع أهليتك لفهم خطاب ربك الذي هو أرحم لك من نفسك ومن الديك، وألا تكون محروماً بالمحرومين من المشركين والمجوس وعبيدة الأوثان وسدنة القبور وعباذها، فتكون من أهل الخسران.

ولكن الأسف كل الأسف أن المسلمين محرومون أكثرهم من هذه المزية الإنسانية والكمالات المدنية؛ فإن أكثرهم لا يعرفون القراءة ولا الكتابة،

(١) ومن عجب أن كثيراً من الصوفية - ويتابعهم بعض من عوام المسلمين السنيين ومعتققيهم - يستدلون بهذه الآية: «واتقوا الله ويعلمكم الله» على أن التقوى تورث العلم، لذلك تراهم يجتهدون في العبادة؛ تاركين العلم وطلبه!
وهذا كله خطأ لغة ومعنى، بل الصواب في تفسير الآية ما ذكره المصنف.

وخصوصاً أهل البدو وأهل القرى، حتى إن من علمائهم من لا يعرف الكتابة، فلهذا قد ضاعت الحقوق فيما بينهم، وكثر التخاضع والدعوى، فشاخ الظلم والعدوان، وأكثر هؤلاء إنما يقرؤون القرآن للتعيش في المحافل والمآتم، ولا يعرفون من معانيه شيئاً، فصار أكثرهم كمثلي الحمار يحمل أسفاراً، فداستهم الطائفة التي اتفقت هذه الأمور، وعملت بما يتعلق بإصلاح شؤون الحياة البشرية؛ كالإنكليز والأمريكان والروس والفرنسيين، والقرآن الكريم وإن كنا نحن مؤمنين بأنه كلام الله تعالى ونحفظه وتلوّه ونحتمه، ولكن عن فهم معانيه جاهلون، فهو حجة علينا ونحن غافلون.

فيا أيها المسلم! اتق الله من غفلتك، واستعمل عقلك، وتذبر وتفهم كلام ربك؛ لتكون عبداً لله مخلصاً، فيكفيك كل حاجاتك دنيًا وأخرى، وينصرف على أعدائك نصرًا مضميناً، «إليس الله يكاف عبده»^(٢)، «إن تنصروا الله ينصركم»^(٣).

الآية الثانية عشرة في سورة آل عمران: «يا أيها الذين آمنوا إن طغيوا فربقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين»^(٤).

قد خاطب الله تعالى المؤمنين محذراً بإتباعهم عن فتن أهل الكتاب ودسائسهم، وكذا سائر الكفار؛ لأن مقصود الكفار إنما هو إدخالكم في الكفر

(١) الزمر: ٣٦.

(٢) محمد: ٧.

(٣) آل عمران: ١٠٠.

كَأَنفُسِهِمْ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾^(١).

وقد عَلِمَ بِلَا شَكٍّ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ سَلَكُوا سُبُلَ التَّأْوِيلِ فِي الْكِتَابِ فَحَرَّفُوهُ وَانْصَرَفُوا عَنْ هِدَايَتِهِ إِلَى تَقَالِيدِ زَعْمَائِهَا لِأَنفُسِهِمْ، فَإِذَا أُطْعِمُوهُمْ وَسَلَكْتُمْ مَسَالِكَهُمْ فَإِنَّكُمْ تَكْفُرُونَ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ.

والحاصلُ أَنَّ طَاعَةَ أَهْلِ الْكُفْرِ - أَيِ كَافِرٍ كَانٍ - يَرُدُّكُمْ آخِرًا إِلَى الْكُفْرِ، فَالْإِسْلَامَةُ فِي عَدَمِ إِطَاعَتِهِمْ، فَيَجِبُ عَلَى الْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ أَنْ لَا يَطِيعَ كَافِرًا، وَلَا يَسْكُنَ مَعَهُ؛ لِأَنَّهُ إِنَّمَا يَقْصِدُ إِخْرَاجَ الْمُؤْمِنِ عَنْ إِيمَانِهِ، وَلِهَذَا تَرَى الَّذِينَ أُطَاعُوا الْكُفْرَانُ وَأُتْخَذُوا بِعَظَائِهِمْ قَدْ انْسَلَخُوا مِنَ الْإِيمَانِ كَلِيًّا أَوْ جُزْئِيًّا؛ بِإِدْخَالِهِمْ فِي الدِّينِ الْمُحَمَّدِيِّ مَا لَيْسَ مِنْهُ؛ كَالرُّهْبَانِيَّةِ، وَالطَّرِيقَةِ الْمُجَدِّدَةِ، وَالْمَذَاهِبِ الْمُخْتَرَعَةِ، وَالْإِنْجَائِ عِنْدَ الْكَلَاءِ، وَاعْتِقَادِ تَصَرُّفِ الْأَرْوَاحِ، وَأَنَّهَا تَعْلَمُ الْغَيْبَ، فَتُعَيِّنُ مَنْ تَحِبُّ مِنْ مَخْلَصِيهِ، وَتَضَرِّفُ مَنْ يُبْغِضُ، فَكُلُّ هَذَا نَتِيجَةُ جَهْلِهِمْ بِمَعَانِي أَوَامِرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَاخْتِلَافِهِمْ بِفِرْقَتَيْهِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مِنْ عِبَادَةِ الْقُبُورِ وَالْأَرْوَاحِ، وَسِدَّةِ اللَّاتِ وَالْعُزَّى، فَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ.

الآيَةُ الثَّلَاثَةُ عَشْرَةُ فِيهَا أَيْضًا : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُوا إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ . وَاعْتَصِمُوا بِخِلْعَةِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَلَقَّ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَاصْتَبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا . وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ

(١) البقرة : ١٢٠ .

تَهْتَدُونَ﴾^(١).

قَدْ خَاطَبَ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ، وَنَادَاهُمْ أَمِيرًا بِإِبَاهِمِ أَنَّ يَقْبُوهُ حَقَّ تَقْوَاهُ؛ أَيُّ : بِالْغَا فِي التَّقْوَى حَتَّى لَا تَتْرَكُوا مِنَ الْمُسْتَطَاعِ مِنْهَا شَيْئًا.

﴿وَلَا تَمُوتُوا إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾؛ أَيُّ : اسْتَمَرُّوا عَلَى الْإِسْلَامِ، وَحَافِظُوا عَلَى أَعْمَالِهِ حَتَّى الْمَوْتِ؛ لِأَنَّ الْمَرَّةَ يَمُوتُ غَالِبًا عَلَى مَا عَاشَ عَلَيْهِ، فَإِذَا عَاشَ عَلَى الْيَقِينِ وَالتَّقْوَى حَتَّى التَّقْوَى وَالْإِحْرَاسَ مِمَّا يُنَافِي الْإِسْلَامَ؛ مَاتَ عَلَى ذَلِكَ بِفَضْلِ اللَّهِ الَّذِي أَجْرَى هَذَا مِنْ شَيْئِهِ، ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى . وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى . فَسَنبَئُهُ لِلْيُسْرَى﴾^(٢)، وَكَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : «اعْمَلُوا؛ فَكُلُّ مِيسِرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ»^(٣).

ثُمَّ بَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَى لَنَا مَا بِهِ يَحَقِّقُ ذَلِكَ الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ، فَقَالَ : ﴿وَاعْتَصِمُوا بِخِلْعَةِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾؛ حَبْلُ اللَّهِ هُوَ الْقُرْآنُ؛ كَمَا صَحَّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ^(٤)، فَمَنْ كَانَ مُعْتَصِمًا بِهِ؛ كَانَ أَخَذًا بِالْإِسْلَامِ، وَإِنَّمَا الْاجْتِمَاعُ فِي نَفْسِ الْاِعْتِصَامِ؛ فَهُوَ يَوْجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَجْعَلَ اجْتِمَاعَنَا وَوَحْدَتَنَا بِكِتَابِهِ، إِلَيْهِ نَجْتَمِعُ، وَبِهِ نَتَّحِدُ، لَا بِجَسَدِيَّاتٍ تَبْتَدُّهَا، وَلَا بِمَذَاهِبٍ تَبْتَدُّهَا، وَلَا بِمَوَاضِعَاتٍ تَضَعُهَا، وَلَا بِسِيَاسَاتٍ نَخْتَرُهَا.

(١) آل عمران : ١٠٢ - ١٠٣ .

(٢) الليل : ٥ - ٧ .

(٣) رواه : البخاري (٥٤٤ / ٧) ، ومسلم (٢٦٤٧) ؛ عَنْ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ .

(٤) انظر تخریج الحديث الوارد فيه في «مسلسلة الأحاديث الصحيحة» (رقم ٢٠٢٤) لشيخنا الألباني .

وانظر : «الدر المنثور» (٢ / ٢٨٤ - ٢٨٦) .

ثم نهانا عن التفرُّق والانقسام بعد هذا الاجتماع والاعتصام؛ لما في التفرُّق من زوال الوحدة، التي هي مُعْقِدُ العِزَّةِ والقُوَّةِ، وبالعزَّةِ يعتزُّ الحقُّ فيعملو في المآلِمين، وبالقُوَّةِ يُحَفَظُ هو وأهلُه من هجمات الوثنيين وكيد الكائدين، وهذا كقولهِ تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾^(١).

فمن هذه السُّبلِ المتفرقة إحداث المذاهبِ والسُّبعِ في الدِّينِ، ومنها عصبيةُ الجنسيةِ الجاهليةِ.

وقد اعتصم أهلُ أوروبا في هذا العصرِ بالعصبيةِ الجنسيةِ كما كانت العربُ في الجاهليةِ، فسرى سُمُّ ذلك إلى كثيرٍ من مُتَفَرِّجَةِ المسلمين، فحاول بعضهم أن يجعلوا في المسلمين جنسياتٍ وطنيةً؛ مخادعين للناس بأنهم بذلك يهضمون بالوطن، ويعلون شأنه؛ كالأتراكِ الكماليين^(٢)، فبذلك انخلعوا عن الدِّينِ وهم لا يشعرون.

فيا أيُّها المسلمون! أما تفيقون من سكرتكم؟ وأما تنتبهون من غفلتكم، فترجعون إلى كتاب ربكم، وتعلمون أمرَ مولاكم، فتعصمون بحبلهِ المتين، وتسالون العزَّ والسعادة في الدنيا والدين والأخرة؟ وإلا فأيا حسرة عليكم في الدارين! وتكونون العوبة في أيدي المستعمرين البلاشفة^(٣) والإنكليز والأمريكان.

(١) الأنعام: ١٥٣.

(٢) نسبة إلى كمال أتاتورك، الذئب الأكبر، الذي كان من أسباب تفويض الخلافة العثمانية، وقد هلك قديماً، قاتله الله... وقد سار على نهجه ونسقه كثيرون!

(٣) نسبة إلى الثورة البلشفية في روسيا في أوائل هذا القرن.

ولا تغتروا أيُّها الإخوان المؤمنون بترهات المشايخِ الدُّجَالين، وأربابِ المذاهبِ الخوائين؛ فإنَّها لا تُسَمِّنُ ولا تُغني من شيء، وأما هي عينُ الضلالِ والخسرانِ، فنتبه.

الآيةُ الرابعة عشرة فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخْذَلُوا بِطَاغَةِ مَنْ دُونَكُمْ لَا يَأْلُوْنَكُمْ خِيَالًا وُدُّوْا مَا عٰثَمْتُمْ قَدْ بَدَتْ الْبَغْيَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(١).

قد نادى الله تعالى المؤمنين وخاطبهم بهذه الآية، فنهاهم عن اتخاذهم الأحياء والأصدقاء والوزراء وأهل الشورى من غير المؤمنين؛ من المشركين والوثنيين وأهل الكتاب والملحدِّين والرُّبَادِقَةِ وعبدة الأرواح والقبور.

﴿لَا يَأْلُوْنَكُمْ خِيَالًا﴾؛ أي: لا يوقعونكم في الفساد، أو يقصرون في مصالحكم.

﴿وُدُّوْا مَا عٰثَمْتُكُمْ﴾ في الحقيقة هم بمقتضى طبيعتهم يؤدون عنتكم ومشتكم الشديدة ووقعكم في الضيقِ والضنكِ، فبذلك يصلون إلى مقاصدهم.

﴿قَدْ بَدَتْ الْبَغْيَاءُ﴾ وظهرت من كلماتهم الصادرة ﴿من أفواههم وما تُخْفِي صُدُورُهُمْ﴾ من الحسدِ والعداوةِ وسوءِ القصدِ ﴿أكبرُ﴾ وأشدُّ؛ فإنهم يترصَّون بكم الدوائر، وهذا قطعي لا شك فيه.

(١) آل عمران: ١١٨.

فحاصل المعنى أنَّ الله تعالى نهى المؤمنين أَنْ يتخذوا لأنفسهم بطانةً وصاحبَ سرٍّ وشورةً من الكافرين؛ لأنَّهُم لا يألُوهم ما استطاعوا خبالاً وإفساداً لأنهم إذا وجَدُوا إلى ذلك سبيلاً، ولأنهم يمتنون عتقكم ووقوعكم في الشدة والضرر الشديد والمشقة والضيق، فبذلك يحصلون مرادهم.

وقد أقام الله تعالى العلامات الفارقة بين مَنْ يصلح أَنْ يتخذَ بطانةً ومَنْ لا يصلح أَنْ يتخذَ لخيانته وسوء عاقبة مباطئته، فاعتبروا إنْ كنتم تعقلون؛ فالذي يصلح للبطانة صاحب عقل ودين وحزم وجَلَدٍ ودراية وتجربة، وأما الذي لا يصلح؛ فأجنبي دُخِلَ لا يتصل بصاحب الملك في جنس ولا دين، فمتلَّه كمثل أجير في بناء بيت لا يهْمُهُ إِلَّا استيفاء أجرته إذا صدَّق في العمل، فهو إذا فقد العيش فارَّقه وارتدَّ إلى منبته الذي ينتسب إليه، وهذا بمقتضى الطبيعة إذا خلا عن أغراض آخر.

ومن تتبع التواريخ التي تحكي لنا عن سيرة الله في خليفه وتصريفه لشؤون عباده؛ رأى أنَّ الدولَ في نموها وبسطها ما كانت مصونة إلا برجالٍ منها؛ يعرفون لها حقها كما تعرف لهم حقهم، وما كان شيء من أعمالها يبد أجني عنها، وأن تلك الدول ما انخفض مكانها، ولا سقطت في هوة الانحطاط؛ إلا عند دُخول العنصر الأجنبي فيها، وارتقاء الغرباء إلى الوظائف السامية في أعمالها؛ فإن ذلك كان في كل دولة آية الخراب والدمار.

انظر إلى سقوط الدولة الأموية، ثم سقوط الدولة العباسية، ثم سقوط الدولة التركية العثمانية.

ولهذا يحق لنا أَنْ نأسف غاية الأسف على أمراء الشرق من المسلمين.

حيث سلّموا أمورهم ووكّلوا أعمالهم للأجانب عنهم، بل زادوا في موالاة الغرباء والثقة بهم، وغفلوا أنَّهم إذا اتّمتوا خانوا، وإذا عَزَّزوا أهانوا، يقابلون الإحسان بالإساءة أحرأ، والركون إليهم بالجفوة، والثقة بهم بالخدعة.

أما آن لأمراء الشرق أَنْ يدبّروا بأحكام الله التي لا تنقض؟!!

ألم يأن لهم أَنْ يرجعوا إلى جِسمهم ووجدانهم؟!!

ألم يأت وقت يعملون فيه بما أرشدكم كتاب الله ويتورّون بنوره؟!!

ألم تنبههم الحوادث؟!!

فيا أيها الأمراء العظام! ما لكم وللأجانب عنكم؟! قد علمتم شأنهم؛ مكارون عُدّارون^(١)!

وعليكم أيها المسلمون أَنْ تعلموا أواذكَم معاني كتاب ربكم، فيفهموه ويعملوا به، في كل ما أرشد في الدين والدنيا والتجارة والسياسة والصنعة والهندسة، حتى يفوزوا بسعادة الدنيا، ويعيشوا أحراراً كراماً إلى أَنْ يفوزوا بسعادة الآخرة أيضاً، ولا شكَّ أنَّ كلاً من سعادة الدنيا والآخرة لا تحصل بالاماني بلا عمل، فعليكم بالعمل بالجد والاجتهاد.

الآية الخامسة عشرة فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافاً

(١) ما أشبه اليوم بالأمس! فليروا من أغرب هؤلاء، ويرجع من تكبكب معهم؛ وليتب من وطأ لهم!

فإذا فعلوا ذلك؛ نالوا رضى الله ورضى الناس، وأمنوا عذاب الله وغضبه.

مُضَاعَفَةً وَأَتَقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . وَأَتَقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ . وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ^(١).

فيا أيها الإنسان المصنّف بصفة الإيمان! أعمل عقلك، وافهم كلام ربك، فلا تعامل بالربا، ولا تأكله أضغافاً مضاعفة بمرور الأشهر والسنين، ولا تظلم أخاك بأخذ ماله بغير حق؛ لأن دين الإسلام مبني على تهذيب النفوس، وإصلاح حال المجتمع، لا توفير ثروة بعض الأفراد من أهل الأثرة^(٢)، والإسلام دين إنساني لا دين القسوة والبخل واستغلال ضرورة المحتاج .

فيا أيها المؤمنون! اتقوا الله في أهل الحاجة والبؤس، فلا تحملوهم من السنين ما يخرب بيوتهم ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ﴾ في دنياكم بالتراحم والتعاون فتحابون، والمحبة أس السعادة، وأما الكافرون الذين قسّت قلوبهم، واستحوذ عليهم الطمع والبخل؛ فأعد الله تعالى لتعذيبهم نار جهنم^(٣).

فأنتم أيها المؤمنون! لا تكونوا مثلهم، بل اتقوا الأعمال التي تصير سبباً لدخول فاعليها نار جهنم، ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ فيما نها عنهُ من أكل الربا، ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ في الدنيا بما تفيدكم الطاعة من صلاح مجتمعتكم، وفي الآخرة بحسن الجزاء على أعمالكم؛ فإن الراحمين يرحمهم الرحمن جلّ جلاله .

(١) آل عمران: ١٣٠ - ١٣١ .

(٢) هي الأناثة وحب الذات.

(٣) قال المصنّف تليفاً: وجنّهم البلاشفة في الدنيا كما ابتلي بها أهل روسيا وبخارى، وأما في الآخرة فإنار جهنم الدائمة، أعادنا الله تعالى منها .

الآية السادسة عشرة فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾^(١).

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين منيها إياهم أنهم إذا أطاعوا الكفرة رغبة فيما عندهم من المال والمال يردونهم عن دينهم، ويهدمون إيمانهم وهم لا يشعرون، فيقبلون خاسرين؛ كما هو شأن الكفار مع المسلمين في كل زمان ومكان؛ من وقعة أحد إلى الآن، وإلى يوم الدين؛ يعني: إذا أطعتم الكفار، وطلبتهم منهم الأمان، وكانت حالكم معهم كحال المغلوب مع الغالب؛ يتولّون عليكم حتى يردوكم عن دينكم استدرجاً، فتقبلوا خاسرين للدنيا والآخرة؛ كما صارت حال أمير فرغانة خديا خان، وأمير بخارى وخوارزم عبدالأحد خان، وعالم خان وإسمنديار خان^(٢).

وكما نشاهد اليوم أن كثيراً ممن يدعي الإسلام يطبع الكفار ويميل إليهم وينخلع بهم؛ لما عندهم من المال، فينخلعون عن الدين باسم المدنية، ويسلمون أولادهم إلى مدارسهم، فهم يعلمونهم اللادينية والدهرية، وهم لا يشعرون، وأنما يكتفون بالاسم الخالي عن المسمى، فيهدمون الدين هدماً؛ كما هو مشاهد في أكثر البلدان، فإناً لله وإناً إليه راجعون .

الآية السابعة عشرة فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لَإِخْرَاجُنَا إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا عِثْرًا مَا مَاتُوا﴾^(١).

(١) آل عمران: ١٤٩ .

(٢) هم بعض أمراء بلاد العجم في آخر القرن التاسع عشر الميلادي .

وما قُتِلُوا لِيَجْمَلَ اللَّهُ ذَلِكَ خَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمُ وَاللَّهُ يُخَيِّ وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ^(١).

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين - ناهياً إياهم - أن لا يكونوا كالكافرين في الاعتقاد الفاسد، والإفساد بين العباد، والكافرون يقولون: لو لم يُسافر فلان لم يمت، ولكن سافروا للتجارة أو للكسب أو للغزو فماتوا أو قُتِلوا.

وقد قرَنَ الله تعالى هذا القول بالكفر، للإشعار بأن مثله لا ينبغي أن يصدر عن مؤمن؛ لأنه إنما يصدر عن الكافرين، وقولهم هذا باطل عقلاً ودينياً:

أما عقلاً؛ فإن هذا القول مخالف للمعقول، مصادم للوجود؛ فإن من مات أو قُتِلَ فقد انتهى أمره، وصار قول: (لو كان كذا) غيباً؛ لأن الواقع لا يرتفع، والحسرة على الفائت لا تفيد، ومن شأن المؤمن أن يكون صحيح العقل، سليم الفطرة، ولذلك قد وجه الله تعالى الخطاب إلى العقلاء، وبين أن أولى الألباب هم يعقلونه ويتذكرون به ويقبلون هدايته.

وقال الله تعالى فيمن لا إيمان لهم: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ^(٢)﴾.

وأما ديناً؛ فهذا القول يدل على جهل قائله بالدين، أو جحوده؛ فإن الدين يرشد إلى تحديد الأجال، وكونها بإذن الله تعالى كما لا يخفى.

(١) آل عمران: ١٥٦

(٢) الأعراف: ١٧٩.

﴿وَاللَّهُ يُخَيِّ وَيُمِيتُ﴾؛ أي: والحقيقة أن الله تعالى يحيي من يشاء بمقتضى سنته في بقاء أسباب الحياة، وإن طوى بالأسفار بساط كل بر، ونشر شرع كل بحر، وخاض معامع الحرب، وصارع الأهوال والخطوب، ويميت من يشاء بمقتضى سنته في أسباب الموت، وإن اعتصم في الحصون المشيدة، وحرس بالجنود المجتذبة.

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، فلا يخفى عليه ما تكونون في أنفسكم من الاعتقاد، وما يؤثر في قلوبكم من الأقوال والأحوال، فاحرصوا على أن يكون ترككم لأقوال الكفار ناشئة عن طهارة نفوسكم من وساوسهم.

فيا أيها المؤمنون! اجتهدوا في سبيل فهم كلام ربكم الحكيم، ولا تضيّعوا عمركم وحياتكم في القيل والقال من مقالات أصحاب الجحيم.

الآية السابعة عشرة فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ^(٣)﴾.

قد نادى الله تعالى المؤمنين وخاطبهم؛ أبرأ إياهم بالصبر والدوام على امتثال الأوامر، والانتهاز عن المناهي، مع تحصيل ما يلحق من الأذى، والمصابرة في مقابلة الأعداء الذين يقاومونهم؛ ليغلبوا على أمرهم، وربطوا الخيل كما يربطونها؛ استعداداً للجهاد في كل وقت وزمان.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾؛ يكثر الله تعالى من هذه

(١) آل عمران: ٢٠٠.

الوصية، ومع ذلك نرى المسلمين قد انصرفوا عنها بئس، حتى صار التقى عند الناس هو الأهل الذي لا يعقل مصلحة ولا مصلحة الناس، والأبله الذي هو أجهل من جمار توما^(١)، ولا شيء أشأم من فهم التقوى بهذا المعنى، والتقوى: أَنْ تَقِيْ نَفْسَكَ مِنَ اللَّهِ؛ أي: من غضبه وسخطه وعقوبته، ولا يمكن هذا إلا بعد معرفته ومعرفته ما يرضيه وما يسخطه، ولا يعرف هذا إلا مَنْ فهِمَ كِتَابَ اللَّهِ تعالى، وعرف سُنَّةَ نَبِيِّ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وسيرة السلف الصالحين؛ مطالباً نفسه بالاهتداء بذلك كله، فَمَنْ صَبَرَ وَصَابَرَ وَرَاطِبَ لِأَجْلِ حِمَايَةِ الْحَقِّ وَأَهْلِهِ، ونشر دعوته، وأتقى ربه في سائر شؤونه؛ فقد أعد نفسه بذلك للفلاح والفوز بالسعادة عند الله تعالى.

وإرادة الفلاح الدنيوي من هذه الآية ظاهرة؛ فَإِنَّ الصَّبْرَ وَمَصَابِرَةَ الْأَعْدَاءِ وَالْعَرَابِطَةَ وَالتَّقْوَى كُلُّهَا مِنْ أَسْبَابِ الْفَوْزِ عَلَى الْأَعْدَاءِ فِي الدُّنْيَا؛ كما أَنَّهَا مَعَ تَحْسِينِ النِّيَّةِ وَقَصْدِ إِقَامَةِ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ الَّذِي هُوَ شَأْنُ الْمُؤْمِنِ مِنْ أَسْبَابِ سَعَادَةِ الْآخِرَةِ، وهذه الأعمال كلها اختيارية، داخلة في مقدور الإنسان، ولذلك أمر الله تعالى بها المؤمنين، فَعَمَلُهُ إِذَا هُوَ سَبَبٌ فَلَاحٍ.

فعليناكم أيها المؤمنون - سواء كنتم عرباً أو عجماء، شرقيين أو غربيين - أن تفهموا أوامر ربكم، فامتثلوها لعلمكم بفلاحون.

وأما الذي يجهل هذه الأوامر، ويقتصر على صُور بعض العبادات، ويقيم في التكايا والزوايا؛ فهو لا يفعل أبداً، ولا ينال الخلافة أصلاً، بل ينحصر في زوايا الحرمان خمولاً كما هو المشاهد، فاعتبروا يا أولي الأبصار.

(١) هو حكيم مشهور، يضرب المثل بجهل حمارة!

الآية التاسعة عشرة في سورة النساء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرْثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَقْضُوا لَهُنَّ إِنْ تَزَنُّوا بِهِنَّ بِبَيْعٍ مَا تَتِيمُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيَّنَةٍ وَعَاشِرُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا^(١)﴾.

قد نادى الله تعالى المؤمنين، وخاطبهم بهذه الآية عامة، من غير فرق بين عالم وجاهل، وعسيري وعجمي؛ ناهياً إياهم عن العادات الجاهلية، والمعاملات الحيوانية، فقال: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرْثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا﴾، أي: لا يحل لكم أيها المؤمنون بالله وبما أنزل على رسوله محمد ﷺ أن تستمروا على سنة الجاهلية في هضم حقوق النساء، فتجعلوهن ميراثاً لكم كالأموال والعروض والعييد، وتتصرفوا فيهن كيف تشاؤون، فإن شاء أحدكم تزوج امرأة من مات من أقاربه تزوج، وإن شاء زوجها غيره، وإن شاء أسكنها ومنعها الزواج، وهذا هو العُضْلُ، والعُضْلُ: التضييق والتشديد؛ أي: لا يحل لكم إرث النساء ولا غصْلُهُنَّ لأجل أن تذهبوا ببعض ما يتيموهن من ميراث أو صداق أو غير ذلك.

والخطاب لجميع المؤمنين لتكافلهم، فيضدق بما أعطوه للنساء من ميراث ومهر وزواج وغير ذلك.

﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيَّنَةٍ﴾؛ أي: ظاهرة معلومة؛ كالزنا، والشويز، وسوء الخلُق الفاحش، فإذا أتيت بالفاحشة المبينة دون الظنِّ والشبهة، وكذا إذا نَشَرْتَ عَنْ طَاعَتِكُمُ بِالْمَعْرُوفِ الْمَشْرُوعِ، ولم ينفع معهن التأديب، وساءت

عشرتهُمْ؛ فلكم حينئذ أن تعملوهُمْ لتذهبوا ببعض ما آتيتموهُم من صدقاتٍ وغيره.

﴿وَعَاشِرُوهُم بِالْمَعْرُوفِ﴾؛ أي: يجب عليكم أيها المؤمنون أن تحببوا عشرة نساءكم، ومَنْ يعاشِرْكُمْ كذلك.

فيا أيها المؤمنون! أنت المَخاطَب بهذه الأوامر، وأنت المَلزوم بالعمل بهذه الفضائل ومكارم الأخلاق، فعليك السعي للتعلُّم حتى تفهم أوامرك، فترتقي من حيز الحيوانية إلى أعلى دَرَجات الإنسانية، فتعيش سعيداً، وتصبح عائلتك سعيدة، ويصير أولادك سعداء.

الآية العشرُون فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾^(١).

قد نادى الله تعالى المؤمنين وخاطبهم مخصصاً بإياهم بالنهي عن أكل أموال إخوانهم المؤمنين بالباطل؛ أي: لا تأكل بعضكم مال بعض بغير حق، وإنما أضاف الأموال للجميع للتشبي على تكافل الأمة في حقوقها ومصالحتها، كأنه تعالى يقول: إنَّ مال كل واحد منكم هو مال أمتكم، فإذا استباح أحدكم أن يأكل مال الآخر بالباطل؛ كان كأنه أباح لغيره أكل ماله وهضم حقوقه؛ لأنَّ المرة كما يدين يَدان، فيجب على صاحب المال الجائز له بذله أو البذل منه

(١) النساء: ٢٩.

للمحتاج، فكما لا يجوز للمحتاج أن يأخذ شيئاً من مال غيره بالباطل، كالسرقة والغصب والنهب والغدر والغش، لا يجوز لصاحب المال أن يسخل عليه بما يحتاج إليه.

والإسلام لم يُبَحِّ للمحتاج أن يأخذ ما يحتاج إليه من أيدي أصحاب الأموال بدون إذنتهم وبدون رضائهم؛ لأنَّ في ذلك مفسدة عظيمة، وأكأنَّ الكسالي على كسب غيرهم، ففيه فساد نظام الاجتماع، وانحطاط البشر، فيؤدِّي إلى الفوضى في الأموال، والضعف والثواني في الأعمال، والفساد في الأخلاق والآداب؛ كما لا يخفى على أولي الأبصار، فوجب أن لا يأخذ أحد مال أحد إلا بحق، أو يبدل صاحب المال ما شاء عن كرم وفضل، فتمت يعمد المسلمون إلى دينهم، ويكونون حُجَّةً لهُ على جميع الملل؛ كما كان سلفهم من الصحابة والتابعين لهم بإحسان رضي الله عنهم، فقيموا المدينة الصحيحة في هذا العصر كما أقامها أولئك الأبرار في عصورهم؟

ويدخل في الباطل: الغصب، والسرقة، والغش، والبداع، والزنا، والغش، والتغرير، ونحوها.

﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾؛ أي: لا تقصدوا إلى أكل أموال الناس بالباطل، ولكن أقبضوا أن تربحوا بالتجارة التي تكون صادرة عن التراضي منكم، وتخصيص التجارة بالذكر دون سائر أسباب الملك لكونها أكثر وقوعاً وأوقف لذوي المروءات.

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾؛ ظاهر الآية أنَّ النهي إنما هو عن قتل الإنسان لنفسه، وهو الانتحار، والمبتدأ من الأسلوب أنَّ المراد لا يقتل بعضكم بعضاً،

وهو الأقوى، واختير هذا التعبير للإشعار بتعاون الأمة وتكافلها ووحديتها، فلا تغفلوا أنفسكم حقيقة بالانتحار، ولا مجازاً بقتل بعضكم بعضاً، فبرئنا الله تعالى إلى أنه يجب علينا أن نحترم نفوس الناس بجعلها كفوسنا، فاحترامنا لنفوسنا يجب أن يكون أولى، فلا يُباح بحال من الأحوال أن يقتل أحد نفسه؛ كأن يبخعها لسترخ من الغم وشقاء الحياة، فمهما اشتدت المصائب على المؤمن؛ فإنه يصبر ويحتسب ولا يقطع رجاءه من الفرج الإلهي، ولذا نرى بسخ النفس والانتحار^(١) يكثر فيما بين الكفار، حيث يقل الإيمان، ويفشو الكفر والإلحاد، ومن فوائد الإيمان مدافعة المصائب والأكدار، فالمؤمن لا يتألم من بؤس الحياة كما يتألم الكافر.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾؛ لأن فيما نهاكم عنه حفظ ممالككم وأموالكم التي هي قوام مصالحكم ومنافعكم، فيجب أن تتراجعوا فيما بينكم، ويكون كل منكم عوناً للآخرين على حفظ النفس، ومدافعة زوايا الدهر، ومن يرتكب تلك المنهيات عدواناً وظلماً فسوف نصليه ناراً

ولا يشك ذو عقل وإيمان وله خبرة بمعاني كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ أن من جملة أكمل أسرار الناس بالباطل ما يأخذ به مشايخ الطرق من مرديهم، وما يأخذ به سدة القيود من زائريها وتادبرها، وما يأخذ به يأكله أصحاب التكايا والزوايا أصحاب البطالة والكسالى، وما يأخذ به قراء القرآن

(١) وقد صح عن النبي ﷺ قوله: «من قتل نفسه بحديدة؛ فحديدته في يده يتوجأ بها في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً».

أخرجه: البخاري (١٠ / ٢٦١)، ومسلم (١٠٩)، عن أبي هريرة.

لأجل قراءتهم؛ بشرط إهداء ثواب القراءة لمن يريد المستاجر؛ كما هو مبين مشروح في كتب العلماء الأعلام.

الآية الحادية والعشرون فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَءُوا الصَّلَاةَ وَانْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنْباً إِلَّا غَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَأَسْتَمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُوراً﴾^(١).

قد خاطب الله تعالى عباده المؤمنين - غرباً كانوا أو عجماً - ناهياً إياهم عن قربان الصلاة وهم سُكَارَى لا يعلمون ما يقولون، وهذا التعليل للنهي يُفيد أن العلم بما يقوله الإنسان في الصلاة من تلاوة وذكر واجب أو شرط، والعلم فهمه، وهذا يدل على وجوب معرفة اللغة العربية على كل مسلم لفهم ما يقول في الصلاة.

فتنبه أيها المسلم! وتدبر أيها المؤمن! هل لك من نصيب من فهم كلام ربك الحكيم؟ فإن كنت ذا نصيب؛ فاحمد ربك، واستزد من ذلك، وأما إذا لم يكن لك نصيب منه؛ فأنت من المحرومين، فنتب إلى الله توبة صحيحة، واجتهد في تعلم كلام ربك وفهمه بغاية جهلك، عسى الله تعالى أن يرزقك علماً نافعاً، وفهماً مستقيماً، وأما إذا لم تنب، وأصررت على ما أنت عليه من الجهل؛ فأنت من الخاسرين في الدارين، ولا يتفك ما تعلمت من الفلسفة،

(١) النساء: ٤٣.

أو ما ضَيَّعت فيه عَمَرَكُ مِنْ دواوين الأشعار؛ كَأَكْثَرِ الْبُخَارِيِّينَ الَّذِينَ ضَيَّعُوا أَعْمَارَهُمْ فِي دِيوانِ ميرزا بيدل، الَّذِي يَقْرَأُ فِي دِيوانِهِ أَنَّ أَصْلَ الْإِنْسَانِ كَانَ قِرْدًا^(١)، وَأَنَّ اللَّحْيَةَ لِلرِّجَالِ لَيْسَ لَهَا شَيْءٌ غَيْرُ الشَّوْشِيشِ ! فَلهَذَا تَرَى وَتَشَاهِدُ أَكْثَرَهُمْ فِي أَوَّلِ حَزْبِ الشُّيُوعِيَّةِ دُخُولًا حِينَما أَعْلَنَتْ الرُّوسِيَا الشُّيُوعِيَّةُ^(٢)؛ لِأَنَّ لَهُمْ قَابِلِيَّةً نَامَةً لِقَبُولِهَا؛ كَمَا لَا يَخْفَى عَلَى الْخَبِيرِ.

وَأَمَّا بَاقِي مَسَائِلِ الْجَنَابَةِ وَالْإِعْتِسَالِ مِنْهَا وَالتَّيَسُّمِ فِي حَالِ الْمَرَضِ وَالسَّفَرِ وَعِنْدَ عَدَمِ وَجُودِ الْمَاءِ وَكَيْفِيَّتِهِ؛ فَمَعْلُومَةٌ وَبَيِّنَةٌ فِي كُتُبِ الْفُرُوعِ.

الآيَةُ الثَّانِيَّةُ وَالْعَشْرُونَ فِيهَا أَيْضًا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾^(٣).

فَدَنَادَى اللَّهُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ وَخَاطَبَهُمْ عَمُومًا؛ أَمْرًا بِإِطَاعِهِمْ بِأَنَّهُ يُطِيعُوا اللَّهَ تَعَالَى، وَالطَّاعَةَ هِيَ الْعَمَلُ بِكُتَابِهِ الْعَزِيزِ، وَيُطِيعُوا الرَّسُولَ، وَهِيَ الْعَمَلُ بِسُنَّتِهِ؛ لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي يُبَيِّنُ لِلنَّاسِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى النَّاسِ مِنَ الْكِتَابِ.

(١) كَمَا قَرَأْتُهُ (!) نَظْرِيَّةُ دَارُونِ الْبَائِدَةِ، الَّتِي تَرَاوَعَتْ عَنْهَا أَصْحَابُهَا وَتَرَكَهَا أَرَبَائِهَا، وَمَعَ ذَلِكَ؛ فَلَا زَالَ نَسْمَعُ إِلَى الْآنَ مِنْ يَتَفَنَّى بِهَا مِنْ جَهْلَةِ الْمُتَعَمِّينَ بِأَسْمَاءِ إِسْلَامِيَّةٍ!!
(٢) وَالْآنَ . . . سَقَطَتِ الشُّيُوعِيَّةُ! وَعَلَى يَدِ مَنْ؟ عَلَى يَدِ دَعَاتِهَا وَمُؤَسِّسِيهَا، بَعْدَ أَنْ أَسْقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ، وَعَلِمُوا مِنْ أَنْفُسِهِمْ فَسَادَهَا وَكَسَادَهَا، فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَرَاخَ الْمُسْلِمِينَ مِنْهَا.
(٣) النِّسَاءُ: ٥٩.

وَقَدْ أَعَادَ اللَّهُ تَعَالَى لِقَظِ الطَّاعَةِ لِتَأْكِيدِ طَاعَةِ الرَّسُولِ ﷺ؛ لِأَنَّ دِينَ الْإِسْلَامِ دِينُ تَوْحِيدٍ مُحَضٍّ، لَا يَجْعَلُ لِعَبْرِ اللَّهِ أَمْرًا وَلَا نَهْيًا وَلَا تَشْرِيعًا وَلَا تَأْثِيرًا، وَالرَّسُولُ ﷺ إِنَّمَا يُبَيِّنُ مَا شَرَعَهُ اللَّهُ تَعَالَى لَنَا مِنَ الدِّينِ وَالشَّرْعِ.

مَثَلُ ذَلِكَ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الَّذِي شَرَعَ لَنَا عِبَادَةَ الصَّلَاةِ وَأَمْرًا بِهَا، وَلَكِنَّهُ لَمْ يُبَيِّنْ لَنَا فِي الْكِتَابِ كَيْفِيَّتَهَا وَعَدَدَ رَكَعَاتِهَا، وَلَا رُكُوعَهَا وَسُجُودَهَا، وَلَا تَحْدِيدَ أَوْقَاتِهَا، فَبَيَّنَّهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِأَمْرِهِ تَعَالَى إِثْبَاتًا بِذَلِكَ، فَقَالَ ﷺ: «صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي»^(١).

وَأَعْلَمَ أَنَّ أَهْلَ الْجَاهِلِيَّةِ وَأَهْلَ الْكِتَابِ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِالْجَنَّةِ وَالطَّاعُوتِ، فَيَتَحَاكَمُونَ إِلَى الْكُهَّانِ وَالْأَحْبَارِ، وَيَجْعَلُونَهُمْ شَارِعًا، وَطَوَاعِيَهُمْ رُؤَسَاءَ، وَالَّذِينَ يَحْكُمُونَ فِيهِمْ بِأَهْوَائِهِمْ، وَكَانُوا يَقُولُونَ: إِنَّ هَؤُلَاءِ الرُّؤَسَاءُ أَعْلَمُ مِنَّا بِالتَّوْرَةِ وَبِمُصْلِحَتِهَا.

فَاللَّهُ تَعَالَى قَدِ بَيَّنَّ لَنَا حَالَهُمْ، وَقَرَّنَهُ بَيَانًا مَا يَتَجَبُّ أَنْ نَسِيرَ عَلَيْهِ فِي الدِّينِ وَالشَّرِيعَةِ وَالْأَحْكَامِ، حَتَّى لَا نُضِلَّ كَمَا ضَلَّ الْمُشْرِكُونَ وَأَهْلُ الْكِتَابِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا أَفْرَادًا مِنْهُمْ أَرْبَابًا إِذْ جَعَلُوهُمْ شَارِعِينَ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾.

وَقَدْ اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي أَوَّلِي الْأَمْرِ:

فَهَنَمْتُ مَنْ قَالَ: هُمُ الْأُمَرَاءُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِشَرْطِ أَنْ لَا يَأْمُرُوا بِمَعْصِيَةِ وَمُحَرَّمٍ.

(١) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٢ / ٩٢) عَنْ مَالِكِ بْنِ الْحُوَيْرِثِ.

ومنهم من قال: هم العلماء؛ لأن العلماء هم الذين يمكنهم أن يستنبطوا الأحكام غير المنصوصة من الأحكام المنصوصة.

ومنهم من قال: هم الذين يناط بهم النظر في أمر إصلاح الناس ومصالحهم.

والأقرب إلى الصواب أن أولي الأمر جماعة أهل الحل والعقد من المسلمين، وهم العلماء والأمراء والحكام ورؤساء الجند وسائر الرؤساء والزعماء الذين يرجع إليهم الناس في الحاجات والمصالح العامة، فهؤلاء إذا اتفقوا على أمر أو حكم؛ وجب أن يطاعوا فيه، بشرط أن يكونوا مئة، وأن لا يخالفوا أمر الله ولا سنة رسوله ﷺ التي عرفت بالتواتر، وأن يكون ما يتفقون عليه من المصالح العامة، وأما العبادات وما كان من قبيل الاعتقاد الديني؛ فلا يتعلق به أمر أهل الحل والعقد، بل هو مما يؤخذ عن الله ورسوله فقط، ليس لأحد فيه رأي إلا أن يكون في فهمه.

وإذا لم يكن الأمر منصوباً في كتاب الله ولا سنة رسوله؛ فينظر فيه أولو الأمر إذا كان من المصالح، فيشاورون في تقرير ما ينبغي العمل به، فإذا اتفقوا وأجمعوا؛ وجب العمل به، وإن اختلفوا وتنازعوا؛ فقولهم تعالى: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾، ذلك بأن يعرض على كتاب الله وسنة رسوله وما فيهما من القواعد العامة، فما كان موافقاً لهما؛ علم أنه صالح لنا، ووجب الأخذ به، وما كان منافياً لعلم أنه غير صالح، ووجب تركه، وبذلك يزول التنازع وتجتمع الكلمة.

والغرض من هذا الرد أن لا يقع خلاف ولا نزاع في الدين والشرع، فلا

يُنْضَي إلى التفريق الذي يجعل المسلمين شيعاً ومذاهباً ويُنْزِق بعضهم بأس بعض.

ولكن الأسف أن المسلمين لم يعملوا بالأية، بل استنبطوا، ففسرُوا واختلَفوا إلى أن تمزقوا وصاروا محكومين تحت سيطرة الإنجليز، ومردودين أسراء تحت أرجل المستعمرين، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

واعلم أن المسائل الدينية لا ينبغي أن يكون فيها تفرق ولا خلاف؛ لأن الله رب العالمين يقول: ﴿أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾^(١)؛ لأن العمل فيها بالنص لا بالرأي، وقد قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَ الَّذِينَ يُسْتَبِطُونَ مِنْهُمْ﴾^(٢)، فبين أن ما ينظر فيه أولو الأمر هو المسائل العامة؛ كمسائل الأمن والخوف، وأن العامة لا ينبغي لها الخوض في ذلك، بل عليها أن ترده إلى الرسول وإلى أولي الأمر، فهؤلاء يتولون استنباطه وإقناع الآخرين به.

فأولو الأمر لا يختص بالأمراء والفقهاء فقط^(٣)، بل هم العارفون بمصالح الأمة حسب اختلاف الزمان والمكان، ولا يكفي فيه معرفة أصول الفقه وفروعه.

﴿إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾؛ أي: أطيعوا الله وأطيعوا الرسول،

(١) الشورى: ١٣.

(٢) النساء: ٨٣.

(٣) بل الأرجح والأصوب أنهم الأمراء والفقهاء، إذ لو فتحنا هذا الباب؛ لدخله من لم يحسنه بحجة أنه عارف بمصلحة الأمة!!

وَرَدُّوا الشَّيْءَ الْمُنَازَعِ فِيهِ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ؛ بِعَرْضِهِ عَلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ إِنْ كُنْتُمْ تَوَمَّنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ صِدْقًا؛ فَإِنَّ الْمُؤْمِنَ لَا يُؤْثِرُ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ شَيْئًا، وَالْمُؤْمِنُ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ يَهْتَمُّ بِجَزَاءِ الْآخِرَةِ أَشَدَّ مِنْ اهْتِمَامِهِ بِحَقِّ الدُّنْيَا.

وفيه دليل على أَنَّ من لا يؤثِّرُ اتباعَ الكتابِ والسُّنةِ على أهوائِهِ وحظوظِهِ، ولا سِيَمًا فِي مَسَائِلِ الْمَصَالِحِ الْعَامَةِ فِيهِ، لَا يَكُونُ مُؤْمِنًا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ إِيْمَانًا يُعْتَدُّ بِهِ.

«ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا»؛ وَاللَّهُ الْعَظِيمُ؛ لَوْ جَرَى الْمَسْلُومُونَ عَلَيْهِ لِمَا أَصَابَهُمْ مَا أَصَابَهُمْ مِنَ الشَّقَاءِ وَالتَّفَرُّقِ وَالانْحِدَالِ، فَقَدْ رَأَيْنَا كَيْفَ سَعِدَ الْمُهْتَدُونَ بِهِ؛ كَالْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ، وَكَيْفَ شَقِيَ بِهِ الَّذِينَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَاسْتَبَدُّوا بِالْأَمْرِ؛ كَأَمْرِهِ يُخَارَى.

وَحَمَلَ بَعْضُهُمْ «أُولَى الْأَمْرِ» عَلَى أَفْرَادِ الْأُمَرَاءِ وَالسُّلَاطِينِ مُطْلَقًا، حَتَّى الْجَاهِلِينَ الْجَائِرِينَ وَالْفَاسِقَ الظَّالِمِينَ!

وبعضهم على الْأَثَمَةِ الْمُجْتَهِدِينَ فِي الْفَقْهِ، ثُمَّ قَالُوا: إِنَّهُمْ قَدْ اقْتَرَضُوا، وَأَنَّه لَا يَجُوزُ أَنْ يَخْلُقَهُمْ أَحَدٌ، فَلَا يَجُوزُ لِلْمَسْلُومِينَ غَرَضُ الْمَسَائِلِ عَلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالْعَمَلِ بِمَا يَهْدِيَانِ إِلَيْهِ، بَلْ يَجِبُ أَنْ يَقْلُدَ أَحَدًا مِنَ الْمُجْتَهِدِينَ، وَإِنْ اخْتَلَفَتْ آرَائُهُمْ، حَتَّى فِي الْعِبَادَاتِ وَالْعَقَائِدِ، حَتَّى صَارَ الْحَنَفِيُّ يَمْكُثُ حَاضِرًا فِي الْمَسْجِدِ، وَيَقْرَأُ الْجَمَاعَةَ فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ مَثَلًا، وَالْإِمَامُ شَاعِعِيٌّ أَوْ مَالِكِيٌّ أَوْ حَنْبَلِيٌّ، فَلَا يَقْنَدِي هَذَا الْحَنَفِيُّ الْحَاضِرَ مَعَهُمْ؛ لِزَعْمِهِ أَنَّهُ لَا يَصِحُّ اقْتِدَاؤُهُ خَلْقَهُ، فَيَنْتَظِرُ حَتَّى يَجِيءَ إِمَامٌ مَذْهَبِهِ فَيَأْتِمَ بِهِ.

يَا أَسْفَى عَلَى حَالِ الْمَسْلُومِينَ! إِنَّهُمْ قَدْ وَفَّقُوا فِي دِينِهِمْ وَشَرِيعَتِهِمْ عِنْدَ

الْكِتَابِ الَّتِي أَلْفَهَا الْمُقْلِدُونَ فِي الْقُرُونِ الْوَسْطَى وَمَا بَعْدَهَا، حَتَّى صَارَ النَّاسُ يَنْسَبُونَ كُلُّ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الضُّعْفِ وَالسَّوْءِ وَالْجَهْلِ وَالْفَقْرِ إِلَى دِينِهِمْ وَشَرِيعَتِهِمْ، وَقَدْ سَرَى هَذَا الْعَيْتَادُ إِلَى الَّذِينَ يَتَعَلَّمُونَ عُلُومَ أَوْرُوبَا وَقَوَانِينَهَا، فَمَنْهُمْ مَنْ مَرَّقَ مِنَ الْإِسْلَامِ، وَفَضَّلَ تِلْكَ الْقَوَانِينَ عَلَى الشَّرِيعَةِ؛ اعْتِقَادًا مِنْهُمْ أَنَّ الشَّرِيعَةَ هِيَ مَا يَعْرِفُهُ مِنْ كُتُبِ الْفَقْهِ، وَلَا يَعْرِفُ مِنَ الْقُرْآنِ وَلَا مِنَ السُّنَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ شَيْئًا؛ كَأَكْثَرِ الْأَتْرَافِ الْكَمَالِيِّينَ، وَالتَّاتَارِ الرَّوسِيِّينَ، وَالْأُوْزْبَكِيِّينَ الْتُرْكْسَانِيِّينَ.

فَمَا دَامَ الْمَسْلُومُونَ تَارِكِينَ الْعَمَلَ بِكِتَابِ اللَّهِ رُفْهِمَ، وَسُنَّةِ رَسُولِهِ، وَرَاضِينَ بِهَذَا الْجَهْلِ الْمَرْكَبِ؛ فَإِنَّ حَالَتَهُمْ لَا تَتَغَيَّرُ عَمَّا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْاِخْتِلَافِ وَالِانْتِفَاقِ وَالْإِسَارَةِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بَقِيَ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بَأَنفُسِهِمْ، فَتَبَيَّنَ.

وقد خاطبَ اللَّهُ تَعَالَى أُمَّةَ الْإِسْلَامِ كُلَّهَا بِإِقَامَةِ الْقَوَاعِدِ الْأَرْبَعِ الْمَنْصُوصَةِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: إِطَاعَةُ كِتَابِ اللَّهِ، وَإِطَاعَةُ سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَإِطَاعَةُ أُولَى الْأَمْرِ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، وَرَدُّ الْأَمْرِ عِنْدَ التَّنَازُعِ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ، فَالْوَاجِبُ عَلَى مَجْمُوعِ الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ مُطَالَبَتُهُمْ بِذَلِكَ، وَلَا يُتْرَكُ الْأَمْرُ فَوْضَى، وَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ لِأُولَى الْأَمْرِ مَجْمَعٌ عِنْدَ الْأُمَّةِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذَكَرَهُمْ بِصِغَةِ الْجَمْعِ فِي الْآيَتَيْنِ، فَلَا يَسْتَبِيدُ أَحَدٌ بِالرَّأْيِ، وَإِنَّمَا الْخَطَابُ فِي الْآيَةِ لِأُمَّةٍ إِبْرَائِيَّةٍ فِي الْإِسْلَامِ، وَهِيَ الْمَذْهَبَةُ لِأَمْرِ الْإِسْلَامِ وَنَهْيِهِ، الْعَالِمَةُ بِمَا لَدَّ مِنْ عَلَيْهِ فِيهِ.

فَيَا أُمَّةَ الْإِسْلَامِ! مَتَى تَفْقَهُونَ مِنْ سَكْرَتِكُمْ؟ وَمَتَى تَفْتَحُ أَعْيُنَكُمْ؟ وَمَتَى تَفْهَمُونَ خُطَابَ رَبِّكُمْ فَتَعْمَلُوا بِهِ؛ فَإِنَّكُمْ أَنْتُمْ الْمُخَاطَبُونَ، وَأَنْتُمْ الْمَكْلُوفُونَ؟ أَمَّا تَخْلَجُونَ مِنْ جَهَالَتِكُمْ؟ وَأَمَّا تَسْتَحْيُونَ مِنْ إِضَاعَتِكُمْ أَهْلِيَّتَكُمْ؟ إِلَى مَتَى تَكُونُونَ

تَحْتَ حُكْمِ المستعمرينَ محكومينَ؟ وإلى متى تكونونَ عبيداً وإماءَ لعيبدِ
مُثلِكُم، بل تفرضونَ من نهايةِ جهلكم أموركم إلى أرواحِ أمواتٍ لا تدرونَ
حالها؛ أهَي في أعلى عُلَيينَ، أم في أسفلِ السَّافِلينَ؟
فَأَفْ عَلَيْكُمْ فَأَفْ عَلَيْكُمْ إِنْ لَمْ تَتوبوا مِمَّا أَنْتُمْ عَلَيْهِ!!

الآيةُ الثالثةُ والعشرونُ فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ
فَاتَّقُوا ثُبَاتٍ أَوْ أَنْفَرُوا جَمِيعاً^(١)﴾.

قد نادى اللهُ تعالى المؤمنينَ جميعاً، وخاطبَهُم كُلَّهُمْ عزيمَةً وعزمَهُمْ؛
أَمراً إِيَّاهُم أَنْ يحتاطوا في أوطانِهِم من كيدِ الأعداءِ، فَيَأْخُذُوا وَيَهَيِّئُوا ما يَنْقُذُهُم
من شَرِّ الأعداءِ عِنْدَ كَيْدِهِم ومُحْصِرِهِم، فيحافظوا على أَمْنِهِم الداخليِّ
والخارجيِّ.

والأعداءُ الخارجيونَ هُمُ المخالفونَ لنا في الدِّينِ، وأما الدَّاخِلونَ فهمُ
أصحابُ الأغراضِ الفاسدةِ؛ من عُشاقِ الجاهِ والرِّئاسةِ، وأسراءِ الشهوةِ والهوى
مَثَلًا^(٢)، وكذا أصحابُ البدعِ والطرقِ والمذاهبِ المختلفةِ؛ فَإِنَّهُمْ الأعداءُ
المفسدةِ في المِلَّةِ الإسلاميَّةِ.

وَأَمَّا اخُذُ الحِذْرِ؛ فإِشْا بالمعاهداتِ مؤقتةً، وإِما بِاتِّقَاءِ شَرِّهِم بِالْقُوَّةِ
والأسلحةِ والاحتِراسِ.

(١) النساء: ٧١.

(٢) هم العدوُّ فاحذَرُهم!

ولا شَكَّ أَنَّ العدوَّ إِذَا أَسِسَ عَزْمًا؛ هاجمنا وهُدِّدنا، وَإِذا دَعَوْنَاهُم إلى
ديننا؛ عَارَضُونَا فيه؛ كما قالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ ما اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ
وَمِنْ رِبَاطِ الخَيْلِ تُرْهِيبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّتَكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ
اللهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ الآية^(١).

فعلى أَهْلِ النفوسِ المستعدَّةِ للهِمِّ أَنْ تَبْحَثَ عن كُلِّ ما يَتَوَقَّفُ عليه
امتنثالُ الأمرِ من علمٍ وعملٍ، ويدخُلَ في الاستعدادِ والحِذْرِ معرفةُ الأسلحةِ
وَاتِّخَاذُها واستعمالُها، وذلكَ يَتَوَقَّفُ على معرفةِ الهندسةِ والكيمياءِ والطبيعةِ وجَرِّ
الأنفالِ، فيجبُ تحصيلُ كُلِّ ذلكَ وإِتقانُهُ كما هُوَ الشَّأْنُ في هذهِ الأيامِ، وذلكَ
أَنَّهُ تعالى أَطْلَقَ الحِذْرَ، ولا يَتَحَقَّقُ الامتنثالُ إِلا بما تَتَحَقَّقُ بِهِ الوَقايةُ والاحتِرَازُ في
كُلِّ زمنٍ بحسبِهِ؛ من المدافعِ بأنواعِها، والبنادقِ، والبرارجِ المدروعةِ، وحاملَةِ
الطياراتِ، وأنواعِ السلاحِ، وآلاتِ الهدمِ، والطياراتِ، والدباباتِ، والقنابلِ
الدَّوِّيَّةِ المُهلِكَةِ. وإِنَّهُ يجبُ تحصيلُ العلمِ بصنْعِ هذهِ الأسلحةِ، وما يلزمُها،
وسائرِ الفنونِ الحربيةِ، والمسلمونَ صاروا أَقَلَّ النَّاسِ حِذْراً من الأعداءِ باعتبارِ
القُدْرَةِ من غيرِ علمٍ بمعنَى، حتى إِنَّ أَكْثَرَ بلادِهِم ذَهَبَتْ مِنْ أَيْدِيهِم وهُمُ لا يَتَوَبَّنَ
ولا يَذْكُرُونَ ولا يَتَدَبَّرُونَ أَمْرَ اللهِ في هذهِ الآيةِ وما في معناها، ولا يَمَيِّزُونَ إِيَّاهُ،
وَإِنَّكَ إِذا ذَكَرْتَهُمْ يقولونَ: القُدْرَةُ هكذا، فَبِذلكَ يَظُنُّونَ الشَّرَّاعِ والأوامرَ الإلهيَّةَ.

﴿فَاتَّقُوا ثُبَاتٍ أَوْ أَنْفَرُوا جَمِيعاً﴾ أَيُّ: انْفَرُوا جماعةً في إثرِ جماعةٍ، بأنَّ
تكونوا فصائلَ وفرادى، وهو الذي يتعيَّنُ إِذا كانَ الجيشُ كثيراً، أو كانَ موقعُ العدوِّ
يقضي ذلكَ، وهو الغالبُ، أو انْفَرُوا كُلُّكُمْ مجتمعينَ إِذا قُضِيَ الحالُ بِذلكِ.

(١) الأنفال: ٦٠.

ويتوقف امتثال هذا الأمر على أن تكون الأمة كلها مستعدة دائماً للجهاد؛ بأن يتعلم كل فرد من أفرادها فنون الحرب، ويتزوّنا عليها بالعمل، ويدخل فيه اقتناء السلاح مع العلم بكيفية استعماله، والتزوّن على الرمي بالمدافع وبنندق الرصاص في هذا الزمان؛ كما كانوا يتزوّنون على رمي السهام في الأزمنة السابقة.

وقد قصّر المسلمون في هذا جداً جداً، وقد سبقهم إليه غيرهم، فيجب على الحكومات الإسلامية أن تقيم هذا الواجب بنفسها، لا أن تبقى فيه عالة على غيرها، ويجب على الأمة الإسلامية أن تواتيها وتساعدتها عليه، وأن تلتزمها إياه إذا هي قصّرت فيه.

والذين يتسلّطون عن الجهاد والدفاع هم منافقون، وليسوا بمؤمنين صادقين؛ لأنه لا هم لهم ولا عناية بأمر الدين، وإنما أكبر همهم شهواتهم، فليحاسب المسلمون أنفسهم في هذا الزمان، وليزّنوا بهذه الآية وما شابهها إيمانهم.

والعجب أن بعض الأمم التي لا تدين بالقرآن كأوروبا وأمريكا والبلشفية أقرب إلى أحكامه في ذلك ممن يدعون اتباعه من أصحاب النكاي والزوايا والطرق والمذاهب، وإنما الغلبة والعروة لمن يكون أقرب إلى هداية القرآن بالفعل على من يكون أبعد عنها، وإن انتسب إليه بالقول؛ كالذين جعلوا القرآن مأكلاً ومكسباً وهم غافلون عن معناه والعمل به، فالقرآن حجة عليهم.

الآية الرابعة والعشرون فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي

سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَىٰ إِلَيْكُمْ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَنُفِثَ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً كَذَلِكَ كُنتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (١).

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين مرشداً إياهم إذا دخلوا في بلاد الكفر لا يحسبوا كل من يجدونه هناك كافراً يقتلوه، بل عليهم أن يتبينوا ويتبينوا فيمن تظهر منهم علامات الإيمان والإسلام؛ كالشهادة أو السلام الذي هو تحية المؤمنين وعلامة الأمن والاستئمان، وأن لا يحيلوا مثل هذا على المخادعة، إذ زُعم أن يكون الإيمان قد طاف على هذه القلوب، وإن لم يكن تمكن فيها، فهي الله تعالى عن إنكار إسلام من يدعي الإسلام، ولو بإلقاء تحيته، فكيف بمن ينطق بالشهادتين؟

ثم ذكر الله تعالى ما من شأنه أن يقوّي الشبهة في نفس من يظن أن إظهار الإسلام لأجل النفع، وهو ابتغاء عرض الحياة الدنيا، فهدى الله تعالى المؤمن بهذا إلى أن يتهم نفسه، ويفتش عن قلبه، ولا يبي الظن على مثله وهواه، بل أوجب عليه أن يبيّن على الظاهر ويقبله حتى يتبين له خلاؤه.

قال ابن جرير (٢): «قوله جلّ جلاله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾: يا أيها الذين صدّقوا الله وصدّقوا رسوله فيما جاءهم به من عند ربهم، ﴿إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾: إذا سرتهم مسيراً لله في جهاد أعدائكم، ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾: فتأنّوا في قتل من أشكل عليكم أمره فلم تعلموا حقيقة إسلامه ولا كفره، ولا تستعجلوا على قتل

(١) النساء: ٩٤.

(٢) في جامع البيان (٥ / ٢٢١).

أحيد؛ إلا على قتل من علمتموه يقينا خرباً لكم ولله ولرسوله، ولا تقولوا لمن استسلم لكم فلم يقاتلكم مظهراً لكم أنه من أهل مليتكم ودعوتكم ﴿لَسْتُ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ غَرْضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فتقولوه؛ طلباً لمال الدنيا الزائل، وإنما أذن الله تعالى لكم في قتال الذين يقاتلونكم للدفاع عن الحق وإعلاء كلمته، ونشر هدايته، ﴿فَمِنَ اللَّهِ مَا نَعْلَمُ كَثِيرٌ مِّمَّا تَسْتَمِنُونَ قُلْ قَالِيبٌ وَكُفَّارٌ﴾ فمَن الله عليكم بالهداية إلى الإسلام، فمنكم من أسلم لظهور حقيقة الإسلام له من أول وهلة؛ كأبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه، ومنكم من أسلم تقيّة أو لسبب آخر، ثم حَسُنَ إسلامه عندما خبر الإسلام وعرف محاسنه.

فظاهر حكم الآية أن كل من أظهر الإسلام يُقْبَلُ منه ويُعدُّ مسلماً، ولا يَبْتَخَرُ عَنِ الْبَاسِ لَهُ عَلَى ذَلِكَ، ولا يَتَّهَمُ فِي صِدْقِهِ وَإِخْلَاصِهِ إِلَّا إِذَا ظَهَرَ مِنْهُ مَا يَنْفَاهُ مِنَ الْكُفْرِيَّاتِ وَالشَّرِكِيَّاتِ وَالزُّنُودِ وَالْإِلْحَادِ، ولم يَتَّبِعْ منها بعد التعليم والتنبيه، بل عانده وأصر عليها، فحينئذ يُقْتَلُ..

الآية الخامسة والعشرون فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوُّوا أَوْ نَعَرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ (١).

قد نادى الله تعالى وخاطب المؤمنين عموماً - شرقهم وغربهم - أمراً

(١) النساء: ١٣٥

إياهم أن يكونوا في جميع معاملاتهم قائمين بالعدل، ويعاملوا غيرهم كما يعاملون أنفسهم، فيحيون لهم ما يحيون لأنفسهم.

والقَوَّامُونَ بالقسط هم الذين يُعَيِّمُونَ العدل بالإتيان به على أتم الوجوه وأكملها وأدومها؛ فإن ﴿قَوَّامِينَ﴾ جمع قَوَّام، وهو المبالغ في القيام بالشيء، والقيام بالشيء هو الإتيان به شتواً تاتلاً لا نقص فيه ولا عجز، ولذلك أمر الله تعالى بإقامة الصلاة، وإقامة الشهادة، وإقامة الوزن بالقسط؛ لتأكيد العناية بهذه الأشياء.

وهذه العبارة أبلغ ما يمكن أن يقال في تأكيد أمر العدل والعناية به؛ أي لَتَكُنِ الْمُبَالِغَةُ وَالْعِنَاةُ بِإِقَامَةِ الْقِسْطِ عَلَى وَجْهِهِ صِفَةً مِنْ صِفَاتِكُمْ، بَأَنَّ تَحَرُّوهُ بِالذِّقَّةِ النَّامَةِ، حَتَّى يَكُونَ مَلَكَةً رَاسِخَةً فِي نَفْسِكُمْ.

والقسط يكون في العمل؛ كالقيام بما يجب من العدل بين الزوجات والأولاد، ويكون في الحكم بين الناس ممن يولييه السلطان أو يحكمه الناس فيما بينهم.

وكان ينبغي أن يكون المسلمون يمثل هذه الهداية أعدل الأمم، وأقومهم بالقسط، وكذلك كانوا عندما كانوا مهتدين بالقرآن، وصدق على سلفهم الصالح قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ (١)، ثم خَلَفَ مِنْ بَعْدِ أُولَئِكَ خَلْفٌ تَلَبَّوْا هِدَايَةَ الْقُرْآنِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ، حَتَّى صَارَتْ جَمِيعُ الْأُمَمِ تُضَرِّبُ الْمِثْلَ بِظُلْمِ حُكَّامِهِمْ، وَسَوْءِ حَالِهِمْ، فَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ.

(١) الأعراف: ١٨٦.

والله تعالى عَمَّ الأمرَ بالقسْطِ؛ لأنَّ العدلَ حفظُ النظامِ، وقوامُ أمرِ الاجتماعِ، وعدمُ محاباةِ أحدٍ في ذلك لِنِجَاهِهِ أو قَرْبِهِ أو قرابته؛ لأنَّ العدلَ والحقَّ مَقْدَمَانِ على الحقوقِ الشخصيةِ وحقوقِ القِراءةِ وغيرها.

وكانت محاباةُ الأقربينِ مهوودةً في الجاهليَّةِ؛ لأنَّ أمرهم قائمٌ بالعصبيةِ، فنهى الله تعالى عن ذلك كله، وأمر بالعدل في كلِّ حال، وأنَّ يكونوا شهداءَ لله، وأنَّ يتحرَّوا فيها الحقَّ الذي يرضاهُ ويأمرُ به من غيرِ مراعاةٍ ولا مُحاباةٍ لأحدٍ، ولا يكونوا كِبعضِ الْخَارِئِينَ الذين يقيمونَ الآنَ في الحرَمَيْنِ وغيرهما من البلدان؛ فإنَّهُم وإنَّ كانوا في الظاهرِ مسلمينَ، ولكنَّهُم بالعصبيةِ الجاهليةِ متلبَّسونَ، حتى إنَّهُم يشهدونَ زوراً لجماعتهم، ولا يتحاشونَ عن ذلك، بل يفتخرونَ بذلك؛ كما هو مشاهدٌ ومعلومٌ، فَهُمْ مُشَاقُونَ لِلَّهِ وَالرُّسُولِ، والنَّاسُ عَنْهُمْ غَافِلُونَ.

﴿وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾؛ أي: أيُّها المؤمنون! كونوا شهداءَ بالحقِّ لوجهِ اللهِ، وامتنالِ أمره، واتباعِ شرعه، الذي تُنَالُ به مرضاتُه ومثوبته، ولو كانتِ الشهادةُ على أنْفُسِكُمْ، بأنَّ يَبَيِّنَ بها الحقَّ عليكم، وَمَنْ أَفْرَ على نفسه بَحْثٌ؟ فقد شَهِدَ عليها؛ لأنَّ الشهادةَ إظهارُ الحقِّ؛ كما أَفْرَ ماعزٌ رضي الله عنه بالرُّنَا في حضرةِ رسولِ اللهِ ﷺ، وقال: يا رسولَ اللهِ! طَهَّرْنِي^(١) أو على والديكم وأقربِ النَّاسِ إليكم؛ كأولادكم وإخوانكم؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ بَرٍّ الوالدينِ ولا مِن صِلَةٍ رَحِمِ الْأَقْرَبِينَ أَنْ يُعَادُوا عَلَى مَا لَيْسَ لَهُمْ بِحَقٍّ بِالْإِعْرَاضِ عَنِ الشَّهَادَةِ عَلَيْهِمْ، أَوْ لِيُهَا وَتَحْرِيفُهَا لِأَجْلِهِمْ، وَإِنَّمَا الْبُرُّ وَالصَّلَةُ فِي الْحَقِّ

(١) رواه مسلم (١٦٩٥) عن بريدة.

والمعروف، والحقُّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ.

ولا تُحَابُوا الْغَنَى طمعاً في برِّه، ولا خوفاً من شرِّه؛ كما هو شأنُ أَكْثَرِ النَّاسِ الْيَوْمَ، فَهُمْ مُحَادُونَ وَمُشَاقُونَ لِلَّهِ وَالرُّسُولِ، ولا الْفَقِيرَ عَطْفاً عَلَيْهِ وَرَحمةً بِهِ.

فهل يتنبَّذُ المسلمونَ هذه الآيةَ كما أمرهم اللهُ تعالى بتنبُّذِ الْقُرْآنِ، فيقيموا العدلَ والشهادةَ بالحقِّ؟ أم يعملونَ برأيِ أَهْلِ الْحِيلِ، فيرتكبونَ الظلمَ والعدوانَ، إلى أَنْ يَسْتَحْفُوا غَضَبَ اللهِ الدُّيَّانَ، فيسلطَ عليهمِ الْبِلَاشَةُ وَالطَّائِفَةُ الطاغيةُ الدُّهْرِيَّةُ، فتسوِّمُهُمْ سوءَ الْعَذَابِ في هذه الْحَيَاةِ الدُّنْيَا؛ كما سَلَطَ اللهُ تعالى تلكَ الطائفةَ على بلادِ الرُّوسِ ومُخَارَى وكابكازيا والتركستان وبعضِ بلادِ الصِّينِ وَالْهِنْدِ لَمَّا عَتَرُوا وَبَدَّلُوا أَمْرَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ؟ ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾^(١).

الآيةُ السادسةُ والعشرونُ فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَخْفَرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً بَعِيداً﴾^(٢).

قد نادى اللهُ تعالى وخاطبَ عبادهَ الْمُؤْمِنِينَ كَافَّةً، آمراً بِإِيَابِهِمْ أَنْ يَجْمَعُوا بَيْنَ الْإِيمَانِ بِهِ، ورسولهِ الْأَعْظَمِ مُحَمَّدٍ ﷺ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ، وبينَ جَمِيعِ الرُّسُلِ الَّذِينَ أَرْسَلَهُمُ اللهُ تعالى سابقاً، والقُرْآنِ الَّذِي نَزَّلَهُ عَلَيْهِ، وبينَ الْإِيمَانِ بِجَمِيعِ

(١) طه: ١٢٧.

(٢) النساء: ١٣٦.

الكتب التي نزلها على رسله من قبل بعثة خاتم النبيين ﷺ؛ بأن يعلموا أن الله تعالى قد بعث قبله رسلًا، وأنزل عليهم كتابًا، وأنه لم يترك عباده في الأزمنة الماضية سدًى محرومين من البينات والهدى، وأمرهم أن يدوموا ويثبتوا على هذا الإيمان ثبوتًا دائمًا، ولا يكفروا ولا يُكفروا شيئًا من ذلك أصلًا، وأما من يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر؛ فقد ضل ضلالاً بعيداً:

— فالإيمان بالله هو الركن الأول.

— والإيمان بجنس الملائكة الذين يحملون الوحي إلى الرسل هو الركن الثاني.

— والإيمان بجنس الكتب التي نزل بها الملائكة على الرسل هو الركن الثالث.

— والإيمان بجنس الرسل الذين بلغتهم الملائكة تلك الكتب إليهم وهم بلغوها الناس هو الركن الرابع.

— والإيمان باليوم الآخر الذي يجزي فيه المكلفون على عملهم بتلك الكتب مع الإيمان بما ذكر، كل بحسب كتابه هو الركن الخامس.

ومن فرق بين كتب الله ورسله، فأمن ببعض وكفر ببعض؛ كاليهود والنصارى؛ لا يعتد بإيمانه؛ لأنه متبع للهوى فيه، أو للتقليد الذي هو عين الجهل.

وقد وصف الله تعالى خاتم رسله وأتمته التي هي خير الأمم بقوله تعالى: ﴿أَمَّنَ الرُّسُلُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ

لَا تَفَرُّقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾^(١)، فمن كفر بواحد من المذكورات؛ فقد ضل عن الصراط المستقيم، وبعد عن طريق الهداية ومحنة السلامة بعداً فاحشاً.

وتقرب من هذا من يؤمن ببعض أصحاب رسول الله ﷺ ويعظمه ويكفر ببعض ويبغضه، فيحب البعض ويبغض البعض؛ كالرافضة والشيعة.

وتقرب منهم أيضاً من يؤمن ببعض الأئمة المجتهدين ويحبه ويعظمه ويتبعه، ويبغض البعض، بل يكفر به؛ كأكثر الأحناف من البخاريين والهنود والترك؛ فإنهم يعظمون الإمام أبا حنيفة وأصحابه فيتبعونهم ويحونهم ويقلدونهم، وأما الأئمة الباقر كالإمام مالك والشافعي وأحمد وغيرهم من أئمة السنة؛ فيبغضونهم ويبغضون من يقلدونهم، فيقولون في كتبهم: لنا ولهم، وعندنا وعندهم، ولنا كذا وكذا، وللخصم كذا وكذا؛ كما ثبت ذلك في كتابي «البرهان الساطع على تبرؤ المتبوع من التابع»، فعليك بمطالعة إن كنت طالباً للحق والحقيقة؛ فإنه مطبوع في مصر، ومنشور في العالم الإسلامي بحول الله وقوته.

الآية السابعة والعشرون فيها أيضاً: ﴿إِنَّمَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَرْيَاؤُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لَهُ عِلْمَكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾^(٢).

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين عامة؛ ناهياً إياهم عن اتخاذ

(١) البقرة: ٢٨٥.

(٢) النساء: ١٤٤.

الكافرين أولياء من دون المؤمنين؛ فإن هذا من فعل المنافقين؛ فإنهم يوالون الكفار، وينصرونهم من دون المؤمنين؛ ليستفيدوا منهم المال، ويتألبوا بسببهم الجاة والرياسة.

فحذر الله تعالى المؤمنين أن يفعلوا مثل فعلهم؛ ابتغاء العزة عندهم، أو رجاء المنفعة منهم؛ فإنه ربما يخطر ببال صاحب الحاجة أن ذلك لا يضر.

والمراد من الولاية هنا النصرة بالقول أو الفعل، فيما يُنافي مصلحة المسلمين.

﴿أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾؛ يعني أنكم إذا ألبستم الكفار وناصرتهم؛ كما وإلى شريف مكة حسين الإنكليز وناصروه على حكومة الترك الإسلامية^(١)، فقد أقمتهم الحجة على أنفسكم باستحقاق عذاب الله في الدنيا والآخرة، واستحققتهم أيضاً أن يسلطهم الله تعالى عليكم بذنوبكم، فتخذلوا بدل أن تنصروا، وتحفروا مكان أن تعزوا.

ولا شك أن المؤمنين ما اضمحلّت دولتهم وسلطنتهم إلا بأنخاذهم الكافرين أولياء من دون المؤمنين؛ فإنهم لما اتخذوا الوزراء والبطانة من دون المؤمنين الصادقين، واعتمدوا على دول غير إسلامية؛ ففي النتيجة صاروا من المحرومين.

فيا أيها المؤمنون! أما تفقهون من غفلتكم؟ وأما تضحون من سكرتكم؟

(١) ومن عجب فليهم الوقائع بتسميات مخالفة! واليوم - ونحن في منتصف شهر صفر ١٤١١ هـ - التاريخ بعيد نفسه، ولكن عكسياً! فإلى الله المشتكى من سوء الأحوال، ومراره الحال!

وأما تفتحرون غيرتكم وتستعملون عقولكم وتعتبرون بما جرى في ماضيتكم وحاضرتكم، فتفقهوا كلام ربكم العليم الحكيم فتعملوا بمقتضاه؛ لأنكم أنتم المخاطبون والمكلفون بذلك لا الكفار، وأنتم المأمورون بذلك لا الإذنين، أتريدون أن نقيموا حجة الله على أنفسكم؟ بل قد أقمت حجة الله عليكم، فلهذا سلطهم عليكم وأنتم سكارى أو حيارى، ومفتنون تأكلون وتتمثنون، فبئس ما تفعلون!!

وَمَا يُجِرُّ بِمَيْتٍ إِلَام

لَقَدْ أَسْخَعْتُ لَوْ نَادَيْتَ حَيًّا
وَلَكِنْ لَا حَيَاةَ لِمَنْ نُنَادِي
أَرَى أَلْفَ بَإٍ لَا يَقُومُ بِهَادِمٍ
فَكَيفَ بِإٍ خَلْفَهُ أَلْفَ هَادِمٍ

الآية الثامنة والعشرون في سورة المائدة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَيْعَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُبْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرِ مُحْلِي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾^(١).

قد نادى الله تعالى وخاطب المؤمنين عامّة؛ عربهم وعجمهم، عالمهم وجاهلهم، ولم يخص أحداً دون أحد، فالؤمنون هم المخاطبون والمكلفون بفهمهم والعمل به.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «إن المراد بالعقود عهود الله التي عهد إلى عباده، وما أحل الله وما حرم، وما فرض وما حدّ في القرآن كله، لا تغدروا

ولا تنكّوها»^(١).

والظاهر أنَّ الله تعالى أمرنا بالوفاء بجميع العقود الصحيحة التي عقدها علينا، والتي تتعاقب عليها فيما بيننا إذا لم تكن مخالفة للنص.

وأساس العقود الثابت في الإسلام هو هذه الجملة البليغة «أو فؤوا بالعقود»، وهي تفيد أنَّه يجب على كل مؤمن أن يفي بما عقده وارتبط به، وليس لأحد أن يقيد ما أطلقه الشارع إلا ببيته منه، فالتراضي من المتعاقدين شرط في صحة العقد، فكل قول أو فعل يعدُّه الناس عقداً فهو عقد يجب أن يوفوا به كما أمر الله تعالى ما لم يتضمَّن تحريم حلال أو تحليل حرام ممَّا في الشرع؛ كالعقد بالإكراه، أو على إحراق دار أحد، أو الإكراه على بيعها أو إيجارها، أو على الفاحشة، أو أكل شيء من أموال الناس بالباطل، كالربا والميسر والرشوة.

والأصل الإباحة في الأشياء، ومن جُمِّلَتها العقود والشروط في أمور الدنيا، والحظر لا يثبت إلا بدليل، ويؤيد إطلاق الآية حديث: «الصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحل حراماً، أو حرَّم حلالاً»^(٢)، وحديث: «المسلمون

(١) أخرجه: ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والبيهقي في شعب الإيمان؛ كما في «الدر المنثور» (٣ / ٥).

(٢) رواه هكذا تامة: الترمذي (١١٥٢)، وابن ماجه (٢٣٥٢)، والدارقطني (٣ /

٢٧) والحاكم (٤ / ١٠١)، والبيهقي (٦ / ٧٩) عن عمرو بن عوف.

وفي سنده كثير بن عبدالله، وهو ضعيف جداً.

وقد صحت الفقرة الأولى منه، فقد أخرجه: أحمد (٣ / ٣٦٦)، وأبو داود (٣٥٩٤)،

وابن حبان (١١٩٩)، والدارقطني (٣ / ٢٧)، والحاكم (٢ / ٤٤٩) عن أبي هريرة.

وسنده حسن.

على شروطهم»^(١) رواه الترمذي وأبو داود؛ «إلا شرطاً حرماً خلاً أو أحل حراماً.

ولكن الأسف أنَّ المسلمين لما جهلوا معاني خطاب ربهم وأمر مولاهم الرحمن العليم الحكيم؛ صاروا غدارين وعشاشين وخداعين ومكاريين، لا يوفون بعهودهم، ولا هم صادقين وناصحين في أقوالهم وأعمالهم، وخصوصاً في مكة؛ فإن أكثر سكانها موصوفون بتلك الصفات الشنيعة؛ تجارهم ومُطوَّوهم، وكان اللازم المحتم عليهم أن يكونوا صادقين وأمناء وناصحين، حتى يكونوا قدوة للمسلمين في أنحاء العالم الإسلامي، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

الآية التاسعة والعشرون فيها أيضاً: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشُّهُرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامَ يَتَفَوَّهَ فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَاناً»^(٢).

قد نادى الله تعالى وخاطب المؤمنين ناهياً إياهم أن لا يجعلوا شعائر دين الله حلالاً يتصرفون فيها كيف يشاؤون، وهي معالمه التي جعلها أمارات يعلمون بها الهدى من الضلال؛ كمناسك الحج وسائر فرائض وحدوده وحلاله وحرامه، بل اعملوا فيها بما بيَّنه لكم.

(١) قطعة من حديث أبي هريرة الذي أوردته في التعليق السابق.

وأما زيادة: «إلا شرطاً... الآية» فهي لا تصح، إذ هي تابعة لحديث عمرو بن

عوف السابق أيضاً!!

(٢) لمائدة: ٢.

ثُمَّ بَيَّنَّ اللَّهُ تَعَالَى مَا يَتَعَلَّقُ بِأَعْمَالِ الْحَجِّ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾.

فَالْأَمْرُ بِالتَّعَاوُنِ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى فِي أَرْكَانِ الْهَدَايَةِ الاجتماعيةِ فِي الْقِرَانِ؛ لِأَنَّهُ يُوجِبُ عَلَى النَّاسِ إيجاباً دينياً أَنْ يُعَيِّنَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً عَلَى كُلِّ عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ الْبِرِّ الَّتِي تَنْفَعُ النَّاسَ أَفْرَاداً وَقَوَماً فِي دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ، وَكُلِّ عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ التَّقْوَى الَّتِي يَدْفَعُونَ بِهَا الْمَقَاسِدَ وَالْمَضَارَّ عَنْ أَنْفُسِهِمْ، وَكَذَلِكَ هَذَا الْأَمْرُ بِالنَّهْيِ عَنْ ضِدِّهِ، وَهُوَ التَّعَاوُنُ عَلَى الْإِثْمِ بِالمَعَاصِي وَالْعَصِيَّةِ وَكُلِّ مَا يَمُوقُ عَنِ الْبِرِّ وَالْخَيْرِ، وَعَلَى الْعُدْوَانِ الَّذِي يُغْري النَّاسَ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ.

وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ فِي الصُّلْبِ الْأَوَّلِ جَمَاعَةً وَاحِدَةً؛ يَتَعَاوَنُونَ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى مِنْ غَيْرِ ارْتِبَاطٍ وَنِظَامٍ بَشَرِيٍّ؛ كَمَا هُوَ شَأْنُ الْجَمْعِيَّاتِ الْيَوْمِ؛ فَإِنَّ عَهْدَ اللَّهِ وَمِيثَاقَهُ كَانَ مُغْنِياً لَهُمْ عَنْ غَيْرِهِ لِإِيمَانِهِمْ بِهِ إِيْمَاناً كَامِلاً، وَفَهِيهِمْ كَلَامُ رَبِّهِمْ فَهَمّاً صَاحِحاً^(١).

وَقَدْ شَهِدَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُمْ بِذَلِكَ: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَاتِمَا بِالْقِسطِ﴾^(٢)، وَ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾^(٣).

وَلَكِنْ؛ لَمَّا انْتَشَرَ بِأَيْدِي الْخَلْفِ ذَلِكَ الْعَقْدُ، وَتَكَثَّرَ ذَلِكَ الْعَهْدُ؛ صَرَبْنَا

(١) فليعتبر بهذه الفسفة الأحزاب وأصحاب الحركات والجماعات! ولتقارن بما سياتي من كلام المصنف وتعليقي عليه.

(٢) آل عمران: ١١٠.

(٣) آل عمران: ١٨.

مُحْتَاجِينَ إِلَى تَأْلِيفِ جَمْعِيَّاتٍ خَاصَّةٍ بِنِظَامٍ خَاصٍّ لِأَجْلِ جَمْعِ طَوَائِفَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَحَمْلِهِمْ عَلَى إِقَامَةِ هَذَا الْوَاجِبِ فِي التَّعَاوُنِ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى؛ فَلَا بُدَّ لَنَا مِنْ تَأْلِيفِ الْجَمْعِيَّاتِ الدِّينِيَّةِ وَالْخَيْرِيَّةِ وَالْعِلْمِيَّةِ إِذَا كُنَّا نُرِيدُ أَنْ نَحْيَا حَيَاةَ عَزِيزَةً^(١).

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾؛ أَيْ: اتَّقُوا اللَّهَ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ؛ بِالسَّيْرِ عَلَى سُنَنِهِ الَّتِي بَيَّنَّهَا لَكُمْ فِي كِتَابِهِ، وَفِي نِظَامِ خَلْقِهِ؛ لِئَلَّا تَسْتَحِقُّوا عِقَابَهُ الَّذِي يُصِيبُ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ هُدَايَتِهِ؛ ﴿إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لِمَنْ لَمْ يَتَّقِهِ بَعْدَ اتِّبَاعِ شَرْعِهِ، وَمِرَاعَاةِ سُنَنِهِ فِي خَلْقِهِ؛ فَإِنَّهُ لَا هَوَاةَ وَلَا مَحَابَاةَ فِي عِقَابِهِ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَأْمُرْ بِشَيْءٍ إِلَّا وَفَعَلَهُ نَافِعٌ وَتَرَكَهُ ضَارًّا، وَلَمْ يَنْهَ عَنْ شَيْءٍ إِلَّا وَفَعَلَهُ ضَارًّا وَتَرَكَهُ نَافِعًا، وَفِي مَعْنَى الْأُمُورِ بِهِ كُلُّ مَا رَغِبَ فِيهِ، وَفِي مَعْنَى الْمُنْهَيْ عَنْهُ كُلُّ مَا رَغِبَ عَنْهُ وَحَذَّرَ مِنْهُ.

فلهذا؛ كَانَ تَرْكُ هُدَايَتِهِ مُضْطِيباً يُلْجِئُهُ إِلَى الْحَرَمَانِ مِنَ الْمَنَافِعِ، وَالْوَقُوعِ فِي الْمَضَارِّ الَّتِي مِنْهَا فَسَادُ الْفُطْرَةِ وَغَمَى الْبَصِيرَةِ، وَإِنَّمَا يَظْلِمُ الْإِنْسَانَ نَفْسَهُ، وَلَا غَنْبَ لَهُ إِلَّا عَلَيْهَا.

فَيَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ! لَا تَضَعِ أَهْلِيَّكَ، وَلَا تَنْظِمَ نَفْسَكَ، بَلِ اجْتَهِدْ لِفَهْمِ كَلَامِ رَبِّكَ وَالْعَمَلِ بِمَوْجِبِهِ؛ تَكُنْ عَبْدًا مُؤْمِنًا، وَتَنْتَلِ رَحْمَةَ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَى، وَالْأُتَى تَكُنْ خَاسِرًا، قَتْنَبَهُ

(١) وفي هذا الكلام نظر شديد ينقضه ما علقت عليه - قبل - من كلام المصنف، وقد طوَّلت بيانه وشرحه في كتابي «الدعوة إلى الله بين التجمع الحزبي والتعاون الشرعي».

الآية الثلاثون فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطْبُؤُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُثَبِّتَ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُشْكُرُونَ﴾^(١).

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين بعد أن أمرهم بالوفاء بعهد الربوبية وعهد العبودية؛ أن يقوموا بما عاهدوا والتزموا من السمع والطاعة لله ولرسوله، فيقوموا بإطاعته مخلصين طاهرين، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾؛ أي: إذا أردتم القيام إلى أداء الصلاة؛ فاغسلوا هذه الأعضاء إذا كنتم محدثين.

ففرض الوضوء أربع: الأول: غسل الوجه، الثاني: غسل اليدين إلى المرفقين، الثالث: المسح بالرأس، الرابع: غسل الرجلين إلى الكعبين، أو مسح الساتر عليهما^(٢).

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطْبُؤُوا﴾؛ أي: اغتسلوا غسلًا كاملاً، والجنابة الموجبة للغسل معروفة عند جميع المسلمين.

هذا إذا وجدتم الماء، ولم يمنعه من استعماله مانع، وأما إذا خذت حادث، فحكمه قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ

(١) المائدة: ٦.

(٢) كالخفين والجوربين

مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُثَبِّتَ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُشْكُرُونَ﴾؛ أي: على فضله ورافته وتطهيره وتيسيره؛ لأنه تعالى رؤوف رحيم بكم، وهو لا يشق لكم إلا ما فيه الخير والنفع لكم، ويطهركم من القذر والأذى، ومن الرذائل والمنكرات والعقائد الفاسدة، فتكونوا أنظفت الناس أبداناً، وأزكاهم نفوساً، وأصحهم أجساماً، وأرقاهم أرواحاً، ولثبتم نعمته عليكم بالجمع بين طهارة الأرواح وتزكيتها، وطهارة الأجساد وصحتها؛ فإن الإنسان روح وجسد، لا تكمل إنسانيته إلا بكمالهما معاً، فالصلاة تطهر الروح، وتزكي النفس؛ لأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر.

فما أعظم نعمة الله تعالى على الناس بهذا الدين القويم! ولهذا قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تُشْكُرُونَ﴾، فتقوموا بشكر النعم الطاهرة الباطنة، فدين الإسلام دين اليسر، ودين النظافة، ودين الحياء، ودين الصدق، ودين الأمانة، ودين الصيانة، ودين العقبة، ودين العقل، ودين الفهم؛ كما أنه دين التوحيد، ودين الإخلاص.

فيا أيها المؤمنون! هل عرفتم هذه الأوصاف؟ وهل أتصفتم بها؟ أو أنتم جاهلون بها، لا تعرفون من الإسلام إلا اسمه، ومن القرآن إلا رسمه؟ تفرونه في المحافل والمآتم والختمات، وعلى رؤوس القبور، وعلى ماكينات راديو^(٣)، أو لأن نهيها ثوابه لمن يعطي لكم الدرهميات؛ كما نشاهدكم في شرف الأرض وغريها!

(١) يريد البذيع.

أما تنوبون إلى الله وتفتقروا؟ وأما تستحيون من الله ومن الإنسانية، وقد جاءت أشراف الساعة، وقامت علامات القيامة، فسألون يومئذ عن التوحيد، وعن القرآن، وعن العمل به؟

الآية الحادية والثلاثون فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (١).

قد نادى الله تعالى المؤمنين عامة، وحاطبهم أمراً بأن يكونوا قوامين لله شهداء بالقسط:

القَوَّامُ: هو المبالغ في القيام بالشيء، وهو الإتيان به مقوماً تاماً؛ لا نقص فيه ولا عوج، وهذا عام شامل لجميع ما أخذ علينا الميثاق به من التكليف، حتى المباحات؛ أي: كونوا من أصحاب الهمم العالية، وأهل الإنقاذ والإخلاص لله تعالى في كل عمل تعملونه من أمر دينكم ودنياكم.

ومعنى الإخلاص لله في أعمال الدنيا: أن تكون نيّة صالحة؛ بأن يريد العامل بعلمه الخير والتزام الحق؛ من غير شائبة اعتداء على حق أحد أو إيقاع ضرر به.

والشهادة بالقسط معروفة، وهي أن تكون بالعدل؛ بدون محاباة المشهود له ولا المشهود عليه لقرباه وولائه، ولا لماله وجاهه، ولا لفرقه وسكنته.

(١) المائدة: ٨.

فالشهادة عبارة عن إظهار الحق للحاكم؛ ليحكم به، والإقرار به لصاحبه. والقسط هو ميزان الحقوق، فإذا خولف؛ انتشرت المفساد وضربت العدوان بينهم، وتقطعت روابطهم الاجتماعية، وصار بأسهم بينهم شديداً، فلا يلتفتون أن يسلط الله تعالى عليهم بعض عباده الذين هم أقرب إلى إقامة العدل منهم، فيزولون استقلالهم، ويزيدونهم وبأهم، وتلك سنة الله التي شاعلتها في الأمم الحاضرة، وشهد بها تاريخ الأمم الغابرة، ولكن الجاهلين الغافلين لا يسمعون ولا يبصرون، فأنى يبصرون ويتعطلون؟

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾؛ أي: لا يحيلنكم بغض قوم وعداوتهم لكم أو بغضكم وعداوتكم لهم على عدم العدل في أمرهم بالشهادة لهم أو الحكم لهم، فلا غدر لمؤمن في ترك العدل وإثارة على الجور والمحاباة، فلا يتوهمن متوهم أنه يجوز ترك العدل في الشهادة للكافر، أو الحكم له بحقه على المؤمن.

ولم يكف الله تعالى بالتحذير من عدم العدل مهما كان سببه والنية فيه، بل أكد تأكيداً بقوله: ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾؛ أي: قد فرضت عليكم العدل فرضاً لا هواة فيه، فاعدلوا هو أقرب لتقوى الله؛ أي: لائقاء عذابه وسخطه باتباع معصيته. وهي الجور الذي هو من أكبر المعاصي؛ لما يتولد منه من المفساد..

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾؛ لا يخفى عليه تعالى شيء من أعمالكم ظاهرها وباطنها، ولا من نياتكم وخيلكم فيها، وهو تعالى الحكم العدل القائم بالقسط، فاحذروا أن يجازيكم بالعدل على ترككم العدل.

وقد مضت سنة الله العادلة في خلقه بأن جزاء ترك العدل وعدم إقامة القسط في الدنيا هو ذل الأمة وهوانها واعتدائها غيرها من الأمم على استقلالها، ولجزاء الآخرة أذل وأخزى وأشد وأبقى؛ كأهل بخارى وما وراء النهر والتركستان؛ لما شأ فيهم الظلم ومعاصي الله وارتكاب المنهي؛ سلط الله تعالى عليهم الروس، ثم البلاشفة، فاسموهم سوء العذاب، وكذا أهل الأندلس والمغرب.

وقد ثبت^(١) في الحديث القدسي: قال الله عز وجل: «إذا عصاني من يعرفني سلطت عليه من لا يعرفني»، ولكن الناس لا يعتبرون، حتى إن أكثر الذين هجروا منهم بلادهم وسكنوا في الحرمين متغصون في رذعة الضلال من الظلم والشرك؛ بدعاء غير الله، والتفاني، والحسد، والكذب والفسوق، والعصيان، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

الآية الثانية والثلاثون فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ ظَالِمُونَ أُنِيبُوا فَكَفَّ عَنْهُمْ عَنِكَمُ اللَّهُ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾^(٢).

روى غير واحد من أئمة التفسير^(٣) أن الآية نزلت في رجل هُم بقتل النبي ﷺ أرسله قومه لذلك، وكان بيده السيف، وليس مع النبي ﷺ سلاح، وكان

(١) بل لم يثبت؛ كما سبق (ص ٣٧).

(٢) المائدة: ١١.

(٣) انظر - مثلاً - «الدر المنثور» (٣ / ٣٥).

منفرداً؛ كما روى الحاكم وصححه^(١) من حديث جابر رضي الله عنه: «أن غوث بن حارث المحاربي قام على رأس رسول الله ﷺ، وقال: من يمتك؟ قال: الله. فوقع السيف بين يديه، فأخذه النبي ﷺ، وقال: من يمتك؟ قال: كن خير أخ. قال: تنهت أن لا إله إلا الله وأني رسول الله. قال: أعاهدك أن لا أقاتلك ولا أكون مع قوم يقاتلونك. فخلني سبيله، فجاء إلى قومه وقال: جئكم من عند خير الناس».

وفي رواية^(٢): نزلت في قصة النبي ﷺ مع بني النضير، إذ ذهب إليهم ومعهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهم، وكان النبي ﷺ عاهد بني النضير على أن لا يحاربوه وأن يعينوه على الدييات، فلما طلب منهم ذلك وهو بينهم؛ أظهروا له القبول، وقالوا: افعد حتى نجمع لك ونطعمك، فلما جلس بجانب جدار دار لهم؛ وجدوا أن الفرصة قد سنحت لهم للغدر به، فأرادوا أن يطرحوا عليه حجارة ويقتلوه، وإنما اعتلوا بصنع الطعام؛ ليكون لهم فيه وقت ينقلون فيه الصخرة إلى سطح الدار، ولا شك أنهم كانوا يريدون قتل من معه أيضاً، فأعلم جبريل النبي ﷺ بذلك،

(١) أخرجه: أحمد (٣ / ٣٩٠)، والواحد في «أسباب النزول» (ص ٢٢٣)، والحاكم (٣ / ٢٩)، والبيهقي في «الدلائل» (٣ / ٣٧٣)، وابن سعد (٢ / ٦١ - ٦٢)؛ من «طرق قوي بعضها بعضاً».

وأصل الحديث في: «صحح البخاري» (٢٩١٠)، و«صحح مسلم» (٤١٣٤)؛ عن جابر.

وله شاهد أخرجه ابن إسحاق في «السيرة» (٣ / ٢٨٨) من مرسل الحسن.

(٢) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٦ / ١٤٤) عن يزيد بن أبي زياد.

وإسناده ضعيف معضل.

فَانْطَلَقَ وَتَرَكَهُمْ .

فَنَزَلَتْ الْآيَةُ فِي ذَلِكَ مَذْكُورَةً بِهَذِهِ الْقِصَّةِ وَبِقِصَّةِ الْمُحَارِبِيِّ وَأَمثالِهِمَا مِنْ وَقَائِعِ الْأَعْدَاءِ الَّتِي كَانَتْ كَثِيرَةً حَتَّى بَعْدَ قُوَّةِ الْإِسْلَامِ . بِكَثِيرٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، فَهُوَ سِحَانُهُ يَذْكُرُ الْمُؤْمِنِينَ بِذَلِكَ كُلِّهِ ، وَالْمِنَّةُ لَهُ جَلُّ جَلَالِهِ فِي ذَلِكَ ، لَيْسَتْ قَاصِرَةً عَلَى مَنْ وَعَدَتْ لَهُمْ تِلْكَ الْوَقَائِعُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ وَالْمُؤْمِنِينَ ، بَلْ هِيَ مِنْهُ عَامَةٌ ، يَجِبُ أَنْ يَشْكُرَهَا لَهُ عَزَّ وَجَلَّ كُلُّ مُؤْمِنٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ؛ كَمَا وَقَعَ لِلْعَبْدِ الضَّعِيفِ رَاقِمٍ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ فِي بِلَادٍ فَرَاغَتْ حِينَمَا حَسِبْتَنِي الْبِلَاشِفَةَ الدَّهْرِيَّةَ ، وَحَكَمْتُ عَلَيَّ بِالْإِعْدَامِ رَمِيًّا بِالرَّصَاصِ (١) ، فَتُجَانِي اللَّهُ مِنْ كَيْدِهِمْ وَحَسْبِهِمْ ، وَأَوْصَلَنِي إِلَى حَرَمِهِ وَجَوَارِ بَيْتِهِ الْحَرَامِ ، وَاسْتَعْمَلَنِي لِتَعْلِيمِ عِبَادِهِ مَعَالِمَ دِينِهِمْ ، وَكَانَ ذَلِكَ عَامَ ١٣٤٦ هـ ؛ كَمَا بَيَّنْتُ (٢) الْوَاقِعَةَ فِي كِتَابِي الْمَطْبُوعِ بِمَصْرَ بِمَطْبَعَةِ عَيْسَى الْحَلَبِيِّ الْمَشْهُورِ فِي أَنْهَاءِ الدُّنْيَا وَحُكْمِ اللَّهِ الْوَاحِدِ الصَّمَدِ فِي حُكْمِ الطَّالِبِ مِنَ الْمَيِّتِ الْمَدَدَةِ ، وَالْآنَ عَامَ ١٣٦٦ هـ أَنَا حَيٌّ فِي بِلَادِ اللَّهِ الْأَمِينِ ، مُعَلِّمٌ لِلنَّاسِ مَعَالِمَ الدِّينِ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا . وَنَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ (٣) ، ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ (٤) ،

وَالْعَلَمُ أَنَّ مِنْ فَوَائِدِ هَذَا التَّذَكِيرِ لِلْمُتَأَخِّرِينَ تَرْغِيبُهُمْ فِي النَّاسِيِ بِسُلْفِهِمْ

(١) ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْغَزِيرِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج : ٨] .

(٢) وَنَقَلْتُهَا عَنْهُ فِي مَقْدَمِي لِكِتَابِهِ «مِفْتَاحُ الْجَنَّةِ» (ص ٤ - ٥) بِزِيَادَةِ إِضْحَاحٍ عَمَّا هُنَا ، فَلْيَنْظُرْ .

(٣) الطَّلَاقُ : ٢ - ٣ .

(٤) الزُّمَرُ : ٣٦ .

الصَّالِحِ فِي الْقِيَامِ . بِمَا جَاءَ بِهِ الدِّينُ مِنَ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ وَالْبِرِّ وَالْإِحْسَانِ ، وَاحْتِمَالِ الْجَهْدِ وَالْمَشَاقِّ ، وَالصَّبْرِ عَلَى ذَلِكَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَهَذَا هُوَ الْمَعْنَى الْعَامُّ لِلْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .

وَالْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ إِذَا يَتَسَّ مِنْ نَفْسِهِ ؛ بِتَقْلُوعِ الْأَسْبَابِ ، وَتَغْلِيقِ الْأَبْوَابِ ، وَتَغْلِبِ الْأَعْدَاءِ ، وَتَغْلِبِ الْأَوْلِيَاءِ ، يَتَذَكَّرُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَلِيُّهُ وَوَكِيلُهُ ، وَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ ، وَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي يَجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ ، فَيَقْوَى إِيمَانُهُ ، وَتَتَجَدَّدُ قُوَّتُهُ ، فَيُصِرُّهُ اللَّهُ تَعَالَى بِمَا يَسْتَعِيدُ مِنَ الْإِيمَانِ وَالذِّكْرِ وَالتَّوَكُّلِ ، فَحَسْبُنَا اللَّهُ ، وَنَعْمَ الْوَكِيلُ إِذَا تَوَكَّلْنَا عَلَيْهِ حَقَّ التَّوَكُّلِ ، فَيَا رَبَّنَا وَفَّقْنَا لِفَهْمِ مَعَانِي كِتَابِكَ ، وَالْعَمَلِ بِمُقْتَضَاهُ بِفَضْلِكَ وَمُنَّكَ آمِينَ .

الْآيَةُ الثَّالِثَةُ وَالثَّلَاثُونَ فِيهَا أَيْضًا : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (١) .

فَقَدْ نَادَى اللَّهُ تَعَالَى وَخَاطَبَ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَامَةً ، وَأَمَرَهُمْ بِأَنْ يَتَّقُوهُ وَيَتَّبِعُوا إِلَيْهِ وَحِذَّهُ الْوَسِيلَةَ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ ، وَلَا يَكُونُوا كَأَهْلِ الْكِتَابِ مَغْرُورِينَ بِآبَائِهِمْ وَسَادَاتِهِمْ .

اتَّقَاءُ اللَّهِ : هُوَ اتَّقَاءُ سَخَطِهِ وَقَبَاحِهِ وَمُخَالَفَةُ سُنَنِهِ وَدِينِهِ وَشَرْعِهِ . وَالْوَسِيلَةُ إِلَيْهِ : هِيَ مَا يَتَوَسَّلُ بِهِ إِلَيْهِ ؛ أَيُّ : مَا يُرْجَى أَنْ يَتَوَصَّلَ بِهِ إِلَى مُرَاتِبَتِهِ وَالْقَرَبِ مِنْهُ تَعَالَى وَاسْتِحْقَاقِ الثَّوْبَةِ فِي دَارِ كَرَامَتِهِ ، وَلَا يُعْرَفُ ذَلِكَ عَلَى الْوَجْهِ الصَّحِيحِ

إلا بتعريفه تعالى، وقد تفضل علينا بهذا التعريف بوجه إلى رسوله محمد ﷺ. وحقيقة الوسيلة إلى الله: مراعاة سبيله بالعلم والعبادة، وتحري مكارم الأخلاق والشرعية، فهي كالقربة.

وقال حذيفة وعطاء ومجاهد والحسن رضي الله عنهم: «تقربوا إليه بطاعته والعمل بما يرضيه»^(١).

ومن جملة الوسيلة إليه تعالى الجهاد في سبيله «وجاهدوا في سبيله»؛ أي: جاهدوا أنفسكم بكفها عن الأهواء، وحملها على التزام الحق في جميع الأحوال، وجاهدوا أعداء الإسلام الذين يقاومون دعوته وهدايته للناس.

والجهاد من الجهد، وهو المشقة والتعب، وسبيل الله هي طريق الحق والخير والفضيلة، فكل جهد يحمله الإنسان في الدفاع عن الحق والخير والفضيلة، أو في تقريرها وحمل الناس عليها؛ فهو جهاد في سبيل الله.

«لعلكم تفلحون»؛ أي: اتقوا الله لعلكم تفوزون، وابتغوا ما يجب فعله على رجاء الفوز والفلاح، واحتملوا الجهد والمشقة في سبيله رجاء الفوز والفلاح والسعادة في المعاش والمعاد.

هذا هو التفسير المأثور عن السلف الصالحين، ولم يؤثر عن صحابي ولا تابعي ولا أحد من علماء السلف أو عاصرتهم أن الوسيلة إلى الله تعالى تبتغي بغير ما شرعه الله للناس؛ من الإيمان، والعمل بموجبه.

ولكن قد حذت في القرون الوسطى التوسل بأشخاص الأنبياء

(١) انظر: الدر المنثور (٣ / ٧١).

والأولياء^(٢)، وتسميتهم وسائل إلى الله تعالى، والإقسام على الله بهم، وطلب قضاء الحاجات، ودفع الضرر، وجلب النفع منهم عند قبورهم أو في حال البعد عنها، وشاع هذا وكثر، حتى صار كثير من الناس يدعون أصحاب القبور في حاجاتهم مع الله تعالى، أو يدعونهم من دون الله تعالى، والدعاء هو العبادة؛ كما قال النبي ﷺ: «الدعاء هو العبادة»^(٣)، وفي رواية: «الدعاء من العبادة»^(٤)، والله تعالى يقول: «فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا»^(٥)، و«إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَشْكَالُكُمْ»^(٦)، ولكن بعض المصنفين يزعم أنهم يدعون، والعوام يأخذون بمثل هذا القول المخالف لقول الله تعالى وقول رسوله ﷺ لعموم الجهل.

والعبد الضعيف قد حقق هذه المسألة حق التحقيق في مؤلفاتي المطبوعة المنشورة: كـ «حكم الله الواحد الصمد في حكم الطالب من

(١) يُنظر بيان ذلك وتفصيله في كتاب «القول الجلي في حكم التوسل بالنبي والولي» للشيخ محمد عبدالسلام الشقري، بتحقيق، نشر المكتبة الإسلامية، عمان.

(٢) رواه: أبو داود (١٤٧٩)، والترمذي (٣٣٧٢)، وابن ماجه (٣٨٢٨)، والنسائي في الكبرى - كما في «تحفة الأشراف» (٩ / ٣٠) -، وأحمد (٤ / ٢٦٧ و ٢٧١ و ٢٧٦)؛

عن العثمان بن بشير.

وسنده صحيح، صححه ابن حجر في «الفتح» (١ / ٤٩) وغيره.

(٣) ونسبه العجلوني في «كشف الخفاء» (١٢٩٥) لمسلم!! وتابعه على هذه النسبة الأخ الدكتور محمد الصباغ في تعليقه على «أحاديث القصاص» (رقم ٤٤)، فوهما!!

(٤) رواه الترمذي (٣٣٧١) عن أنس، وفي سنده ابن لهيعة والوليد بن مسلم؛

ضعيفان! ومع ذلك سكت عنه الحافظ في «الفتح» (١١ / ٩٤)!!

(٥) الجن: ١٨.

(٦) الأعراف: ١٩٤.

الميت المدد، وأوضح البرهان في تفسير أم القرآن المطبوع في مكة، و«مفتاح الجنة لا إله إلا الله»، و«البرهان الساطع في تبرؤ المتنوع من الشايح»، و«العقد الذريّة السلطانيّة فيما يُنسب إلى الأيّام التّروزيّة» المطبوع في مصر، و«تحفة الأبرار في فضائل سيّد الاستغفار» المطبوع في الصين، وغيرها، ولشيخ الإسلام أحمد بن تيمية رسالة «قاعدة جليّة في التّوسّل والوسيلة»^(١)، فعلى كلّ مؤمن طالب للحقّ بمطالعة تلك الكتب، ولا يكتفّ كأكثر البخاريّين والهنديّين والأتراك والإفريقيّين عبّاداً لأهل القبور والأرواح؛ فإنّهم بهذا الاعتقاد مشركون، ولا ينفعهم عند الله دعوى الإسلام، أو المجاورة في الحرمين؛ إلّا إذا تابوا وأصلحو ويؤمنوا، فالله تعالى قابل التّوب وغافر الذّنوب، وأمّا إذا لم يتوبوا، بل أصرّوا على ما هم عليه من الاعتقاد الشّركيّ؛ فالله عزّ وجلّ شديد العقاب، ذو الطّول والقدرة والقوّة، لا إله إلّا هو، ولا معبود بحقّ سواه.

الآية الرابعة والثلاثون فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ»^(٢).

نادى الله تعالى المؤمنين وخاطبهم - ناهياً إيّاهم - أن لا يتّخذوا اليهود

(١) وهو مطبوع مراراً، أجودها النسخة التي قام عليها تحقيقاً وتخريجاً أخونا الفاضل الشيخ ربيع بن هادي المدخلي، وفقه الباري.

(٢) المائدة: ٥١.

والنصارى أولياء لأنفسهم يتابعونهم، وإن كان سبب النزول خاصاً^(١)، ولكن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فلا يجوز لمسلم موالاة الكفار موالاة النصر والمظاهرة؛ لأن موالاةهم علامة على مرض القلب والرغبة إليهم^(٢)، ولهذا نهى الله تعالى عن موالاة الكفار والمشركين عامّة، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ لَقَوْلَهُمْ إِنِّيهِمْ بِالْمُؤَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ﴾ الآية^(٣).

قال ابن جرير^(٤) رحمه الله تعالى: «إن الله تعالى قد نهى المؤمنين جميعاً أن يتّخذوا اليهود والنصارى أنصاراً وحلفاء على أهل الإيمان بالله ورسوله، وأخبر أنّه من اتّخذهم نصيراً وخليفاً وقريباً من دون الله ورسوله؛ فإنّه منهم، وأنّ الله ورسوله منه بريّان».

قال البيضاوي^(٥): «أي: فلا تتّمسكوا عليهم، ولا تتعاصروهم معاشرّة الأخشاب، «بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ»، ولا شك أنّهم متفقون على خلافكم؛ يوالي بعضهم بعضاً، لا لتحادهم في الدّين، فمنّ والأهم منكم؛ فإنّه من جملتهم، وهذا التشديد في وجوب مجاباتهم؛ كما قال رسول الله ﷺ: (لا تترأى ناراهما)^(٦)».

(١) انظر: «الدر المنثور» (٣ / ٩٨)، وتفسير ابن كثير (٢ / ١٠٩).

(٢) فتأملوا رعاكم الله! وانظر ما سبق (ص ١٢٣).

(٣) الممتحنة: ١.

(٤) في «جامع البيان» (٦ / ٢٧٦).

(٥) في «أورار التنزيل» (ص ٧٢٩).

(٦) والرواية بتمامها: «أنا بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين، لا تترأى ناراهما».

ولكن المناققين في كل زمان ومكان يوالون الأعداء؛ ليخذلوا عندهم الأيدي إذا دالت الدولة لهم. وهذا هو الذي خرب الدولة التركية الإسلامية وأبادها؛ فإن كثيراً من وزرائها منذ قرن أو قرنين في سياسته ما بين روسي وإنكليزي وألماني وأمريكاني، حتى تغفل نفوذ هذه الدول في أحشاء هذه الدولة، فأضعفت استقلالها في بلادها، ويخشى أكبر منه، ألا وهو قيام قيامتها ومحوها واضمحلالها، وقد وقعت.

وأما الذين استعمرت الأجانب بلادهم بأي صورة من صور الاستعمار؛ فأمر منافقيهم أظهر، يتقربون إلى الأجانب بما يضر أمتهم، حتى فيما لم يكلفهم إيّاه.

فيا أيها المسلمون! أما تعتبرون آيات رب العالمين وما جرى عليكم من الأمور، فترجعوا إلى الإنصاف، والتحلي بأحسن الأوصاف، فتكونوا مؤمنين صادقين، ولسعادة الدارين نائلين.

الآية الخامسة والثلاثون فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ

رواه: أبو داود (٢٦٤٥)، والترمذي (١٦٠٤) عن جرير بن عبد الله.

وسنده صحيح.

ورواه النسائي (٨/ ٣٦) مرسلًا!

وقد أجّل به (١)، وليس بشيء، فانظر تحقيق شيخنا في «الإرواء» (١٢٠٧) في رده.

مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ^(١).

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين منيها إياهم بأن منهم من يرتد عن الدين - والعباد بالله تعالى - كالمناققين المرضى القلوب، وارتدادهم لا يضر الإسلام وأهله، وإنما يقيم الله الدين ويؤيده بالمؤمنين الصادقين، فمن يرتد منكم عن دينه؛ فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه، فيؤثرون ما يحبهم الله من إقامة الحق والعدل.

وهذا إخبار من الله تعالى بالغيب؛ فإنه بعد وفاة رسول الله ﷺ ارتد بعض العرب عن الإسلام، وقال المرتدون: نُصَلِّي وَلَا نَزُكِّي، فكلمهم أبو بكر رضي الله عنه فلم يقبلوا نصحه، فقاتلهم أبو بكر رضي الله عنه^(٢)، فالقوم الذين يحبهم الله ويحبونه هم أبو بكر وأصحابه رضي الله تعالى عنهم.

وقد وصف الله تعالى المؤمنين الصادقين بست صفات:

الأولى: أَنَّهُ تَعَالَىٰ يُحِبُّهُمْ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَأَتِيعُونِي يُحِبِّبْكُمْ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ^(٣)﴾، فجعل اتباع الرسول ﷺ سبباً لمحبة الله تعالى.

الثانية: أَنَّهُمْ يُحِبُّونَ اللَّهَ تَعَالَىٰ؛ كما في الآية المذكورة وآيات كثيرة، وفي «الصحيحين» عن أنس رضي الله عنه مرفوعاً: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ

(١) المائدة: ٥٤.

(٢) والحديث في ذلك مروى في: «صحيح البخاري» (٣٩٩) (١٤٠٠)،

و«صحيح مسلم» (رقم ٢٠)؛ عن أبي هريرة.

(٣) آل عمران: ٣١.

حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما... الحديث^(١)،
والحب يستلزم الطاعة ويقضيها بسنة الفطرة كما قيل:

تُعْصِي الْإِلَهَ وَأَنْتَ تَظْهَرُ حُبَهُ هَذَا لِعَمَلِي فِي الْقِيَاسِ بَدِيعُ
لَوْ كَانَ حُبُّكَ صَادِقًا لَأَغْنَيْتَنِي إِنَّ السُّبْحَ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعُ

الصفة الثالثة والرابعة: الذلة على المؤمنين والعزة على الكافرين؛ كقوله تعالى: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾^(٢)، يعني: أنهم عاطفون عليهم على وجه التذلل والتواضع، وأنهم مع شرفهم وفضلهم على المؤمنين خافضون لهم أجنحتهم.

الصفة الخامسة: الجهاد في سبيل الله، وهذا من أخص صفات المؤمنين الصادقين، وأعظم الجهاد بذل النفس والمال في قتال أعداء الحق، وضعاف الإيمان قد يجاهدون، ولكن في سبيل منفعيتهم دون سبيل الله.

الصفة السادسة: كونهم لا يخافون لومة لائم؛ بخلاف المنافقين؛ فإنهم يخافون لومة لائم؛ أي أنهم لتمكيتهم في الدين، ورسوخهم في الإيمان، لا يخافون لومة ما من أفراد اللوم، كان اللائم كائناً من كان؛ لأنهم لا يعملون العمل رغبة في جزاء أو ثناء من الناس، ولا خوفاً من مكروه يصيبهم منهم، فيخافون لومة هذا أو ذاك، وإنما يعملون العمل لإحقاق الحق، وإبطال الباطل، وتقرير المعروف، وإزالة المنكر؛ ابتغاء مرضاة الله تعالى بتركه أنفسهم وترقيتها.

(١) رواه البخاري (١ / ٥٦)، ومسلم (٤٣).

(٢) الفتح: ٢٩.

﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾؛ أي: الصفات الست فضل الله يعطيها من يشاء من عباده، ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلَيْهِمْ﴾، فلا ينبغي للمؤمن أن يغفل عن فضل الله الكريم عز وجل.

الآية السادسة والثلاثون فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوءًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَافِرَ أَولِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُتُمَ مُؤْمِنِينَ﴾^(١).

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين؛ ناهياً إياهم عن اتخاذ الذين الذين أولياء وأحباب؛ لأنهم يتخذون دينكم الإسلام هُزُوءاً ولَعِباً؛ أي: شيئاً يُتَرَفَّحُ به ويُسَخَّرُ منه ويُغْتَبَ به، فلا توالوا أهل الشرك والكفر والإلحاد، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾؛ أي: اتقوا الله في أمر الموالاة، فلا تضعوها في غير موضعها ﴿إِنَّ كُتُمَ مُؤْمِنِينَ﴾ صادقين في إيمانكم، تحفظون كرامتهم، وتتجنبون مهانتهم؛ لأن هؤلاء الأعداء إذا ناديتهم إلى الصلاة، ودعوتهم إلى التوحيد؛ اتخذوها هُزُوءاً ولَعِباً.

والحاصل أن الاستهزاء والسخرية بالعبادات الإسلامية من شأن الكفار والمُشْرِكِينَ أعداء الدين، فلها قد صرح العلماء في عامة كتب الفقه والعقائد أن من استهزأ أو تمسخر بالعبادات الإسلامية؛ فقد كفر^(٢)؛ كما يفعل أكثر جهلة البخاريين في حلفاتهم ولائتهم، والمولويين والرفاعيين في حلفات أذكاريهم

(١) المائدة: ١٥٧.

(٢) يُنظر أبواب الردة من سائر كتب الفقه، وانظر أيضاً: تفسير القرطبي (٨ / ١٩٦).

- (١٩٨) في تفسير آية ﴿قُلْ أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ...﴾.

وعبادتهم؛ من الغناء والرقص والدوران والتخنُّث^(١)، فهم قد سلكوا مسلك اليهود والنصارى والمجوس والوثنيين وهم لا يشعرون.

فيا أيها المسلمون! أيقروا من سكرتكم، وأرجعوا إلى دينكم الذي جاء به محمد رسول الله ﷺ، وأثقوا غضب الله وعقابه.

الآية السابعة والثلاثون فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرُمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ . وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾^(٢).

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين؛ ناهياً إياهم عن تحريم ما أحل لهم من المأكولات والمشروبات والمنكوحات، كما كان يفعل أهل الجاهلية وبعض الجهلاء من هذه الأمة ومن النصارى والوثنيين؛ لأن بعض المتشككين منهم كانوا يظنون أن تحريم التمتع بالطيبات طبعاً من اللحوم والأدهان والنساء يحصل الكمال والقرب الإلهي؛ كما تنوع الرهبان من التزوج، أو أنواع الصيام المتبدع، فأزال الله تعالى هذا الظن بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرُمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾؛ أي: لا تحرموا على أنفسكم ما أحل الله لكم من الطيبات المستلذة، بأن تتعمدوا ترك التمتع بها تنسكاً وتقرباً إليه تعالى، ﴿وَلَا تَعْتَدُوا﴾ فيها بتجاوز حد الاعتدال إلى الإسراف الضار بالجسد؛

(١) ولأحد علماء الأحناف المتأخرين كتاب لطيف سماه «الرقص لمُستجَبِّي الرقص» مطبوع قديماً.

كالزيادة على الشَّبع والرِّيِّ، أو كجعل التمتع بلبثها أكبر حكمكم، وعلى هذا المعنى قوله تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾^(٣)، ولا تعتدوا الطيبات المحللة بتجاوزها إلى الخباثات المحرمة، فالاعتداء يشمل الأمرين: اعتداء الطيبات نفسها إلى الخباثات، والاعتداء فيها بالإسراف؛ لأن حذف المفعول يفيد العموم.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ الذين يتجاوزون حدود شريعته، وسُنَّ فطرته، ولو بقصد عبادته.

وتحريم الطيبات المحللة قد يكون بالفعل من غير التزام بيمين ولا نذر، وقد يكون بالتزام، وكلاهما غير جائز، ولا يحرم على أحد شيء يحرمه على نفسه بهذه الأقوال.

وأما ترك الطيبات كالمحرمات تنسكاً وتعبداً لله تعالى بتعذيب النفس وحرمانها فقد فُتِنَ به كثير من العباد المتصوفة، فكان من بدعهم التزكية^(٤) التي تُضاهي بدعهم العملية، وقد اتبعوا فيها سَنَنَ مَنْ قبلهم شبراً بشبر، وهؤلاء أخذوها عن بعض الوثنيين؛ كالبراهمة الذين يحرمون جميع اللحوم، ويزعمون أن النفس لا تزكو ولا تكتمل إلا بحرمان الجسد من اللذات.

(١) الأعراف: ٣١.

(٢) وقاعدة البدع التزكية مهمة جداً، يجب التنبيه إليها، فما تركه رسول الله ﷺ لا يجوز القيام به وعمله تعبداً، وكذا ما عمله رسول الله ﷺ وقام به لا يجوز تركه تعبداً وتقرباً. وللشماري المتبدع رسالة سماها «... الدُّرْك...» تحيط فيها وهبط إلى أسفل درك!! وفي كتابي «علم أصول البدع» تقرير هذه القاعدة، والرد الإجمالي على رسالته، ولله الحمد.

وفي «الصححين»^(١) عن عائشة رضي الله تعالى عنها: أَنَّ ناساً مِنْ أصحابِ النبي ﷺ سَأَلُوا أَزْوَاجَ النبي ﷺ عَنْ عَمَلِهِ وَعِبَادَتِهِ فِي السَّرِّ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنِّي لَا أَكُلُ اللَّحْمَ وَأَصُومُ دَائِماً، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا أَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: أَقُومُ اللَّيْلَ وَلَا أُنَامُ عَلَى فِرَاشٍ، وَبَلَغَ ذَلِكَ النبي ﷺ، فَقَالَ: مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَقُولُ أَحَدُهُمْ كَذَا وَكَذَا؟! لَكُنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُنَامُ وَأَقُومُ، وَأَكُلُ اللَّحْمَ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ شَيْئٍ، فَلَيْسَ مِنِّي.

وقد ورد في الباب أحاديث كثيرة كلها تدل على سماحة دين الإسلام^(٢)، وَأَنَّ الْعُلُوَّ وَالتَّشْدِيدَ لَيْسَ مِنْهُ الْبُتَّةُ، بَلْ مِنْ دِينِ الْمُجُوسِ وَالْمُوثَنِيِّينَ.

﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا﴾: هذا تصريح بالأمر بضد مقتضى النهي قبله. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾: في الأكل وغيره، وَلَا تَقْتَرُوا عَلَيْهِ تَعَالَى فِي تَحْلِيلِ وَلَا تَحْرِيمٍ، وَلَا تَعْتَدُوا حَدُودَهُ فِيمَا أَحَلَّ وَفِيمَا حَرَّمَ؛ فَإِنَّ اتِّقَاءَ سَخِطِهِ فِي ذَلِكَ مِنْ لَوَازِمِ إِيْمَانِكُمْ بِهِ، وَمِنْ اعْتِدَائِهِ حَدُودَهُ فِي الْأَكْلِ وَالشَّرْبِ الْإِسْرَافَ فِيهِمَا، فَمَنْ جَعَلَ شَهْوَةً يَطْلُبُهُ أَكْبَرَ هُمٍّ؛ فَهُوَ مِنَ الْمُعْتَدِينَ الْمُسْرِفِينَ، وَمَنْ بَالِغٌ فِي الشُّبْعِ؛ فَهُوَ مِنَ الْمُعْتَدِينَ الْمُسْرِفِينَ، وَمَنْ أَنْفَقَ فِي ذَلِكَ أَكْثَرَ مِنْ طَاقَتِهِ، وَعَرَضَ نَفْسَهُ لَذَّةِ الدُّنْيَا، أَوْ أَكَلَ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ؛ فَهُوَ مِنَ الْمُعْتَدِينَ الْمُسْرِفِينَ، وَمَا كَانَ الْمُعْتَدِي الْمُسْرِفُ مِنَ الْمُتَّقِينَ.

فَيَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ! أَنْتُمْ الْمُخَاطَبُونَ الْمَكْتَلِفُونَ بِهَذِهِ الْخُطَابَاتِ وَالْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي، فَاعْرِضُوهَا وَافْهَمُوهَا وَاعْمَلُوا بِهَا؛ تَكُونُوا مُتَّقِينَ، وَأَمَّا إِذَا جَهِلْتُمْ وَخَالَفْتُمْ

فَتَجَاوَزْتُمْ وَاعْتَدَيْتُمْ؛ فَأَنْتُمْ الْمُعْتَدُونَ، وَأَنْتُمْ الظَّالِمُونَ، فِيهِ تَهْلِكُونَ أَنْفُسَكُمْ وَأَمْتَكُمْ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى، فَيَا خَسَارَةً مَنْ يَجْهَلُ أَمْرَ رَبِّهِ فَيَكُونُ مِنَ الْمَحْرُومِينَ الْخَاسِرِينَ الْهَالِكِينَ.

الآية الثامنة والثلاثون فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجَسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ. إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْمَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيُضِلَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾^(١).

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين؛ مِنْهُمَا إِيَّاهُمْ؛ بَأَنَّ الْخَمْرَ وَالْقَمَارَ وَالْأَنْصَابَ وَالْأَزْلَامَ كُلُّهَا رَجَسٌ وَخَبِيثٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ لِإِضْلَالِ بَنِي الْإِنْسَانِ.

والخمر كل شراب مسكر في أي شيء كان.

والميسر القمار والمقامرة، سواء كان بالأزلام والأقلام والسهام، فكل قمار ميسر محرّم بالنص، وحتى لعب الصبيان بالجوّز والبض والكعاب^(٢)، وَكَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَتَقَامَرُونَ فِي جَاهِلِيَّتِهِمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الْإِسْلَامُ، فَهَانَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ هَذِهِ الْأَخْلَاقِ الذَّمِيمَةِ.

وَأَمَّا الْأَنْصَابُ؛ فَهِيَ حِجَارَةٌ كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَذْبَحُونَ قَرَابِيئَهُمْ عِنْدَهَا،

(١) المائدة: ٩٠ - ٩١.

(٢) هي لعب صبيانية، وانظر تعليلي على «تشبه الخسيس بأهل الخميس» (ص

٤٨) للإمام الذهبي.

(١) رواه: البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١)؛ عن أنس.

(٢) ولاخيتا سليم الهلالي رسالة في «سماحة الإسلام» طُبعت قريباً.

ويعظمون تلك الحجرة، فيعبدونها، ويتبرون إليها، فيدخل فيها المشاهد والقبور المبنية على القُب، والأشجار التي يعظمونها، وعلقون عليها الخرق.

وأما الأزام فهي قِدَامٍ وقَطَع من الخشب كانوا يستسمون في الجاهلية لأجل التناول أو التناؤم.

وأما الرَجَس فهو المستقذر حساً أو معنى؛ كلعن الخنزير، أو الدم المسفوح^(١)، أو الميتة، وكذا الكفر والشرك رجس معنوي، وهو محمول على جميع ما ذكر من الخمر والميسر والأنصاب والأزلام؛ كما قال جل جلاله: ﴿فاجتنبوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾^(٢)، وكانت الأنصاب والأزلام من لوازم الأوثان، والشيطان يزين لأعدائه بني آدم ابتداعها وإيجادها، ثم يوسوس لهم بأن يعكفوا عليها، ويزينها لهم لما فيها من شدة الضرر بهم.

﴿فاجتنبوا لعلكم تفلحوا﴾، وإذا كان الأمر كذلك، فاجتنبوا هذا الرَجَس كله، وابتعدوا عنه؛ رجاء أن تفلحوا وتفوزوا بما فرض عليكم من تزكية أنفسكم وتحليتها بذكر ربكم، ومراعاة سلامة أبدانكم، والتوادر والتأخي بينكم.

وأما تعاطي ما ذكر من الأشياء؛ فإنه يصد عن ذلك، ويحول دونه؛ كما بيته الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ﴾، والخطاب هنا للمؤمنين الذين طهرهم التوحيد من خرافات الشرك كلها.

(١) وفي ذلك تفصيل فقهي، يُنظر له السلسلة الصحيحة، (١ / ٥٤٤) لشيخنا الألباني.

(٢) الحج: ٣٠.

وإحداث السكر العداوة والبغضاء معروف ومشهود؛ لأن السكر يُفقد العقل، فينشأ عنه القتل، والضرب، والعدوان، والسلب، والفسق، والفحش، وإفشاء السر، وهتك الأسرار، وخيانة الحكومات والأوطان في كل زمان ومكان.

وأما الميسر؛ فهو مثار للعدوان والبغضاء أيضاً، ولكن بين المتقارفين وبين يتصل بهما.

ولما بين الله تعالى علتين لتحريم الخمر والميسر: إحداهما اجتماعية، والأخرى دينية، والدينية تصدق على الألعاب التي اشتد ولوع كثير من الناس بها؛ كالشطرنج^(١)، فالظاهر أن تعدد بذلك محرمة؛ كالميسر؛ لأنها تصد عن ذكر الله وعن الصلاة، وإن كان اللعب بها على غير مال؛ كما شاهدنا كثيراً منهم في الطائفة في أيام الاصطيفاء؛ فإنهم ينهمكون في اللعب حتى تفوتهم الصلاة، أو يؤخرونها عن أوقاتها، وإن يصلوا؛ فيصلون بالعجلة، بلا طمأنينة ولا تعديل أركان ولا خشوع؛ لتلايقه اللعب.

﴿فَهَلْ أُنْتُمْ مُتَنَبِّهُونَ﴾: استفهام يتضمن الأمر بالانتباه، وهذا أبلغ ما ينهي به، وقد أكد الله تعالى تحريم الخمر والميسر من تسعة وجوه:

أحدها: أنه تعالى جعل الخمر والميسر رجساً، وكلمة الرَجَس تدل على منتهى الفجح والخبث، ولذلك أطلقت على الأوثان.

الثاني: أنه تعالى صذر الجملة بـ ﴿إِنَّمَا﴾ الدالة على الحصر للمبالغة في ذمها.

(١) وللإمام الأجرى كتاب «تحريم الرذ والشطرنج والملاهي» مطبوع.

الثالث: أنه تعالى قرنهما بالانصاب والأزلام، التي هي من أعمال الوثنية وخرافات الشرك، وقد ورد في الحديث: «مُذْمَنُ الخمرِ كعابِدِ الوثنِ»، رواه ابن ماجه^(١).

الرابع: أنه تعالى جعلهما من عمل الشيطان، لما ينشأ عنهما من الشرور والطغيان.

الخامس: أنه تعالى جعل الأمر بتركهما من مادة الاجتناب، وهو أبلغ من الترك.

السادس: أنه تعالى جعل اجتنابهما معداً للفلاح ومرجاةً له، فارتكباهما موجبٌ للخسران والخيبة.

السابع: أنه تعالى أخبر أنهما صادان عن ذكر الله وعن الصلاة.

الثامن: أنه تعالى جعلهما مثاراً للعدوان والعداوة والبغضاء، وهي من أشرُّ المقاصد.

التاسع: أنه تعالى أمر بالانتهاء عنهما بصيغة الاستفهام المقرون بفاء.

(١) برقم (٣٣٧٥).

ورواه: البخاري في «التاريخ الكبير» (١ / ١ / ٣٨٦)، وابن أبي شيبة (٨ / ٦)، وابن الجوزي في «الواحيات» (١١٧)، وابن عدي في «الكامل» (٦ / ٢٢٣٤)؛ من طريق محمد بن سليمان الأصماني عن سهيل عن أبيه عن أبي هريرة.

قال الحافظ ابن حجر في «تخريج الكشاف» (١ / ٦٧٤): «إسناده جيد». قلت: هو دون ذلك بقليل، فمحمد بن سليمان: «صدوق يخطئ»؛ كما قال ابن حجر نفسه، فهو - بالكاد - حسنٌ.

ولكنَّ للحديث شواهد عدة، أوردتها شيخنا في «الصحيحة» (٦٧٧)، فلننظر.

السببية.

فيا أيها المؤمنون! هل تفهمون هذه الخطابات الموجهة إليكم، وتتنبهون عما أُنم عليه من المنكرات والجهالات والخرافات والتزهات؟

الآية التاسعة والثلاثون فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَتْلُوَنَّكُمْ اللَّهُ بَشِيرٍ مِّنَ الصِّدِّ تَنَالَهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاكُم لِّيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اغْتَدَى بِعَدُوِّكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(١).

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين منبهاً إليهم أنه تعالى يختبرهم في حال إحرايمهم للحج والعمرة بإرسال شيء كثير من الصيد يسهل عليهم أخذه بأيديهم وبرماجمهم.

﴿لِّيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾؛ أي: ليتبينكم به وأنتم محرمون؛ ليعلم من يخاف الله غائباً عن نظر الناس، غير مرأٍ لهم، ولا خائفٍ من إنكارهم، فيترك أخذ شيء من الصيد، ويختار شطفت العيش على لذّة اللحم؛ خوفاً من الله تعالى، وطاعةً له في سره، ﴿فَمَنِ اغْتَدَى بِعَدُوِّكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وجه الابتلاء بذلك أن الصيد لذ الطعام وأطيبه، وخصوصاً في السفر الطويل؛ كالسفر إلى الحرمين وبين الحرمين، وسهولة تناول اللذيذ تُغري به، فتترك ما لا يُنال إلا بمشقة لا يدلُّ على التقوى والخوف من الله تعالى؛ كما يدلُّ عليه ترك ما يُنال بسهولة.

(١) المائدة: ٩٤.

وهل يُعَدُّ ترك الرِّبَا مما لا يصلُّ إليه إلا بسعيٍ وبذلٍ مَالٍ وَتَوَقُّعٍ فضيحةٍ؛ كترك يوسف الصديق عليه السلام له إذ غَلَقَتْ امرأة العزيز الأبواب دونه، وقالت: هَيْتَ لَكَ^(١)، وقصبة أحد الثلاثة الذين دخلوا الغار وانطبقت عليهم الصخرة^(٢).

فالحاصل أيها المؤمنون! أنتم المختبرون المتبلِّون في نياتكم وأعمالكم، فهل تمثِّلونَ أَمْرَ رَبِّكُمْ في سرِّكم وجهركم، أو تعدُّونَ ذلك، وتُظهِرونَ الامتنالَ في الظَّاهرِ ومرايئِ الناس، وتربكونَ المنهيَّ المحظورَ في السِّرِّ؛ كالمنافقين الذين هم في الدُّرِكِ الأسفلِ من النار.

الآية الأربعون فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذُو عُدْلٍ مِنْكُمْ هَذِيحًا بِالْحَكْمَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ سَائِجِنَ أَوْ عَدْلٌ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمِ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ^(٣)﴾.

قد نادى الله تعالى وخاطب المؤمنين الذين قصدوا حج بيت الله الحرام؛ ناهياً إياهم عن قتل الصيد في حال إحرامهم، فاصطياد المَحْرَمِ وقتله الصيد حرام عليه، وإذا صدر عنه الاصطياد وقتله عامداً؛ فعليه الجزاء في الدنيا، وهو أنه يتصدَّق بمثل ما قتل من النعم. . . إلخ.

(١) كما في سورة يوسف: ٢٣.

(٢) وقصته في ذلك طويلة، رواها: البخاري (٢٢٧٢)، ومسلم (٢٧٤٣).

(٣) المائدة: ٩٥.

فعلى هذا يجب على مَنْ أراد الحجَّ من المؤمنين أن يعلم ويتعلَّم ما يتعلَّق بالحجِّ من الفرائض والسُّنَنِ والمَحْرُمَاتِ والمَكْرُهَاتِ، حتى يكونَ أتياً بالحجِّ على وجه الكمال، فيكونَ حجُّه مبروراً، ولكنَّ الأسفَ أَلَفَ أسفٍ على جهل المسلمين، وعدمِ ميالاتهم بأمور دينهم وأوامر مولاهم ربِّ العالمين ومنن سيد المرسلين سيِّدنا محمد ﷺ، فتدبُّر.

الآية الحادية والأربعون فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ بُدِّ لَكُمْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ بُدِّ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ خَلِيمٌ^(١)﴾.

قد نادى الله تعالى وخاطب المؤمنين؛ ناهياً إياهم عن السؤالِ عما لم يؤمروا بآعقابه أو فعله أو تركه؛ لأنَّ الدينَ قد كَمُلَ، فلا يحتاج إلى التكميلِ حتى يحتاج إلى السؤال، وإثماً عليكم الأخذ والعمل بما بلغه الرسول ﷺ إليكم، فكونوا مُتَعَدِّينَ لَهُ ﷺ، وما لم يُبَلِّغْهُ الرسولُ محمد ﷺ إليكم فلا تسألوا عنه، ولا تخوضوا فيه؛ فَإِنَّكُمْ إِنْ خُضُّمَ فيما لا تكليف فيه عليكم؛ فربما جاءكم بسبب ذلك الخوضِ الغيرِ اللازمِ من التكاليفِ مَا يُثْقَلُ عَلَيْكُمْ ويشقُّ.

وقد ذكر المفسرون في تفسير هذه الآية أحاديث كثيرة؛ فمنها ما رواه ابن جرير وأصحاب الصحاح والسُّنَنِ^(٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه في سؤال

(١) المائدة: ١٠١.

(٢) رواه: البخاري (٢١١ / ٨)، ومسلم (٢٣٥٩)، والترمذي (٣٠٥٨)، والنسائي

في التفسير (١٧٤)، وابن جرير في «جامع البيان» (٨١ / ٧).

الرجل: «مَنْ أَنَا وَمَنْ أَنَايَ... إلخ؟»

وفي الحج: «أَمَّا كُلُّ عَامٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ»^(١).

وفي الصحيحين^(٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ذُرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ؛ فَإِنَّمَا هَلَكٌ مَنْ كَانَ قَلْبُكُمْ بِكَثْرَةِ سؤَالِهِمْ، وَاجْتِلَا فِيهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأَتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ».

وعن أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه؛ قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَرَضَ فَرَائِضَ فَلَا تُضَيِّعُوهَا، وَحَرَّمَ حُرُمَاتٍ فَلَا تَنْتَهِكُوهَا، وَحَدَّ حُدُودًا فَلَا تَعْتَدُوهَا، وَسَكَنَ عَنْ أَشْيَاءَ رَحِمَهُ بِكُمْ مِنْ غَيْرِ نِسْيَانٍ فَلَا تَبْخُلُوا عَنْهَا»^(٣).

(١) رواه: الترمذي (٣٠٥٧، ٨١٤)، وابن ماجه (٢٨٨٤)، وأحمد (١ / ١١٣)؛ من طريق علي بن عبد الأعلى عن أبيه عن أبي البختري عن علي. وضعفه الترمذي بقوله: «حديث غريب». وعبد الأعلى بن عامر الثعلبي وضعفه غير واحد. وأبو البختري - واسمه سعيد بن فيروز - لم يلقَ علياً، كما في «جامع التمهيد» (ص ١٨٣ - ١٨٤).

ولم يُثر شيئاً في «الإرواء» (٩٨٠) إلى هذه العلة! وأما الشيخ عبد القادر الأراؤوط في تعليقه على «جامع الأصول» (٣ / ٤)، فلم يُثر إلى علة عبد الأعلى!

وللحديث شواهد عدّة دون ذكر سبب النزول، منها ما بعده؛ كما في سبب وروده.

(٢) رواه: البخاري (٧٧ / ٩)، ومسلم (١٣٣٧).

(٣) رواه: الدارقطني (٤ / ١٨٤)، والبيهقي (١٠ / ١٢)، والخطيب في «الفيح» والمتفق (٩ / ٢)؛ من طريق داود بن أبي هند عن مكحول عنه.

وقد أعله الحافظ ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» (ص ٢٤٢) بعثتين: الأولى =

وفي رواية: «وَعَفَا عَنْ أَشْيَاءَ مِنْ غَيْرِ نِسْيَانٍ فَلَا تَبْخُلُوا عَنْهَا، وَلَكِنْ إِذَا نَزَلَ الْقُرْآنُ بِهَا مُجْمَلَةً فَسَأَلْتُمْ عَنْ بَيَانِهَا؛ بَيَّنْتُ لَكُمْ؛ لاحتِاجَ بَعْضِكُمْ إِلَيْهَا، عَفَا اللَّهُ عَنْهَا»^(١).

أي: ما لم يذكره في كتابه فهو مما عَفِيَ عنه، فاسْكُتُوا أَنْتُمْ عَنْهَا كما سَكَتَ عَنْهَا.

واعلم أنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ بَيَّنَّ لِعِبَادِهِ بَعْضَ الْخُطَابِ مَا لَا يَدُّ لَهُمْ مِنْهُ لِإِصْلَاحِ أَمْرِ مَعَادِهِمْ وَمَعَاشِهِمْ، وَيَفْجُو الْخُطَابِ أَوْ الْإِشَارَةِ مَا يَفْتَحُ لَهُمْ بَابَ الاجْتِهَادِ فِي كُلِّ مَا لَهُ عِلَاقَةٌ بِأُمُورِ مَصَالِحِهِمْ، فَالْوَاجِبُ أَنْ يُتْرَكَ أَمْرُ الشَّرِيعِ إِلَيْهِ تَعَالَى؛ لِأَنَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ بِمَصَالِحِ الْعِبَادِ مِنْ أَنْفُسِهِمْ.

وهذه الآية تدلُّ على أَنَّهُ لَا تَجَوُّزَ الزِّيَادَةَ عَلَى نصوص الشارع، والتَّنَطُّعَ في الدين باستعمال الرأْي في العبادات وأحكام الحلال والحرام؛ لِأَنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ قَدْ أَكْثَلَ الدِّينَ، وَأَثَمَ بِهِ نِعْمَتَهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَنْزَلَهُ مِنَ الْقُرْآنِ عَلَى خَاتَمِ رُسُلِهِ، وَبِمَا قَامَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ أَكْمَلَ قِيَامٍ مِنْ بَيَانِ حِرَاقِ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ تَنْزِيلِهِ، وَهَذِهِ مَسْأَلَةٌ قَطْعِيَّةٌ ثَابِتَةٌ بِالْقَلِّ وَالْعَقْلِ، وَلِأَنَّ هَذَا الدِّينَ يُسَرُّ، قَدْ رَفَعَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْهُ الْحَرَجَ كَمَا نَطَقَ بِهِ النَّصُّ، وَلِذَا سَمَّاهُ النَّبِيُّ ﷺ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ^(٢).

= الانقطاع بين مكحول وأبي ثعلبة. الثانية: الاختلاف في رفعه ووقفه.

فملى هذا؛ فَإِنَّ مَنْ حَسَنَهُ قَدْ وَهَمَ!!

(١) لم ألقَ على هذه الرواية، فلمعها السابقة نفسها، لكن بالمعنى.

(٢) انظر الحديث الوارد في ذلك، وتخرجه مفضلاً في «الإتقان» (٢٤٨٩٩)

وقال ﷺ: «إِنَّ هَذَا الدِّينَ يَسُرُّ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ»، رواه البخاري^(١).

وقال ﷺ: «يَسُرُّوْا وَلَا تُعَسِّرُوْا، وَيُسِّرُوْا وَلَا تُتَفَرَّوْا»، رواه الشيخان^(٢).

ومن الأسئلة المنهية عنها^(٣): البحث عن أمور غيبية، وقد ورد الشئ بالإيمان بها مع ترك البحث عن كفيتهما؛ كسؤال المَلَكَين في القبر، وورن الأعمال، والسؤال عن وقت قيام الساعة، وعن الروح، وعن مدة هذه الأمة، والبحث في صفات الله؛ من: الاستواء على العرش، ويد الله، ونفس الله، إلى أمثال ذلك مما لا يُعْرَفُ إِلَّا بِالتَّوَكُّلِ الصَّرْفِ.

الآية الثانية والأربعون فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَبِئْسَ كُفُّوا تَعْمَلُونَ﴾^(٤).

قد نادى الله تعالى المؤمنين وخاطبهم؛ أمراً إياهم بصيغة الإغراء بأن يهتموا بإصلاح أنفسهم؛ بالعلم الصحيح، والعمل الصالح، وبين لهم أنهم إذا أصلحوا أنفسهم، وقاموا بما أوجب الله عليهم من علم وعمل وتعليم وإرشاد؛ فلا يضرهم من ضلَّ من الناس عن محجة العلم الصحيح بالجهل.

والتقليد، وعن صراط العمل الصالح بالفسق والإفساد في الأرض.

فيا أيها المؤمنون! الزموا صلاح أنفسكم وتزكيتكم بما شرع الله لكم، لا يضرركم ضلال غيركم إذا اهتديتم، إذ لا تضر وازرة ووزر أخرى.

ومن أصول الهداية: الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، فإذا لا تكونون مهتدين إلا إذا بلغتم دعوة الحق والخير، وعلمتم الجاهلين ما أعطاكم الله تعالى من العلم والدين، فلا تكونوا الحق والعلم كما كنتم من كان قبلكم فلعنهم الله تعالى على لسان أنبيائهم ولسان نبيكم محمد ﷺ. ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَبِئْسَ كُفُّوا تَعْمَلُونَ﴾، فبجازيكم ويحاسبكم بما كنتم تعملون في الدنيا.

وقد روى الحفافظ بسنده عن قيس أنه قال: قام أبو بكر رضي الله عنه، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس! إنكم تقرأون هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ...﴾ الآية، وإنكم تضعونها على غير موضعها، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الْمُنْكَرَ لَمْ يَغْيُرُوهُ؛ أَوْشَكَ أَنْ يَعْصِمَهُ اللَّهُ بِعَقَابٍ»^(١)، ويا أيها الناس! إياكم والكذب؛ فإن الكذب مجانب الإيمان. رواه أصحاب «السنن» الأربعة.

روى الترمذي^(٢) بسنده عن أبي أمية الشَّعْبَانِي: قال: «أَتَيْتُ أَبَا ثَعْلَبَةَ

(١) أخرجه: أبو داود (٤٣٣٨)، والترمذي (٢١٦٩)، وابن ماجه (٤٠٠٥).

والشَّعْبَانِي في «التفسير» (١٧٧)، وأحمد (٥، ٢، ١)، وصنده صحيح.

وانظر تخريج «إياكم والكذب...» في تعليقي على «الفارق...» (ص ٦٧).

(٢) رواه: أبو داود (٤٣٤١)، والترمذي (٣٠٥٨)، وابن ماجه (٤٠١٤) من طريق =

(١) (١٠٧ / ١٠٧) عن أبي هريرة.

(٢) البخاري (١ / ١٧١)، ومسلم (١٧٣٤)؛ عن أنس

(٣) من حيث كنهها وحقيقتها وآثارها.

(٤) المائدة: ١٠٥.

الخشني رضي الله عنه، فقلت له: ما تصنع في هذه الآية؟ قال: أَيْهَ آيَةٍ؟ قلت: قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا تَضُرُّكُمْ مِنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾. قال: أما والله لقد سألت عنها خبيراً، سألت عنها رسول الله ﷺ، عمرو بن جارية عن أبي أمية الشعبي به.

وفيه جهالة عمرو بن جارية للحمي.

وعنه بن أبي حكيم؛ صدوق، يخطئ كثيراً.

أما أبو أمية؛ فروى عنه ثلاثة، وثقّه ابن حبان.

ولكن للحديث شواهد:

شاهدان موقوفان للقطعة الأولى عند ابن جرير (٧ / ٩٦)، وفيهما ضعف يسير.

وشاهد ثالث عن معاذ مرفوعاً، بلفظه تقريباً، عند ابن مردويه؛ كما في «الدرة» (٢ / ٣٤٠)، ولم أقف على سند.

وشاهد رابع؛ أخرجه: أحمد (٦٥٠٨ و٧٠٤٩ و٧٠٦٣)، وأبو داود (٤٣٤٢)؛ عن ابن عمرو بسند حسن.

وشاهد خامس، أخرجه: ابن حبان (٢٨٤٩)، والدولابي (٢ / ٣٥)؛ عن أبي هريرة بسند صحيح.

وأما القطعة الثانية؛ فلها شواهد عدة، خرجها شيخنا في «الصححة» (٤٩٤ و٩٥٧).

فإن قيل: «إن المعروف في تفسير الآية يخالفه الظاهر»؛ كما قال شيخنا في «الضعيفة» (٣ / ٩٥)؛ فالجواب: إن المخالف أولاً هو الحديث السابق لهذا في كتابنا، وهو المروي عن أبي بكر.

وهناك جمع سهل إن شاء الله، وهو أن حديث أبي بكر يُرَوَّى على الزمان المتعاد والحياة الطبيعية، أما عند فساد الأحوال وآخر الزمان؛ فيكون الوجه لحديث أبي ثعلبة عند عدم جدوى الأمر والنهي.

وهذا جمع ظاهر الرضوخ.

ثم رأيت نحو ما ذكرته في «مشكل الآثار» (٢ / ٦٦) للإمام أبي جعفر الطحاوي، والحمد لله على توفيقه.

فقال: «بل اتفقوا بالمعروف، وتناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً، وهوى متبعاً، وذنباً موزنة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه؛ فعليك بخاطبة نفسك، ودع عنك أمر العوام؛ فإن من ورائكم أياماً؛ الصابر فيهن مثل القابض على الجمر، للعامل فيهن مثل أجير خمسين رجلاً يعملون كعملكم».

والحاصل أنه قد علم من هذه الروايات أن السلف اتفقوا على أن المؤمن لا يكون مهتدياً بمجرب إصلاحه لنفسه؛ إذا لم يهتم بإصلاح غيره ويأمر بالمعروف وينه عن المنكر، ويقفهم منه أن هذا فرض لازم دائم، إلا إذا فسد أهل الزمان فساداً لا يرجى معه تأثير الوعظ والإرشاد، والموقف هو الله عز وجل.

الآية الثالثة والأربعون فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِمَّنْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ...﴾ (الآية١).

قد خاطب الله تعالى المؤمنين متبهاً إياهم أنه من حضره الموت وعنده مسلمون حاضرون يجب عليه أن يشهد على وصيته عدلين من المسلمين، وأما إذا لم يكن عنده مسلم حاضراً، فأمر بشهادة رجلين من غير المسلمين، فإن ارتبب بشهادتهما - أي: الكافرين -؛ استخلفا بالله بعد الصلاة؛ ما اشترتينا بشهادتنا ثمناً قليلاً، وليس على شهود المسلمين إقسام، وإنما الإقسام على الشهود إذا كانا كافرين.

والآية تفيد الحث على الوصية، وتأكيد أمرها، وعدم التهاون فيها

(١) المائدة: ١٠٦.

يشواغل السفر، وتغيب الإشهاد على الرصبة في الحضر والسفر؛ ليكون أمرها أثبت، والرجاء في تنفيذها أقوى، وأن يكون الشاهدان من المؤمنين الموثوقين بعدائهم، وأن إشهاد غير المسلمين على الرصبة جائز مشروع عند فقد أهل الإيمان؛ كالسفر، وجواز تغليب الأقسام بالأوقات التي تؤثر في قلوب الشهود.

ولهذا قال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى: «والإيمان تغلظ بالزمان والمكان».

وتفصيل تفسير الآية مذکور في التفاسير عموماً، و«تفسير المنار»^(١) خصوصاً، فارجع إليها أيها المؤمن الذي يهيمه دينه.

الآية الرابعة والأربعون في سورة الأنفال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفُوا فَلَا تَوَلَّوْهُمْ الْأَذْيَارَ . وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ إِلَّا مَتَحَرِّفًا لِقِتَالِ الْأَوْ مَتَحَرِّفًا إِلَى فِتْنَةٍ يَغْضَبُ مِنَ اللَّهِ وَمَوَافَاةً جَهَنَّمَ وَيَشْنُ الْمَصِيرَ﴾^(٢).

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين منها أيهم: إذا لقيتم الكفار حال كونهم زاحفين زحفاً لقتالكم، فلا تولوهم الأذيال؛ أي: فلا تولوهم ظهورهم منهزمين منهم، وإن كانوا أكثر عدداً منكم وعدداً، وإذا كان التزاحف من الفريقين، أو كان الزحف من المؤمنين؛ فتحرّم الفرار والهزيمة أولى، ولقظ: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفُوا﴾ يصلح للأحوال الثلاثة.

(١) انظر (٧ / ٢٠٢) منه

(٢) الأنفال: ١٥ - ١٦.

﴿وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ﴾، ويولي ظهره إلى العدو فاراً منهم؛ «إلا متحرّفاً لقتال»؛ أي: متحرّفاً لمكان من أمكنة القتال رآه أحوج إلى القتال فيه، وأبلغ في النكابة بالعدو، «أو متحرّفاً إلى فتنة»؛ أي: متضلّ إلى فتنة من المؤمنين في حيز غير الذي كان فيه؛ لينصّروهم على عدو تكاثّر جمعه عليهم، «فقد بآه يغضب من الله وموافاة جهنم ويشن المصير»؛ لارتكابه معصية الفرار.

والآية تدل على أن الفرار من الزحف من كبار المعاصي، وقد جاء التصريح بذلك في أحاديث صحيحة، أصحها عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً عند الشيخين^(١)، قال رسول الله ﷺ: «اجتنبوا السبع الموبقات»؛ أي: المهلكات. قالوا: يا رسول الله! وما هن؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات»؛ إلا إذا كان الكفار أزيد من الضعف، أو لتدبير حربي، وهو التحيز إلى فتنة.

فيا أيها المؤمنون! جاهدوا أعداء الله وأعداء الدين والتوحيد، وأثبتوا فيه، ولا تترلزلوا؛ لأنكم إذا قتلتم قاتم الشهداء الفاتزون بالربما والرضوان وأنواع نعم الجنان من الحور والعلمان، وإذا نصّرتم وغلبتم؛ قاتم الغابون الفاتحون الغالون نائلون السعادة والدولة برفع لواء الدين، واعلموا أنه لا يموت أحد إلا بأقضاء أجله المقدر، فآمنوا بهذا القدر؛ فإن القدر لا يتغير، واحذروا عن الغدر؛ فإن القدر شين وعار، وسبب للملذّة في الدنيا وعذاب النار في الآخرة ويشن المصير.

(١) رواه: البخاري (٥ / ٢٩٤)، ومسلم (٨٩).

الآية الخامسة والأربعون فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنَّهُ وَاتَّبَعْتُمْ مَنَ شِعْمُونَ . وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَمِمَّا لَا يَسْمَعُونَ﴾^(١).

قد نادى الله تعالى وخاطب المؤمنين؛ أمراً بإيائهم بإطاعته وإطاعة رسوله محمد ﷺ وامتنال أمره، ونهاياً لإيائهم عن أن يتولَّوا ويُعْرِضُوا عن الرسول؛ تاركين إطاعته، ومخالفين له، والحال أنكم تسمعون منه كلام الله المصريح بوجوب طاعته وموالاته واتباعه ونصرتَه؛ أي: تسمعونَ سماعَ الفهم والتصديق والإذعان، الذي هو شأن المؤمنين الذين ذلَّهم أن يقولوا: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾^(٢)، والموصوفون بقوله عز وجل: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادَ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾^(٣)، وأصحاب العقول السليمة.

﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ أيها المؤمنون الصادقون ﴿كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَمِمَّا لَا يَسْمَعُونَ﴾؛ أي: لا يسمعون سماع تفقه واعتبار يتفقه الانتفاع والعمل، وهكذا كان المنافقون، والكفار المعاندون، والمقلدون الجاهلون، والمتعصيون الضالُّون، وقد سلك من هذه الأمة مسلكهم؛ شبراً بشبر، وذراعاً بذراع؛ فإن كثيراً منهم وإن قرأ القرآن وسمِعَهُ واستمعَهُ، ولكنهم لا يعملون به؛ إلا ما وافق هواهم، أو وافق قول تبعيهم وأخبارهم وروايتهم، ويحملون ما خالف مذهب

متبعيهم على النسخ أو التأويل، كما تقدَّرَ به أبو الحسن الكرخي الحنفي في كتابه «أصول الفقه»^(١)، وقد بُهِتَ عليه في كتابي المطبوع المنشور «البرهان الساطع في تبرؤ المتبوع من التابع».

فيا أيُّها المؤمنون! كونوا مؤمنين صادقين، واتبِعُوا بالإيمانِ والقرآنِ؛ مُتَّبِعِينَ معناه، ومتفكرين فحوا، حتى تكونوا قَالِحِينَ.

الآية السادسة والأربعون فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَهُ تَخْشَوْنَ﴾^(٢).

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين عموماً - عربهم وعجمهم، وعالمهم وجاهليهم -؛ أمراً بإيائهم أن يستجيبوا لله والرسول بالعناية والاستعداد؛ أي: إذا عَلِمْتُمْ ما فرضنا عليكم من الطاعة وشأن سماع التفقه من الهداية، وقد دعاكم الرسول محمد ﷺ بالتبليغ عن الله تعالى لما يُحْيِيكُمْ من الأعمال الصالحة، وأفضلها الجهاد في سبيل الله، والقيام بالدفاع عن المهاجرين.

ومنذ ترك المسلمون الجهاد والدفاع والاستعداد؛ له؛ تلاشت حياتهم القويمة^(٣) ومكانتهم الإسلامية كما لا يخفى.

(١) قارن به بدعة التعصب المذهبي؛ لأخينا الفاضل محمد عبد عباسي، كان الله

له.

(٢) الأنفال: ٢٤.

(٣) أي: التي يحيا فيها أقوامهم! لا القومية التي تنسى الإسلام، بل تحاربه!!

(١) الأنفال: ٢٠ - ٢١.

(٢) البقرة: ٢٨٥.

(٣) الزمر: ١٧ - ١٨.

فيا أيها المؤمنون! أجيبوا الدعوة بعناية وهمة وعزيمة وقوة.

ولا شك أن العمل بالقرآن ينبوع السعادة، وأن طاعة رسول الله ﷺ خزينة الفلاح والنجاح، وأن طاعته ﷺ واجبة في حياته وبعد مماته، فيما عُلِمَ أنه دعا إليه دعوة عامة من أمر الدين الذي بعثه الله تعالى به؛ كيبانه ﷺ لصفة الصلاة وعدها، والمنابك، ومقادير الزكاة، وغير ذلك من السنن الدينية إلى يوم القيامة.

﴿واعلموا﴾ أيها المؤمنون ﴿أن الله تعالى يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون﴾، وهذا تنبيه لأميرين عظيمين أمرنا الله تعالى أن نعلمهما علماً يقينياً:

الأول: أن من سئد الله في البشر الحيلولة بين المرء وقلبه، الذي هو مركز الوجدان والإدراك ذي السلطان على إرادته وعمله، وهذا أخوف ما يخافه المتقي على نفسه إذا لم يتأس من رُوح الله فيها.

ومعرفة هذه الجملة تثير الخوف والرجاء، فكم من متي مهتد يضل عن الصراط المستقيم، ويعمل إلى مهاوي الحميم، بسبب شبهة تزعزع الاعتقاد، أو شهوة يغلب بها الغي على الرشاد، فيطغى هواه، ويتجذله لها من دون الله، على أنه فيه مختار بلا جبر ولا اضطراب؛ كما وقع في هذا العصر من بعض معاصرينا؛ كعبد الله القصيبي في كتابه (هذي هي الأغلال)؛ فإنه قد خالفت النصوص الصريحة القرآنية، والأحاديث الصحيحة النبوية، في أحد وعشرين موضعاً من هذا الكتاب، ظاهره الكفر والزندقة، بعد أن كان مؤمناً موحداً يدافع عن الإيمان والتوحيد وأهله، ويصارع أهل الشرك والخرافات؛ كما في مؤلفاته السابقة؛ ككتابه «الصراع بين الإسلام والوثنية»، و«البروق النجدية»،

و«شيوخ الأزهر»^(١) وغيرها، ولكن؛ قد صدق الله العظيم: ﴿أن الله يحول بين المرء وقلبه﴾.

ومن جملة الأسباب الظاهرة مصاحبة المتفكرين والزنادقة، والطمع فيما عندهم من مال الدنيا.

اللهم ثبت قلوبنا على دينك، ﴿ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب﴾^(٢).

اللهم توفنا مسلمين، وألحنا بالصالحين.

ويقابل هذا من الحيلولة ما حكى بعضهم عن نفسه: أنه كان منهكاً في الشهوات والمنهيات؛ تاركاً لهداه وطاعة ربه، فنزل يوماً في زورق مع خلان له في نهر دجلة للتزفة، ومعهم النبيذ والمعازف، فبينما هم يعزفون ويشربون؛ إذ التقوا بزورق آخر فيه تال للقرآن يرتل سورة ﴿إذا الشمس كورت﴾^(٣)، فوقعت تلاوته من نفسه موقع التأثير والمعة، فاستمع له وأنصت، حتى إذا بلغ ﴿وإذا الصحف نشرت﴾^(٤)؛ امتلا قلبه خشية من الله وتديراً؛ لأطلاعه على صحيفة عمله يوم يلقاه، فأخذ العود من العازف، فكسره، وألقاه في دجلة، ونشئ بتد قنات النبيذ وكؤوسه فيها، وصار يردد الآية، وعاد إلى منزله؛ تائباً من كل

(١) كتبه الأربعة هذه مطبوعة، أما كتابه «... الأغلال»؛ فقد رد عليه عدد كبير

أهل العلم، وبشوا زيوفه!

(٢) آل عمران: ٨.

(٣) التكوين: ١.

(٤) التكوين: ١٠.

معصية، مجتهداً في كل ما يستطيع من طاعة^(١).

فيا أيها المؤمنون! انتبهوا لتذكير الله تعالى إيانا بهذا الشأن من شؤون الإنسان وسنن الله تعالى في الإرادات والأعمال .
وأمره تعالى إياناً بأن نعلمها علم إيقان وإذعان؛ فيقينا فائدتين لا يكمل بدونهما الإيمان:

الفائدة الأولى: أن لا يأمن الطائع المشغور من مكر الله فيغتر بطاعته ويغيب بنفسه، وأن لا يأمن العاصي والمقصر في الطاعة من روح الله وفضله وعنايته، ومن لم يأمن من عقاب الله ولم يأمن من رحمة الله؛ يكن جديراً بأن يراقب قلبه، ويحاسب نفسه على خطاياه؛ لينظر على صراط العدل المستقيم؛ متجنباً الإفراط والتفريط، ويتحرى دائماً أن يكون بين خوف يخجزه عن المعاصي ورجاء يحمله على الطاعات.

الفائدة الثانية: هو تذكّر حشرنا إليه عز وجل، ومحاسبته إيانا على أعمالنا القلبية والبدنية، ومجازاته علينا بها، إمّا بالعذاب الأليم، وإمّا بالتعظيم المقيم .

(١) وقريب من ذلك قصة توبة الفضيل بن عياض الزاهد العابد؛ قال الذهبي:

«وكان قاطع طريق، وسبب توبته أنه عشق جارية، فبينما هو يرتقي الجدران إليها؛ إذ سمع نالاً يقول: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد: ١٦]، فلما سمعها؛ قال: يلى يا رب، قد آن . فرجع، فأراه الليل إلى خربة، فإذا فيها سابلة (وهم قوم عابرون في طريق ما) . فقال بعضهم: نرحل، وقال بعضهم: حتى نصبح؛ فإن فصيلاً على الطريق يقطع علينا. قال: ففكرت، وقلت: أنا أسعى بالليل في المعاصي، وقوم من المسلمين ها هنا يخافوني، وما أرى الله ساقني إليهم إلا لارتدغ، اللهم إني قد تبت إليك، وجعلت توبتي مجاورة البيت الحرام. والسير (٨ / ٣٧٢) .

فيا أيها المؤمنون! لا تغفروا بظاهر طاعاتكم وعباداتكم، بل اطلبوا من الله تعالى الدوام والثبت على الإيمان والتوفيق .

﴿رَبَّنَا لَا تُخِزْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾^(١).

اللهم! يا مُقَلِّبِ الْقُلُوبِ! ثَبِّتْ قُلُوبَنَا عَلَى دِينِكَ، وارزُقنا حسن الختام .

الآية السابعة والأربعون فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرُّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ . وَعَلِمُوا أَنَّ أَمْوَالَكُمْ وَأَوْلَادَكُمْ فَتَنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾^(٢).

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين الصادقين؛ ناهياً إياهم عن ارتكاب خيانتين، كما هو شأن المنافقين؛ يخونون الله، ويخونون رسول الله، ويخونون المؤمنين، فعنه الله تعالى المؤمنين عن هذه الفعلة القبيحة والخسلة الشنيعة، ففيه عبرة لمنافقي هذا الزمان، الذين يخدمون أعداء الدين والملة والأوطان، مع كونهم أمراء في بلاد الإسلام .

وطالعوا يا أيها المؤمنون قصّة أبي لُبابة^(٣) واعتبروا بها .

وقد ذكروا في نزول الآية أسبأباً، ومهما يكن سبب النزول؛ فالآية

(١) آل عمران: ٨ .

(٢) الأنفال: ٢٧ - ٢٨ .

(٣) انظر: «أسباب النزول» (ص ٢٩٦) للواحدي، و«الدر المنثور» (٤ / ٤٨)، و«تفسير الطبري» (١٣ / ٤٨١)، و«الإصابة» (٤ / ١٦٧)، وما سياتي (ص ١٩٩) .

عامة^(١)، تشمل كلَّ خيانة، ولذلك فسَّرَ عبدُ الله بنُ عباسٍ^(٢) رضيَ الله تعالى عنهما خيانةَ الله بتركِ فرائضه وارتكابِ معصيته، والأمانة بكلِّ ما اتَّصَلَ اللهُ عليه العبادُ بأنَّ يَنْقُضُها.

فيا أيُّها المؤمنون! لا تخُونُوا اللهَ تعالى بتعطيلِ فرائضه، أو تعديهِ حدوده، وانتهاكِ محارِمِهِ التي بيَّنها لكم في كتابه، ولا تخُونُوا الرُّسُولَ بالرَّغْبَةِ عَنْ بَيَانِهِ لكتابِ الله تعالى إلى أهوائِكُمْ أو آراءِ مشايِخِكُمْ أو آبائِكُمْ، أو المخالفةِ عَنْ أَمْرِهِ إلى أوامرِ أمرائِكُمْ وتركِ سنَّتِهِ إلى سُنَّةِ أوليائِكُمْ؛ بناءً على زعمِكُمْ أَنَّهُمْ أَعْلَمُ بِمرادِ الله ورسوله منكم، ولا تخُونُوا أماناتِكُمْ فيما بينكم وبين أوليائِ أمورِكُمْ مِنْ الشُّؤُونِ السِّيَاسِيَةِ، وَسُلُطَا الحَرَبِيَّةِ، وفيما بينكم وبعضِكُمْ مع بعضٍ مِنْ المعاملاتِ الماليَّةِ وغيرها، حتى الاجتماعيَّةِ والأدبيَّةِ؛ فقد وردَ في الحديثِ: «المجالِسُ بالأمانةِ إِلَّا ثلاثةَ مجالِسَ: سَفَكُ دَمٍ حَرَامٍ، أو فَرْجٍ حَرَامٍ، أو اقْتِطَاعُ مَالٍ بِغَيْرِ حَقٍّ»، رواه أبو داود والترمذي وأحمد^(٣).

وفي حديث جابر رضيَ الله عنه: «إذا حَدَّثَ الرَّجُلُ بِحَدِيثٍ ثُمَّ التَفَتَ؛

(١) قال ابنُ كثيرٍ في «تفسيره» (٢ / ٤٧٤): «والصحيح أنَّ الآيةَ عامَّةٌ، وإنَّ صَحَّ أَنُهَا وردت على سببٍ خاصٍّ، فالأخذُ بعمومِ اللفظِ لا بخصوصِ السببِ عندَ الجماهيرِ مِنَ العلماءِ، والخيانةُ تَعْمُ الذُّنُوبَ الصَّغَارَ وَالْكِبَارَ، اللَّائِزَةَ بِالتَّعَدِيَةِ.

(٢) أخرجه ابنُ جريرٍ (١٣ / ٤٨١)، وأوردَه السيوطيُّ في «الدرر» (٤ / ٤٩) وزادَ نِسْبَتَهُ لِابْنِ الْمُنْذَرِ وَابْنِ أَبِي حَاتِمٍ.

(٣) رواه: أبو داود (٤٨٦٩)، وأحمد (٣ / ٣٤٢ - ٣٤٣)؛ مِنْ طَرِيقِ ابْنِ أَبِي جَابِرٍ عَنْ جَابِرٍ. وَفِي سَنَدِهِ جِهَالَةٌ.

وعزَّزَ الْمُصَنِّفُ الْحَدِيثَ لِلتِّرْمِذِيِّ وَهَمَّ، فَانْظُرْ «جامعَ الأصول» (٦ / ٥٤٥).

وقوله ﷺ: «المجالِسُ بالأمانةِ» له شواهدٌ وطُرُقٌ تَحَسُّهُ.

فَهُوَ أَمَانَةٌ^(١).

فإنْشَاءَ السَّرِّ خِيَانَةً مُحَرَّمَةً، وَاتَّكَدَ الْأَمَانَاتِ السَّرَّ، وَأَحَقُّهَا بِالْحِفْظِ مَا يَكُونُ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ، وَالْخِيَانَةُ مِنْ صِفَاتِ الْمُنَافِقِينَ، وَالْأَمَانَةُ مِنْ صِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ.

وقد قالَ رسولُ الله ﷺ: «لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ، وَلَا دِينَ لِمَنْ لَا عَهْدَ لَهُ»^(٢)، رواه أحمدُ وابنُ جَبْرِ.

وفي الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»^(٣) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أَيُّهُ الْمُنَافِقُ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا أَوْثَمَنَ خَانَ»، وَزَادَ مُسْلِمٌ: «وَأَنْ صَامَ وَصَلَّى وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ».

فكُلُّ مَا يَجِبُ حِفْظُهُ فَهُوَ أَمَانَةٌ، وَكُلُّ حَقٍّ مَادِيٍّ أَوْ مَعْنَوِيٍّ يَجِبُ عَلَيْكَ أَدَاؤُهُ إِلَى أَهْلِهِ فَهُوَ أَمَانَةٌ.

إِنَّ الْأَمَانَةَ مِنَ الصِّفَاتِ الدِّينِيَّةِ الَّتِي قَامَ عَلَيْهَا بِنَاءُ الدِّينِيَّةِ، وَبِهَا خُفِظَ الْعِمْرَانُ وَالْإِصْلَاحُ لِحَالِ الْأُمَّةِ، وَلَا بَقَاءَ لِلدُّلَةِ بِدُونِهَا؛ لِأَنَّ عَلَيْهَا مَدَارَ الثِّقَةِ فِي جَمِيعِ الْحَالَاتِ.

قَوْلُهُ: «وَأَنْتُمْ تُتْلَمَسُونَ»؛ أَي: وَالْحَالُ أَنَّكُمْ تَعْلَمُونَ مَفَاسِدَ الْخِيَانَةِ،

(١) أخرجه: أبو داود (٤٨٦٨)، والترمذي (١٩٥٩)، وأحمد (٣ / ٣٢٤ - ٣٥٣)، ٣٧٩ - ٣٨٠، (٣٩٤)؛ مِنْ طَرِيقَيْنِ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَطَاءٍ عَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ جَابِرٍ عَنْ جَابِرٍ.

وسندهُ جَيِّدٌ؛ لِحَالِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، فَقَدْ قَالَ فِيهِ الْحَافِظُ: «صَدُوقٌ فِي لَيْسَ».

(٢) حديثٌ حَسَنٌ، خُرِّجَتْهُ فِي تَلْفِيظِهِ عَلَى الْفَارَقِ بَيْنَ الْمُصَنَّفِ وَالسَّارِقِ (ص ٦٧) لِلسَّيُوطِيِّ.

(٣) رواه: البخاري (١ / ٨٣)، ومسلم (٥٩).

وتحريم الله تعالى إياها، وسوء عاقبة تلك المفايد في الدنيا والآخرة، أو تعلمون أن ما فعلتموه خيانة؛ لظهوره، وأما ما خفي عنكم حكمه؛ فالجهل به عند إذا لم يكن مما علم من الدين بالضرورة؛ كفعلة أبي لبابة التي كانت هفوة سببها الحرص على المال والولد، وسنذكر القصة في آخر الباب إن شاء الله تعالى.

ولما كان حب الأموال والأولاد مردياً في الخيانة؛ أعلمنا الله تعالى به عقب النهي عنها، فقال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾، الفتنه: هي الاختيار والامتحان بما يشق على النفس فعله أو تركه أو قبوله أو إنكاره، فتكون في الاعتقاد والأقوال والأعمال؛ يمتحن الله تعالى المؤمنين والكافرين والصادقين، ويحاسبهم ويجازيهم بما يترتب على فتنهم من اتباع الحق أو الباطل، وعمل الخير أو الشر.

وفتنه الأموال والأولاد عظيمة، لا تخفى على ذي فهم وعقل، فالواجب على المؤمن اتقاء خطر الفتنه في الأموال؛ بكسبها من الحلال، وإنفاقها في سبيل الله، واتقاء الحرام في الكسب والإنفاق، واتقاء خطر الفتنه الثانيه في الأولاد بما أوجب الله تعالى على الوالدين من حسن تربية الأولاد على الدين والفضائل، وتجنبهم أسباب المعاصي والردائل.

﴿والله عندة أجر عظيم﴾، وهذا تذكير من الله للمؤمنين بما يعينهم على ما يجب عليهم من اتقاء الفتنين، وهو إظهار ما عند الله سبحانه من الأجر العظيم لمن راعى أحكام دينه وشرعه في الأموال والأولاد، ووقف عند حدوده. فيا أيها المؤمنون! خافوا من الله ربكم، ولا تخونوا الأمانات، بل توبوا إلى

الله توبة نصوحاً.

ولكن؛ من الأسف أننا نشاهد كثيراً ممن يدعون الإيمان يخونون الله ورسوله في انتهاك حُرُمَاتِ دينهم من الشُرَكَائِ، ودعاء الأرواح والأموال، والاستغناء بهم، ومن الفواحش والفجور، ويخونون أمتهم ودينتهم بمن قليل أو كثير من المال يرجونه أو يبالغونه في عدوهم، وقد يكون من مال أمتهم وغنائم وطنهم، أو خوفاً على مالهم وليلهم.

وقد أسقطت الخيانة دولة كانت أعظم الدول في الأرض قوة وبأساً؛ بارتكاب رجالها الرشوة والخيانة من أهلها ومن الأجانب، حتى مُسِخَتْ من الدين إلى اللادينية، فصارت دولة صغيرة فقيرة، ألا وهي تركيا اللادينية، ولكن الخلف المغرور لذلك السلف المخرب يدعون أننا أسقطنا تعاليم الإسلام القويمة؛ لأنها صارت قديمة!!

والله العظيم؛ إنهم لو أقاموا واجباً واحداً أو أدباً واحداً من آداب القرآن؛ لكان كافياً لوقايتهم من الزوال، وإنما سبب كل هذه الأمور الجهل بمعاني القرآن كما لا يخفى، فصاروا من المحرومين.

وأما قصة أبي لبابة رضي الله عنه كما ذكرها ابن كثير في «تفسيره» وكذا البغوي^(١) وعائمه المفسرين^(٢)، فقد روى عبد الرزاق وأبو قتادة الكلبي والزهري أن هذه الآية نزلت في شأن أبي لبابة هارون بن عبد المنذر الأنصاري، وذلك

(١) في «معالم التنزيل» (٢/ ٦١٩).

(٢) انظر ما سبق تعليقا (ص ١٩٥).

وأزيد هنا أن المروي فيه كله مراسيل ومعاويل، فانظر الفتح الساوي، (٢/ ٦٥٥).

والتعليق عليه.

«أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حَاصِرَ يَهُودَ بَنِي قُرَيْظَةَ إِحْدَى وَعَشْرِينَ لَيْلَةً، فَسَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ الصَّلَاحَ عَلَى مَا صَالَحَ عَلَيْهِ إِخْوَانُهُمْ مِنْ بَنِي النُّصَيْرِ عَلَى أَنْ يَسِيرُوا إِلَى إِخْوَانِهِمْ إِلَى أُدْرَعَاتٍ وَأَرْبَاحٍ مِنْ أَرْضِ الشَّامِ، فَأَبَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَعْطِيَهُمْ ذَلِكَ؛ إِلَّا أَنْ يَنْزِلُوا عَلَى حُكْمِ سَعْدِ بْنِ عَدَاةٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَأَبَوْا، وَقَالُوا: أَرْسِلْ إِلَيْنَا أَبَا لُبَابَةَ بْنَ عَبْدِ الْمُنْذِرِ، وَكَانَ مَنَاصِحًا لَهُمْ؛ لِأَنَّ مَالَهُ وَوَلَدَهُ وَعِيَالَهُ كَانَتْ عَنْدهُمْ، فَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَالُوا: يَا أَبَا لُبَابَةَ! مَا تَرَى؟ أَتَنْزِلُ عَلَى حُكْمِ سَعْدِ بْنِ عَدَاةٍ، فَأَشَارَ أَبُو لُبَابَةَ بِيَدِهِ عَلَى حَلْفِهِ، أَنَّهُ الذَّبِيحُ، فَلَا تَفْعَلُوا. قَالَ أَبُو لُبَابَةَ: وَاللَّهِ مَا زِلْتُ قَدْ مَاتِي مِنْ مَكَانِهِمَا حَتَّى عَرَفْتُ أَنِّي قَدْ خُتَّتِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ. ثُمَّ انْطَلَقَ عَلَى وَجْهِهِ، وَلَمْ يَأْتِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَدَخَلَ الْمَسْجِدَ، وَشَدَّ نَفْسَهُ عَلَى سَارِيَةٍ مِنْ سُورِي الْمَسْجِدِ، وَقَالَ: وَاللَّهِ لَا أَبْرَحُ وَلَا أَذْوقُ طَعَامًا وَلَا شَرَابًا حَتَّى أَمُوتَ أَوْ يَتَوَبَّ اللَّهُ عَلَيَّ. فَلَمَّا بَلَغَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَبْرَهُ، قَالَ: أَمَا لَوْ جِئْتَنِي لَاسْتَفْغَرْتُ لَهُ، فَأَمَّا إِذَا فَعَلَ مَا فَعَلَ؛ فَإِنِّي لَا أَطْلُقُهُ حَتَّى يَتَوَبَّ اللَّهُ عَلَيْهِ. فَمَكَثَ سَبْعَةَ أَيَّامٍ لَا يَذُوقُ فِيهَا طَعَامًا وَلَا شَرَابًا، حَتَّى خَرَّ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ، ثُمَّ نَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ، فَقِيلَ لَهُ: يَا أَبَا لُبَابَةَ! قَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَيْكَ. فَقَالَ: لَا وَاللَّهِ! لَا أَجُلُ نَفْسِي حَتَّى يَكُونَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ هُوَ الَّذِي يَحُلِّيَ بِيَدِهِ. فَجَاءَ، فَحَلَّاهُ بِيَدِهِ، ثُمَّ قَالَ أَبُو لُبَابَةَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنْ مِنْ تَمَامِ تَوْبَتِي أَنْ أَهْجَرَ دَارَ قَوْمِي الَّتِي أَصَبْتُ فِيهَا الذَّنْبَ، وَأَنْ أَتَخَلَّجَ مِنْ مَالِي كُلِّهِ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: يَجْزِيكَ الثَّلْثُ، فَتَصَدَّقْ بِهِ».

وتصدق الآية أيضاً على قصة حاطب بن أبي بلتعة^(١).

(١) وهو غير ثعلبة بن حاطب الذي رُوي فيه روايات فيها نفاقه (١) وخيانه (١)

وَأَمَّا صَدْرُ مَنُهَا هَاتَانِ الْخِيَانَتَانِ؛ حَبًّا لِلْمَالِ وَالْأَوْلَادِ.

وعن هذا قال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾.

وقد روي عن عائشة رضي الله عنها: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَتَى بِصَبِيٍّ فَقَبَّلَهُ، وَقَالَ: «أَمَا إِنَّهُمْ مَبْتَلَةٌ مُجْتَنَبَةٌ، وَإِنَّهُمْ لَيَمُنَّ رِجَالُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»^(١).

وبالجملة، وإن روي في السبب قصصاً؛ فالصحيح أَنَّ الآية عامة؛ لأنه يُؤخَذُ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب عند أهل الحق، والخيانة تعم الصغار والكبار واللازمة والمتعدية^(٢)، وأهم ما يتعلّق بالمملكة، وحفظ الوطن، وصيانة كيان الإسلام والمسلمين، وأهم منها ما يتعلّق بالدين والإيمان؛ كإدخال الشرك والوثنية في الدين باسم التصوف، وباسم الولاية، وباسم الحال = وكلها لا تصح ولا تثبت. وأما قصة حاطب؛ فستأتي عند المصنف (ص ٢٩١).

(١) رواه البهقي في «شرح السنة» (٣٤٤٨) من طريق يحيى بن يحيى عن ابن لهيعة عن الأسود عن عروة عن عائشة. وسنده ضعيف؛ لحال ابن لهيعة، فالراوي عنه إنما لقّبه بعد اختلاطه وإحراق كنبه. وله شاهد، أخرجه: أحمد (٦ / ٤٠٩)، والترمذي (٦٩١١) من طريق ابن أبي شويبة عن عمر بن عبد العزيز عن خولة بنت حكيم. وابن أبي شويبة - واسمه محمد - وثقه ابن حبان، ولم يرو عنه إلا اثنان. ولا يُعرف سماعاً لعمر بن عبد العزيز من خولة. فلعن الله شاة الله يتقوى به.

وأورد السيوطي في «الجامع الصغير» القطعة الثانية من الحديث «الولد من ریحان الجنة، فأودعه شيخنا في «ضعيفه» (٦١٦٦). أما القطعة الأولى؛ فلها شواهد عدة، فانظر «المجمع» (١٥٥/٨)، وما سيأتي (ص ٣١٠).

(٢) من كلام ابن كثير؛ كما سبق نقله عنه.

ورجال الغيب، فتنبه.

الآية الثامنة والأربعون فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ تَقْوَى اللَّهِ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (١).

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين؛ منبهاً إياهم، وموصياً بهم: أَنْ يَقْوَى اللَّهُ فِي كُلِّ مَا يَجِبُ أَنْ يَقْوَى بمقتضى دينه وشرعه، وبمقتضى سنته في نظام خلقه؛ يجعل لكم بمقتضى هذه التقوى مَلَكَ مِنَ الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ، تُفَرِّقُونَ بها بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وتفصلون بَيْنَ الضَّارِّ وَالنَّافِعِ، وتميزون بَيْنَ النُّورِ وَالظُّلْمَةِ، وتزيلون بَيْنَ الْحَقِّ وَالشَّيْءِ، ويحصل لكم نُورُ الْبَصِيرَةِ الَّذِي يَفَرِّقُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وهو الفَرْقَانُ الْحَكْمِيُّ الْعِلْمِيُّ، والفَرْقَانُ الْعَمَلِيُّ الَّذِي هُوَ ثَمَرَةُ الْعِلْمِيِّ، ولهذا النور لا يحصل ولا يصل إليه طَالِبُهُ إِلَّا بِالتَّقْوَى.

وقد أمر الله تعالى بالتقوى في مواضع من كتابه، بإتقائه، وإتقائه النار، وإتقائه الشرك والمعاصي، وإتقائه الفتن العامة في الدول والأمم، وإتقائه القتل والخذلان في الحرب، وإتقائه ظلم النساء، وبَيَّنَّ أَنَّ الْعَاقِبَةَ فِي إِرْثِ الْأَرْضِ لِلْمُتَّقِينَ؛ كَمَا أَنَّ أَرْضَ الْجَنَّةِ فِي الْآخِرَةِ لِلْمُتَّقِينَ، والتقوى أجرتها كثير، وعاقبتها حميدة، والتقوى حصولها موقوف على العلم الواسع بمعاني الكتاب والسنة، وكما هذا يتوقف على معرفة سنن الله تعالى في: نَسَانٍ مُفْرَدًا ومجتمعاً؛ كما أرشد الله تعالى في آيات كثيرة من كتابه.

ولكن؛ لما دخل الأعاجم في الإسلام، وغلبوا على أمور المسلمين؛

(١) الأنفال: ٢٩.

كأبي مسلم الخُرَاسَانِي^(١) وأمثاله، وهم جاهلون بمعاني كلام ربهم؛ خرجوا عن التقوى الواجبة، وهم لا يفرقون بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، فأدخلوا في الدين والإسلام ما ليس منه، فأفسدوا السياسة، وفرقوا بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، وجعلوهم مذاهب وفرقاً، وصاروا سبباً لضعفهم وزوال ملكهم وقولهم.

فيا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ اتَّقُوا اللَّهَ، وتوبوا إليه، وارجعوا عما أنتم عليه من الشُّرُكِيَّاتِ وَالْجَهَالَاتِ وَالتُّرُثَاتِ وَالتَّمَعُّبَاتِ؛ لِيَكْفِرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمُ الْمَاضِيَةَ، ويغفر لكم، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ، فَإِنَّ تَبَتُّمْ؛ تَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ، ويوفِّقكم ويعطيكم السعادة والدولة في الدنيا والآخرة.

الآية التاسعة والأربعون فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُرُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (٢).

قد نادى الله تعالى، وخاطب عباده المؤمنين؛ أمراً إياهم بالشوَبِ عند لقاء العدو، وإكثار ذكر الله تعالى قلباً ولساناً، ولا شك أَنَّ الثَّباتَ يَفِيدُ فِي كُلِّ أَعْمَالِ الْبَشَرِ، فهو وسيلة النجاح في كل شيء.

فأَثْبُرُوا من ذكر الله في أثناء القتال وتضاعفه؛ اذْكُرُوهُ في قُلُوبِكُمْ؛ بِذِكْرِ قُدْرَتِهِ وَوَعْدِهِ بِنَصْرِ رُسُلِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَكُلِّ مَنْ يَتَّبِعُ سُنَّتَهُمُ بِنَصْرِ دِينِهِ وَإِقَامَةِ سُنَّتِهِ، ويذكر نهيهم لكم عن اليأس مهما اشتدَّ الْيَأْسُ، وبأنَّ النَّصْرَ بيده ومن عنده؛

(١) انظر ما سبق عن (ص ٥١ و ١٢٠).

(٢) الأنفال: ٤٥ - ٤٦.

يَنْصَرُّ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ، فَمَنْ ذَكَرَ هَذَا، وَتَأَمَّلَ فِيهِ؛ لَا تَهْوِلُهُ قُوَّةُ عَدُوِّهِ وَاسْتَعْدَادُهُ؛ إِيمَانَهُ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَقْوَى مِنْهُ.

وَاذْكُرُوهُ أَيْضاً بِالسَّبِّحَةِ؛ مُوَافَقَةً لِقُلُوبِكُمْ؛ بِمَثَلِ التَّكْبِيرِ الَّذِي تَصْعَرُونَ بِمِلَاحِظَةِ مَعْنَاهُ كُلِّ مَا عَدَّاهُ، وَالِدَعَاءِ وَالتَّضَرُّعِ إِلَيْهِ عَزَّ وَجَلَّ مَعَ الْيَقِينِ بِأَنَّهُ لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ ﴿لَعَلَّكُمْ تَقْلِحُونَ﴾.

فَهَذَا الْفَلَاحُ وَهَذَا الرَّجَاءُ مُنَوِّطٌ بِالْأَمْرَيْنِ كُلِّهِمَا؛ أَيُّ الثَّباتِ وَذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى، هُمَا السَّبَبَانِ الْمَعْنَوِيَانِ لِلْفَلَاحِ وَالْفَوْزِ فِي الْقِتَالِ فِي الدُّنْيَا، ثُمَّ فِي نَيْلِ الثَّوَابِ فِي الْآخِرَةِ، وَكَانَ جُنُودُ الْمُسْلِمِينَ حِينَمَا كَانُوا يَسْمَعُونَ الْأَذَانَ فِي مِيدَانِ الْقِتَالِ يَكُونُ بَشِيحَ عَالٍ، وَيَكْرَهُونَ عَلَى الْأَعْدَاءِ الْكُفَّارِ، فَكَانُوا يُنْصَرُونَ.

وَلَا شَكَّ أَنَّ تَأْثِيرَ الْإِيمَانِ فِي قُلُوبِ الشَّعْبِ الْإِسْلَامِيِّ يَنْفَعُ إِلَى أَعْمَاقِ الْقُلُوبِ بِاسْتِحْصَانِ الْمَوْتِ فِي سَبِيلِ الدِّفَاعِ عَنِ الدِّينِ وَعَنِ الْوَطَنِ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ أَمَلٌ فِي الْمَكَافَأَةِ، وَهَذَا هُوَ الشُّعُورُ الْإِيمَانِيُّ، وَالْوَجْدَانُ الْإِسْلَامِيُّ.

وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْإِكْتِسَارِ مِنْ ذِكْرِهِ، وَحُثِّمَ عَلَيْهِ، وَوَصَفَ الصَّادِقِينَ فِيهِ بِأَيَّاتٍ أُخْرَى كَمَا وَصَفَ الْمُتَنَافِقِينَ بِقُلْتِهِ؛ لِأَنَّ الذِّكْرَ غَذَاءُ الْإِيمَانِ، فَلَا يَكْمُلُ إِلَّا بِكَثْرَتِهِ، فَمَنْ غَفَلَ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى؛ اسْتَحْوَذَ الشَّيْطَانُ عَلَى قَلْبِهِ، وَزَيَّنَ لَهُ الشَّرَّ وَالْمَعَاصِي.

فَيَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ! أَطِيعُوا اللَّهَ رَيْكُم فِي هَذِهِ الْأُمُورِ الْمُرَشِدَةِ إِلَى أَسْبَابِ الْفَلَاحِ فِي الْقِتَالِ وَغَيْرِهِ، وَأَطِيعُوا رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ فِيمَا بَأَمَرُ بِهِ وَيَنْهَى عَنْهُ مِنْ شُؤْنِ الْقِتَالِ وَغَيْرِهَا؛ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ ﷺ هُوَ الْمُبَيِّنُ لِكَلَامِ اللَّهِ الَّذِي أَنْزَلَهُ إِلَيْهِ عَلَى مَا يَرِيدُهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْهُ، وَالْمُنْفَعُ لَهُ بِالْقَوْلِ وَالْعَمَلِ وَالْحُكْمِ.

﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾: هَذَا النَّهْيُ مَسْقُوقٌ لِلْأَمْرِ بِالثَّباتِ وَكَثْرَةِ الذِّكْرِ وَطَاعَةِ اللَّهِ وَالرَّسُولِ، وَمَتَّعٌ لِلْفَرَضِ مِنْهُ، فَإِنَّ الْاِخْتِلَافَ وَالتَّنَازُعَ مِدْعَاةُ الْفَشْلِ، وَهُوَ الْخِيَّةُ وَالتَّكُونُ عَنْ إِمْضَاءِ الْأَمْرِ، وَتَذْهَبُ رِيحُكُمْ وَقُوَّتُكُمْ فَيُظْهِرُ عَدُوَّتَكُمْ عَلَيْكُمْ.

﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾: بِالْمَعُونَةِ وَالتَّأْيِيدِ، وَمِنْ كَانَ اللَّهُ مَعَهُ؛ فَلَا يَغْلِبُهُ شَيْءٌ.

فَيَا أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ! كُونُوا مُؤْمِنِينَ عَامِلِينَ بِهَذِهِ الْإِرْشَادَاتِ الرَّبَّانِيَّةِ، وَلَا تَغْتَرُّوا بِسَفَايِفِ الْفَلَسَافَةِ وَتُرْهَاتِ الْمَلَاحِدَةِ، وَاجْتَهِدُوا فِي الْعَمَلِ بِالْأُمُورِ الْإِلَهِيَّةِ، وَكُونُوا صَابِرِينَ عَلَيْهَا، حَتَّى تَنَالُوا الدَّرَجَاتِ الْعُلَى فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وَالْمُسْلِمُونَ مَنْذُ تَنَازَعُوا وَاخْتَلَفُوا وَصَارُوا مَذَاهِبَ وَطُرُقًا يَتَعَصَّبُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ؛ صَارُوا يُعَادِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَيَضَلُّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، قَدْ ذَهَبَتْ رِيحُهُمْ، وَتَلَاثَتْ قُوَّتُهُمْ، وَصَارُوا طُعْمَةً لِكَلَابِ الْإِنْكَلِيرِ، وَخَنَازِيرِ الرُّوسِ الْبِلَاشَقَةِ، وَذَنَابِ الطَّيْلَانِ وَالْفَرَنْسِيِّسِ، وَلَكِنَّ الْعَجَبَ أَنَّهُمْ لَا يَتَنَبَّهُونَ، وَعَنْ سَكْرَتِهِمْ لَا يَفْقَهُونَ، بَلْ فِي غَيْبِهِمْ وَطُغْيَانِهِمْ يَمَهِّمُونَهُمْ، قَدْ أَعْمَاهُمُ الْجَهْلُ، وَأَصْلَمَهُمُ الْفَكْرُ الْفَاسِدُ وَالْخَيَالُ الْكَاسِدُ.

فَيَا أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ! اتَّكِرُوا الْمَذَاهِبَ الْمُبْتَدَعَةَ وَالطُّرُقَ الْوُثْنِيَّةَ كُلَّيًّا، وَاكْتَفُوا كُلَّكُمْ جَمِيعًا بِالتَّوْحِيدِ بِمَذْهَبِ الْإِمَامِ الْأَعْظَمِ عَلَى الْإِطْلَاقِ بِالْإِتِّفَاقِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَقِيدَةً وَعَمَلًا، فَحِينَئِذٍ تَجِدُونُ وَتَتَّقُونَ، وَتَفُوزُونَ وَتَسْعُدُونَ وَتَقْوُونَ وَتَنْصَرُونَ وَتُؤَيِّدُونَ بِالنَّصْرِ الْإِلَهِيِّ، وَهَذَا هُوَ الْحَقُّ، وَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ؟

الآية الخمسون في سورة التوبة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَاُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾^(١).

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين؛ ناهياً إياهم عن اتخاذ الآباء والإخوان الكافرين أولياء إن هم أصروا على كفرهم، وأثروا على الإيمان؛ لأن باختلاف الدين تنقطع العلاقة، فلا ينبغي للمؤمن أن يوصل هذه العلاقة المقطوعة، والكافر من حيث إنه كافر لا يحب المؤمن من حيث إنه مؤمن، فهذا؛ إذا تولى وأحب العبد المؤمن الكافر - ولو أباه أو أخاه - فقد ظلم نفسه بوضع الحب في غير موضعه، والمؤمن يحب الله ورسوله أشد من حبه نفسه؛ فضلاً عن حب أبيه وأخيه، فهذا يجاهد في الله، ويقاتل، ولو مع أبيه وأخيه وأقربائه الكافرين.

فمن ترك الجهاد في سبيل الله لأجل رعاية آباءه وأبنائه وإخوانه وأزواجه وعشيرته، أو لأجل حفظ أمواله وأملأكه وتجارته وكسبه، أو مساكنه العالية وقصوره الفاخرة وسانيته الزاهرة، وقم حُب هذه الأشياء على حُب الله ورسوله وجهاد في سبيله؛ فليترصوا وليتظروا حتى يأتي الله بامرهم، وهذا وعيد لهم؛ لتذهب أنفسهم فيه كل مذهب.

ولا شك أن الذين يؤثرون حُب أهلهم وأموالهم على حُب الله ورسوله وجهاد في سبيله منافقون، ولا يصدر هذا إلا عن المنافقين، ولا ريب أن الذين اتصفوا بتلك الصفات غير تائي الإيمان أو غير صحيحه، ومن أتر حُب هذه

(١) التوبة: ٢٣.

الأشياء على حُب الله ورسوله وجهاد في سبيله؛ فهو من المحرومين من الصلاح والإصلاح، والفوز بسعادة الدارين، والحاصل من حُب الله ورسوله والجهاد في سبيله، وبه يحصل الولاء والاتحاد بين المؤمنين، فتزول خرافات الشرك ومفاسده، ويقام الحق والعدل؛ كما لا يخفى.

فيا أيها المؤمنون! ارجعوا إلى حُب ربكم، واجتهدوا في فهم كلامه وخطابه؛ لأنه خاطبكم وأمركم ونهاكم، فلا تكفروا هذه النعمة العظمى والدولة الكبرى، ولا تضيعوا أعماركم وأنفاسكم بسفاسيف الهوى وترهات الآراء، وتخلوا حظكم من نعم ربكم، ولا تكونوا من المحرومين والمردودين الخابرين، فلا ينفقكم آباؤكم ولا أبنائكم، ولا أموالكم وبجائكم، ولا ساداتكم وشيوخكم، ولا مذهبكم وطريقكم، ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾^(٢)؛ أي: سليم من الشرك، وسليم من الكفر، وسليم من النفاق، وسليم من الشك، وسليم من الزندقة، وسليم من الرياء.

اللهم ارزقنا قلباً سليماً، وإيماناً ثابتاً، وتوحيداً خالصاً، ولساناً ذاكرًا أمين.

الآية الحادية والخمسون في سورة التوبة أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ حَفِظْتُمْ عِيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾^(٣).

(١) الشعراء: ٨٨ - ٨٩.

(٢) التوبة: ٢٨.

قد نادى الله تعالى وخاطب المؤمنين؛ مبنهاً إليهم بأن المشركين أنجاس، فلا تركوهم يقربون المسجد الحرام ويؤمن فيه.

ولفظ النجس إذا وُصف به الإنسان؛ فالمراد به أنه شَريرٌ حيث النفس، وإن كان طاهرَ البدن والثوب حسناً، في المثل: الناس أنجاس، وأكثرهم أنجاس، نجستهم الذنوب، فلا ترى أنجس من المشرك والكافر.

فمعنى الآية: يا أيها المؤمنون! اعلما أن المشركين ليسوا كما تعلمون من ظاهر حالهم، بل هم أنجاس فاسدو الاعتقاد، يشركون بالله ما لا ينفع ولا يضُر، فيعبدون الرجس من الأوثان والأصنام، ويدبنون بالخرافات والأوهام، ولا ينتزهون عن النجاسات والآثام، ويأكلون الميتة والدم ولحم الخنزير، ويستحلون القمار والزنا من الأرجاس، وقد تمكّنت صفات النجس منهم حساً ومعنى حتى كأنهم عينه وحقيقته، فلا تمكّنوهم بعد هذا العام - عام تسعة من الهجرة، وثاني عام الفتح - أن يقربوا المسجد الحرام بدخول أرض الحرم؛ فضلاً عن دخول البيت نفسه، وطوافهم عراً فيه؛ يشركون بربههم في التلبية، وإذا صلّوا عند البيت لم تكن صلاتهم إلا مكاءً وتصدية^(١).

وقد روى مسلم^(٢) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «الأخريش اليهود والنصارى من جزيرة العرب؛ فلا أترك فيها إلا مسلماً». وفي رواية^(٣): «أخرجوا المشركين من جزيرة العرب».

(١) كما في سورة الأنفال: ٣٥.

(٢) برقم (١٧٦٧)، وهو عن عمر، لا عن ابنه.

(٣) وهي في: البخاري (٦ / ١١٨)، ومسلم (١٣٣٧)، عن ابن عباس.

ولم يتفرّع لذلك أبو بكر رضي الله عنه، وأجلّاهم عمر رضي الله عنه في خلافته، وأجلّ لمن يقم تاجراً ثلاثاً.

وعن ابن شهاب: أن رسول الله ﷺ قال: «لا يجتمع دينان في جزيرة العرب»، أخرجه مالك في «الموطأ»^(١).

لأن إقامتهم لا تخلو عن إيقاع فتنة، وإفساد عقيدة وأخلاق، وهذا ظاهر بين.

ويا أيها المؤمنون! إن خطر بآلكم أنكم إذا منعتم المشركين تنقطع عنكم الأرزاق، فتقعون في الضيق والفقر؛ فاعلموا أن الله الكريم الرزاق يغنيكم من فضله، وفضله تعالى كثير.

والمناقضون في كل عصر وزمان يلقون الشبهة في قلوب الناس، فحيث إن أكثر الناس ضعيفو الإيمان، يميلون إلى الكفار، ويعتمدون عليهم، ويرضون بدخولهم في أرض الحرمين؛ فهم يفسدون دينهم وعقيدتهم شيئاً فشيئاً؛ كما هو معروف في الشريف حسين وأحزابه^(٢).

إن الله تعالى عليهم بحقائق الأمور، وما في الصدور، وحاجات عباده،

(١) (٢ / ٨٩٢ و ٨٩٣) مرسلاً.

ووصله جماعة من طرق عدة؛ كما تراه في: «نصب الراية» (٣ / ٤٥٣)، و«التلخيص الحبير» (٤ / ١٢٤)، وهو حديث صحيح.

وزعم الشيخ عبد القادر الأناطولي تعليقه على «جامع الأصول» (٩ / ٣٤٣) أنه موصول في «الصحيحين» عن ابن عباس!! وليس كذلك، إنما ذلك حديث آخر، وهو: «أخرجوا المشركين من جزيرة العرب»؛ وسبق تخريجه.

(٢) انظر ما سبق (ص ١٥٠)، والتعليق عليه.

وحكيم فيما شرع في الأمر والنهي ، فأمِنُوا بالله ، وامتثلوا أمره صدقاً وإخلاصاً ؛
تَرَوْا فضلَ اللهِ داراً عليكم بتسخيرِ عبادِهِ لكم وتمهيدِ سبيلِ الْمَلِكِ وَالْمَلَكِ ،
وبسطِ الرِّزْقِ ، ويزيدكم نصراً وغنىً إذا وقِفْتُمْ بما شَرَطَهُ عليكم ؛ بمثلِ قوله :
﴿إِنْ تَتُصَرَّوْا لِلَّهِ تُنْصَرَوْا﴾ (١) .

اللَّهُمَّ اهْدِنَا فِيمَنْ هَدَيْتَ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ .

الآيةُ الثانيةُ والخمسونُ فيها أيضاً : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنْ
الْأَخْيَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَآكُلُوا أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ
يُكْثِرُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . يَوْمَ
يُخْشَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فُكُورٌ بِهَا بِيَاهُهَامْ وَجُثُوبُهُمْ وظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كُنْتُمْ
لَا تَنْفِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْثِرُونَ﴾ (٢) .

قد نادى اللهُ تعالى وخاطبَ عباده المؤمنين مِنهَا إِيَّاهُمْ بأنَّ كثيراً من
العلماء والعُباد والمُشايع والسادات ليأْكُلُوا أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ، ويمنعونهم
عن السلوك في سبيلِ الله وسبيلِ الحقِّ والطاعة .

وحيثُ إنَّ اليهودَ والنصارى اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ ،
ورفعوهم فوقَ قدرهم ، وافْتَنَ هؤلاءُ العلماءَ والعُبادَ واغْتَرَّوا ففسدوا ، فأَرَادَ اللهُ
تعالى أَنْ يُبَيِّنَ لَنَا شَيْئاً مِنْ سِرِّهِمْ هَؤُلَاءِ الرُّسُلُ الَّذِينَ يُبَيِّنُ الْعِلْمِيَّةَ وَالْعِلْمِيَّةَ
ليعرفَ المسلمونَ حقيقةَ حالهم ، والأسبابَ التي تحيلهم على محاولةِ الصَّدْعِ عن

(١) سورة محمد : ٧ .

(٢) التوبة : ٣٤ - ٣٥ .

سبيلِ الله تعالى ، وَأَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَعْبُدُونَ أَهْوَاءَهُمْ وشهواتِهِمْ .

واستعملَ أَكْلَ الْأَمْوَالِ بمعنى أخذِها والتصرفِ فيها بوجوه الانتفاع ،
واستنادَ هذه الجريمةِ الْمُزْنَةِ إلى الكثيرِ منهم دونَ جميعهم من دقاتي تحري
الحقِّ في عباراتِ الكتابِ العزيزِ ، فهو تعالى لا يحْكُمُ على الْأُمَّةِ الكبيرةِ بفسادِ
جميعِ أفرادِها أو فسيقهم أو ظليهم ، بل يسندُ ذلك إلى الكثيرِ أو للأكثرِ .

والمعنى العامُّ لآكلِ أموالِ الناسِ بالباطلِ هو أخذُها بغيرِ وجهٍ شرعيٍّ ،
فمنها ما يبذلُه كثيرٌ من الناسِ لِمَنْ يعتقدون أنَّه عابدٌ قانتٌ لله زاهدٌ في الدُّنيا ؛
ليدعروا لَهُمْ ويشفعَ لَهُمْ عندَ الله في قضاءِ حاجاتهم وشفاءِ مَرَضَاهُمْ ؛ لاعتقادِهِمْ
أَنَّ اللهَ تعالى يستجيبُ دعاءَهُ ولا يردُّ شفاعتَهُ .

الدُّعاءُ مشروعٌ دونَ أخذِ المالِ به أو عليه ، والرَّجاءُ باستجابتهِ حسنٌ ،
واعتقادهُ بالجزمِ جهلٌ ، أو لظنُّهم أَنَّ اللهَ تعالى أعطاهُ سلطاناً وتصرفاً في
الكونِ ، فهو يقضي الحاجاتِ مِنْ دَفْعِ الضَّرِّ عَنْ شَيْءٍ وَجَلْبِ الْخَيْرِ لِمَنْ يشاءُ
متى شاء ، وهذا هو اعتقادُ الوثنيينِ في أوثانِهِمْ ومعبوداتِهِمْ ، قد طرأت على أتباعِ
الأنبياءِ عليهم السَّلَامُ بدساتيس الدَّخِلِ فيهم ، وتأثُّلها لَهُمُ الرُّسُلُ الدِّينِيَّةُ
المضلوَّةُ ؛ بأنَّها لا تنافي التَّوْحِيدَ الذي جاء به الرُّسُلُ عليهم السَّلَامُ .

ومنها ما يأخذُه سَدَنَةُ قُبُورِ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ والمعابدِ التي بُنِيَتْ
بأسْمائِهِمْ مِنَ الهِدايا والتَّذوُّرِ التي يجعلُها إلى تلكِ الْأَمَكانِ أمثالَ مَنْ ذَكَرْنَا مَعْنً
لا يعقلونَ معنى التَّوْحِيدِ الخالصِ .

والتَّصَارِي يُبَيِّنُ الْكَانِثِينَ وَالْأَدِيَارَ بِأَسْمَاءِ الْقُدِّيسِينَ وَالْقُدِّيسَاتِ ، فَتُجَبِّسُ
عليها الْأَرْضِيَّةُ والمقارناتُ ، وتَقَدَّمُ لها التَّذَوُّرُ والهَدايا ؛ تَقَرُّباً إلى تلكِ الْأَسْمَاءِ

والمسئيات

وهذا وما قبله مما أتبع المسلمون فيه سنتهم شيراً بشير وذراعاً بذراع^(١)، ويدعون تلك الأسماء مع الله تارة، ومن دونه تارة، وتُنذرُ له وحده تارة، ومع الله تارة.

فهذه البدع الشريكة تبتدأ منها أديان الأنبياء الموحدة إليهم من الله عز وجل، والنقطة فيها كلها من الباطل، وأكلوها من رؤساء الذين وسدنة المعابد من الذين يأكلون أموال الناس بالباطل.

ومنها ما يأخذ بعض قسوس نصارى الكاثوليك جُعلاً على مغفرة الذنوب أو ثمناً لها، وكذا ما يأخذ دجاجة من يدعي الإسلام على بعض الثمائم، وذلك أنه إذا اشتراها الزاني أو الزانية بثمان كذا وعَلِّقَهُ على نفسه؛ يُغْفَرُ كل ذنوبه.

ومنها ما يأخذه العلماء الدُّجَالُونَ على فتاوى تحليل الحرام وتحريم الحلال، فأولوا المطامع والأهواء يفتنون الملوك والأمراء والأغنياء بما يُساعدهم على إرضاء شهواتهم والانتقام من أعدائهم بضروب من الحيل والتأويل.

ومنها الرشوة، وهو ما يأخذه صاحب السلطة الدينية أو المدنية - رسمية أو غير رسمية - من المال وغيره لأجل الحكم، أو المساعدة على إبطال حق أو إحقاق باطل.

(١) كما أشار إلى ذلك النبي ﷺ فيما صح عنه.

انظر الحديث الوارد في ذلك وتخريجه في وثنية الخميس، (ص ٢٠ - ٢١) للإمام الذهبي، بتحقيقي.

ومنها الرِّبَا، خصوصاً الفاحش منه، وهو فاش عند اليهود والنصارى، وقد تعامل بمعاملتهم بعض فقهاء المسلمين، وخصوصاً في بخارى وما وراء النهر؛ فإن أكثرهم يعلمون بالرِّبَا مع حلبيهم الشرعية الشرية الملعونة، وأكثر هؤلاء لا يُعطون الزكاة المفروضة، بل يأخذونها ويتعللون بعلم شيطانية وفتاوى إبليس؛ كأنهم خارجون عن خطاب ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾^(١).

ومنها قراءتهم القرآن لأجل المال، وإهداء ثوابها إلى روح من يريد المستأجر، وغيرها من الأمور التي لا تخفى على العالم بالدين؛ فإننا لله وإننا إليه راجعون.

وأما صدهم عن سبيل الله؛ فهو منهم الناس عن الإسلام؛ فإن سبيل الله في الدين هي طريق معرفته الصحيحة وعبادته القويمة التي ترضيه ورأس معرفته: التوحيد والتنزيه، وأما أكثر الأحيار والريبان؛ فمشركون غير موحدين، ومشبهون غير متزيهن؛ كما علم من الآيات السابقة. وأما عبادته القويمة؛ فهي أن يُعَدَّ وحده بما شرعه هو دون البشر، وهم قد غيروا وبدلوا وأخذوا. فمعرفة الله تعالى وعبادته على الوشيع الحق المرضي له تعالى محصورة في الإسلام الذي خفَّطَ الله تعالى بكتابه المنزل وما بينه من سنة نبيه المرسل محمد ﷺ.

وكل ما ابتدعه جهلة المسلمين والكاذبون له من غيرهم، فالقرآن الحكيم والسنة الصحيحة حجة على بطلانه، وحفاظ السنة وأصاها يُثَقِّنُون عنه تحريف الغالين، وإتجال المبطلين، وتأويل الجاهلين.

وأما طرق صدهم عن الإسلام والتوحيد الصحيح؛ فهي تختلف

(١) البقرة: ٤٣.

باختلاف الزمان والمكان والإمكان، وقد انفرد النصارى بالعناية بهذا الصِّدِّقَ طريقي السياسة والدعوة معاً، وقد أتى الله تعالى بصيغة المضارع الذي يدلُّ على الحال والاستقبال، وهم لا يقنعون بصدِّ أهل ملئهم عن الإسلام، بل يصدِّون أهله عنه، كما صدُّوا الأتراك الكماليين، ودعَّوهم إلى دينهم الملقَّى من الأديان الوثنيَّة والدُّهرية.

وقد اشتدَّت ضراوتهم بعد الحرب العالمة عام ١٩١٦م؛ بسلب البلاد الإسلاميَّة ما بقي من استقلالها، وتعميم النصرانية في جميع أهلها، حتى جزيرة العرب، وقد سَخَّروا بعض أمراء المسلمين المستعبدين وشيوخ الطرق والفقه المنافقين الدُّجاليين؛ لشدِّ أزرهم.

فماذا نقول بعد هذا من تسخيرنا زنادقتهم وملاجذتهم؟ وماذا يغيِّد المسلم من قراءة مثل هذه الآية ومن تفسير علماء الألفاظ والروايات لها إذا لم يعرف مضمونها التفصيلي العملي في عصره، ونسعى لتدارك خطيئته؟ فلا يكون القرآن إلا حجة عليه^(١).

وأشدُّ طريق الصدِّ عن الإسلام وأشرُّ وأضرُّ تعليم المدارس التي يُفسدون عقائد الشريعة الذي يتعلَّم وترى فيها، ولكن أكثر مسلمي زماننا لا يعقلون كُنه مفاسدها وسوء عاقبتها في الدين والأدب وسياسة الأمة واستقلالها.

ومن الصَّائدين عن الإسلام الصحيح والدين الحقِّ؛ شيوخ الطرق، وأصحاب الدُّجل، وسدنة المشاهد والقبور؛ فإنهم لانغرافهم في ظلمات

(١) تأملوا -رحمكم الله- هذا الكلام العظيم الصادر من عالمٍ عاملٍ كُتب قبل نحو خمسين عاماً، وكأنه يكتِّبه اليوم؛ ناظرًا أحوال المسلمين، مشاهدًا مأساتهم ويلاتهم!!

الشرك والجهل والغباء والترهات يصدِّون الناس عن الحقِّ، وعن التوحيد الصحيح، وعن العمل بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، والجهال يظنون فيهم الصلاح والدين والخير، والحال أنَّهم صاروا من شياطين الإنس؛ كما هو المشاهد في جميع أنحاء العالم الإسلامي، حتى في الحرمين، وهؤلاء العلماء والشيوخ والسادات وإن أعفوا أنَّهم ورثة الأنبياء، وقدة الأنام، ولكن لسان حالهم وشاهد فعلهم يترنم بهذا البيت:

وَكُنْتُ فَنِيَّ مِنْ جُنْدٍ إِبْلِيسَ فَارْتَقَى

بَيْنَ الْحَالِ حَتَّى صَارَ إِبْلِيسُ مِنْ جُنْدِي

أعاذنا الله تعالى من شرهم، ومن شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، ومن شرِّ كل ذي شرٍّ.

وإن هؤلاء الرؤساء السوء من العلماء والمشايخ الذين يجمعون الأموال ويكتزون الذهب والفضة والجواهر، وينتجون القصور؛ أخبر الله عنهم، فقال: ﴿وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾^(١).

مقتضى السياق أن تكون هذه الجملة في الكثير من الأحياء والرهبان الذين يأكلون أموال الناس بالباطل، ويصدِّون عن سبيل الله؛ كما نصَّ عليه معاوية رضي الله عنه^(٢).

فكلُّ من أنصف بهذه الصفة؛ فهو داخل في الوعيد من الأمم السابقة أو

(١) التوبة: ٣٤.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٢ / ٥٥٠).

من هذه الآية؛ كما قال أبوذر رضي الله عنه: «نزلت الآية فينا وفيهم جميعاً»^(١)، وهو الحق؛ لأن اللفظ مطلق فيجب جريانه على إطلاقه وعمومه.

ولا شك أن أكبر أسباب ضعف المسلمين وذهاب دولتهم، وتمكين أعدائهم من سلب ملكهم، ومحاولة تحويلهم عن دينهم: هو حرص علمائهم ومشايخهم على الدنيا، وبخل أغنيائهم، وتجنّب ملوكهم وأمرائهم وقوادهم وزعمائهم، وكونهم جاهلين بمعاني كلام ربهم، ولقد صدّق الذي قال: حبّ الدنيا رأس كل خطيئة^(٢).

فيا أيها المؤمنون! افهموا كلام ربكم، ومواعظ مولاكم، واعتبروا بما جرى وما يجري، واجتهدوا في إصلاح أنفسكم؛ ليتلوا رضى ربكم، فتفوزوا بسعادة الدنيا، وإلا تكونوا من المحرومين الخاسرين في الدارين؛ كما هو شأن أكثر المغرورين، فإننا لله وإنا إليه راجعون.

الآية الثالثة والخمسون فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ اتَّقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتَقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾^(٣).

(١) كما رواه البخاري (٣ / ٣١٧).

(٢) قال شيخ الإسلام ابن تيمية في «الفتاوى» (٢ / ١٩٦): «هذا معروف عن جندب بن عبدالله الجبلي، وأما عن النبي ﷺ؛ فليس له إسناده معروف». وانظر: «المقاصد الحسنة» (٣٨٤)، و«أحاديث القضاة» (٧٤)، و«تخريج الإحياء» (٣ / ١٩٧ و ٤٠١)، و«السلسلة الضعيفة» (١٢٣٦).

(٣) التوبة: ٣٨.

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين بالاستغفار الإنكارى والتوبخ، وإن كان سبب النزول في واقعة توبك، ولكن الخطاب عام لعامة المؤمنين أجمعين؛ تربية لهم، وتنبيهاً إياهم أن لا يقعدوا عن الجهاد؛ لأنّ القعود عن الجهاد من شأن المنافقين.

وحاصل المعنى: يا أيها الذين دخلوا في الإيمان وأنصفوا به! ماذا عرّض لكم ممّا يبني صحّة الإيمان أو كماله المُقضي للإدعان والطاعة حين قال لكم الرسول: اتقوا في سبيل الله؛ لقتال الروم الذين تجهّزوا لقتالكم، والقضاء على دينكم الحق، الذي هو السبيل الموصّل إلى معرفة الله وعبادته، وإقامة شرعه وسننه، فإنتم تناقلتم عن النّهوض بالنشاط وعلو الهمة؛ مُخلدين إلى أرض الراحة واللذة؟ والحال أن آية الإيمان بذلّ الجهد والمال والنفس في سبيل الله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾^(١).

أرضيتُم أيها المؤمنون بالحياة الدنيا من الآخرة؟ أي: براحة الحياة الفانية الدنيوية ولذتها الناقصة؛ بدلاً من سعادة الآخرة الكاملة الباقية الدائمة، إن كان الأمر كذلك؛ فقد استبدلتُم الذي هو أدنا وأدنى بالذي هو خير وأبقى؛ فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل؛ فلا يرضاه عاقل بدلاً منه، وإنما يؤثره عليه من لا يؤمن به.

وقد مضت سنة الله تعالى بأنّه لا بقاء للأمم التي تتناقل عن الدّفاع عن نفسها وحفظ حقيقتها وسيادتها.

(١) الحجرات: ١٥.

فيا أيها المؤمنون! استعملوا للدفاع والجهاد كما أمر الله تعالى الحكيم، ولا تعتمدوا على الأرواح الخاليات والأجساد الباليات، ولا قراءة «دلائل الخيرات»، أو جُزْب النصر والبحر، أو قراءة «صحح البخاري» بدون فهم ولا عمل بما فيه؛ فإنَّ كلَّها من دسائس شياطين الإنس؛ ليجعلكم محرومين من الدُّولتين والسُّعادتَيْن الدُّنيويَّة والأخرويَّة. فانتبهوا، وارجعوا إلى أصل دينكم وكلام ربِّكم وهداية رسوله الأمين سيِّدنا محمد خاتم النبيِّين ﷺ.

الآية الرابعة والخمسون فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ (١).

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين؛ أمراً بإياهم بأن يتقوه، ويكونوا مع الصادقين، وإِنَّمَا إمامُ الصَّادِقِينَ هو رسولُ الله ﷺ، فكونوا معه ملازمين لإيَّاهُ ومُتَّبِعِينَ أمره في غزواته وكلِّ حالاته، وفي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه: «وَكُونُوا مِنَ الصَّادِقِينَ» (٢).

وعلى أيِّ حال؛ أيُّها المؤمنون! اصدقوا، والزمو الصدق؛ تكونوا من أهله، وتنجوا من المهالك، ويجعل الله لَكُمْ فَرْجاً ومَخْرَجاً في كُلِّ أَمْرِكُمْ، ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ (٣).

(١) التوبة: ١١٩.

(٢) كما في «جامع البيان» (١١ / ٦٣) للإمام الطبري، وهي من الشواهد

(٣) الطلاق: ٢ - ٣.

وقد ثبت عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه؛ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «عليكم بالصدق؛ فإنَّ الصَّدْقَ يهدي إلى البرِّ، وإنَّ البرَّ يهدي إلى الجنة، ولا يزالُ الرُّجُلُ يصدقُ ويتحرى الصدقَ حتَّى يَكْتَبَ عندَ اللهِ صديقاً، وإياكم والكذب؛ فإنَّ الكذبَ يهدي إلى الفُجُورِ، وإنَّ الفُجُورَ يهدي إلى النَّارِ، ولا يزالُ الرُّجُلُ يكذبُ ويتحرى الكذبَ حتَّى يَكْتَبَ عندَ اللهِ كذَّاباً» رواه الشيخان وأصحابُ الشُّنن وأحمد (١).

والصَّادِقُونَ حقيقة هم الذين صدقت نياتهم، واستقامت قلوبهم وأعمالهم، وامتثلوا أمر ربِّهم عن صميم قلوبهم، والصادق هو الفالغ في الدَّارين، والكاذب هو الخاسر في الدَّارين، وساقط الاعتبار في الخافقين، وممحق البركة.

ولكنَّ الأسف أنَّ كثيراً من المسلمين، بل من هم على رُؤْيِ العلماء والأئمة والمدرِّسين، قد اتخذوا الكذب شعارهم، والنفاق دثارهم، لا يستحيون؛ لا من الله، ولا من بني نوعهم، حتَّى إنَّ الكفَّارَ يطعنون عليهم ويبهونهم.

فيا أيُّها المسلمون! أنتم المخاطبون المأمُورون بالتقوى والصَّدْق، فلماذا صرتم من المحرومين من هذه الصِّفة الكريمة، وصرتم أسارى النفس والشيطان والبهوى، ولوأنتم أنفستكم بصفات أهل الخبث والجفاء؟!

فأيقوا يا إخواني من سكرتكم، وتوبوا إلى الله جميعاً توبة نصوحاً، وكونوا

(١) رواه: البخاري في «صححه» (١٠ / ٤٢٣)، وفي «الأدب المفرد» (٣٨٦)

ومسلم (٦٠٦ / ٢٦٠٧)، وأبو داود (٤٩٨٩)، والترمذي (١٩٧٢)، وأحمد في «مسنده» (

٣٨٤ / ٣٩٣ و٤٠٥ و٤١)، وابن أبي شيبة (٨ / ٥٩٠)، وفي الفاضل تغاير خفيف.

الآية الخامسة والخمسون فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾^(١).

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين آمراً بإيَّامهم بقتال مَنْ يَلِيهِمْ مِنَ الْكُفَّارِ إِذَا غَدَرُوا أَوْ تَعَدَّوْا، وأمرأً أيضاً بأن يعاملوهم معاملة غليظة بالشدة والبطولة والشجاعة؛ دون الرُوعنة والجبن والكلل.

فيا أيُّها المؤمنون! قد أمر الله تعالى المؤمنين أَنْ يُعَاتِلُوا الْكُفَّارَ أَوَّلًا فَأَوَّلًا، الأقرب فالأقرب إلى حوزة الإسلام.

ولهذا قد بدأ رسول الله ﷺ بقتال المشركين في جزيرة العرب، فلما فرغ منهم - وقد فتح الله تعالى عليه مكة والطائف واليمن واليمامة وهجر وخيبر وغير ذلك من أقاليم جزيرة العرب، ودخل الناس من سائر العرب في دين الله أفواجا -؛ شرع في قتال أهل الكتاب، فتجهز لغزو الروم الذين هم أقرب الناس إلى جزيرة العرب. وأولى الناس بالدعوة إلى الإسلام؛ لأنهم أهل كتاب، فبلغ تبوك، ثم رجع لأجل جهد الناس، وجذب البلاد، وضيق الحال^(٢)... الخ.

ثم قام بعده ﷺ خليفته أبو بكر ثم عمر رضي الله تعالى عنهما، فعزوا الروم عبدة الأوثان والصلبيان، والفرس عبدة التيران، ففتح الله تعالى البلاد بركة

(١) آية: ١٢٣.

(٢) انظر تفصيل ذلك في «الذهب المسبوك في تحقيق روايات غزوة تبوك» للسدي.

خلوص نية هؤلاء المخلصين... وهكذا.

﴿وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾؛ فَإِنَّ الْمُؤْمِنَ الْكَامِلَ الْإِيمَانِ هُوَ الَّذِي يَكُونُ رَفِيقاً لِأَخِيهِ الْمُؤْمِنِ، غليظاً على عدوِّه الكافر:

قال الله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾^(١)، و﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾^(٢).

وفي الحديث: أَنَّهُ ﷺ قَالَ: «أَنَا الصُّحُوفُ الْقَتْلَاءُ»^(٣)، الصُّحُوفُ فِي وَجْهِ الْمُؤْمِنِ، وَالْقَتْلَاءُ لِعَامَّةِ عَدُوِّهِ الْكَافِرِ.

ولكن الأسف أن المسلمين لما جهلوا أمر ربهم، وحقيقة دينهم وشرعهم، ولم يتمكن الإيمان في قلوبهم؛ انكسروا، فعكسوا الأمر، بحيث صاروا خاضعين متواضعين للكفار والمنافقين، وغليظي المعاملة وغيروسي الوجوه للمؤمنين، فلهذا أدلهم الله تعالى تحت سيطرة الكافرين والمنافقين.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾، فَأَتَمَّ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ إِذَا اتَّقَيْتُمُ اللَّهَ تَعَالَى وَأَطَعْتُمُوهُ وَامْتَنَعْتُمْ أَمْرَهُ؛ فَاللَّهُ مَعَكُمْ، فَكُونُوا مُنْصَوِّرينَ وَغَالِيينَ مُقْلَحِينَ وَتَاجِحِينَ وَفَائِزِينَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

ولمَّا كَانَ أَهْلُ الْقُرُونِ الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ هُمْ خَيْرُ هَذِهِ الْأُمَمِ^(٤) فِي غَايَةِ

(١) محمد: ٢٩.

(٢) التحريم: ٩، التوبة: ٧٣.

(٣) أورده ابن كثير في «تفسيره» (٢ / ٦٢٣) دون عزو، والمصنف ينقل منه، ولم أجد له أصلاً فيما بحث.

(٤) كما صَحَّ عَنْهُ ﷺ، فيما رواه: البخاري (٥ / ١٩٠)، ومسلم (٢٥٣٥).

الاستقامة والقيام بطاعة الله تعالى ؛ لم يزالوا ظاهرين على عدوهم ، ولم تزل الفتوحات كثيرة ، ولم تزل الأعداء في سفال وخسار ، ولما وقعت الفتن والأهواء والاختلافات ، وغلب الجهل على العلم ، وتركوا كتاب الله وراء ظهورهم ؛ طمع الأعداء في أطراف البلاد ، وتقدموا إليها ، حتى أخذوا بلداناً كثيرة ، ولا يزالون يستحيضون على كثير من بلاد الإسلام .

وكُلِّما قام ملك من ملوك المسلمين وأطاع أوامر الله وتوكل على الله ؛ فتح الله عليه من البلاد ما شاء بقدر ما فيه من ولاية الله ؛ كما هو المشاهد المعلوم ؛ كما فتح الله تعالى للسعوديين الوهابيين^(١) ولايات الحجاز والحرمين وعمامة جزيرة العرب ؛ لنصرهم دين الله ، وقيامهم بتوحيد الله حق القيام ، فالحلهم بئتهم على الحق ، وأيدهم بتوفيقك ، وأيد دولتهم إلى الأبد على الصراط المستقيم آمين .

وأما إذا انحرفوا عن الصراط المستقيم الذي ميزه القرآن وسنة المصطفى ؛ سلب الله تعالى عنهم الدولة ، وسلط عليهم غيرهم ، حتى يذوقوا الدل ، ويحرقوهم تحقيراً ، « ذلك بأن الله لم يك مثيراً نعمة أتمها على قوم حتى يُغيروا ما بأنفسهم »^(٢) ، « وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يَكْسِبُونَ »^(٣) .

فيا أيها المسلمون ! اتقوا غضب الله وعذابه وانتقامه ؛ أتم المأمورون (١) ولفظ (الوهابيين) إنما اخترته أعدة دعوة التوحيد ؛ تفتيراً للناس منهم ، والأصل تجبه والعد عنه ، لتلا بخارى أولئك الخصوم بتلقياتهم ! فانظر ما سياتي (ص ٢٨٣) .
(٢) الأنفال : ٥٣ .
(٣) الأنعام : ١٢٩ .

بالتقوى ، وأتم المأمورون بأن تعلموا وتفهموا أوامر الله ، ولكنكم ضيعتم أهليكم ، واكتفيتم من كتاب الله بتلاوته وتزيين حرفه وخطوطه ؛ من غير فهم معناه وتدبر ما فيه من الحكم والمواظ والعبر ، فاتقوا الله ، اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ومن الصادقين ، عسى الله تعالى أن يفتح عليكم باب فضله بفضله ومعه ؛ إنه تعالى لا يضيع أجر من أحسن عملاً .

الآية السادسة والخمسون في سورة إبراهيم : « قُلْ لِعِبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا الصَّلَاةَ وَخَفُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا يَبِيعُ فِيهِ غُلًّا »^(١) .

قد أمر الله تعالى رسوله محمد ﷺ أن يبلغ لعباد الله المؤمنين أن يقوموا لله بطاعته وأداء حقه ، والإحسان إلى خلقه مما أعطاهم الله تعالى ؛ بأن يقوموا الصلوات الخمس ، مع المحافظة على أدائها في وقتها ، وحذوها ، وركوعها ، وسجودها ، وخشوعها ، وهي عبادة الله وحده لا شريك له ، وبأن يُنفقوا مما رزقهم الله تعالى ، بأداء الزكاة ، والنفقة على القربات ، والإحسان إلى الأجانب في السر والعلانية ، وليبادروا إلى ذلك في حياتهم ؛ لخلاص أنفسهم ؛ من قبل أن يأتي يوم الجزاء ، ويُعلم أنه لا بيع في ذلك اليوم . ولا خلل ، بل هناك العدل والقسط .

إن الله تعالى قد علم أن في الدنيا بيعاً وأموالاً وخلالاً يتخاللون بها ، فليُنظر الرجل من خلال ، وعلام يُصاحب ؟ فإن كان لله ؛ فليداوم ، وإن كان لغير

(١) إبراهيم : ٣١ .

الله؛ فسيقطع عنه، فلا ينفع هناك أحداً بيع ولا فدية، ولو اقتدى بملء الأرض ذهباً لو وجده، ولا تنفعه صداقة أحد، ولا شفاعة أحد إن لقي الله كافراً.

فيا أيها المؤمنون! وحّدوا ربكم، وابدعوا، ولا تشركوا به شيئاً، سواء كان ملكاً مقرباً أو نبياً مرسلًا، ولا تغتروا بزهات الدجالين، وسواوس الشياطين، وخرافات شيوخ الطرقي وعلماء السوء، بل اجتهدوا في فهم كلام ربكم الحكيم الرحيم، وستة نبيكم المبعوث رحمة للعالمين لتفوزوا.

الآية السابعة والخمسون في سورة الإسراء: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا﴾^(١).

يأمر الله تعالى عبده ورسوله محمد ﷺ أن يأمر عباد الله المؤمنين أن يقولوا في مخاطبتهم ومحاوارتهم الكلام الأحسن والكلمة الطيبة؛ فإنهم إن لم يفعلوا ذلك؛ نزَّع الشيطان بينهم، ووقع الشر والمخاصمة والمقاتلة؛ فإنه عدو لادم وذريته.

ولهذا نهى رسول الله ﷺ أن يشير الرجل إلى أخيه المسلم بحديدية^(٢)؛ فإن الشيطان ينزَّع في يده؛ أي: قرئاً أصابه بها.

وقد روى أحمد في (مسنده^(٣)) بسنده عن الحسن رضي الله عنه؛ قال:

(١) الإسراء: ٥٣.

(٢) رواه: البخاري (١٣ / ٢٠)، ومسلم (٢٦١٧)؛ عن أبي هريرة.

(٣) (٥ / ٧١).

وفي سنده علي بن زيد بن جُدعان، وفيه ضعف.

أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وهو في أُرْزَفَةَ^(١) من الناس، فسمعته يقول: «الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ؛ لَا يَظْلِمُهُ، وَلَا يَخْذُلُهُ، التَّقْوَى هَا هُنَا (وأشار بيده إلى صدره)، وما تَوَادَّ رَجُلَانِ فِي اللَّهِ فَفَرَّقَ بَيْنَهُمَا إِلَّا خَذَّتْ حِدَّتُهُ أَحَدَهُمَا، وَالْمُحَدِّثُ شَرٌّ، وَالْمُحَدَّثُ شَرٌّ، وَالْمُحَدِّثُ شَرٌّ».

وكان الكفار يؤذون المسلمين، فأمرهم الله تعالى أن يقولوا التي هي أحسن، ولو للكافرين، ولا يكافؤهم بسفهمهم، ولهذا قد قال ﷺ: «قُلِ الْخَيْرُ وَالْأَفْشَكُ^(٢)»، ومن حُسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه^(٣)، وقال الله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾^(٤)، وقال الله تعالى لموسى وهارون عليهما السلام: ﴿قُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾^(٥)، وقال لرسوله محمد ﷺ: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَقًّا غَلِظَ الْقَلْبُ لَأَنْقَضُوا مِنْ حَوْلِكَ﴾^(٦).

= وقد حُسَّنه الهيثمي في «المجمع» (١٠ / ١٧٥)، وله شواهد:

أما القطعة الأولى؛ فانظر لها «الصحيفة» (٥٠٤) وما سيأتي (ص ٢٧٢)، وأما القطعة الثانية؛ فانظر لها «الصحيفة» (٦٣٧) أيضاً.

(١) أي: جماعة. «نهاية ابن الأثير» (٢ / ٣٠٥).

(٢) إيراد بالمعنى لقوله ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر؛ فليقل خيراً أو ليصمت».

أخرجه: البخاري (١٠ / ٢٣٧)، ومسلم (٤٧)؛ عن أبي هريرة.

(٣) حديث حسن، له طرق كثيرة، جمعتها في جزء مفرد، سَمَّيْتُهُ «كُفَايَةِ النَّبِيِّ...»، وهو الجزء الثاني عشر من سلسلتي «الأجزاء الحديثية».

(٤) النحل: ١٢٥.

(٥) طه: ٤٤.

(٦) آل عمران: ١٥٩.

فالإسلام كله حسنٌ، ولكن الأسف أن أكثر المسلمين مبتلّون باستعمال الأقوال الشنيعة والألفاظ القبيحة؛ لجهلهم بمعاني كلام ربهم، وآداب رسولهم، وأخلاق نبيهم، بل جهلهم بالحقوق الإنسانية المميزة عن الأفعال الحيوانية والدرجات البهيمة، فسادت تربيتهم، وفسدت أخلاقهم كما لا يخفى.

الآية الثامنة والخمسون في سورة الحج: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ بَلَّةُ أَيْكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾^(١).

قد نادى الله وخاطب عباده المؤمنين؛ أمراً بإيائهم بشمانية أشياء: الأول: الركوع، والثاني: السجود، والثالث: العبادة، والرابع: فعل الخير، والخامس: الجهاد في سبيل الله حق جهاده، والسادس: إقامة الصلاة، والسابع: إيتاء الزكاة، والثامن: الاعتصام بالله وكتابه.

فالواجب المحتّم على العبد المؤمن أن يقوم بهذه الأشياء حق القيام، ويؤدّيها لله تعالى؛ مراعيّاً شرائطها وأركانها وآدابها في أوقاتها.

فالركوع عبادة، فلا يركع إلا لله، فمن ركع لغير الله؛ فقد كفر وأشرك في

(١) الحج: ٧٧ - ٧٨.

عبادة الله غيره؛ كما يفعله أهل الصين المجوس عند ملاقة ملوكهم وأمرائهم وكبرائهم وأغنيائهم وعلمائهم؛ فإنهم ينحنون لهم انحناءً فاحشاً، وكذا مسلمو تلك البلاد ينحنون ويركعون لأكابريهم، ويسمون من لا ينحني ولا يركع بل يسلم سلاماً السيئة متكرراً لا يعرفه إلا بغير الآداب.

وكذا السجود عبادة، فلا يسجد إلا لله وحده، فمن سجّد لغير الله من ملوك أو ملوك أو قُبر أو وثَن أو وثَن؛ فقد كفر وأشرك بالله غيره في العبادة؛ كما يفعله غلاة البهرة^(١) لسيدهم، وجهلة الصين والجاپان لملوكهم، وجهلة المسلمين لقبور أوليائهم ومشايخهم.

والعبادة بأنواعها حق لله وحده؛ من دعاء، ونذر، واستغاثة، وغيرها من أنواع العبادات، فمن عبد غير الله؛ فقد كفر وأشرك؛ كالذين يدعون عبد القادر الجيلاني ويستغيثون به مثلاً.

وفعل الخير لله تعالى، والخير كله ما أمر الله تعالى بفعله بصريح آياته أو بسنة رسوله محمد ﷺ، فمن فعل خيراً لغير الله؛ فقد رآى وأشرك.

وكذا الجهاد في الله تعالى حق جهاده؛ بالمال والنفس واللسان؛ لأنه عز وجل قد اجتبى المسلمين لهذه الدولة العظيمة من بين سائر الناس، وشرفهم بدينه الإسلام. وملة خليله إبراهيم على نبيّنا وعليه الصلاة والسلام، وجعل هذا الدين سهلاً سَمَحاً لا حرج فيه أصلاً.

فشكراً لله تعالى؛ أقيموا الصلاة لله، وآتوا الزكاة لله إلى فقراء المسلمين

(١) وهم من الطائفة الإسماعيلية الباطنية، كفره مشركون

من غير حيلة، واعتصموا أيها المسلمون كلُّكم بالله، وتوكلوا عليه حتى التوكل، واعملوا بما أمر في كتابه، وبيَّنه رسولُه محمدٌ ﷺ، وهو تعالى مولاكم وحافظكم وناصركم على الأعداء، فينعم المولى ونعم النصير.

واعلم أنَّ كلَّ ما أمر الله تعالى بفعله فهو العبادة والطاعة، ففيه الثواب والأجر عند الله، وكلَّ ما نهى عنه فهو المعصية، فعليك أيها العبد المؤمن باعتدال ما أمر والانتهاء عمَّا نهى، فإذا فعلت هكذا؛ فأنت العبد المؤمن حقاً، جعلني الله تعالى وإياك من عباده المؤمنين الصادقين.

الآية التاسعة والخمسون في سورة النور: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (١).

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين؛ ناهياً إياهم عن اتباع خطوات الشيطان؛ أي: ما زينه الشيطان من طرق الكفر والشرك والمعاصي؛ لأنَّ مَنْ يَتَّبِعْ طُرُقَ الشَّيْطَانِ ويذهب مذاهبه؛ فإنه يأمرُ بأبشَّه بالفحشاء والمنكر، ومنه القول على الله بغير علم، ومن الوسائل الشركية والاعتقادات الوثنية، فكلُّ معصية من خطوات الشيطان، والتلذُّز للمخلوق من خطوات الشيطان، وتذرُّ المعصية من خطوات الشيطان، وتحرُّم الحلال من خطوات الشيطان، واليمين الفاجرة الغموس من خطوات الشيطان، ودُّعاء غير الله من الأموات والأرواح من

(١) النور: ٢١.

خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ، والاستعانة من الملائكة والأرواح والأموات من خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ.

فيا أيُّها المسلمون! لولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكا منكم ولا اعتدى إلى الإيمان والحق من أحد أبداً، بل لكان ابتلي وتلوث بدنس الشرك والمعاصي كبيرها وصغيرها؛ كما ابتلي بها كثير ممن يدعي الإسلام والزهد والتصوف والتقوى من المسلمين الجرافيين من أهل الهند والترك والتركتان والصين، ولكن الله يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ مِنْ خَلْقِهِ، فيزكي نفوسهم ويظهرها، فيحفظها من شركها وفجورها وفسادها وما فيها من عقائد زائفة، وأخلاق رديئة، ﴿والله سميعٌ﴾ لأقوال عباده، و﴿عليمٌ﴾ بمن يستحقُّ منهم الهداية والتوفيق والضلال والردى، فيعطي كلَّ استحقاقه.

فيا أيُّها المسلمون! لا يحظوا هذه الآيات، وتفكروا في معانيها، وتدبروا في أسرارها؛ فإنكم أنتم المخاطبون المكلفون بهذه الأوامر، فإذا تساهلتم وتجاهلتم كما أنتم عليه؛ اكتفاء بأقوال الناس وتزاهيتهم؛ فالخسار والبوار نازل بكم لا محالة.

الآية الستون فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ . فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ (٢).

(٢) النور: ٢٨.

قد نادى الله تعالى وخاطب المؤمنين؛ ناهياً إياهم عن دخول بيت الغير بلا إذن وبلا سلام، ومنع من الدخول بلا إذن.

فانظروا أيها المسلم إلى هذه الآداب الشرعية الإلهية التي أدب الله تعالى بها عباده المؤمنين؛ أمرهم الله تعالى أن لا يدخلوا بيوتاً غير بيوتهم حتى يستأذنوا؛ أي: يستأذنوا قبل الدخول ويسلموا بعده.

وينبغي أن يستأذن ثلاث مرات، فإن إذن له؛ دخل، وإلا انصرف، كما ورد بهذا المعنى أحاديث كثيرة عن رسول الله ﷺ^(١) والخلفاء الراشدين رضي الله عنهم.

وروى أبو داود^(٢) في «سننه» بسنده عن عبد الله بن بسر رضي الله عنه؛ قال: «كان رسول الله ﷺ إذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه، ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر، ويقول: السلام عليكم، السلام عليكم».

وقال رسول الله ﷺ: «إنما جعل الاستئذان من أجل النظر»^(٣).

وفي «الصحيحين»^(٤) عن رسول الله ﷺ؛ قال: «ولو أن أمراً أطلع عليك من غير إذن فحذفته بحصة، ففقدت عينه؛ ما كان عليك من جناح».

وعن جابر رضي الله عنه؛ قال: «أتيت النبي ﷺ في دين كان على أبي،

(١) انظر: «صحيح البخاري» (١١ / ٢٣)، و«صحيح مسلم» (٢١٥٣)، و«جامع الأصول» (٦ / ٥٧٧ - ٥٩٥).

(٢) برقم (٥١٨٦) بسند حسن.

(٣) رواه: البخاري (١٢ / ٢١٥)، ومسلم (٢١٥٦).

(٤) رواه: البخاري (١٢ / ٢١٦)، ومسلم (٢١٥٨)، عن أبي هريرة.

فدققت الباب، فقال: «مَنْ ذَا؟». فقلت: أنا. قال: «أنا أنا؛ كأنه كرهه»^(١).

وإنما كره ذلك لأن هذه اللفظة لا يعرف صاحبها حتى يُفصح باسمه أو كنيته التي هو مشهور بها، وإلا لا يحصل المقصود من الاستئذان الذي هو الاستئناس بالمأمور به.

وروى أبو داود^(٢) عن صفوان بن أمية رضي الله عنه؛ قال: دخلت على النبي ﷺ ولم أسلم ولم أستأذن، فقال ﷺ: «ارجع؛ فقل السلام عليكم، أَدْخُلْ؟».

فيا أيها المؤمن! تأدب بالآداب الذي أدبك الله به تكن إنساناً كاملاً؛ لأن ربك رؤوف رحيم جل جلاله.

الآية الحادية والستون في هذه السورة أيضاً: «قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَيْرُ بِمُضْتَمِّنٍ»^(٣).

وهذا خطاب وأمر للمؤمنين بواسطة رسول الله محمد ﷺ أن يغضوا من أبصارهم عما حرم عليهم، فلا ينظروا إلا إلى ما أباح لهم النظر إليه، وأن يغضوا أنظارهم وأبصارهم عن المحرمات والأجنبيات، فإن اتفق أن وقع النظر على محرم من غير قصد؛ فليصرف بصره عنه سريعاً؛ كما رواه مسلم في

(١) رواه: البخاري (١١ / ٣٠)، ومسلم (٢١٥٥).

(٢) برقم (٥١٧٦).

وأخرجه: الترمذي (٢٧١١)، وأحمد (٣ / ٤١٤)، وسنده صحيح.

(٣) التور: ٣٠.

«صحيحه»^(١) عن جرير بن عبدالله البجلي رضي الله عنه؛ قال: «سألت النبي ﷺ عن نظر النجاة؟ فأمرني أن أصرف بصري».

وقال رسول الله ﷺ: «يا علي! لا تتبع النظرة النظرة؛ فإن لك الأولى، وليس لك الآخرة» رواه الترمذي^(٢).

ولا شك أن النظرة - وخصوصاً إلى أمة الحسناء، والأمرد الجميل الوجه - داعية إلى فساد القلب، ومحركة للشح، ولذلك أمر الله تعالى عباده المؤمنين بحفظ الأبصار، كما أمرهم بحفظ وج: «لأن النظر باعث إلى ذلك».

«ذلِكَ أَزْكَى لَهُمْ»؛ أي: غُضِّ البصرِ وحفظ الفرجِ أَزْكَى وأطهرُ

(١) برقم (٢١٥٩).

(٢) برقم (٢٧٧٧).

رواه: أبو داود (٢١٤٩)، والطحاوي في «المشكّل» (٣٥٤ / ٢) و«المعاني» (٢ / ٩-٨)، والحاكم (٢٠ / ١٩٤)، وأحمد (٥ / ٣٥٧ و ٣٥٨)، والبيهقي (٧ / ٩٠)؛ من طريق شريك عن أبي ربيعة عن بُريدة عن أبيه. وفيه شريك النخعي، وهو سعيء الحفظ.

لكنه نوع:

فأخرجه: أحمد (١٣٦٩ / ٣٧٣)، والدارمي (٢ / ٢٩٨)، والحاكم (٣ / ١٢٣)، والبرزّاء (١٤١٩)، والطبراني في الأوسط (٦٧٨)؛ من طريق ابن إسحاق عن محمد بن إبراهيم التيمي عن سلمة بن أبي الطفيل عن علي بن أبي طالب. وقال البيهقي في «المجموع» (٤ / ٢٧٧) - بعد أن عزا للبرزّاء والطبراني وفاته العزو لأحمد -: «ورجال الطبراني ثقات». قلت: وكذا البرزّاء وأحمد! ولكن عن عنة ابن إسحاق تنم عن الحكم على السند - لذاته - الحسن، نعم؛ هو حسن لغيره إن شاء الله.

لقلوبهم وأنفى لدينهم، ولهذا كان السلف الصالحون يَنْهَوْنَ أَنْ يُجِدَّ الرجلُ نظره إلى الأمرِ الصحيحِ الوجهِ^(١)، وهذا هو سرُّ احتجابِ النساءِ عن الأجانبِ.

ولكن الأسف أن كثيراً ممَّن في قلوبهم مرض أباحوا النظرَ إلى الأجنبية والمردانِ الحسانِ الوجوه، وأباحوا لهنَّ كشفَ وجوههنَّ^(٢)، وإظهارَهنَّ زينتهنَّ للأجانبِ وعندهم، فهذا قد كثر الرِّثا والواطئ فيما بين الناس، وخصوصاً فيما وراة النهر؛ فإنَّهم صاروا يفتخرون بهذا الفعلِ القبيح، وحتى بعض العلماء والمدرِّسين يخصَّصون لأنفسهم أماردةَ جِسانِ الوجوه ويسمُّونهم باسم (مُحَرَّم)!! فإنا لله وإنا إليه راجعون.

الآيةُ الثانيةُ والسِّتونُ فيها أيضاً: «وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَخْفِظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ» إلى أن قال: «وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتَوَوُّبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ»^(٣).

هذا أمرٌ من الله تعالى بواسطة رسوله محمد ﷺ للنساءِ المؤمناتِ، وغيره حنه تعالى على أزواجِ عباده المؤمنين، وتتميَّز لهنَّ عن صفَةِ نساءِ الجاهليَّةِ وفعالِ المشركاتِ والفاسقاتِ العاهراتِ عديماتِ الدين والحياءِ: أن يغمضْنَ

(١) قارن به «المتقى النفس من تلبس إبليس» (ص ٣٦٥) بقلي

(٢) وفي المسألة خلاف قديم، يُنظر له مَطْلُباتُ الكتبِ الفقهية.

(٣) التور: ٣١.

أبصارهم عن الرجال الأجانب، ولا ينظرون إليهم بشهوة؛ يعني: كما أنه حرمَ نظر الرجل إلى المرأة الأجنبية؛ حرمَ أيضاً نظرهم إلى الرجال الأجانب؛ لأن الفساد ينشأ من كل واحد من الطرفين.

ويوضح هذا ما رواه أبو داود والترمذي^(١) عن أم سلمة رضي الله عنها أنها كانت عند رسول الله ﷺ وميمونة، إذ أقبل ابن أم مكتوم، فدخل عليه، وذلك بعدما أمرنا بالحجاب، فقال رسول الله ﷺ: «احتجبا منه». يا رسول الله! ليس هو أعمى لا يبصرنا ولا يعرفنا؟ فقال رسول الله ﷺ: «أفعميما أنتما؟! ألسما تبصرانه؟» حديث حسن صحيح^(٢).

«ولا يبدن زينتهن إلا ما ظهر منها»؛ أي: لا يظهرن شيئاً من الزينة للأجانب إلا ما لا يمكن إخفاؤه.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: «كالرداء والنياب»؛ لأن هذا لا يمكنها إخفاؤه^(٣).

- (١) رواه: أبو داود (٤١١٢)، والترمذي (٢٧٧٨)، وأحمد (٢٩٦ / ٦)، والبيهقي (٩١ / ٧) والنسائي (٩٢)، في «عشرة النساء» (٣٥٩ و ٣٦٠). وابن حبان (٥٥٤٩)، وابن سعد (١٢٦ / ٨)، من طريق نيهان مولى أم سلمة عنها.
- ونهان مجهول، لم يوثقه إلا ابن حبان، وحكم بجهالة البيهقي وابن حزم والذهبي، وقال ابن حجر: «مقبول»؛ يعني إذا توبع، وإلا فهو لين الحديث!!
- ومن عجب أن ابن حجر نفسه قد قوى سنده في «الفتح» (٣٣٧ / ٩)!!
- (٢) هذا قول الترمذي في الحديث، وقد سبق رؤاه.
- (٣) كما في «الدر المنثور» (١٧٩ / ٦).
- وفي رسالتي «تنوير العينين»... (ص ٥٣ - ٥٥) ذكر الصحيح الثابت عن ابن عباس في تفسير هذه الآية.

ولا يشك ذو عقل ودين أن أرغب زينة النساء: وجهها الجميل، وطرفها الكحل، فبدنها السمين.

«ولْيُبْسِرْنَ بِخُحْرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ»؛ أي: تستر بخُحْرِها صدرها؛ لتواري ما تحتها من صدرها وترايتها؛ ليخالفن بذلك شعار نساء أهل الجاهلية؛ لأنهن كن يمشين بين الرجال بصدورهن المكشوفات لا يواريهن شي، وربما أظهرت عفاها، وذوائب شعرها، وأقراط أذنانها، فأمر الله تعالى المؤمنات أن يستترن في هيئاتهن وأحوالهن؛ كما قال الله تعالى: «يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يُدْنِينَ عليهن من جلبابهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذَيْن»^(١).

والخمار ما يُعْطَى به الرأس، وقد أمر الله بأن يسترن بخُحْرهن على التَّحَرِّ والصدر، فلا يرى منهما شيء.

والحاصل أن المرأة لا تظهر عند الرجال الأجانب من زينتها التي تحرك الشهوة؛ سواء يضرب الرجل وإظهار الوجه والخمخال، أو التعرُّف عند خروجها من بيتها، ولا يسترجن تبرج الجاهلية كما هو الشائع الذائع في نساء أوروبا ومصر^(٢) وغيرهما؛ فإنهن فاسقات عاهرات فاجرات عاصيات قد فسدن وأفسدن وألقين جلباب الحياة بل الإيمان؛ تقليداً للأوروبيات والذهريات.

فأتمن أيها المؤمنون! توبوا إلى الله جميعاً، وافعلوا ما أمركم الله به من هذه الصفات الجميلة والأخلاق الجليلة، واتركوا ما كان عليه أهل الجاهلية من الأخلاق الرذيلة والصفات الخبيثة؛ فإن الإصلاح كل الفلاح والسعادة كل

(١) الأحزاب: ٥٩. (٢) إلا من رحم الله منهن.

السعادة: في فعل ما أمر الله تعالى الحكيم به وأرشد إليه رسوله محمد ﷺ وترك ما نهى الله ورسوله عنه، والله تعالى هو المستعان.

الآية الثالثة والسُتُون فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهْرِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَهُمْ عَلَى عَهْدِي وَعَلَى عَهْدِكُمْ كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١١﴾.

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين؛ أمراً إياهم أن يأثروا خدمتهم أن لا يدخلوا عليهم إلا بعد الاستئذان، وكذا الأطفال الصغار الذين لم يبلغوا الحُلُم كل يومٍ ثلاث مرّاتٍ في ثلاثة أوقات:

الأول: قبل صلاة الفجر؛ لأنَّ النَّاسَ إذ ذاك يكونون نياماً في فرشهم.

والثاني: حين يضعون ثيابهم من الظهيرة؛ أي: وقت القيلولة؛ لأنَّ الإنسان قد يَضَعُ ثيابه في تلك الحال مع أهله.

والثالث: من بعد صلاة العشاء؛ لأنَّه وقت النوم، فيؤثّر الخدم والأطفال أن لا يهجموا على أهل البيت في هذه الأحوال؛ لما يخشون أن يكونوا على أهله، أو نحو ذلك من الأعمال، ولهذا قال: ﴿ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ﴾، وأما في غير هذه الأحوال؛ فلا بأس في دخولهم عليكم؛ لأنَّهم طوافون عليكم في

(١) النور: ٥٨ - ٥٩.

الخدمة وغير ذلك، ويُعْتَفَرُ في الطَّوْافِينَ ما لا يُعْتَفَرُ في غيرهم.

فيا أيُّها المسلمون! حافظوا على هذه الآداب الرُّبَانِيَّةِ والأَخْلَاقِ الْإِنْسَانِيَّةِ الكاملة المنمّعة للإيمان والحياة والإحسان، ولا شك أنَّ شرع الإسلام شرع الكمال والجمال، وفقَّاه الله تعالى للتأدّب بآدابه والتخلّي بأخلاقه.

الآية الرابعة والسُتُون في سورة النكبات: ﴿يَا عِبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةً فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ١٠﴾.

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين؛ أمراً إياهم بالهجرة من البلد الذي لا يقدرّون فيه على إقامة الدين والعمل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ إلى أرضٍ الله الواسعة، حيث يمكن إقامة الدين؛ بأن يؤخّدوا الله ويعبدوه كما أمرهم.

وحيث إن كثيراً من النَّاسِ يتركون الهجرة إلى ديار الإسلام؛ خوفاً من الموت، أو خوفاً من ضيق الرزق والمعيشة؛ فقد أزال الله تعالى هذا الخوف بقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ١١﴾، فكل إنسان لا بد يموت عند انقضاء أجله المقدر، سواء في الحضر أو السفر، وإنما يكون تارك الهجرة محروماً من الرحمة والدرجات في الجنة.

والمهاجر لحفظ دينه ينال كل فضل ورحمة، ويرزقه الله تعالى رزقاً كثيراً

(١) النكبات: ٥٦.

(٢) النكبات: ٥٧.

وسعة؛ مُراغماً أعداءه، وهذا لا شك فيه ولا ريب.

وقد أخبر الله الكريم عز وجل بقوله: ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاجِئاً كَثِيراً وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَمُنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا خَسَنَةً وَلِأَجْرِ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ. الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (٢).

فيا عباد الله المؤمنين! إنما خلقكم الله تعالى لأجل عبادته وحده لا شريك له، فاعبدوه وحده، ولا تُشركوا به شيئاً، ولا تُخاروا الإقامة في دار الشرك والكفر والبدعة لأجل مال الدنيا الفانية الدنيئة.

وأنا هذا العبد الضعيف جامع هذه الوريقات أحمد الله حمداً كثيراً أنه عز وجل قد يشر لي الهجرة، فهاترت عن ديار الشرك والكفر والإلحاد، والفسق والظلم والعدا؛ ديار ما وراء النهر والتركستان؛ ديار عبادة القبور والأرواح، وديار العقائد الفاسدة، وديار الشيوعية والادهرية واللايديئة، واخترت الإقامة بتوفيق الله تعالى في بلد الله الأمين، وقبلة المسلمين، وقد وقفتي الله تعالى للاشتغال بعلم الكتاب والسنة، وتدرسيه وتعليمه لعامة المسلمين في المسجد الحرام، وساعدني ملك المسلمين عبدالعزيز بن عبد (٣)، فجزاه الله

(١) النساء: ١٠٠.

(٢) النحل: ٤١ - ٤٢.

(٣) توفي سنة (١٣٧٣هـ)، ترجمته في «الأعلام» (٤ / ١٩) للزركلي.

تعالى خيراً، وأبدته بنصره ووفقه لمرضاته. وقد رزقني الله تعالى أهلاً وأولاداً وداراً ودولة وعزاً وعيراً كثيراً أحسن ممّا كان وفات بمرأت، فالحمد لله حمداً كثيراً؛ سالماً لله تعالى أن يُدِيم لي التوفيق، ويثبتني على القول الثابت والتوحيد الخالص؛ لا إله إلا الله، ويرزقني حسن الختام. آمين.

الآية الخامسة والسُتون في سورة الأحزاب: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ (١).

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين؛ أمراً إياهم بأن يذكروا نعمة الله التي أنعمها عليهم، وهي كثيرة لا تعد ولا تُحصى، ومن جملتها ضربه تعالى ودفعه الأعداء الكفار، وخصوصاً حين تألبوا عليهم وتحزبوا عام الخندق سنة خمس من الهجرة، إذ جاؤوا في حوالي المدينة؛ لهجموا على المسلمين، ﴿إِذْ جَاؤُكُمْ مِنْ قُدُومِكُمْ وَمِنْ أَشْفَلِ مُنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللِّهِ الظُّنُونَا﴾ (٢)، فحاصروا المدينة وفيها النبي ﷺ وأصحابه قريباً من شهر، ثم وقع القتال (٣)، فأرسل الله تعالى على الأحزاب ريحاً شديدة الهبوب قوية، حتى لم يبق لهم خيمة ولا شيئاً، ولا يقر لهم قرار، حتى ارتحلوا خائبين خاسرين، فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ

(١) الأحزاب: ٩.

(٢) الأحزاب: ١٠.

(٣) انظر: «سيرة ابن هشام» (٣ / ٢٩٧).

عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها، وهي الصبا.

وفي الحديث: قال رسول الله ﷺ: «نُصِرْتُ بالصَّبا وأُهلِكْتُ عادٌ بالدَّبُور»^(١).

وقد أرسل الله تعالى ملائكة زلزلتهم، وألقَتْ في قلوبهم الرعب والخوف، وهكذا يفعل الله تعالى لعباده المؤمنين الصادقين؛ ينصرهم وإن قَلُوا على الأعداء وإن كَثُرُوا؛ لأنَّ لله تعالى جنوداً من الريح، وجنوداً من النار، وجنوداً من الصاعقة، وجنوداً من الطوفان، وجنوداً من الزلزال، وجنوداً من السحاب... وغيرها، كما أنَّ لله تعالى جنوداً من الملائكة وعباده الصالحين، وحتى إنَّ له جنوداً من الطيور، وجنوداً من العسل، وجنوداً من الذباب والبعوض وغيرها، وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ^(٢).

فأنتم أيها المؤمنون! كونوا مؤمنين صادقين عاملين بما أمر، ومُتَّهِنِينَ عَمَّا نهى عنه، فالله ينصركم على الأعداء، وأما إذا كنتم في إيمانكم كاذبين، وفي دعائكم وعبادتكم مشركين، ولأوامره تاركين، ولنواهيه مرتكبين، لا تشبهون بالأسباب^(٣)، ولا تتفقون في الحركات والذهاب والإياب، بل تعتمدون على الأرواح وعلى الروحانيين، وتدعون من هو مثلكم من المخلوقات وأرواح الأموات؛ فأنتم الخاسرون المحرومون، والأدلاء المخذولون، فانتهوا من غفلاتكم، واحترزوا من الخرافات والتزيهات ودجل الدجالين وخيابة الضالين

(١) رواه البخاري (١٠٣٥)، ومسلم (٩٠٠)، عن ابن عباس

(٢) المؤمن: ٣١.

(٣) أي: غير متعلقين بها، ولا راكبين إليها.

المضلين.

فيا أيها الذين آمنوا! آيتوا، ولا تكونوا ممن قال الله في حقهم: «وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون»^(١).

الآية السادسة والستون فيها أيضاً: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كثيراً وسبحوه بكرةً وأصيلاً»^(٢).

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين؛ أمراً إياهم بأن يذكروا الله ذكراً كثيراً؛ لأنه المنعم عليهم بأنواع النعم الظاهرة والباطنة وصنوف البين، ووعد الله لهم في ذلك جزيل الثواب وجميل المآب.

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: «أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كثيراً»: «إنَّ الله تعالى لم يفرض على عباده فريضة؛ إلا جعل لها حداً، وعذر أهلها في حال العذر؛ غير الذكر؛ فإنَّ الله لم يجعل له حداً ينتهي إليه، ولم يعذر أحداً في تركه، فقال: «أَذْكُرُوا اللَّهَ قِياماً وقعوداً وعلى جنوبكم»؛ بالليل والنهار، في البر والبحر، وفي السفر والحضر، والغنى والفقر، والسقم والصحة، والسر والعلانية، وعلى كل حال، «وسبحوه بكرةً وأصيلاً»، فإذا فعلتم ذلك صلى عليكم هو وملائكته»^(٣).

(١) يوسف: ١٠٦.

(٢) الأحزاب: ٤١ - ٤٢.

(٣) رواه ابن جرير (٢٢ / ١٧)، وأورده السيوطي في «الدرر» (٦ / ٦١٨)، وزاد

نسبته لابن المنذر وابن أبي حاتم، بسند منقطع.

﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّيْ عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ﴾: هذا تهيجٌ إلى الذكر، ﴿فَادْذَكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُون﴾^(١)، فالله تعالى برحمته وفضله لكم يخرجكم من ظلمات الجهل والكفر والضلال إلى نور الهدى واليقين.

﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾^(٢): أي: في الدنيا والآخرة:

أما في الدنيا؛ فإنه هداهم إلى الحق الذي جهله غيرهم وبصرهم الطريق الذي ضل عنه وحاذ عنه من سواهم من الدعاة إلى الكفر أو البدعة، وأتباعهم من الطعام والدجالين المفسدين والمنافقين الكذابين.

وأما رحمته بهم في الآخرة؛ فأنهم من الفرع الأكبر، وأمر ملائكته بتلقؤهم بالبشارة بالفوز بالجنة والنجاة من النار، وما ذاك إلا لمحبتهم لهم ورأفته بهم.

واعلم أن الذكر ذكران:

ذكر القلب والجنان.

وذكر باللسان.

فذكر اللسان هو التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير ونحوها.

وأما ذكر القلب؛ فأن تذكر الله تعالى دائماً بقلبك؛ أنه القادر العليم الخبير بكل شؤونك، فاللزم أن لا تنساه في جميع حالاتك من حركات وسكناتك وظاهرك وباطنك وسرك وجهرك، ولا تغفل عنه لحظة، وهذا الذكر هو

(١) البقرة: ١٥٢.

(٢) الأحزاب: ٤٣.

الذي يحجزك عن معاصيه ومخالفة أمره.

فتنبه إليها العبد المؤمن لهذه الأوامر الربانية، فكن له تعالى ذاكرةً لسانك وقلبك، وأما ذكر اللسان مع غفلة القلب؛ فلن يحجز هذا الذكر صاحبه عن المعاصي؛ لأنه صورة بلا روح، والذكر الحقيقي النافع إنما هو ذكر القلب، وهو الذي يسميه الصوفية العارفون بـ: (المراقبة)؛ يعني: يراقبون الله تعالى في كل حالاتهم، في خلواتهم وجلواتهم، فلا يغفلون عنه لحظة ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ﴾^(١).

ولكن؛ لما غلب الجهل على كثير ممن يدعي الإسلام والتصوف؛ حرقوا هذه المراقبة، وبدلوا بمراقبة الشيخ، وسموها رابطة^(٢)، فصاروا يراقبون صور شيوخهم، وهؤلاء الشيخ يأمرهم بذلك، فوضعوا شيوخهم موضع رب العالمين، فصاروا بذلك مشركين بالشرك الأكبر وهم لا يشعرون، وقد دخلوا في دين الوثنية باسم التصوف وهم لا يعلمون، ولهذا صاروا يتوجهون إلى القبور وإلى أصحاب القبور، ويستمدون منهم، ويستغيثون بهم، ويبتون على قبور من يزعمونه صالحاً قبة وعمرارة عالية، ويزخرفونها، ويتوجهون إليها، ويتذرون لها؛ كما هو حالهم المشاهدي في جميع أنحاء العالم الإسلامي، وقد صاروا عبادة الأصنام والأوثان وهم لا يفهمون، ولهذا أدلهم الله تعالى في هذه الحياة الدنيا تحت أرجل الكفرة من الإنكليز واليطاليان والفرنسيين والروس والبلاشفة والأمريكان، ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشدُّ وَأَبْقى﴾^(٣).

(١) الحديد: ٤.

(٢) قريباً من ذلك فعل الشيخ حسن البنا بغفر الله له في «مائوراته»!!

(٣) طه: ١٢٧.

فيا أيها المسلمون! توبوا إلى الله، وارجعوا إلى دراسة كتاب الله وأحاديث رسول الله، واجتهدوا في فهم أوامر الله وخطاباته لكم؛ كي يعفو الله عنكم ويغفر ذنوبكم، فيدفع عنكم البلاء.

الآية السابعة والستون فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ تَعْتَذِرُوهَا فَمَتَّعُوهُنَّ وَسَرَاحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾^(١).

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين فيما يختص بهم من المعاملة بزواجهم من الكاح والطلاق، فأعلم الله تعالى بأنه إذا تزوج الإنسان امرأة وطلقها قبل الدخول بها؛ فليس عليها عدة؛ لأن رجماً لم يشغل بمائه، فلا يحتاج إلى الاستبراء، وإنما على الأزواج أن يعطوهن ما ينمتعن به من المتعة، أو نصف الصداق المسمى، «على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعاً بالمعروف حقاً على الْمُحْسِنِينَ».

فالرَّبُّ الرَّحِيمُ جَلَّ جلاله بَيْنَ لعباده المؤمنين كُلِّ ما يحتاجون إليه من مصالحهم وحاجاتهم الدنيئة والدنيوية والأخروية، ف سبحانه الرَّبُّ الرَّؤُوفُ الرَّحِيمُ.

الآية الثامنة والستون فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ

(١) الأحزاب: ٤٩.

إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرِ نَاطِرٍ إِنَاءَهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا إِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُتَسَلِّسِينَ لَحْدِيحٍ إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْجِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْجِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا . إِنْ تَبَدُّوا فَبِئْسَ أَتَى تَخَفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا^(١).

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين ناهياً إياهم عن أن يدخلوا بيوت رسول الله ﷺ بلا استئذان ولا إذن منه، وخصوصاً في وقت أكل الطعام، فلا تدخلوا إلا بعد الإذن، ولا تنظروا ولا تراقبوا وقت طبخ الطعام وحضوره، ولكن إذا دُعِيتُمْ؛ فادخلوا، فإذا طَعِمْتُمْ وأكَلْتُمْ؛ فانتشروا، ولا تطيلوا الجلوس بعده؛ لأن طول الجلوس يصير سبباً للملال، فيتأذى صاحب المنزل.

وإن كان سبب النزول خاصاً بالنبي ﷺ، ولكن الحكم عام، فلا يجوز دخول دار الغير بلا إذن، ولا يجوز الدخول على طعام الغير بلا إذن، فيحرم على الطَّافِلِيَّ التطفُّل.

وقد ثبت في «الصحیح»^(٢) عن رسول الله ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِذَا دُعِيَ أَحَدُكُمْ

(١) الأحزاب: ٥٣ - ٥٤.

(٢) قارن به «الصحیح المسند من أسباب النزول» (ص ١١٣ - ١١٥) للآخ الشيخ

مقبل بن هادي.

(٣) رواه: مسلم (١٤٢٩)، وأحمد (٦٣٣٧)، والبيهقي (٢٦٢ / ٧)؛ عن ابن

عمر.

ورواه البخاري (٩ / ٢١٠)؛ دون قوله: «غرساً كان أو نحوه».

أخاه؛ فليجِبْ؛ عُرْسًا كَانَ أَوْ غَيْرَهُ.

وَقَالَ ﷺ: «لَوْ دُعِيَ إِلَى ذِرَاعٍ لَاجَبْتُ، وَلَوْ أُهْدِيَ إِلَيَّ كُرَاعٌ لَقَبِلْتُ».

فَإِذَا فَرَعْتُمْ مِنَ الَّذِي دُعِيتُمْ إِلَيْهِ؛ فَخَفُّوا عَنْ أَهْلِ الْمَنْزِلِ، وَانْتَشَرُوا فِي الْأَرْضِ، وَأَصْلُ هَذَا الْحَدِيثِ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»^(١).

فِيهَا أَيُّهَا الْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ! تَعَلَّمْ كَلَامَ رَبِّكَ، وَتَفَهَّمْ أَوَامِرَهُ؛ فَإِنَّهُ تَعَالَى قَدْ خَاطَبَكَ وَأَمَرَكَ وَنَهَاكَ، فَإِنْ لَمْ تَعْلَمْ وَلَمْ تَفَهَمْ؛ فَأَنْتَ لَسْتَ بِمُؤْمِنٍ، بَلْ قَدْ ضَيَعْتَ أَهْلِيَّتَكَ، فَصِرْتَ كَالْأَنْعَامِ - بَلْ أَضَلَّ، فَاسْتَحْيَ أَيُّهَا الْمُسْلِمُ، وَلَا تَرْضَ بِالْجَهْلِ؛ فَإِنَّهُ يَرِيدُكَ إِلَى مَهَاوِي الْجَحِيمِ كَمَا لَا يَخْفَى عَلَى الْعَاقِلِ الْبَصِيرِ.

الآيَةُ الثَّاسِعَةُ وَالسَّتُونَ فِيهَا أَيُّضًا: «إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا»^(٢).

قَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يُصَلِّي عَلَى رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَكَذَا مَلَائِكَتُهُ الْكَرَامُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَأَنْتُمْ يَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ صَلُّوا عَلَى هَذَا الرَّسُولِ وَسَلِّمُوا عَلَيْهِ تَسْلِيمًا.

صَلَاةُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِ: ثَنَاءٌ عَلَيْهِ عِنْدَ مَلَائِكَتِهِ، وَصَلَاةُ الْمَلَائِكَةِ:

(١) بَلْ هُوَ مِنْ أَفْرَادِ الْبَخَارِيِّ (٩ / ٢١٣) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ بَلْفُظْ؛ كَمَا فِي «جَامِعِ الْأَصُولِ» (٧ / ٤٨٧).

وَلَكِنْ رَوَاهُ مُسْلِمٌ (١٤٢٩) (١٠٤) عَنْ ابْنِ عُرْمٍ مُخْتَصَرًا، بَلْفُظْ: «إِذَا دُعِيتُمْ إِلَى كُرَاعٍ فَاجِيبُوا».

(٢) الْأَحْزَابُ: ٥٦.

الدُّعَاءُ، وَقَالَ سَفِيَانُ الثَّوْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: «صَلَاةُ الرَّبِّ الرَّحْمَةِ، وَصَلَاةُ الْمَلَائِكَةِ الْإِسْتِغْفَارُ»^(١).

وَالْمَقْصُودُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ اللَّهَ سَبِّحَانَهُ وَتَعَالَى أَخْبَرَ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِمَنْزِلَةِ عَبْدِهِ وَنَبِيِّهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ عِنْدَهُ فِي الْمَلَأِ الْأَعْلَى بِأَنَّهُ تَعَالَى يُنْثِي عَلَيْهِ عِنْدَ الْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ وَأَنَّ الْمَلَائِكَةَ تُصَلِّي عَلَيْهِ، ثُمَّ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى الْعَالَمَ السُّفْلِي - الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُمْ - بِالصَّلَاةِ وَالتَّسْلِيمِ عَلَيْهِ؛ لِيَجْتَمَعَ الثَّنَاءُ عَلَيْهِ مِنْ أَهْلِ الْعَالَمَيْنِ الْعُلَوِيِّ وَالسُّفْلِيِّ جَمِيعًا.

وَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِأَنَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يُصَلِّي عَلَى عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، فَقَالَ: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾^(٢)، وَنُشِرَ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ. أَوْلَيْتَكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأَوْلَيْتَ هُمْ الْمُتَهَنِّدُونَ^(٣)، وَفِي الْحَدِيثِ: «إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى مَيَامِنِ الصُّوفِ»^(٤).

(١) انظر: «القول البدیع» (ص ١٧) للسرخاوی.

(٢) الْأَحْزَابُ: ٤٣.

(٣) الْبَقَرَةُ: ١٥٥ - ١٥٧.

(٤) رَوَاهُ: أَبُو دَاوُدَ (٦٦٦)، وَابْنُ مَاجَهَ (١٠٠٥)، وَابْنُ بَيْهَقٍ (٣ / ١٠٣)، وَابْنُ حِبَانَ (٢١٦٠)، وَابْنُ أَبِي شَيْبَةَ (٨١٩)؛ مِنْ طَرِيقِ سَفِيَانَ الثَّوْرِيِّ عَنْ أَسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ عَنْ عُمَانَ بْنِ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَائِشَةَ.

وَحَسَنَ الْحَافِظُ فِي «الْفَتْحِ» (٢ / ٢١٣)!

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى فِي الْبَقَرَةِ: «وَالْمَحْفُوظُ بِهَذَا الْإِسْنَادِ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ: إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى الَّذِينَ يُصَلُّونَ الصُّوفِ».

يُشِيرُ بِذَلِكَ إِلَى شَذُوذِ هَذَا اللَّفْظِ!

وقد جاءت الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ بالأمر بالصلاة عليه
وكيفية الصلاة عليه.

وقد روى البخاري في «صحيحه»^(١) عن كعب بن عجرة رضي الله عنه؛
قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَمَا السَّلَامُ عَلَيْكَ، فَقَدْ عرفناه؛ فكيف الصلاة؟ قَالَ:
«قُولُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى
آلِ إِبْرَاهِيمَ؛ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ. اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا
بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ؛ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ».

وهذا الحديث مخرّج في جميع الكتب الستة والمسانيد المشهورة^(٢).
والسلام الذي كانوا يعرفونه ما في التشهد: «السلام عليك أيها النبي
ورحمة الله وبركاته».

وقد رواه باللفظ المحفوظ: ابن خزيمة (١٥٥٠)، وابن حبان (٢١٦٣)، والحاكم
(١ / ٢١٤)، والبيهقي (١ / ١٠١)، من طريق ابن وهب عن أسامة عن عثمان بن عروة عن
أبيه عن عائشة.

وللفظ: ... ميامن الصفوف: شاهد:

أخرجه ابن عدي في «الكامل» (٥ / ٢٠١٠) عن ابن عباس.
لكنه لا يقرّ به، فيه عسمة الأنصاري، وهو متروك!

(١) برقم (٣٣٧٠، ٤٧٩٧، ٦٣٥٧).

(٢) فأخرجه: مسلم (٤٠٦)، وأبو داود (٩٧٦)، والترمذي (٤٨٣)، والنسائي في
«سننه» (٤٧ / ٣) وفي «عمل اليوم» (٥٤ / ٣٥٩)، وابن السني (٩٤)، وأحمد (٤ / ٢٤١
و٢٤٣ و٢٤٤)، وابن ماجه (٩٠٤)، والدارمي (١٣٤٨)، والبيهقي في «فضل الصلاة
على النبي ﷺ» (٥٦ / ٥٧)، والحاكم (١ / ١٤٨)، وعبد الرزاق في «المصنف» (٣١٠٥
و٣١٠٦ و٣١٠٧)، وغيرهم كثير.

وزادوا في بعض الروايات في «السنن»^(٣): «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ
وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ كَمَا
بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ».

وفي رواية: «وعلى آلِ إِبْرَاهِيمَ في العالمين إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ».

وروى أحمد وابن ماجه^(٤) عن عامر بن ربيعة رضي الله عنه؛ قَالَ:
سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً، لَمْ تَزَلِ الْمَلَائِكَةُ تُصَلِّيْ عَلَيَّ
مَا صَلَّيْتُ عَلَيَّ، فَلْيَعْلَمْ مِنْ ذَلِكَ عَبْدٌ أَوْ لَيْكِيْزَةٌ».

وفي «جامع الترمذي»^(٥) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ

(١) بل في «صحیح البخاری» (٣٣٦٩)، و«صحیح مسلم» (٤٠٧).

ورواه: أبو داود (٩٧٩)، والنسائي (٣ / ٤٩)، وابن ماجه (٩٠٥)، وغيرهم.

الجميع عن أبي حميد الساعدي.

(٢) رواه: أحمد (٣ / ٤٤٥)، وابن ماجه (٩٠٧)، والبيهقي (رقم ٦)؛ من طريق

عاصم بن عبد الله عن أبيه عن النبي ﷺ.

وقال المنذري في «الترغيب» (٢ / ٢٨٠): «وعاصم»، وإن كان واهي الحديث، فقد
مشأه بعضهم، وصحّح له الترمذي، وهذا الحديث حسن في المتابعات، والله أعلم.

وعاصم، أعلى الهشمي في «المجمع» (١٠ / ١٦١).

ولعاصم متابع: أخرجه - بسند فيه ضعف - أبو نعيم في «الحلية» (١ / ١٨٠).

وله شاهد آخر رواه البيهقي (رقم ٣) بسند فيه ضعف عن أبي طلحة.

فالحديث - إن شاء الله - حسن.

(٣) برقم (٤٨٤).

وأخرجه: البخاري في «التاريخ الكبير» (٥ / ١٧٧)، والبيهقي في «شرح السنة»

(٦٨٦)، والنسائي في «أعماله» (١ / ١٣٠)، من طريق عبد الله بن شداد عن ابن مسعود.

ورواه: البخاري في «التاريخ» (٥ / ١٧٧)، والخليل في «شرف أصحاب

وقد روى أبو داود^(١) عن علي بن الحسين بن علي رضي الله عنهم: أنه بلغه أن رجلاً يأتي كل غداة إلى قبر النبي ﷺ ويصلي عليه رافعاً صوته، فقال له علي بن الحسين رضي الله عنه: ما يحملك على هذا؟! قال: أحب السلام على رسول الله ﷺ. فقال علي بن الحسين رضي الله عنهما: أخبرني أبي عن جدّي أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تجعلوا قبري عيداً، ولا تجعلوا بيوتكم قبوراً، وصلوا عليّ وسلّموا حيثما كنتم فتبلغني صلّاتكم وسلّامكم».

قال العماد بن كثير^(٢): لعله رآهم يُسيّئون الأدب برفع أصواتهم فوق الحاجة، فيهاهم.

وأنه رضي الله عنه رأى رجلاً يتنابذ القبر، فقال: يا هذا! ما أنت ومن بالاندلس إلا سواء منه.

أي: الجميع يبلغه صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين.

فيا أيها المؤمنون! صلّوا وسلّموا على محمد رسول الله المبعوث رحمة للعالمين عليه الصلاة والسلام، وكرّروا الصلاة والسلام عليه دائماً؛ ليلاً ونهاراً، صباحاً ومساءً، وأفضل صيغها ما ثبت عن رسول الله ﷺ كما بيّنها، وهي الصلاة التي يصلّون بها في تشهدات صلواتهم؛ فريضها ونفلها.

(١) برقم (٢٠٤٢) المرفوع منه.

ورواه: أحمد (٢ / ٣٦٧)، والبيهقي في «حياة الأنبياء» (ص ١٢٤)؛ بسند حسن. أما القصة؛ ففي سندها مقال؛ كما بيّنته في تعليقي على «معارج الآباب» (ص

١٣٧).

(٢) في «تفسيره» (٢ / ٨٢٠).

واحترز أيها المؤمن عن الصيغ المحدثّة المبتدعة، والأحزاب المؤقتة التي فيها المنكرات بل الأكاذيب والكفريات كـ «دلائل الخيرات»^(١) للبخزلي، و«صلوات الشفاء» للشهباني؛ فإنها من البدع المنكرة، لا يحلّ لمن يؤمن بالله وكتابه ورسالة رسوله محمد ﷺ وسنته أن يفعل ذلك، أو يعتقد جوازها؛ فإنه ممّا لم يأذن به الله ولا رسوله ولا أحد من أئمة المسلمين، فاحذر الحذر.

الآية السبعون فيها أيضاً: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهاً»^(٢).

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين؛ باهياً إيّاهم أن لا يكونوا كالَّذِينَ آذَوْا أنبياء الله، ومنهم موسى عليه السلام؛ فإنه كان رجلاً خبيئاً ستيراً، لا يرى من جلده وبدنه شيء؛ استحياء منه، فآذاه من بني إسرائيل، فقالوا: ما يستتر هذا التستر إلا من عيب في جلده؛ إمّا برص، وإمّا آفة، وإمّا آفة، فأراد الله تعالى أن يبرّئه مما قالوا من الافتراء، فخلا موسى يوماً وحده، فخلع ثيابه على حجر، ثم اغتسل، فلما فرغ؛ أقبل على ثيابه ليأخذها ويلبسها، ولكن الحجر عدا بوبه، فأخذ موسى عصاه، وطلب الحجر، فجعل يقول: ثوبي حجر، ثوبي حجر، حتى انتهى الحجر إلى ملا من بني إسرائيل، فأراه عرباناً أحسن ما خلق الله عز وجل، وبرّاه مما يقولون، وقام الحجر؛ فأخذ موسى ثوبه، فلبسه، وطفّق بالحجر ضرباً بعضاه. هذا حديث صحيح في

(١) وهو من كتب المبتدعة التي يعظمونها، وهي ملأى بالشرك والضلال والانحراف!

(٢) الأحزاب: ٦٩.

«الصحيحين»^(١).

والمقصود أنَّ الله تعالى نهى المؤمنين أن يؤذوا أنبياء الله وأوليائه الله وعباده الصالحين المؤمنين بأي طريق كان؛ كما هو شأن الكفار والمنافقين؛ يؤذون أنبياء الله وعباده المؤمنين، وخصوصاً ورثة الأنبياء الداعين إلى التوحيد إلى الصراط المستقيم.

وقد ثبت في الحديث القدسي^(٢) أنَّ الله تعالى قال: «مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا؛ فَقَدْ أَدْبَتَهُ بِالْحَرْبِ، وَمَنْ أَدْبَتَهُ بِالْحَرْبِ؛ أَدَخَلْتُهُ نَارِي».

ونحن قد نشاهد الآن أنَّ أهل البدعة يؤذون أهل السنة، وأهل الشرك يؤذون أهل التوحيد، وأهل الباطل يؤذون أهل الحق. فيا أيها المؤمنون! لا تكونوا أَتَمَّ كَهُولًا لِسَفَهَاءِ، بل افهموا كلام ربكم ونصائح ربكم، فعضوا عليهما بالواجب. وبالله التوفيق.

الآية الحادية والسبعون فيها أيضاً: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيداً . يُصْلَحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً»^(٣).

قد نادى الله تعالى وخاطب المؤمنين؛ أمراً بإيَّامهم بتقواه، وأن يعبدوه عبادة

(١) رواه: البخاري (٢٧٨)، ومسلم (٣٣٩).

(٢) انظر الفاظه وطريقه بما لا مزيد عليه إن شاء الله في «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (رقم ١٦٤٠).

(٣) الأحزاب: ٧٠ - ٧١.

مَنْ يَرَاهُ، وَأَنْ يَقُولُوا قَوْلًا سَدِيداً؛ أي: مستقيماً؛ لا اعوجاج فيه ولا انحراف، ولا كَذِب فيه ولا اعتساف، ووَعْدُهُمْ أَنَّهُ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ أَنَابَهُمْ عَلَيْهِ؛ بَأَن يَصْلَحَ لَهُمْ أَعْمَالُهُمْ، وَيُغْفِرَ لَهُمُ لِلأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، وَيَغْفِرَ لَهُمُ الذُّنُوبَ الْمَاضِيَةَ، وَيُلْهِمَهُمُ التَّوْبَةَ فِي الْمُسْتَقْبَلِ.

﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾، وذلك بَأَن يُجَازَى مِنْ نَارِ الْجَحِيمِ، وَيَصِيرَ إِلَى النِّعَمِ الْمَقِيمِ.

فَسَأَلَكَ اللَّهُمَّ أَنْ تَجْعَلَنَا مِنَ الْمُتَّقِينَ، وَنَسَأَلُكَ اللَّهُمَّ أَنْ تَجْعَلَنَا مِنَ الْمُطِيعِينَ الصَّادِقِينَ، وَنَسَأَلُكَ اللَّهُمَّ أَنْ تَجْعَلَنَا مِنَ الصَّالِحِينَ الْمُفْلِحِينَ، وَنَسَأَلُكَ اللَّهُمَّ أَنْ تَجْعَلَنَا مِنَ الْمَغْفُورِ لَهُمُ الْمَرْحُومِينَ، وَنَسَأَلُكَ اللَّهُمَّ أَنْ تَجْعَلَنَا مِنَ الْفَائِزِينَ فِي الدَّارَيْنِ بِرِضَاكَ وَالْحِجَةِ آمِينَ.

الآية الثانية والسبعون في سورة الزمر: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ»^(١).

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين بواسطة رسوله محمد ﷺ: يا عبادَ الله الذين اتَّصَفْتُمْ بِصِفَةِ الْإِيمَانِ! اتَّقُوا رَبَّكُمْ، وَاتَّقُوا عَلَى تَقَرُّي رَبِّكُمْ، وَاتَّقُوا الشَّرْكَ وَالْكَفْرَ، وَاتَّقُوا عَذَابَهُ وَغَضَبَهُ، وَاتَّقُوا كُلَّ مَا يُرِيدُكُمْ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ.

فيا أيها المؤمنون! استمروا على طاعة ربكم واتَّقَوْهُ دائماً؛ لَأَنَّ «لِلَّذِينَ

(١) الزمر: ١٠.

أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا؛ أَيُّ: عَمِلُوا الْأَعْمَالَ الْحَسَنَةَ بِالْإِحْلَاصِ لِلَّهِ تَعَالَى ﴿حَسَنَةً﴾؛ أَيُّ: فِي الدُّنْيَا عَاجِلًا، وَفِي دَارِ الْآخِرَةِ الْبَاقِيَةَ أَجَلًا سَرْمَدًا الْجَنَّةَ وَالرَّضَى وَالرِّضْوَانُ، فَالِدُنْيَا مَزْرَعَةُ الْآخِرَةِ، وَإِنَّمَا جَزَاءُ الْإِحْسَانِ الْإِحْسَانُ .
وَحُدِّدَ الْإِحْسَانُ أَنَّ تَعْبُدَ اللَّهَ تَعَالَى كَأَنَّكَ تَرَاهُ عَيْنًا، فَإِنَّ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ؛ فَإِنَّهُ بَرَاكَ، وَهَذَا هُوَ حَقِيقَةُ الْإِحْلَاصِ، وَهَذَا فِيهِ كَمَالُ الْخُشُوعِ وَالْخُضُوعِ وَالتَّذَلُّلِ وَالْانكسارِ.

فَيَا أَيُّهَا الْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ! دُمَّ وَاصْبِرْ عَلَى الْإِيمَانِ وَطَاعَةِ اللَّهِ، وَإِنْ مَنَعَكَ مَانِعٌ وَهَجَمَ عَلَيْكَ الْأَعْدَاءُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَعِبَادِ الْأَوْثَانِ وَالْقُبُورِ وَأَهْلِ الْبِدْعَةِ؛ فَهَاجِرٌ مِنْ هَذَا الْبِلَدِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا؛ لِأَنَّ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةٌ، فَمَنْ تَعَسَّرَ عَلَيْهِ التَّقْوَى وَالْإِحْسَانُ فِي بَلَدِهِ؛ فَلْيَهَاجِرْ إِلَى حَيْثُ يَتِمَكَّنُ فِيهِ مِنْ ذَلِكَ؛ كَمَا هُوَ سُنَّةُ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ؛ فَإِنَّهُ لَا عَذْرَ لِأَحَدٍ فِي الْإِقَامَةِ فِي دَارِ الشُّرْكِ وَالْبِدْعَةِ؛ لِأَنَّ أَرْضَ اللَّهِ وَاسِعَةٌ، وَاللَّهُ هُوَ الَّذِي يَرْزُقُ عِبَادَهُ، وَيَسِّرُ لَهُمْ سَبَابِ الرِّزْقِ، وَهُوَ الرِّزَاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينِ.

فَفِيهِ الْحَثُّ عَلَى الْهَجْرَةِ مِنَ الْبِلَدِ الَّتِي يَظْهَرُ فِيهِ الشُّرْكُ وَالْمَعَاصِي وَالْكَفْرُ وَالضَّلَالُ؛ كَالْتَرَكْسَانِ، وَمَا وَرَاءَ النَّهْرِ، وَالصِّينِ، وَالْهِنْدِ، وَالتُّرْكِ، وَمَا شَائِبُهَا.

وقد ورد في الحديث الصحيح^(١): «مَنْ قَرَّبَ بَدِينَهُ إِلَى أَرْضٍ إِلَى أَرْضٍ؛

(١) لا؛ لم يصح، فقد أخرجه التلعي من رواية عباد بن منصور التاجي عن الحسن مرسلاً؛ كما في «الكافي الشاف» (ص ٤٨ و ١٢٨).
وعُبَادٌ، صَدُوقٌ، مَدْلَسٌ، مَخْلَطٌ.

وَجَبَّتْ لَهُ الْجَنَّةُ.

وَأَمَّا قَالَ: «بَدِينِهِ»؛ احْتِرَازًا عَنِ الْفِرَارِ بِسَبَبِ الدُّنْيَا وَلَاجِلِهَا، كَأَكْثَرِ الْبَخَارِيِّينَ الَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بِلَادِهِمْ فِرَارًا مِنَ الْبِلَاشَةِ لِأَجْلِ الدُّنْيَا لَا لِأَجْلِ الدِّينِ، وَالِدَّلِيلُ عَلَى هَذَا أَنَّهُمْ، وَإِنْ جَاؤُوا إِلَى الْحَرَمَيْنِ، وَأَقَامُوا فِيهِمَا؛ فَهُمْ لَا يَسْأَلُونَ عَنْ مَعْنَى كِتَابِ اللَّهِ، وَلَا سُنَّةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَا عَنِ الْحَقِّ وَالْحَقِيقَةِ، بَلْ يَسَادُونَ أَهْلَ الْحَقِّ، وَيَنْفَرُونَ عَنْ اسْتِمَاعِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ، وَيَنْفَرُونَ غَيْرَهُمْ أَيْضًا، وَهُمْ أَعْدَاءُ السُّلُفِ وَالسُّلَفِيِّينَ، وَفِي الْعَقِيدَةِ جَهْمِيُونَ وَمَعْطِلُونَ، وَيَعْبُدُونَ مَعَ اللَّهِ الْأَوْلِيَاءَ وَأَرْوَاحَهُمْ، فَيُذَعَّرُونَهُمْ، وَيَتَذَرُونَ لَهُمْ، وَيَسْتَغِيثُونَ بِهِمْ، وَيَسْتَمِدُّونَ مِنْهُمْ، فَهُمْ لَيْسُوا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ لِلَّهِ وَالرُّسُولِ، بَلْ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ لِدُنْيَا يُصَيِّبُونَهَا، أَوْ أَمْرًا يُنَكِّحُونَهَا كَمَا لَا يَخْفَى؛ إِلَّا مَنْ هَدَاهُمُ اللَّهُ تَعَالَى وَوَفَّقَهُمْ، وَهُمْ قَلِيلُونَ.

فَيَا أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ! آمِنُوا بِاللَّهِ وَبِكِتَابِهِ، وَبِرَسُولِهِ وَسِتِّهِ، وَاعْمَلُوا بِهِمَا، وَاتْرَكُوا مَا خَالَفَهُمَا، وَاحْذَرُوا عَذَابَ اللَّهِ وَغَضَبِهِ، وَلَا تَغْتَرُّوا بِالْمَذَاهِبِ وَالْمَشَايِخِ الْغَيْرِ مَعْصُومِينَ؛ فَإِنَّهُ لَا يَنْفَعُكُمْ فِي الدِّينِ، وَلَا تَقْصُرُكُمْ عَنْ مَكَّةَ وَجَوَارِ الْكَعْبَةِ وَالْمَدِينَةِ الطَّيِّبَةِ إِذَا لَمْ تَكُونُوا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ؛ فَإِنَّ أَبَا جَهْلٍ

= وَوَصَلَهُ ابْنُ مَرْوَانَ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ؛ كَمَا فِي «الدر المنثور» (٦ / ١٧٦).

وَفِي سَنَدِهِ وَضَاعٌ؛ كَمَا فِي «الفتاوى المجموعة» (رقم ١٤٢٥).

وَصَرَّحَ بِهِ ابْنُ عَرَفٍ فِي «تنزيه الشريعة» (٢ / ١٨٧)، فَقَالَ: «وَفِيهِ مُجَانِسٌ بَيْنَ

عَمْرُو!!

وَهُوَ كَذَّابٌ؛ كَمَا فِي «الكشف الخفي عَنْ رُؤْيِي بَوَاحِ الْحَدِيثِ» (ص ٢١٤) لِبَيْطِ ابْنِ الْعَجَمِيِّ.

وأبأ لهب وأمثالها كانوا من أهل هذا البلد الأمين، فلم تنفعهم مجاورتهم؛ لأنه لا يقُدُّس الإنسان إلا إيمانه الصادق وأعماله الصالحة.

الآية الثالثة والسبعون فيها أيضاً: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾^(١).

أمر الله تعالى رسوله محمداً ﷺ أن يبلغ عباد الله تعالى عموماً، والذين أسرفوا على أنفسهم بارتكاب الكفر والمعاصي: أن يتوبوا إلى الله، ويُنبِئوا إليه، ولا يقنطوا من رحمة الله ومغفرته؛ فإنه تعالى يغفر الذنوب جميعاً؛ لأنه هو الغفور الرحيم.

فيا أيها الناس! أنبئوا إلى ربكم الذي خلقكم، وأسلموا له جل جلاله في هذه الحياة الدنيا؛ من قبل أن يأتىكم العذاب ثم لا تتصرون.

فيا أيها المسلمون! توبوا إلى الله تعالى الرؤوف الغفار؛ فإن الله تعالى يغفر الذنوب جميعاً؛ لمن تاب منها ورجع عنها، وإن كانت مهما كانت، وإن كثرت وكانت مثل زبد البحر.

ولا يصح حمل هذه على غير توبة؛ لأن الشرك لا يغفر لمن لم يتب منه.

فتوبوا أيها المسلمون من كل ما نهى الله عنه من الشرك والكفر والنفاق والظلم والبدعة والفسق والفجور، فإذا تبتم؛ تاب الله عليكم، وغفر لكم ما

(١) الزمر: ٥٣.

تقدم من ذنوبكم، ورحمكم بفضلِهِ ورحمته.

الآية الرابعة والسبعون فيها أيضاً: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَقْبَلُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾^(١).

هذه الآية أمر من الله تعالى لرسوله محمد ﷺ أن يبشّر عباد الله الذين اجتنبوا عبادة الطاغوت؛ أي: الأوثان والشيطان والقبور والأرواح؛ بل أنابوا ورجعوا إلى عبادة الرحمن وحده لا شريك له، فهؤلاء الموحّدون هم الذين لهم البشّرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة بالمغفرة والجنة.

﴿فَبَشِّرْ﴾ يا محمد ﴿عباد﴾ أي المؤمنين، ﴿الَّذِينَ يَسْمَعُونَ الْقَوْلَ﴾ القرآن، ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾؛ أي: يفهمونه ويعملون بما فيه، وإذا استمعوا القرآن وغير القرآن؛ فَيَتَّبِعُونَ الْقُرْآنَ، ﴿أُولَئِكَ﴾ هم الموحّدون الذين يتبعون القرآن، والمتصفون بهذه الصفة هم ﴿الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ﴾ في الدنيا والآخرة، ﴿وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾؛ أي: ذوو العقول السليمة والفطر السقيمة.

فيا أيها المؤمنون! تفهموا كلام ربكم، واستمعوه؛ لأنه أحسن الكلام، فاعملوا به؛ فتفوزوا بالروح والرحبان والجنة والرّضوان، وأما إذا عرضتم عنه، واشتغلتم بالفلسفة والسفسطة والاشعار والمعاني والأغلاط وشرافات الصوفية؛ كأهل بخارى والهند والعراق؛ فسيتنلّون بغضب الله الواحد القهار، فيسلط عليكم البلاغة الأشرار، فيذيقونكم العذاب وبشّ القار؛ لأن

(١) الزمر: ١٧ - ١٨.

من سبَّ الله المطردة أنه يسلب بعض الظالمين على بعض، وإذا عصوا الله مع دعواهم الإسلام؛ سلب الله عليهم الدَّهرين؛ كما ورد في الحديث القدسي: «إذا عصاني من يعرفني سلطت عليه من لا يعرفني»^(١).

الآية الخامسة والسبعون في سورة الزخرف: ﴿يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾. الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ. ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُخْبَرُونَ^(٢).

قد نادى الله تعالى عباده المؤمنين نداء كرامة وتشريف، فقال: ﴿يَا عِبَادِ﴾ المؤمنين المتقين الذين آمنوا بآيات الله وعبادتهم، وانقادوا لشرع الله وجارحهم وظواهرهم، ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾؛ أي: يوم القيامة من لقاء المكاره، ﴿وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ من فوت المقاصد كما يخاف ويحزن غير المؤمنين المتقين، وهؤلاء: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ صادقين مخلصين، فإِنَّ مِنْ هَذِهِ صِفَتِهِمْ! ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُخْبَرُونَ﴾؛ أي: تستمعون وتستعدون وتُسرون سرورا يظهر جوارحه؛ أي: أثره على وجوهكم على أحسن الهيئة.

فيا أيها المؤمنون! آمنوا بآيات الله كلها، وأسلموا لكل أوامر الله بالصدق والإخلاص، وذلك موقوف على فهمكم كلام ربكم وتدبر معانيه، فتدبروا وتفكروا في آيات الله والآله؛ لأنكم أنتم المخاطبون بذلك، وأنتم المكلفون بالعمل به.

(١) سبق (ص ٣٧). ويثبت أنه لا أصل له.

(٢) الزخرف: ٦٨ - ٧٠.

الآية السادسة والسبعون في سورة محمد ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾^(١).

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين، وأعلمهم شارطاً عليهم أن يؤمنوا بالله إيماناً صحيحاً، ويعملوا بما أمر من إحضار العدة والأسلحة بما استطاعوا حسب زمانهم ومكانهم، فاستعملوها متوكلين على الله تعالى بإخلاص التَّيَّةِ لإعلاء كلمة الله تعالى، فالله تعالى ينصرهم على أعدائهم، ويجعلهم غائبين بإلقاء الرعب والخوف في قلوب أعدائهم المشركين وأضدادهم الكافرين؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَيُثَبِّتُ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾؛ فإن الجزاء من جنس العمل، ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾^(٢)؛ أي: باستعمال أسلحة الحديد، ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ ويقوي قلوبكم.

وقد صدق الله العظيم؛ فإن المسلمين لما كانوا كاملين للإسلام؛ كالخلفاء الراشدين والصحابية والتابعين لهم بإحسان رضي الله عنهم نصرهم الله تعالى على الأعداء، وفتح على أيديهم البلدان الكثيرة، ودخل الناس في دين الله أفواجا، فجزأهم الله تعالى في الدارين خير الجزاء.

وَأَمَّا الْخُلَفَاءُ الَّذِينَ خَلَفُوا اللَّهَ، وخالفوا أمره، وخالفوا رسول الله ﷺ، وخالفوا سنته، وخالفوا الشُّلْفَ الصالحين، وتركوا العمل بكتاب الله الهادي إلى سعادة الدارين، وجعلوا معانيه، واتخذوا دينهم هزواً ولعبةً، واعتمدوا على

(١) محمد: ٧.

(٢) الحديد: ٢٥.

الْخُرَافَاتِ وَخَلَّجَ الدَّجَالِينَ، واعتقدوا أَنَّ أرواحَ الأولياءِ تُعينُهُم وتمُدُّهُم، وأنَّ الاقطابَ والأوتادَ تنصرفُ في العالمِ وتحفظُهُ، فَبَنَوْا الأربطةَ والخانقَاتِ، واشتغلوا بالخرافاتِ والخرعبياتِ، بل الشُرَكَائِ والبديعَاتِ والضلالاتِ، وساعدهم السلاطينُ الجهلةُ والعلماءُ الدجالَةُ؛ فسلبَ اللهُ تعالى عنهم الدولةَ، وسلطَ عليهم الكفرةَ الخذلةَ، ﴿ذَلِكَ بَأْنِ اللَّهِ لَمْ يَكْ مُفْتَرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بَاتِفْسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^(١).

فيا أيُّها المسلمون! أفيقوا من سكرتكم، واستعملوا عقولكم، وارجعوا إلى دينكم، ألا وهو العملُ بكتابِ الله وسنةِ رسولِ الله ﷺ؛ اعتقادياً، وعملياً، وقولياً، والاحترازُ عن كُلِّ ما خالفهما من التقليدِ الجامدِ للأبائِ، والاعتمادِ على أقوالِ غيرِ المعصومين من المؤلفين، عسى اللهُ تعالى أَنْ يعفو عنكم، اللهم إنا نسألك الهدايةَ والتوفيقَ.

الآيةُ السابعةُ والسبعونُ فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾^(٢).

قد نادى اللهُ تعالى وخاطبَ عباده المؤمنين؛ آمراً إياهم بأن يطيعوا الله تعالى ويطيعوا رسوله محمداً ﷺ، ونهاهم عن إبطالِ أفعالهم؛ بالارتدادِ، وردِّ كلامِ الله وكلامِ رسوله، ومخالفةِ أمرِ الله وأمرِ رسوله؛ يعني: أَنَّ الطاعاتِ والعباداتِ والإيمانَ إنما تنفعُ صاحبها إذا استمرَّ صاحبُها ودامَ عليها حتى ماتَ

(١) الأنفال: ٥٣.

(٢) محمد: ٣٣.

عليها، وأما إذا تغيرَ في آخرِ عمره - والعياذُ بالله -، وارتدَّ عن دينه، أو شكَّ في شيءٍ من أمرِ ربِّه، أو أشركَ باللهِ في عبادته أو ربوبيته أو صفاته؛ فقد خَبِطَ عمله، فصارَ من الخاسرينَ؛ كَمَنْ يدعو غيرَ اللهِ مِنَ الملائكةِ أو الأنبياءِ والأولياءِ أو الأرواحِ؛ على اعتقادِ أَنَّهُ يسمعُ ويقضي حاجته، أو يقدرُ على كُلِّ شيءٍ من النفعِ والضَّرِّ، أو كَمَنْ يَتَنَزَّلُ لغيرِ اللهِ على اعتقادِ أَنَّهُ جائزٌ أو قربةٌ، أو كَمَنْ يدعو عبدَ القادرِ الجيلانيِّ مثلاً ويقولُ: يا غوثَ الأعظمِ! المددُ، أو أغني، فكلُّ هذا شركٌ كبيرٌ، بل أكبرُ، لا تنفعُ معه طاعةٌ ولا عبادةٌ ولا صلاةٌ ولا طوافٌ ولا قراءةٌ قرآنٌ ولا غيرها؛ إلا إذا تابَ توبةً صحيحةً، فاللهُ توابٌ رحيمٌ.

فيا أيُّها المسلمون! داومُوا على طاعةِ الله وطاعةِ رسوله، ولا تُبْطِلُوا عبادتكم وإيمانكم بالشركِ والكفرِ والارتدادِ، وتفكروا وتدبروا في فهمِ معاني كلامِ ربكم؛ فإنَّه تعالى يقولُ: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾^(١)، وهذا أمرٌ مِنَ الله تعالى بتدبرِ القرآنِ وتفهمه، ناهياً عن الإعراضِ عنه، فعلى قلوبِ الكفارِ أقفالُها، فهي مغلقةٌ، لا يخلصُ إليها شيءٌ من معانيه، فلا يفهمونَ مواضعَ القرآنِ وأحكامه، والفَتْحُ هو اللهُ تعالى، فاسألوا مِنَ الله تعالى أَنْ يَفْتَحَ قلوبكم لفهمِ معاني كتابه، ويتوبَ بصركم وبصيرتكم به بفضله ومنه وجوده وكرمه. آمين.

ويا أيُّها المؤمنون! أطيعوا الله وأطيعوا الرسولَ في العقائدِ والشرائعِ كُلِّها، فلا تُشَاوُوا الله ورسوله في شيءٍ منها، ولا تُبْطِلُوا إيمانكم وأعمالكم بالشركِ والكفرِ والنفاقِ والرياءِ والمنِّ والأذى والعُجْبِ وغيرها.

(١) محمد: ٢٤.

وفي الآية إشارة إلى أن كل عمل وطاعة لم يكن بأمر الله وسنة رسوله؛ فهو باطل، لم تكن له ثمرة؛ لأنه صدر عن الهوى والطبيعة.

فعليك أيها المؤمن بالإطاعة واستعمال الشريعة، وإياك والمخالفة والإهمال.

ومن جملة الذين بطلت أعمالهم الذين يصدون الناس عن سبيل الله وعن استماع كلام الله وكلام رسوله ﷺ؛ أكثر البخاريين الذين هم مقيمون في الحرمين؛ يمتنعون مجالسهم عن استماع تفسير كلام رب العالمين، وعن استماع أحاديث رسول الله المبعوث رحمة للعالمين، وينفرون الناس عن استماع التوحيد الصحيح وأهله، فهم إن ماتوا على هذا الحال قبل التوبة؛ فقد خيبت أعمالهم، فبئس الحال حالهم، وهم، وإن ظنوا أنهم يقرؤون «دلائل الخيرات»، ولكنهم بعيدون ومحرومون عن كل الخيرات، أعاذنا الله تعالى من العمى والضلال.

الآية الثامنة والسبعون في سورة الحجرات: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^(١).

قد نادى الله تعالى وخاطب المؤمنين؛ ناهياً إياهم عن التقدم بين يدي الله ورسوله، وهذا أدب أدب الله تعالى به عبادة المؤمنين، وهو أن لا يشعروا في أمر من الأمور قبل صدور أمر الله ورسوله، ولا يسرعوا فيه بهواهم أو تقليداً لغير المصنوع من المؤلفين، بل لا بد أن يكونوا تبعاً له في جميع الأمور.

(١) الحجرات: ١

وقد ثبت في الحديث الصحيح^(٢) عن معاذ رضي الله عنه أنه حين بعث النبي ﷺ إلى اليمن؛ قال له: «بم تحكم؟». قال: بكتاب الله تعالى. قال ﷺ: «فإن لم تجد؟». قال: بسنة رسول الله ﷺ. قال ﷺ: «فإن لم تجد؟». قال: أفتجد رأيي. ففرض رسول الله ﷺ في صدره، وقال: «الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله ﷺ ليعا رضي رسول الله ﷺ».

فالغرض منه أنه أخر رأيه ونظره واجتهاده إلى ما بعد الكتاب والسنة، ولو قدمه قبل البحث عنهما؛ لكان من باب التقديم بين يدي الله ورسوله.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ: لَا تَقُولُوا خِلَافَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ^(٣)، وَلَا تَقْضُوا أَمْرًا دُونَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ مِنْ شُرَائِعِ دِينِكُمْ».

ولهذا قد أجمعوا على أن مبنى الدين والإيمان والعبادات على الاتباع لا على الابتداع.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فيما أمركم به، ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ لأقوالكم ونياتكم وأعمالكم وحركاتكم وسكناتكم.

فيا أيها المؤمنون! لا تقدّموا أمراً من الأمور بين الله ورسوله، ولا تقطعوه

(١) لم يصح، بل له على عدة، وقد طوّلت الكلام عليه تخريجاً وتعليقاً في جزءه سبّيته «الإنسان في طرق حديث معاذ في الرأي والقياس»، وهو الجزء الأول من سلسلتي «الأجزاء الحديثة»، وهو تحت الطبع منذ نحو أربع سنوات!!

(٢) رواه ابن جرير (٢٦ / ١١٦)، ولورده السيوطي في «الدرر» (٧ / ٥٤٦) وزاد نسبه لابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه وأبي نعيم.

إلا بعد أن يحكما به ويأذنا فيه، فتكونوا عاملين بالوحي المنزل، ومقتدين بالنبي المرسل ﷺ، واتقوا في كل ما تأتون وما تَدْرُونَ مِنَ الأقوال والأعمال؛ لأن الله تعالى سميعٌ عليمٌ، فيَنْ حَقُّهُ أَنْ يَتَّقَى وَيُرَاقِبَ.

ولا شك أن التقدم خروج عن صفة المتابعة، واستقلال في الأمر، فيكون منافياً للإيمان.

وعومُ اللفظ يشمل النهي عن الذبح يوم الأضحية قبل الصلاة^(١)؛ كأنه قيل: لا تَذْبَحُوا قَبْلَ أَنْ يَذْبَحَ النَّبِيُّ ﷺ، ويشمل النهي عن صوم يوم الشُّكْ؛ أي: لا تصوموا قبل أن يصوم نبيكم^(٢).

ولا شك أن ظاهر الآية عام في كل قول وفعل، ولذا حذفت مفعول «لا تَقْدِمُوا»؛ لِيَذْهَبَ ذَهْنُ السَّامِعِ كُلِّ مَذْهَبٍ مِمَّا يُمْكِنُ تَقْدِيمُهُ مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ؛ مثلاً إذا جرت مسألة في حضوره ﷺ، فلا تسبقوه بالجواب، وإذا حضر الطعام؛ فلا تبدئوا بالأكل قبله، وإذا ذهبتم إلى موضعٍ معه؛ فلا تمشوا أمامه إلا لمصلحةٍ دعت إليه، ومن هذا قالوا: لا يجوز تقديم الأصاغر على الأكابر إلا لمصلحةٍ، فيدخل في النهي المشي بين يدي العلماء؛ لأنهم ورثة الأنبياء^(٣).

واعلم أن من شرط المؤمن أن لا يرى رأيه وعقله واختياره فوق رأي النبي

(١) انظر: «صحيح البخاري» (١٠ / ٤)، و«صحيح مسلم» (١٩٦٢).

(٢) فارق به «جامع الأصول» (٦ / ٣٠٠ - ٣٥١).

(٣) وهذا القياس ليس دقيقاً كما يلاحظه المتأمل! وما أشبه اليوم بالأمس! قاله الهادي.

ﷺ، ويكون مستسلماً لما أتى به رسولُ الله ﷺ، فالذين يقدمون قوانين البشر على أوامر الله ورسوله ليسوا مؤمنين؛ كالأتراك الكماليين، والعراقيين الجمهوريين^(١).

الآية التاسعة والسبعون فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾^(٢).

قد نادى الله وخاطب عباده المؤمنين؛ ناهياً إياهم عن رفع أصواتهم فوق صوت النبي ﷺ حينما يخاطبونه ويكلمونه في حضوره ومجلسه ﷺ، وقد روي هنا أحاديث في الصحاح^(٣) فعليك بها إن أردت التفصيل.

قال ابن كثير^(٤): «وقد رُوينا^(٥) عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سمع صوت رجلين في المسجد النبوي، وقد ارتفعت أصواتهما،

(١) ومساءلة الحكم بغير ما أنزل الله من شائكة المسائل في هذا العصر، فترى كثيراً من الشباب المسلم يطلق القول بالكفر على عوانته، دون تأمل أو تفرق بين الكفر المخرج عن الملة - وهو الجحود - أو غير المخرج - وهو عدم الفعل فقط...

والتفصيل في ذلك بطول، فانظر كتاب «الفتاوى المهمات»... (رقم ١) للشيخ محمود شلتوت، بتعليقي، نشر دار ابن الجوزي.

(٢) الحجرات: ٢.

(٣) انظر: «صحيح البخاري» (٨ / ٤٥٢ - ٤٥٤).

(٤) في «تفسيره» (٤ / ٣١٥).

(٥) كما في «صحيح البخاري» (١ / ٤٦٥).

فجاء فقال: أتدريان أين أنتم؟ ثم قال: من أين أنتم؟ قالوا: من أهل الطائف.
فقال: لو كنتم من أهل المدينة لأوجعتكما ضرباً.

وعن هذا قال العلماء: يكره رفع الصوت عند قبر النبي ﷺ كما كان يكره في حياته ﷺ؛ لأنه ﷺ محترم حياً وميتاً وفي قبره دائماً.

وقد نهى الله تعالى عن الجهر له بالقول كما يجهر الرجل لمخاطبه ممن عده، بل يخاطبه بسكينة ووقارٍ وتعظيم، فما يفعلُه الناس اليوم من الصباح والغواء عند قبره ﷺ من المحرمات المنهي عنها التي لا يرضى بها الله تعالى ولا رسوله ﷺ، فالحذر الحذر، بل اللازم الإسلام عليه عليه الصلاة والسلام بالأدب والخشوع لدى الزيارة؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُأْذُونَكَ مِنْ ذُرَى الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾، فالتاس اليوم ينادون عند قبر النبي ﷺ بالصياح الفاحش: يا رسول الله! ونحوه!! فهم جهال لا عقل لهم، فلا شك أنهم محرومون عن فضائل اتباع رسول الله ﷺ، ويدخل في هذا النهي الجهر والتكلم عند تحديث أحاديث النبي ﷺ، ولو رأى السلف مجالس هذا الزمان؛ من مجلس الوعظ، والدرس، واجتماع في المولد، ونحوه؛ لخرجوا من ساعته.

الآية الثمانون فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلٰى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ (١).

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين؛ مرشداً إياهم أن يتأنوا في

(١) الحجرات: ٦.

قبول أخبار الفاسقين، ويتبينوا ويحققوا تحقيراً؛ لأن الفاسق من حيث إنه فاسق من شأنه الكذب، ولأنهم إذا قبلوا قوله بلا تبين ربما حكموا بغير حق؛ بناء على خبره الكاذب، فيصحبون على ما فعلوا من الحكم بالخطأ نادمين، حيث لا يفهمهم الندم بعد الحكم؛ كما وقع في قصة الحارث بن ضرار الخزاعي رضي الله عنه، حيث كذب عليه الوليد بن عتبة، وقال: إن الحارث قد منعني الزكاة وأراد قتلي، فغضب رسول الله ﷺ على الحارث، فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا...﴾ الآية؛ كما هو مسوط في كتب الأحاديث والتفسير (١).

فلهذا قد أمر الله تعالى المؤمنين بالتثبت في خبر الفاسق؛ ليحاط؛ لئلا يُحكم بقوله، فيكون في نفس الأمر كاذباً أو مخطئاً، فيكون الحاكم بقوله قد اقضى أثره وأراءه، وقد نهى الله تعالى عن اتباع سبيل المفسدين والفاسقين والكاذبين، وعن هذا كان النبي ﷺ يقول: «التثبت من الله، والعجلة من الشيطان» (٢).

(١) رواه: أحمد (٤ / ٢٧٩)، والطبراني في «الكبير» (٣٣٩٥)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص ٤٥١)؛ من طريق عيسى بن دينار عن أبيه عن الحارث وسنده حسن لولا جهالة دينار والد عيسى!

(٢) وأورد الحديث السيوطي في «الدر المنثور» (٦ / ٨٧)، وزاد نسبه لابن أبي حاتم وابن مردويه وابن منده، وقال: «سند جيد».

وقال الهيثمي في «المجمع» (٧ / ١٠٩): «ورجاله ثقات».

وله شواهد عدة، فانظر رسالتي «التحذيرات...» (ص ١٠).

(٣) رواه: أبو يعلى (٤٢٥٦)، والبيهقي (١٠ / ١٠٤)؛ من طريق سعد بن سنان عن أنس، وزاد ابن حجر في «المطالب العالية» (٢٨١٢) نسبه لابن أبي شيبة وابن منيع

نَكَرَ الْفَاسِقُ؛ لِيَدُلَّ عَلَى الْعُمُومِ؛ أَيْ: أَيُّ فَاسِقٍ كَانَ. وَنَكَرَ النَّبِيُّ أَيْضاً؛ أَيْ: أَيُّ خَيْرٍ كَانَ؛ لِيُخْتَرَّ عَنْ قَبُولِ خَيْرٍ كَانَ فَاسِقٌ، وَخُصُوصاً إِذَا كَانَ الْخَيْرُ خَيْراً عَظِماً وَقَعَهُ فِي الْقُلُوبِ، فَالْإِثْرُ التَّعَرُّفُ وَالتَّحَقُّصُ، حَتَّى يَبْتَيَّنَ لَكُمْ مَا جَاءَ بِهِ؛ أَصْدَقُ هُوَ أَمْ كَذِبٌ؟ وَلَا تَعْتَمِدُوا عَلَى قَوْلِهِ الْمَجْرَدِ؛ لِأَنَّ مَنْ لَا يَتَحَامَى جَسْنَ الْفُسُوقِ لَا يَتَحَامَى الْكَذِبِ الَّذِي هُوَ نَوْعٌ مِنْهُ.

والحارث بن أبي أسامة.

وقال البوصيري في «الإتحاف» (٢ / ١٤٧): «رواته ثقات».

وقال الهيثمي في «المجمع» (٨ / ١٩): «ورجاله رجال الصحيح»!

قلت: وكلاهما وأمان، إذ سعد بن سنان تكلم فيه كثيراً - ووثقه بعضهم، فبعض أهل العلم يحسن له - وهو ليس من رجال الصحيح.

وله شواهد:

فقد روى: الترمذي (٢٠١٢)، والبخاري (١٣ / ١٧٦)، والطبراني في «الكبير» (٥٧٠٢) وفي «مكارم الأخلاق» (٢٧)، عن ابن عباس مرفوعاً: «الآفة من الله، والمصلحة من الشيطان».

وقال الترمذي: «حديث حسن غريب».

وقال السخاوي في «المقاصد» (٣١٢): «وقد تكلم بعضهم في عبدالمهيمن، وضعمه من قبل حفظه».

وله شاهدان مرسلان بلفظ: «التَّيْنِ من الله...».

الأول: عن قتادة. أخرجه الطبري في «التفسير» (٢٦ / ١٢٤).

الثاني: عن الحسن. أخرجه العسكري من طريق سهل بن أسلم عنه؛ كما في «المقاصد» (٣١٢).

فالحديث بهذه الشواهد حسن إن لم يكن أعلى.

وقد ضعف شيخنا في «ضعيف الجامع» (٢٥٠٤) رواية الحسن مرسلًا!

والرواية عندهم جميعاً ليس فيها «التَّيْنُ» - كما عند المصنف - وإن كان المعنى واحداً، ثم رأيتها في «تفسير ابن كثير» (٤ / ٣٢٢) هكذا من مرسل قتادة!!

وفي الآية دلالة على أَنَّ الجاهل لا بدَّ أن يصير نادماً على ما فعله جهلاً، والذي يكذب عمداً فهو في النار.

فيا أيها المسلمون! احترزوا من الفسق، ومن قبول خبر الفاسق؛ لأنه يكون سبباً لمفاسد لا تحصى، ولكنَّ الأسف ألف أسف على حال المسلمين اليوم أَنَّهُ غلبَ عليهم الفسق والكذب، ويعتدونه تذكيراً وعقلاً، فلهذا فسدوا وأفسدوا، وخصوصاً بعض مجاوري الحرمين، والسبب في هذا كله إِنَّمَا هُوَ غفلتهم أو جهلهم بمعاني كلام ربهم، وغفلتهم ونسيانهم كونهم مسؤولين عنه يوم القيامة ويُجازون بذلك.

فيا أيها المسلمون! أما تخافون من الله الخبير البصير وعذابه الاليم؟ تُخَادِعُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَحِجَّاجَ بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ، فَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ.

الآية الحادية والثمانون فيها أيضاً: «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخُوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ»^(١).

أَرشَدَ اللَّهُ تعالى عباده المؤمنين؛ أمراً يَأْتِيهِمْ أَنْ يُصْلِحُوا بَيْنَ إِخْوَانِهِمُ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا وَقَعَتْ بَيْنَهُمْ مُنَازَعَةٌ وَمَخَاصِمَةٌ؛ لِأَنَّ الْبَشَرَ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ بَشَرٌ، قَدْ يَخْطِئُ، فَقَدْ تَقَعَّ الْمَقَاتِلَةُ خَطَا، «وَاتَّقُوا اللَّهَ» فَلَا يَظْلِمُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً، وَلَا يَتَعَدَّى بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَأَصْلَحُوا فِيمَا بَيْنَكُمْ، «لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ»، والعبدُ الْمُؤْمِنُ لَا يَخْرُجُ بِالْمَعْصِيَةِ عَنِ الْإِيمَانِ إِذَا لَمْ يَسْتَحِلِّهَا وَإِنْ كَثُرَتْ.

(١) الحجرات ١٠.

والمؤمنون جميعهم - عربهم وعجمهم، وأبيضهم وأسودهم - إخوة في الدين؛ كما قال رسول الله ﷺ: «المسلم أخو المسلم؛ لا يظلمه، ولا يظلمه»^(١).

وإذا دعا المسلم لأخيه بظهر الغيب؛ قال الملك: آمين، ولك بمثله^(٢).

ومثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتواضعهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو؛ تداعى له سائر الجسد بالحسنى والسريرة^(٣).

«المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً، وشبك بين أصابعه»^(٤).

وقال ﷺ: «المسلم أخو المسلم؛ لا يظلمه، ولا يشتمه، من كان في حاجة أخيه المؤمن؛ كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة؛ فرج الله تعالى بها عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة»^(٥).

اعلم أن أخوة الإسلام أقوى من أخوة النسب، بحيث لا تعتبر أخوة النسب إذا خلت عن أخوة الإسلام، ألا ترى أنه إذا مات المسلم وله أخ كافر

(١) رواه: البخاري (٧٠ / ٥)، ومسلم (٢٥٨٠)؛ عن ابن عمر.

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٣٢) عن أبي الدرداء.

(٣) رواه: البخاري (١٠ / ٣٦٦)، ومسلم (٢٥٨٦)؛ عن النعمان بن بشير.

(٤) رواه: البخاري (٥ / ٧١)، ومسلم (٢٥٨٥)؛ عن أبي موسى الأشعري.

(٥) وانظر ما سبق (ص ٢٢٥).

يكون ماله للمسلمين لا لأخيه الكافر؛ وكذا إذا مات أخوه الكافر لا يرثه المسلم؛ وذلك لأن الجامع الفاسد لا يفيد الأخوة، ولما كان الجامع المعبر هو الدين؛ قال رسول الله ﷺ: «أهل محمد كل تقى»^(١)؛ أي: المؤمن التقى، «وسلمان منا آل البيت»^(٢)، كما قال الله عز وجل: «إِنْ أُولَآئِئَا إِلَّا الْمُتَّقُونَ»^(٣)، «ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ»^(٤).

وكما أنه من حق الأخوة في الدين الإصلاح بين الإخوان المؤمنين، كذلك أن تجب لأخيك المؤمن ما تحب لنفسك، فإن استعانك أعتنه، وإن استنصرَكَ نصرته.

ولكن الأسف أن المسلمين تركوا العمل بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، وتجهلوا معانيها، فصاروا يفيض بعضهم بعضاً، حتى صار إخوان الزمان جواسيس العيوب.

(١) هو حديث ضعيف جداً، مروى عن أنس رضي الله عنه من طرق، وكلها شديدة الضعف، فانظر «السلسلة الضعيفة» (١٣٠٤) لمعرفة التفضيل.

(٢) رواه: البيهقي في «الدلائل» (٣ / ٤١٨)، وابن سعد (٤ / ٨٢)، وابن جرير (٢١ / ٨٥)، والحاكم (٣ / ٥٩٨)؛ عن عمرو بن عوف المزني.

وقال الذهبي في «السير» (١ / ٥٤٠) غيب إرياده: «كثير متروك».

قلت: هو كثير بن عبدالله المزني!

وَوُي الحديث موقوفاً على علي:

رواه الفسري في: «المعرفة والتاريخ» (٢ / ٥٤٠)، والطبراني في «الكبير» (٤١ / ٦٠)، والخطيب في «الموضح» (٢ / ٢٦٢)؛ من طرق عنه.

فهو حسن إن شاء الله موقوفاً، موضوع مرفوعاً.

(٣) الأنفال: ٣٤.

(٤) يونس: ٦٢ - ٦٣.

فالحذرُ الحذرُ من إخوانِ الزمانِ؛ لأنهم محرومونُ من الوظائفِ الإسلاميةِ الواجبةِ؛ كما صاروا محرومينَ من العملِ بكتابِ الله وسنةِ رسولِ الله ﷺ، وإن ادَّعوا إِنْهُمْ أَهْلُ الحديثِ أو سلفُون^(١)، ولكنْ أَعْمَالُهُمْ تَكْذِبُ دَعْوَاهُمْ كما هو المشاهدُ، فبِا لُغْرَةِ الإسلامِ من علمائِهِ وأدعيائِهِ! ولَهَذَا قد حرَّمَهُم اللهُ تعالى من خلافةِ الأرضِ، وجعلَهُمُ محكُومينَ أدْلَاءَ تَحْتَ أَرْجُلِ الكافرينَ؛ إلَّا آلَ السَّعُودِ وآلَ مُحَمَّدٍ بنِ عَبْدِوَهَّابٍ، وعلى رأسِهِمُ المَلِكُ عَبْدُالمعزِ؛ فَإِنَّ اللهَ تعالى وَفَّقَهُمُ للخيراتِ والمِبراتِ، فَالحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العالمينَ.

الآيَةُ الثَّانِيَةُ وَالثَّامِنُونَ، فِيهَا أَيْضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْخَرُوا مِنْ قَوْمٍ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءً مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِاللِّغَابِ بِغِثِ الْأَسْمَاءِ بَغْثِ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ^(٢)﴾.

قد نادى اللهُ تعالى وَخاطَبَ عبادهِ الْمُؤْمِنِينَ؛ ناهياً إِيَّاهُمْ عن السَّخَرَةِ بالنَّاسِ واحتقارِهِم والاستهزاءِ بِهِمْ؛ كما بُدِّثَ في «الصَّحِيحِ»^(٣) عن رسولِ اللهِ ﷺ: أَنَّهُ قَالَ: «الْكِبْرُ: بَطْرُ الْحَقِّ، وَغَضُّ النَّاسِ (أو غَمَطُ النَّاسِ)»، والمرادُ مِنْ ذَلِكَ احتقارُهُم واستصغارُهُم، وَهَذَا حَرَامٌ قد نَهَى اللهُ عَنْهُ؛ فَإِنَّهُ قد يَكُونُ الْمُحَقَّرُ أعْظَمَ قَدراً عِنْدَ اللهِ تعالى وَأَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ السَّاخِرِ مِنْهُ الْمُحَقَّرُ لَهُ.

(١) ليسوا سواء!

وَالسُّعَادِيُّ ما لَمْ يُقَيِّمُوا عَلَيْهَا

(٢) الحجرات: ١١.

(٣) رواه مسلم (رقم ٩١) عن ابن مسعود.

وَالسَّخَرَةُ أَنْ يُحَقِّرَ الْإِنْسَانُ أَحَدَهُ، وَيَسْتَحْفَهُ، وَيَسْتَهْزِئَ بِهِ، وَعَنْ التَّحْقِيرِ يَحْدُثُ الْكِبْرُ، وَمَنْهَ نَبْشاً عَدَمُ قَبُولِ الْحَقِّ، فَيَصِيرُ السَّاخِرُ كَأَنَّهُ مِنْ حِزْبِ الشَّيْطَانِ، وَتُصَوِّفُ بِصِفَاتِهِ.

وقد بُدِّثَ^(١) عن رسولِ اللهِ ﷺ: أَنَّهُ قَالَ: «رُبُّ أَشْعَثَ أَغْبَرُ، ذِي طُمْرَيْنِ، لَا يُؤْتِيهِ بِهِ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَا يُؤْرَهُ».

فلا يَنْبَغِي لمسلمٍ أَنْ يَنْظُرَ إلى مسلمٍ يَنْظُرُ الحَقَارَةَ عَسَى أَنْ يَكُونَ خَيْراً مِنْهُ؛ إلَّا إِذَا ظَهَرَ مِنْهُ ما يوجبُ التَّحْقِيرَ والسَّخَرَةَ؛ كَالشُّرْكِ، وَالنِّفَاقِ، وَالْفِسْقِ، وَالْفُجُورِ.

﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾؛ أَي: لَا تَلْمِزُوا النَّاسَ؛ فَإِنْ مَنْ لَمْزَ غَيْرَهُ كَأَنَّهُ لَمْزَ نَفْسَهُ، اللَّمْزُ: الطَّعْنُ بِالنَّاسِ، وَالهَمْزُ: بِالْفِعْلِ، وَالهَمْزُ الْمُنَادِي مِنَ النَّاسِ مَذْمُومٌ مَلْعُونٌ؛ كما قَالَ اللهُ تعالى: ﴿وَتِلْكَ لِكُلِّ هُمْزَةٍ لَذْمَةٌ^(٢)﴾، «هُمَزَاتُ نَشَاءٍ

(١) رواه: الطحاوي في «مشكل الآثار» (١ / ٢٩٢)، والحاكم (٤ / ٣٢٨)، وأبو نعيم (١ / ٧)؛ مِنْ طَرِيقِ كَثِيرٍ بنِ زَيْدٍ عَنِ الْمُطَّلِبِ عَنِ أَبِي هُرَيْرَةَ.

وَالْمُطَّلِبُ: صَدُوقٌ، مَدْلَسٌ، وَقَدْ عَنَعَهُ.

وَكَثِيرٌ: صَدُوقٌ يَخْطِئُ.

وقد تَوَعَّى الْمُطَّلِبُ بِنَحْوِهِ:

فقد أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (٣٦٢٢) مِنْ طَرِيقِ الْعَلَاءِ بنِ عَبْدِالرَّحْمَنِ عَنِ أَبِيهِ عَنِ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوعاً: «رُبُّ أَشْعَثَ مَدْفُوعٌ بِالْأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَا يُؤْرَهُ».

وله شَوَاهِدٌ أُخْرَى، ذَكَرَهَا شَيْخُنَا الْأَلْبَانِيُّ فِي «تَخْرِيجِ أَحَادِيثِ مُشْكَلَةِ الْفَقْرِ» (رقم ١٢٥)، جِزْمٌ فِيهَا بِصَحَّةِ الْحَدِيثِ.

وَأَمَّا أَكْثَرُ بَيِّنَاتِ هَذَا التَّنَبُّهِ مِنْ «صَحِيحِ مُسْلِمٍ»؛ لَأَنَّ شَيْخَنَا حَفِظَهُ اللهُ لَمْ يَذْكُرْهُ فِي الْمَصَدَرِ الْمَذْكُورِ.

(٢) الهُزْمَةُ: ١.

بنعيم^(١)، فلا يظعن بعضكم على بعض، واللمزُ الإشارةُ بالعين واليد ونحوهما، ولا يعبُ بعضكم على بعض؛ فإنَّ المؤمنَ كنفسٍ واحدةٍ، والأفرادُ المنتشرةُ بمنزلةِ أعضاء تلك النفس، فمن عاب مؤمناً، فكأنما عاب نفسه، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾^(٢).

وقال بعضُ المفسرين: أي: لا تفعلوا ما تُلْمِزونَ به؛ فإنَّ مَنْ فَعَلَ ما يستحقُّ به اللِّمَزُ، فقد لَمَزَ نفسه؛ أي: تَسَبَّبَ لِللِّمَازِ نَفْسَهُ، أَوْ لَا تَلْمِزُوا غَيْرَكُمْ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ يَكُونُ سَبَباً لَأَنْ يَحِثَّ الْمَلْمُوزُ عَنْ عِيوبِكُمْ، فَيَلْمِزْكُمْ، فَتَكُونُونَ لَا يَمِيزُ لَكُمْ، فَيَصِيرُ مِثْلَ مَا ثَبِتَ فِي «الصَّحِيحِينَ»^(٣) مِنْ قَوْلِهِ ﷺ: «مِنْ الْكَبَائِرِ شَتَمُ الرَّجُلِ الْوَدِيعَةَ». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ! وَهَلْ يَشْتُمُ الرَّجُلُ الْوَدِيعَةَ؟! قَالَ: «نَعَمْ؛ يَسُبُّ الرَّجُلُ أَبَا الرَّجُلِ، فَيَسُبُّ أَبَاهُ، وَيَسُبُّ أُمَّهُ فَيَسُبُّ أُمَّهُ».

ولا يدخلُ في النهي ذِكْرُ الْفَاسِقِ؛ لقوله ﷺ: «اذْكُرُوا الْفَاجِرَ بِمَا فِيهِ؛ كَيَ يَحْذَرَهُ النَّاسُ»^(٤).

(١) القلم: ١١.

(٢) النساء: ٢٩.

(٣) رَوَاهُ: الْبُخَارِيُّ (١٠ / ٣٣٨)، وَمُسْلِمٌ (٩٠)؛ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو.

(٤) حَدِيثٌ مُوَضَّوعٌ، رَوَاهُ: ابْنُ حِبَّانَ فِي «الْمَجْرُوحِينَ» (١ / ٢١٥)، وَابْنُ أَبِي شَيْبَةَ (١٠ / ٢١٥)، وَالتَّحْطِيبُ فِي «تَارِيخِهِ» (١ / ٣٨٢، ٣ / ١٨٨، ٧ / ٢٦٢)، وَابْنُ الْجَوَازِيِّ فِي «الْعِلَلِ الْمُتَنَاهِيَةِ» (١٣٠٠)؛ عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ حَبِيدَةَ.

وَمِدَارُ طَرَفِهِ عَلَى الْجَارِدَةِ النَّيْسَابُورِيِّ، وَهُوَ وَشَّاعٌ.

وَإِنَّاظَرُ: «الْمَقَاصِدَ الْحَسَنَةَ» (٩٢١)، وَ«الْأَسْرَارَ الرَّفُوعَةَ» (٢٩٧)، وَ«الضَّعِيفَةَ» (٩٨٣).

وَقَدْ صَحَّ نَحْوُهُ مَقْطُوعاً مِنْ قَوْلِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ؛ كَمَا قَالَ السَّخَاوِيُّ.

﴿وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ﴾؛ أَي: لَا تَدْعُوا بِالْأَلْقَابِ الَّتِي يُسَمَّى الشَّخْصُ سَمَاعُهَا.

﴿يُسَمَّى الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾؛ أَي: بَشَرُ التَّوَصُّفِ بِالْأَلْقَابِ السَّيِّئَةِ؛ كَمَا هُوَ عَادَةُ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ، وَالْمُؤْمِنُ لَا يَلْبَقُ بِاللِّقَبِ السَّيِّئِ؛ مِثْلُ: ابْنِ الْيَهُودِيِّ، أَوْ النَّصْرَانِيِّ، أَوْ كَلْبٍ يَا ابْنَ الْكَلْبِ!

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ^(١) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «التَّنَابَرُ بِالْأَلْقَابِ: أَنْ يَكُونَ الرَّجُلُ عَمَلَ السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابَ عَنْهَا، فَهِيَ أَنْ يُعَيَّرَ بِمَا سَلَفَ مِنْ عَمَلِهِ؛ لِأَنَّ الْإِيمَانَ وَالْإِسْلَامَ يَجِبُ وَيَمْحُو مَا قَبْلَهُ»، وَ«التَّابُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ»^(٢).

فَتَسْوِرُوا إِلَيْهَا الْمُؤْمِنُونَ مِنْ كُلِّ مَا جَنَّبْتُمْ وَارْتَكَبْتُمْ مِنَ الْأَعْمَالِ الْقَبِيحَةِ وَالْأَقْوَالِ الْفَاحِشَةِ، وَمَنْ لَمْ يَنْتَبْ عَمَّا نَهَى عَنْهُ؛ فَقَاوَلْتُكَ هُمُ الظَّالِمُونَ.

(١) انظر: «الدر المنثور» (٧ / ٥٦٣ - ٥٦٤).

(٢) صَحَّ مَقْطُوعاً مِنْ قَوْلِ الشَّعْبِيِّ، رَوَاهُ عَنْهُ: وَكِيعٌ فِي «الزُّهْدِ» (٢٧٨)، وَابْنُ أَبِي فَرَاتٍ فِي «التَّعْلِيقِ» (٧١٩٦)؛ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ.

وَقَدْ رَوَى الْحَدِيثَ مَرْفُوعاً مِنْ طَرَفٍ؛ أَجُودُهَا مَا رَوَاهُ: ابْنُ مَاجَةَ (٤٢٥)، وَالتَّطَرُّبِيُّ فِي «الْكَبِيرِ» (١٠ / ١٨٥)، وَالتَّقْضَائِيُّ فِي «مُسْنَدِ الشَّهَابِ» (١٠٨)، مِنْ طَرَفَيْنِ وَجِبَ بِنِ خَالِدٍ عَنْ مَعْمَرٍ عَنْ عَبْدِ الْكَرِيمِ الْجَزَرِيِّ عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ.

رَجَّاهُ ثِقَاتٌ، وَلَكِنْ لَمْ يَسْمَعْ أَبُو عُبَيْدَةَ مِنْ أَبِيهِ؛ كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ.

وَقَدْ أَعْلَى الْخَطِيبُ فِي «الْمَوْضِعِ» (١ / ٢٥٧) الْحَدِيثَ بِالرُّفُوفِ، فَقَالَ: «تَفَرَّدَ بِرَوَايَتِهِ

مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الرَّقَّاشِيُّ عَنْ وَثْبٍ بِهَذَا الْإِسْنَادِ مَرْفُوعاً، وَلَمْ يُبَيِّحْ عَلَيْهِ.

وَنَقَلَهُ عَنْهُ وَأَفْرَدَهُ أَخَرْنَا الْفَاضِلُ مُحَمَّدُ عَمْرُو بْنُ عَبْدِ الْطَلِيفِ فِي رِسَالَتِهِ النَّافِعَةِ وَتَبَيُّضِ

الصَّحِيفَةِ (ص ٥٧)!

الآية الثالثة والثمانون فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم مِّبْعَآءَ بَعْضٍ أَعَدَّكُمْ أَنُ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾^(١).

فقد نادى الله تعالى وخطب المؤمنين: ناهياً إياهم عن كثير من الظن، وهو التهمة والتخون للأهل والأقارب والناس في غير محله، لأن بعض ذلك يكون إثمًا مخضاً، فاجتنبوا الكثير منه احتياطاً.

ولهذا قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لا تظنن بكلمة خرجت من أخيك المؤمن إلّا خيراً وأنت تجد لها في الخير محملاً»^(٢).

وقد روى البخاري في «صحيحه»^(٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال:

= مع أنه نوع: إذ رواه الطبراني وغيره من طريق معلى بن أسد عن وعيب به. ومعلى ثقة ثبت.

وله شاهد: أخرجه أبو نعيم (١٠ / ٣٩٨) عن أبي سعد الأنصاري - لا أبو سعيد كما في بعض المراجع، كما جزم ابن حجر في «الإصابة» (٧ / ٨٤) - وفي سنده جهالة.

وقال السخاوي في «المقاصد» (ص ٢٤٩): «بل حسنه شيخنا لشواهد».

قلت: وكذا شيخنا.

نعم؛ للحديث شواهد أخرى، لكنها واهية، لا تصلح للشهادة؛ كما فضل شيخنا في «الضعيفة» (٣١٣).

أما الأخ محمد عمرو؛ فقد انفصل في «تبييض الضحيفة» (ص ٦٢) إلى إعلاله بالوقف!

(١) الحجرات: ١٢.

(٢) أخرجه أحمد في «الزهد»؛ كما في «الدر المنثور» (٧ / ٥٦٥).

(٣) (٩ / ١٧١)، وأخرجه مسلم (٢٥١٣)؛ كلاهما عن أبي هريرة.

قال رسول الله ﷺ: «يَاكُمْ وَالظَّنُّ؛ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ، وَلَا تَجَسَّسُوا، وَلَا تَحْسَبُوا، وَلَا تَنَاقَسُوا، وَلَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْرَانًا»، فلا يتجسس بعضكم على بعض.

والتجسس: هو البحث عن عيوب الناس، والتجسس: هو استماع كلام الناس بقصد الإفساد.

وأفاد الآية أن أكثر الظنون من قبيل الإنم؛ لأن الشيطان يلقي الظنون في النفس، فتظن النفس الظن الفاسد، وعلى أن بعض الظن ليس بإثم، بل هو حقيقة؛ كالقراءة الصحيحة؛ بأن يرى القلب بنور اليقين^(١).

وقد نهى الله تعالى عن الغيبة، وقد فسرهما الشارح كما ثبت في «الصحيح»^(٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قيل: يا رسول الله! ما الغيبة؟ قال رسول الله ﷺ: «وَذَكَرُ أَحَدِكُمْ بِمَا يَكْرَهُ». قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال ﷺ: «إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ؛ فَقَدْ اغْتَبْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ مَا تَقُولُ؛ فَقَدْ بَهْتَهُ»، ورواه الترمذي وأبو داود^(٣).

والغيبة محرمة بالإجماع، ولا يُستثنى منها إلّا ما رجحت مصلحته؛ كما

(١) وليس مثل هذه القراءة صادقة دائماً، فالواجب التمييز بين القراءة الصادقة وبين وسوسة الشيطان وتلبسه، وهذا لا يستطيه كل أحد؛ كما هو واضح.

(٢) «صحيح مسلم» (رقم ٢٥٨٩).

(٣) روه: الترمذي (١٩٣٤)، وأبو داود (٤٨٧٤)، والدارمي (٢٩٩ / ٢)، وأحمد

(٢٣٠ / ٣٨٤ و ٣٨٦ و ٤٥٥)، والبيهقي (١٠ / ٢٤٧)، والبخاري (١٣ / ١٣٨)، وابن أبي الدنيا في «الصمت» (٢٠٤).

في الجرح والتعديل^(١)، والنصيحة؛ كقوله ﷺ لثما استأذن عليه ذلك الرجل الفاجر: «اذهبوا له، ويشن أخو المشيرة»^(٢)، وكقوله ﷺ لعاطمة بنت قيس رضي الله عنها وقد خطبها معاوية وأبو الجهم: «أما معاوية؛ فعضلوك، وأما أبو الجهم؛ فلا يضغ عصاه عن عاتقه»^(٣)... وكذا ما جرى مجرى ذلك، ثم بقيت على التحريم الشديد، وقد ورد فيها الزجر الأكيد، ولهذا قد شبهها الله تعالى بأكل لحم الإنسان الميت، ﴿يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾؛ أي: كما تكرهون هذا طبعاً فاكروهوا ذلك شريعاً؛ فإن عقوبته أشد من هذا.

وعن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان في قلبه! لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم؛ فإنه من يتبع عوراتهم يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه في بيته» رواه أبو داود^(٤).

-
- (١) انظر: «الكفاية» (ص ٣٧) للخطيب، و«المجروحين» (١ / ١٦ - ١٧) لابن حبان، و«معرفة علوم الحديث» (ص ١٦٣) للحاكم.
 (٢) رواه البخاري (١٠ / ٤٥٢)، ومسلم (٢٥٩١).
 (٣) رواه مسلم (١٤٨٠) عن فاطمة بنت قيس.
 و(العضلوك): الفخير.
 وقوله: «فلا يضغ العصا...» أي: كثير الضرب للنساء.
 (٤) برقم (٤٨٨٠).
 وفي سنده ضعف.
 لكن له طرقاً أخرى كثيرة، يجزم الواقف عليها بصحته، ولي جزء مفرد في تخريجها.
 فانظر تعليقي على «الفارق بين المصنف والشارح» (ص ٣٢ - ٣٣) للسيوطي.

ونظر عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يوماً إلى الكعبة، فقال: «وما أعظمك وأعظم حرمتك! وللمؤمن أعظم حرمة عند الله منك»^(١).

ولكن الأسف أن المسلمين اليوم ابتلوا بارتكاب هذه القبائح، وغرقوا فيها، وتلوثوا بها؛ كالظن السوء - خصوصاً بالصالحين المفلحين من أهل التوحيد والعلماء العاملين - والتجسس والغيبة، فلا يخلو مجلس من المجالس سواء مجلس العلماء أو الجهلاء؛ إلا والغيبة إدامهم، والتميمة خلواهم، والبهتان فاكهتهم يتفكهون بها^(٢)، والسب في ذلك غفلتهم عن معاني كتاب ربهم، وعدم مبالاهم به وسنة رسول الله ﷺ، وهذه الغفلة من أعظم جند الشيطان، فتنبه.

الآية الرابعة والثمانون في سورة الحديد: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَأَمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٣).

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين الذين آمنوا بالأنبياء السابقين؛ كموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام، فقال لهم: «اتقوا الله وأمنوا برسوله محمد ﷺ ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾، ويؤدكم فضلاً ورحمةً؛ لجمعكم بين

(١) رواه: ابن حبان (٥٧٣٣)، والترمذي (٢٠٣٢)؛ بسند حسن.

وهو قطعة من الحديث السابق موقوفاً ملحقاً به في بعض طرقه الأخرى.

(٢) فلا قوة إلا بالله، وهو سبحانه العاصم.

(٣) الحديد: ٢٨.

الإيمان بجميع الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، ﴿وَبِرَكَّةِ هَذَا الْإِيمَانِ الْكَامِلِ﴾ يَجْعَلُ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ فِي الدُّنْيَا عَلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَفِي الْآخِرَةِ عَلَى الصِّرَاطِ كَالْبَرِّقِ الْخَاطِفِ^(١).

وَلَا رَيْبَ أَنَّ مَنِ اسْتَقَامَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا عَلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ اسْتِقَامَةً تَامَةً؛ فَهُوَ يَسْتَقِيمُ عَلَى صِرَاطِ الْآخِرَةِ بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ، وَأَمَّا مَنْ حَاذَ عَنْهُ وَتَعَوَّجَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا؛ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَضَلُّ وَأَعْوَجُ.

وهذا النور هو القرآن، ففيه الهدى والبيان.

وهذه كقولهِ عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا يُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾^(٢).

فَرَأْسُ الْأَمْرِ وَمَدَارُهُ: الْإِيمَانُ بِاللَّهِ وَتَقْوَاهُ، وَمِنْ لَازِمِهِ الْإِيمَانُ بِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَإِذَا حَصَلَ هَذَا وَصَحَّ؛ نَالَ الْمُتَصَفِّ بِهِ كُلُّ سَعَادَةٍ وَدَوْلَةٍ؛ مِنْ هُدًى، وَمَغْفَرَةٍ، وَرَحْمَةٍ، وَجَنَّةٍ، وَرِضْوَانٍ.

فَيَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ! كَمَلُوا إِيْمَانَكُمْ بِكُلِّ مَا يَوْثُقُ بِهِ، وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ يَوْمِنُونَ بِبَعْضٍ وَيَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ، أَوْ كَالَّذِينَ يَوْمِنُونَ فَيَعْمَلُونَ بِمَا وُاقِفَ مَذْهَبُ إِيْمَانِهِمْ، وَيَكْفُرُونَ فَلَا يَعْمَلُونَ بِمَا خَالَفَ مَذْهَبَهُمْ؛ كَمَا هُوَ شَأْنُ كَثِيرٍ مِنْ مَقَلِّدَةِ الْمَذَاهِبِ وَأَهْلِ الطَّرِيقِ، فَتَنَّتْ.

الآيَةُ الْخَامِسَةُ وَالْمِائَتُونَ فِي سُورَةِ الْمَجَادِلَةِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِيمَانِ وَالْمَدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبُيُوتِ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ. إِنَّمَا التَّخَوُّي مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّكُمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾^(١).

قَدْ نَادَى اللَّهُ تَعَالَى وَخَاطَبَ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ مُؤَذِّبًا إِيَّاهُمْ أَنَّ لَا يَكُونُوا مِثْلَ الْكُفْرَةِ وَالْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ يَتَنَاجَوْنَ بِالْإِيمَانِ فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَالْفَسَقِ وَالْعُدْوَانِ عَلَى غَيْرِهِمْ، وَمَنْعَهُ مَعْصِيَةَ الرَّسُولِ ﷺ وَمُخَالَفَتَهُ، وَيَصْرُوفُ عَلَيْهَا، وَيَتَوَاصُونَ بِهَا فِيمَا بَيْنَهُمْ؛ كَأَكْثَرِ الْبَخَارِيِّينَ^(٢) الَّذِينَ يَجَاوِرُونَ الْحَرَمِينَ وَهُمْ مَصْرُوفُونَ عَلَى عِدَاوَةِ أَهْلِ التَّوْحِيدِ الْعَامِلِينَ بِكِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَيَعَادُونَ الْوَعَائِيْنَ، وَيَعَادُونَ السَّلَفِيْنَ، وَيَقُولُونَ عَلَى طَرِيقِ التَّشْنِيعِ: إِنَّهُ وَهَائِي^(٣)، وَيَتَوَاصُونَ بِذَلِكَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَيَتَوَاصُونَ بِبَعْضِهِمْ بَعْضًا أَنْ لَا يَحْضُرُوا وَلَا يَسْمِعُوا دُرُوسَ التَّلْسِيرِ وَالْحَدِيثِ وَالتَّوْحِيدِ.

وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ وَتَسَارَّثُمُ فِيمَا بَيْنَكُمْ﴾ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِيمَانِ وَالْمَدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ؛ كَمَا يَتَنَاجَى الْجَهْلَةُ مِنَ كُفْرَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ وَمَنْ عَلَّمَ شَاكِلَتَهُمْ وَمَا لَهُمْ عَلَى ضِلَالِهِمْ مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمَقَلِّدِينَ الْجَاهِلِينَ، بَلْ أَنْتُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ ﴿تَنَاجَوْا بِالْبُيُوتِ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾، فَيَجَارِئُكُمْ عَلَى أَعْمَالِكُمْ وَأَقْوَالِكُمْ وَقَدْ أَحْصَاهَا عَلَيْكُمْ.

(١) المجادلة: ٩ - ١٠.

(٢) وغيرهم أَيْضًا.

(٣) قَارَنَ بِمَا سَبَقَ إِيرَافَهُ تَعْلِيْقًا (ص ٢٢٢)

(١) كما في وصحيح مسلم (١٩٥) عن أبي هريرة

(٢) الأنفال: ٢٩.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى﴾؛ أَي: الْمَسَارَعةُ حَيْثُ يَتَوَهَّمُ الْمُؤْمِنُ بِهَا سُوءَ أَمِنْ تَزْيِينِ الشَّيْطَانِ وَتَسْوِيلِهِ؛ «لِيُخَوِّنَ الَّذِينَ آمَنُوا»؛ أَي: إِنَّمَا يَزِينُ لَهُمْ ذَلِكَ لِيُخَوِّنَ الْمُؤْمِنِينَ وَيَسْوَأَهُمْ، «وَلَيْسَ ذَلِكَ بِضَارِهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ»؛ كَمَا يَفْعَلُ أَكْثَرُ الْمُتَبَدِّعِينَ فِي حَقِّ السَّلَافِيَّةِ الْمُؤَحِّدِينَ^(١)، وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ، فَتَحَنَّنْ نَسْتَعِذُّ مِنْهُمْ بِاللَّهِ، وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ تَعَالَى، فَهُوَ حَسْبُنَا وَنَعْمَ الْوَكِيلُ.

فِيهَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ! اتَّقُوا رَبَّكُمْ؛ فَإِنَّهُ عَلِيمٌ خَبِيرٌ، وَعَذَابُهُ أَلِيمٌ وَشَدِيدٌ، وَلَا تَغْتَرُّوا بِسُوءِ السَّيْطَانِ مِنَ الْجَنِّ وَالْإِنْسَانِ.

الآيَةُ السَّادِسَةُ وَالثَّمَانُونَ فِيهَا أَيْضًا: ﴿فِيهَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَانْشُرُوا فَانْشُرُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾^(٢).

قَدْ نَادَى اللَّهُ تَعَالَى وَخَاطَبَ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ مُعَلِّمًا بِأَهَمِّ وَأَمْرًا لَهُمْ أَنْ يَحْسِنَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ فِي الْمَجَالِسِ، وَيُوسِّعَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ، فَإِذَا أَحْسَنُوا إِلَى إِخْوَانِهِمُ الْمُؤْمِنِينَ؛ أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْهِمْ، وَوَسَّعَ عَلَيْهِمْ؛ لِأَنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جَنْسِ الْعَمَلِ، وَلَا يَضُرُّ الْجَالِسُ عَلَى الْقَادِمِ فِي مَجَالِسِ الْعِلْمِ وَالذِّكْرِ وَالصَّلَاةِ.

(١) وَذَلِكَ فِي كُلِّ عَصْرِ وَمَعْرَأٍ!

(٢) الْمَجَادَلَةُ: ١١.

وَقَالُوا فِي سَبَبِ النَّزُولِ^(١): «مَجِيءُ الْبَدْرِيِّينَ فِي مَجْلِسِ النَّبِيِّ ﷺ وَلَمْ يُوَسِّعْ لَهُمْ أَحَدٌ فِي الْمَجْلِسِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْآيَةَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «رَجِمَ اللَّهُ تَعَالَى رَجُلًا يَفْسَحُ لِأَخِيهِ»، فَجَعَلُوا يَقُومُونَ بَعْدَ ذَلِكَ سَرَاعًا، فَيَفْسَحُ الْقَوْمُ لِإِخْوَانِهِمُ الْمُؤْمِنِينَ.

وَلَكِنْ لَا يَجُوزُ أَنْ يُقِيمَ الرَّجُلُ الرَّجُلَ وَيَجْلِسَ فِي مَكَانِهِ؛ لَمَا فِي الصَّحِيحِينَ^(٢) عَنْ ابْنِ عَمْرِو بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا يُقِيمُ الرَّجُلُ الرَّجُلَ مِنْ مَجْلِسِهِ فَيَجْلِسَ فِيهِ، وَلَكِنْ تَفْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَتَوْسَعُوا».

وَفِي رَوَايَةٍ^(٣): «لَا يُقِيمُنَّ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، وَلَكِنْ لِيَقُلَّ: افْسَحُوا».

وَهَلْ يَجُوزُ الْقِيَامُ لِلْقَادِمِ؟ فِيهِ قَوْلَانِ، وَفِي «السَّنَنِ»^(٤) أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَكَانَ إِذَا جَاءَ لَا يَقْرَءُونَ لَهُ؛ لَمَا يَعْلَمُونَ مِنْ كِرَاهَتِهِ لِلذَّكْرِ، وَكَانَ ﷺ يَجْلِسُ حَيْثُ انْتَهَى بِهِ الْمَجْلِسُ^(٥)، وَلَكِنْ حَيْثُ يَجْلِسُ

(١) وَالرُّوَادُ فِيهِ مَرَاتِبٌ لَا تَصَحُّ، فَنَنْظُرُ: «الدَّر الْمَشْهُورَةُ (٦ / ١٨٤)، وَتَفْسِيرُ ابْنِ كَثِيرٍ (٤ / ٣٢٤)، وَأَسْبَابُ النَّزُولِ، (ص ٤٧٥) لِلوَاحِدِيِّ.

(٢) رَوَاهُ: الْبُخَارِيُّ (١١ / ٥٢)، وَمُسْلِمٌ (٢١٧٧).

(٣) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢١٧٨) عَنْ جَابِرٍ.

(٤) رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ (٢٧٥٥) عَنْ أَنَسٍ.

وَرَوَاهُ: الْبُخَارِيُّ فِي «الْأَدَبِ الْمَعْرِفَةِ» (٩٤٦)، وَاحْمَدُ (٣ / ١٣٢)، وَالتَّحَاوِيُّ فِي

«الْمَشْكَالِ» (٢ / ٣٩)؛ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ.

(٥) عَنْ جَابِرٍ؛ قَالَ: «وَكُنَّا إِذَا أَتَيْنَا النَّبِيَّ ﷺ؛ جَلَسْنَا أَحَدُنَا حَيْثُ يَنْتَهِي».

رَوَاهُ: أَبُو دَاوُدَ (٤٨٢٥)، وَالتِّرْمِذِيُّ (٢٧٢٧)؛ بِسَنَدٍ حَسَنٍ.

يكونُ صدرُ ذلك المجلس ، فكان الصحابة رضي الله عنهم يجلسون منه على مراتبهم ، فالصديقُ عن يمينه ، وعمرُ عن يساره ، وبين يديه غالباً عثمانُ وعليُّ ؛ لانهما كانا ممن كتباني الوحي وكان يأمرهم بذلك .

﴿وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فانشُرُوا﴾ : أي : إذا دعيتُم إلى خيرٍ ؛ فاجيبوا ، أو إذا قيل لكم ارجعوا ؛ فارجعوا ، ولا تتناقلوا في المجلس .

﴿يُرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ : أي : لا تظنوا أنه إذا فسح أحدكم لأخيه إذا أقبل أو إذا أمر بالخروج فخرج أن ذلك نقص في حقه ، بل هو رفعة ورتبة عند الله ، والله تعالى لا يضيعُ ذلك له ، بل يجزيه بها في الدنيا والآخرة ؛ فإن من تواضع لله ولأمر الله رفع الله قدره ونشر ذكره ، ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ .

قال ابن مسعود^(١) رضي الله عنه : أيها الناس ! افهموا هذه الآية ؛ فإنها تُسرّعُنيكم في العلم ، ﴿يُرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ ، فالؤمنُ العالمُ فوق الذي لا يعلم درجات .

وروي مسلم^(٢) عن عمر رضي الله تعالى عنه : أنه قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الله تعالى يرفعُ بهذا الكتاب أقواماً ويضعُ به آخرين» .

والعلماء العايلون هم ورثة الأنبياء^(٣) ، والله خيرُ بنيائكم وأعمالكم . وأفاضت الآية سرّ تقدّم العلماء على غيرهم في المجالس والمحافل ؛

(١) لم أَره في تفسير ابن كثير (٤ / ٥٠٨) ، ولا في الدر المنثور (٨ / ٨٢) .

(٢) برقم (٨١٧) .

(٣) كما صَحَّ عنه ﷺ ، وقد سبق تخريجه (ص ٦٣) .

لأن الله تعالى رفع قدرهم وأعلى درجتهم ، فمن رفعهم وأكرمهم ؛ رفعه الله وأكرمهم في الدارين ، ومن وضعهم وأهانهم ؛ وضعه الله تعالى وأهانهم في الدارين ، وأما هذا في حق العلماء الذين يعملون بعلمهم ويخشون ربهم ، لا العلماء الذين جعلوا علمهم آلة للرئاسة الجاهلية وتحصيل المال ؛ فإنهم محرومون ، بل مزلولون .

فنسأل الله تعالى علماً نافعاً ، وقلباً خاشعاً ، ولساناً ذاكراً .

الآية السابعة والثمانون فيها أيضاً : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ . أشفقتُ أن تقدّموا بين يدي نجاواكم صدقاتٍ فإذا لم تفعلوا وتاب الله عليكم فاقبوا الصلاة وأتوا الزكاة وأطيعوا الله ورسوله والله خيرُ بما تعملون^(١) .

وقد قالوا في سبب النزول^(٢) : إنهم كانوا يأتون النبي ﷺ ، فيكثرون مناجيئـه ، ويجلسون طويلاً ، حتى كره النبي ﷺ طول جلوسهم ، وكثرة مناجيئهم ، فأَنزل الله تعالى هذه الآية ، فأما أهل العسرة ؛ فلم يجدوا شيئاً ، وأما أهل اليسرة ؛ ففعلوا وجعلوا ، فنزلت الرخصة .

وقال مجاهد رحمه الله تعالى : «وَنُهِوا عَنِ الْمَنَاجَاةِ حَتَّى يَتَصَدَّقُوا ، فَلَم

(١) المجادلة : ١٢ - ١٣ .

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم عن مقاتل ؛ كما في «الدر المنثور» (٨ / ٨٤) .

ومع مفضل لا يصح .

يُنَاجِهِ إِلَّا عَلَيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ تَصَدَّقْ بِدِينَارٍ، فَنَاجَاهُ، ثُمَّ نَزَلَتْ الرِّخْصَةُ، فَكَانَ عَلَيَّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: آيَةُ فِي كِتَابِ اللَّهِ لَمْ يَعْملْ بِهَا أَحَدٌ قَبْلِي وَلَا يَعْملُ بِهَا أَحَدٌ بَعْدِي، وَهِيَ آيَةُ الْمَنَاجَاةِ^(١).

وَهَذِهِ الصَّدَقَةُ إِنَّمَا يُصَدَّقُ بِهَا عَلَى الْفَقِيرِ الْمُسْتَحَقِّ، لَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ؛ كَمَا يَدْعِيهِ أَوْ يَظُنُّهُ مَنْ لَا خُلُقَ لَهُ مِنْ أَهْلِ الطَّرِيقِ وَالْمَشَايِخِ الدُّجَالِينَ؛ لِأَنَّ الصَّدَقَةَ حَرَامٌ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ كَمَا لَا يَخْفَى.

﴿فَقَسَّدُوا بَيْنَ يَدَيَّ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً﴾؛ أَي: فَتَصَدَّقُوا قَبْلَهَا عَلَى الْمُسْتَحَقِّ، وَهَذَا كَقَوْلِ عَمْرِو بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنْهُ: أَفْضَلُ مَا أَوْثَقَتِ الْعَرَبُ الشُّعْرُ؛ يَقْدُمُهُ الرَّجُلُ أَمَامَ حَاجَتِهِ، فَيَسْتَمِطُّ بِهِ الْكَرِيمَ، وَيَسْتَنْزِلُ بِهِ اللَّئِيمَ.

وَفِي هَذَا الْأَمْرِ: تَعْظِيمٌ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَنَفْعٌ لِلْفُقَرَاءِ، وَالنَّهْيُ عَنِ الْإِفْرَاطِ فِي السُّؤَالِ، وَالتَّمْيِيزُ بَيْنَ الْمَخْلَصِ وَالْمَتَأَنِّفِ وَمَحَبِّ الْآخِرَةِ وَمَحَبِّ الدُّنْيَا.

قَالَ الْمُسْتَوْفُونَ: إِنَّ رَسْمَ الثُّلَاثَاتِ لِلْمُلُوكِ وَالْأَمْرَاءِ مَأْخُوذٌ مِنْ أَدَبِ اللَّهِ تَعَالَى فِي شَأْنِ رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ فِي هَذِهِ الْآيَةِ.

﴿أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيَّ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ﴾؛ أَخَفَّيْتُمْ مِنَ الْفَقْرِ إِذَا تَصَدَّقْتُمْ؟

﴿فَإِذَا لَمْ تَفْعَلُوا﴾ مَا أَمَرْتُمْ بِهِ، وَشَقَّ عَلَيْكُمْ ذَلِكَ، ﴿وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾؛

(١) رَوَى هَذَا الْخَبَرُ مِنْ طَرِيقٍ، انْظُرْ تَخْرِيجَهَا فِي «الْفَتْحِ السَّامَوِيِّ بِتَخْرِيجِ أَحَادِيثِ تَفْسِيرِ الْبَيْهَقِيِّ» (رَقْمُ ٩٢٤)، وَتَعْلِيقِ مُحَقِّقِهِ عَلَيْهِ.

بِأَنْ رَخَّصَ لَكُمْ فِي أَنْ لَا تَفْعَلُوا، وَأَسْقَطَ عَنْكُمْ تَقْدِيمَ الصَّدَقَةِ، وَعَفَا عَنْكُمْ بِفَضْلِهِ؛ فَتَدَارَكُوهُ بِإِتْمَالٍ مَا يُتَوَرَّعُونَ بِهِ بَعْدَ هَذَا، وَهُوَ ﴿فَأَقِمْوَا الصَّلَاةَ﴾ فِي أَوْقَاتِهَا مَعَ أَرْكَانِهَا وَسِتْنِهَا، ﴿وَاتُوا الزَّكَاةَ﴾ إِلَى مُسْتَحَقِّهَا، ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فِي سَائِرِ الْأُمُورِ؛ فَإِنَّ الْقِيَامَ بِهَا كَالْجَائِبِ لِمَا وَقَعَ فِي ذَلِكَ مِنَ التَّغْرِيبِ، ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ مِنْ أَعْمَالِكُمُ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافَةً، فَيَجَازِيكُمْ عَلَيْهِ، فَاعْمَلُوا بِمَا أَمَرَكُمْ اللَّهُ؛ ابْتَغَاءً لِمَرْضَاتِهِ، لَا لَرِيَاءٍ أَوْ سَمْعَةٍ.

فَيَا أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ! أَطِيعُوا رَبَّكُمْ، وَامْتَلُوا أَمْرَهُ، وَلَا تَسَاهَلُوا فِيهِ، عَسَى اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَيَعْفُو عَنْكُمْ، وَيُصَلِّحَ بِالْكَفِّ حَالَكُمْ، وَيُزَكِّمَ فِي الدَّارَيْنِ.

الْآيَةُ الثَّامِنَةُ وَالثَّمَانُونَ فِي سُورَةِ الْحَشْرِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مِمَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾. وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسُهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ^(١).

قَدْ نَادَى اللَّهُ تَعَالَى وَخَاطَبَ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ؛ أَمْرًا بِإِيَّاهُمْ بِأَنْ يَقُوا عَذَابَهُ وَغَضَبَهُ، ثُمَّ أَمَرَهُمْ بِأَنْ يَنْظُرَ الْإِنْسَانُ وَكُلَّ عَاقِلٍ مَكْلُفٍ فِيمَا فَعَلَ مِنَ الْأَعْمَالِ الْخَيْرِيَّةِ الَّتِي قَدَّمَهَا لِنَفْسِهِ؛ لِيَرَى أَجْرَهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

﴿وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مِمَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾؛ أَي: حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسِبُوا، وَانْظُرُوا مَاذَا أَذْخَرْتُمْ لِنَفْسِكُمْ مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ يَوْمَ مُعَادِكُمْ وَغَرَضِكُمْ عَلَى رَبِّكُمْ؟

(١) الْحَشْرِ: ١٨ - ١٩.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾: تأكيد بعد تأكيد، ولا تَغْتَرُّوا ببعض الأمانى والخيالات والترهات؛ ﴿إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من خير وشرٍّ، وإخلاص ورياء.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ﴾، فتركوا أمره، فكل من ترك أمر الله كأنه نسي الله، ﴿ف﴾ مجازاة لذلك ﴿أَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾، فلم يعملوا لأنفسهم الأعمال الصالحة التي تنفعهم في معادهم؛ فإنَّ الجزاء من جنس العمل، ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ الخارجون عن طاعة الله، الهالكون يوم القيامة، الخاسرون يوم معادهم.

ومن عمل غير الله؛ فقد نسي الله تعالى، وكل من غفل عن ذكر الله؛ فقد نسي الله تعالى، لا خير في قول أو عمل لا يُراد به وجه الله تعالى، ولا خير في مال لا يُنفق في سبيل الله، ولا خير فيمن يغلب جهله جلّته، ولا خير فيمن يخاف في الله لومة لائم.

ويا أيها المؤمنون! لا تكونوا كالذين نسوا الله؛ أي: نسوا حقوقه عز وجل، فما قدروه حق قدره، وما وسّخوا الله في عبادته، ولم يراعوا مواجب أوامره ونواهيه حق رعايتها، فأنسأهم بسبب ذلك أنفسهم، فلم يسمعوا ما ينفعها، ولم يفتعلوا ما يخلصها، فأولئك الناسون بالإنسان هم الفاسقون الغارقون في الفسق، والخروج عن طريق الطاعة.

فيا أيها المسلمون! اتقوا الله حق التقوى، واعملوا ما أمر بالإخلاص والرضا، ولا تنسوا الله ربكم، ولا تنسوا أمره ولا نهيه لحظة من اللحظات، ولا تغفلوا عن ذكره؛ حتى تكونوا من الصالحين المفلحين، وأما إذا نسيتم الله، ولم تتقوه، وأضيعتم هواكم ونفسكم وشيطانكم؛ فأنتم الفاسقون، وأنتم

الهالكون، وأنتم الأدلاء في السارين: في الدنيا تحت أرجل الكفرة المستعمرين المستعبدين، وفي الآخرة في نار الجحيم والعذاب الأليم.

الآية التاسعة والثمانون في سورة الممتحنة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمُ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تُخْرِجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمُ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾^(١).

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين؛ ناهياً إياهم أن يتخذوا عدو الله وعدو المؤمنين من المشركين والكفار والزنادقة الأشرار أولياء وأحباء وأصدقاء لأنفسهم؛ يعاملونهم بالمودة والمحبة وبأسرار، والحال أنهم قد كفروا بما جاءكم به محمد رسول الله ﷺ من عند الله من الحق، وهم يقصدون دائماً إخراج رسول الله وإياكم من أوطانكم، وإثماً سبب هذه العداوة هو إيمانكم بالله ربكم وحده لا شريك له... إلخ.

ودكروا في سبب النزول قصة حاطب بن أبي بلتعة؛ كما هو المشهور المسطور في الصحاح^(٢)، ولكن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب؛ كما لا يخفى على الخبير.

(١) الممتحنة: ١.

(٢) رواء: البخاري (٧ / ٤٠٠)، ومسلم (٢٤٤) عن علي.

ولا شك أنَّ اتِّخاذَ الكفارِ أولياءَ سببٍ لضعفِ الإسلامِ وأهلِهِ؛ كما هو المشاهدُ المجزَّبُ في جميعِ أنحاءِ العالمِ الإسلامي^(١).

فيا أيُّها المسلمون! إذا كنتم تُسْرُونَ إلى الكُفَّارِ بالموَدَّةِ وبثِّ الأسرارِ؛ فقد ضللتُم وخرَجْتُم عن سواءِ السبيلِ ، وقد صرْتُم خُدَّاماً لهدمِ بُنيانِ الإسلامِ ؛ لأنَّهم إنْ يظفِّروا بكمْ ؛ يَفْعَلُوا بكمْ كلَّ ما استطاعوا بأيديهم وألسنتهم، حتَّى يَرْدُوكُم إلى الكفرِ، فكيف توالون مثلَ هؤلاءِ وقد قالَ اللهُ العليمُ الحكيمُ: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾^(٢)!

وأما أنتَ؛ إذا ظننتَ أنَّ التَّقَرُّبَ والتَّوَدُّدَ إليهم يَفْعَلُكَ في دوليتك أو سياستك؛ فاعلم أنَّ الله تعالى إذا أَرَادَ بِكَ سوءاً؛ فلا مردَّ لَهُ، فلا تَفْعُكُم أرحامُكم ولا أولادُكم ولا مودَّتُكم ولا سياستُكم؛ لأنَّ الله تعالى خيرُ بأعمالِكُم وبنيَّاتِكُم، فيجازيكم بحسبِ ذلك في الدَّارينِ.

فيا أيُّها المسلمون! حيثُ إنَّكم على مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ خليلِ الرحمنِ عليه الصَّلَاةُ والسَّلَامُ؛ فاقْتَدُوا بِهِ فيما عملَ؛ فَإِنَّهُ فِيهِ الْأُسُوةُ الْحَسَنَةُ؛ فَإِنَّهُ لَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ كُفْرُ أَبِيهِ وَقَوْمِهِ وَجَمَاعَتِهِ؛ أَعْلَنَ التَّبَرُّؤَ مِنْهُمْ^(٣) وَمِمَّا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، فَكَذَلِكَ يَجِبُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ إِظْهَارُ الْعَدَاوَةِ وَالْبَغْضَاءِ عَلَى الْمَصْرُوفِ عَلَى الشَّرِكِ والكُفْرِ، فلا توادُّوا ولا تحبُّوا أحداً من الكافرينَ والمُشْرِكِينَ، بل تَبَرَّؤُوا مِنْهُمْ تَبَرُّوا كلياً ما داموا كافرينَ ومُشْرِكِينَ يعبدونَ معَ اللهِ غيرَ اللهِ مِنَ الملائكةِ والأنبياءِ

(١) فانظر تزي!

(٢) البقرة: ١٢٠.

(٣) كما في سورة التوبة: ١١٤.

وَاللَّاتِ وَالْعُزَّى، أَوْ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرَ^(١)، أَوِ الْأَوْثَانَ وَالْقُبُورَ وَأَهْلِهَا، أَوِ الْأَرْوَاحِ والمُشَاهِدِ.

فلِهَذَا قَرَّرَ الشَّارِعُ^(٢) مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَنَّ الْحُبَّ وَالْبَغْضَ مِنَ الْإِيمَانِ؛ أَي: حُبُّ الْإِيمَانِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَأَهْلِ التَّوْحِيدِ مِنَ الْإِيمَانِ، وَبَغْضُ الْكُفَّارِ وَالْمُشْرِكِينَ مِنَ الْإِيمَانِ، فَمَنْ سَاوَى بَيْنَهُمَا؛ فَقَدْ بَرَى مِنَ الْإِيمَانِ.

فيا أيُّها المسلمون! امْتَلُوا أَمْرَ رَبِّكُمْ، وَتَوَكَّلُوا عَلَيْهِ، وَتَوَسَّوْا إِلَيْهِ، وَاسْتَعِذُوا بِاللَّهِ مِنَ الشَّرِكِ وَالْكَفْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ أَهْلِ الشَّرِكِ وَالْكَفْرِ، وَلَا تَهْدِمُوا بِاخْتِيَارِكُمْ أَرْكَانَ دِينِكُمْ وَبِنْيَانَهُ بِتَوَلِّيِ أَهْلِ الشَّرِكِ وَالْكَفْرِ وَالضَّلَالِ، وَإِنْ تَوَلَّيْتُمُ الْكُفْرَ كَمَا تَوَلَّى كَثِيرٌ مِمَّنْ أَضَلَّهُ اللهُ تَعَالَى وَأَزَاغَ قَلْبَهُ مِنْ أَهْلِ الْهِنْدِ وَالصِّينِ وَالتُّرْكُسْتَانِ وَالشَّرِكِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ جَلَّ جَلَالُهُ، وَأَنْتُمْ لَا تَضُرُّونَ إِلَّا أَنْفُسَكُمْ.

الآيَةُ السَّعُونَ فِيهَا أَيْضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَاتَّوَهُمَ مَا أَنْفَقُوا﴾^(١) الآية.

قد نادى اللهُ تَعَالَى وَخَاطَبَ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ: آمَرَا إِلَهُنَّ إِذَا جَاءَهُنَّ النِّسَاءُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ مِنْ دَارِ الْكُفْرِ إِلَى دَارِ الْإِسْلَامِ أَنْ يَمْتَحِنُوهُنَّ.

(١) كما في سورة نوح: ٢٣ - ٢٤.

(٢) وهو من الألفاظ المنهية عنها؛ كما سبقت الإشارة إليه.

(٣) الممتحنة: ١٠.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «امْتَحَنَهَا أَنْ تُسْتَحْلَفَ إِنَّهَا مَا خَرَجَتْ لِبَغْضِ زَوْجِهَا، وَلَا عِشْقًا لِرَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَلَا رَغْبَةً عَنْ أَرْضٍ إِلَى أَرْضٍ، وَلَا لِيَحْدِثَ أَحَدُهُنَّ، وَلَا لَاتَسَاسٍ دُنْيَا، وَمَا خَرَجَتْ إِلَّا رَغْبَةً فِي الْإِسْلَامِ، وَحُبًّا لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ»^(١).

وفي رواية^(٢): «امْتَحَنَهَا أَنْ تُشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ هِجْرَتَهُنَّ إِنَّمَا هِيَ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ».

فَإِذَا ثَبِتَ بِإِقْرَارِهِنَّ إِيْمَانَهُنَّ؛ ﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾، مَا أَحَلَّ اللَّهُ مُؤْمِنَةً لِكَافِرٍ، وَأَتَوَا أَزْوَاجَهُنَّ الْكُفَّارَ مَا اتَّفَقُوا عَلَيْهِنَّ مِنَ الْمَهْرِ، ثُمَّ بَعْدَ عُدَّتِهِنَّ إِذَا أَرَدْتُمْ أَنْ تُنْزِجُوا بِهِنَّ فَتُزَوَّجُوا بِالرَّضَى وَالْمَهْرِ.

وَأَنْتُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَا تُمَسِّكُوا بِعِصْمِ الْكُوفَرِ، وَالْبَعْضُ: جَمْعُ عِصْمَةٍ، وَهِيَ مَا اعْتَصِمَ بِهِ مِنَ الْعَقْدِ وَالنَّسَبِ، وَالْكُوفَرُ: جَمْعُ كَافِرَةٍ.

وقد نهى الله تعالى المؤمنين عن المقام على نكاح المشركات، فعلى هذا لا يحل للعبد المؤمن أن يعاشر زوجته المشركة، بل يجب عليه مفارقتها بعد استئذانها كما لا يخفى؛ فكثير من الجاهلات اللاتي تعقبن أن أرواح الأولياء تعلم الغيب، أو تحضر في المجالس، أو تتصرف في الأمور، أو تعمل بهي من شبيهه^(٣) على ما هو المعروف بين البخاريات؛ فإنهن بهذه الاعتقادات

(١) قال السيوطي في «الدر المنثور» (٨ / ١٣٧): «وأخرجه ابن أبي أسامة والبرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه بسند حسن».

(٢) أخرجه ابن مردويه عنه؛ كما في «الدر المنثور» (٨ / ١٣٤).

(٣) لعلها من رُئي الضلال التي تنطلي على عقول جهلة الجعم!

الباطلة مشركت بالشرك الأكبر، ولا تفهم كلمة الشهادة؛ ما لم يعقبن معناها بعد العلم به، وإجراء كلمة الشهادة على اللسان بطريق العادة من غير قصد التوبة لا ينفع، فتدبر^(١)!

الآية الحادية والتسعون فيها أيضاً: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ»^(٢).

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين؛ ناهياً إياهم عن موالاة الكفرة الذين قد غضب الله عليهم ولعنهم واستحقوا من الله العز والابتعاد، فكيف توالونهم وتتخذونهم أصدقاء وأحلاء وهؤلاء الكفار قد يسبوا من حكم الله تعالى في ثواب الآخرة ونعيمها؟!

وقد روي^(٣) أن ناساً من فقراء المسلمين كانوا يخبرون اليهود أخبار المسلمين؛ يتوصلون إليهم بذلك، فيصيبون من ثمارهم، فنهاهم الله تعالى عن ذلك.

وهكذا كثير ممن يدعي الإسلام؛ يخدمون الكفرة سراً، ويدلونهم على أسرار المسلمين وعوراتهم؛ لينالوا بذلك منهم مالا ومنصباً، فهؤلاء قد خانوا الله

(١) انظر تعليقي على رسالة «مفتاح الجنة: لا إله إلا الله» (١٣ ص) للمصنف.

(٢) المتنحة: ١٣.

(٣) لم أره فيما بين يدي، وقد صدره المصنف بصيغة التريض.

نعم؛ في «الدرة» (٨ / ١٤٤) نحوه مختصراً عن ابن عباس عند ابن إسحاق وابن المنذر، فالله أعلم.

تعالى، وخاتوا المسلمین، وخاتوا ديارَ المسلمین، فهؤلاء لما تولّوا الكفارَ الذين غضبَ الله عليهم؛ صاروا من حزبِ المغضوبِ عليهم، فأبْغَسُوا وصاروا من المحرومين من الرحمةِ ومن نعيمِ الآخرة، كما يَبْغَسُ الكفارُ من أصحابِ القبور، أي: كما يَبْغَسُ الكفارُ الأحياء من قراباتهم المدفونين في القبور أن يَجْتَمِعُوا بهم بعد ذلك؛ لأنهم لا يعتقدون بقاء ولا نشوراً، أو يُبْغَسُوا أن يرجعوا إليهم، أو كما يَبْغَسُ الكفارُ الذين هم في القبور من كل خيرٍ لما عَانُوا العذابَ.

فيا أيُّها المؤمنون! لا تتولّوا الكافرين أبداً، ولا تتجذّوهم لأنفسكم أولياء أو أصدقاء، وإلا؛ فتستحقون غضبَ الله، وتبتلون بعذابِ الله، فتندمون، وتكون لا ينفعكم الندمُ.

الآيةُ الثانيةُ والتسعون في سورة الصف: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ . كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾^(١).

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين بالاستقامات الإنكاري على من يُعَدُّ وعداً أو يقول قولاً لا يفي به، وهذا يدل على أنه يجب الوفاء بالوعد مطلقاً كما يجب العمل بما علّم من العلم مطلقاً.

ويؤيده ما في «الصحاحين»^(٢): أن رسولَ الله ﷺ قال: «آيةُ المنافق ثلاث: إذا وعدَ أخلف، وإذا حدثَ كذب، وإذا أُوْتِيَ خان».

(١) الصف: ٢-٣.

(٢) سبق تخريجه (ص ١٩٧).

وزاد مسلمٌ في روايته: «وإن صلتَ وصامَ وزعمَ أنه مسلمٌ».

وأكد الله ذلك بقوله: ﴿كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾، وهذا إنكارٌ وتوبيخٌ من الله تعالى على أن يقول الإنسان من نفسه ما لا يفعله من الخير والعمل، وأن الإنسان إذا أخبر أنه فعل كذا وهو لم يفعله كان كاذباً، وإن وعد أنه يفعله في المستقبل ولا يفعله كان خُلُفاً، وكلاهما مذموم، فيشمل الكذب وإخلاف الوعد بلا عذر. فمن يمدح الجهاد في سبيل الله ولا يجاهد عند الإمكان؛ فهو داخل في الوعد، ومن يمدح العلم ولا يجتهد في طلبه مع الإمكان؛ فهو داخل أيضاً في الوعد، ومن يمدح السخاء والجود وهو يبخل مع قدرته وثروته؛ فهو داخل في الوعد، قال الله عز وجل: ﴿اتَّامِرُوا النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَسْتَوُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾^(١).

لَا تَنْسَ عَنْ خُلُقِي وَرَأْسِي مِثْلَهُ عَارُ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمُ أما العجبُ العجيبُ المؤسف؛ فإن أكثر الناس في هذا الزمان يقولون ويتقولون ما لا يفعلون، بل يأمرُونَ بالمعكر وينهون عن المعروف، والعباد بالله تعالى الجبار كما هو شأن أكثر المقلّدين وأهل الطرق؛ فإنهم يمنعون الناس من حضورِ دروس التوحيد والتفسير والحديث، ولكنهم يرغبونهم في البدعيات والخرافات؛ من تقليد المذاهب المحرّقة، والطرق الفاسدة الباطلة، ومع ذلك يدعون التوحيد والتقوى، فهم داخلون في الوعد البتة.

الآية الثالثة والتسعون فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ . تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . يُغْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلُكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ . وَالْآخِرَىٰ تَحْبِيبُهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَنَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١).

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين؛ منهماً إياهم، فقال: يا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ الصادقون الطالبون سعادتي الدنيا والآخرة والفوز بالرضا والرضوان والجنة! ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ عَظِيمَةٍ مُبَارَكَةٍ رَابِعَةٍ، تَكُونُ سَبِيلاً لِنَجَاءِ اللَّهِ إِيَّاكُمْ، وَتَخْلِيصِهِ لَكُمْ مِنَ الْعَذَابِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَتَكُونُ سَبِيلاً لِلْعَزَّةِ وَالسَّعَادَةِ، وَهِيَ تِجَارَةٌ لَنْ تَبُورَ أَصْلاً، وَلَنْ تَخْسَرَ أَبَداً، هِيَ: ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ إيماناً صادقاً، وتؤمنون برسوله محمد ﷺ، وكل ما جاء من عند الله، ﴿وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾؛ قاصدين إعلاء كلمة الله تعالى، ونشر التوحيد، وقد ثبت^(٢) عن رسول الله ﷺ أنه قال: «جاهدوا المشركين والكفار بأموالكم وأنفسكم وأستبكم».

وإذا جمعتم هذه الأوصاف الجميلة؛ فـ ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؛ لأن هذه التجارة لا تكون إلا رابحة؛ بخلاف التجارة الدنيوية؛ فإنها قد لا تكون رابحة، بل قد تكون خاسرة، ولو ربحت؛ فربحها قليل زائل.

(١) الصف: ١٠ - ١٣.

(٢) رواه: أبو داود (٢٥٠٤)، والنسائي (٧ / ٦)، والدارمي (٢١٣ / ٢)، وأحمد (٣ / ١٢٤ و ١٥٣ و ٢٥١)، وابن حبان (١٦١٨)، والحاكم (٨١ / ٢)، عن أنس. وسنده صحيح.

يَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ! إذا فعلتم ما أمركم به وذللكم عليه؛ غفرت لكم الرِّلَات، وأدخلتكم الجنات والمساكن الطيبات، والدرجات العاليات، وعلاوة على هذه النعم العظيمة الشَّرمديَّة أزيدكم أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ نعماً أخرى عاجلة في الدنيا، وأنتم تحبونها وترغبون فيها، ألا وهي ﴿نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ ينصركم على أعدائكم، ويفتح عليكم الفتوحات؛ أي: إذا قاتلتم في سبيل الله، ونصرتُم دينه، وعملتُم بأمره؛ تكفل الله تعالى بنصركم، فهو ينصركم أَلَيْتَهُ؛ كما قال الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصَرُوا لِلَّهِ تَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ (١)، ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (٢)؛ كما ذكرناها وفُسرناها سابقاً في الآية السادسة والسبعين، وهي في سورة محمد ﷺ، وكما يأتي في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ﴾ (٣) الآية.

وهذه النعم من النصر والفتح عاجل ما هي خير الدنيا موصولاً بنعيم الآخرة لمن أطاع الله ورسوله، ونصر الله ودينه، ولهذا قال: ﴿وَنَصِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يا رسولي محمداً النصر في الدنيا والجنة في الآخرة، ﴿وَمَنْ جَاهَدْ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ﴾.

وقد صدق الله العظيم؛ إِنَّ النَّاسَ حينما كانوا مؤمنين صادقين يجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم وأستبهم؛ كالحلفاء الراشدين رضي الله عنهم؛ نصرهم الله تعالى على الأعداء، وفتح لهم البلدان شرقاً وغرباً، ورفعوا أعلام الإسلام، فصارت تجارتهم رابحة، ونجتهم من ظلم الظالمين،

(١) سورة محمد: ٧.

(٢) الحج: ٤٠.

(٣) الصف: ١٤.

واستعباد المستعبدين، واستعمار المستعمرين، وقد غفرَ اللهُ تعالى ذُنُوبَهُمْ، وأدخلَهُمْ جناتِ النعيمِ، ومسكنَ طيبةً في جناتِ عَدْنٍ؛ ذلكَ الفوزُ العظيمُ.

وأما الخَلَفُ الذينَ قد خالفوا السلفَ الصالحينَ، ولم يعملوا بموجبَ إيمانِهِمْ، ولم يجاهدوا في سبيلِ اللهِ بأموالِهِمْ وأنفُسِهِمْ، بل إنَّما تظاهروا ببعضِ مظاهرِ الإيمانِ والإسلامِ، وصارَ مقصدُهُم الجاةَ والرئاسةَ، والهوى والشهوةَ، فصاروا محرومينَ من النصرِ والفتحِ، والتجارةِ الرابحةِ، والخيرِ الكثيرِ، فذهبتْ دولُهُمْ وذيَارُهُمْ في أيدي الكفرةِ، واللهُ أعلمُ، كما أنَّهم صاروا من المحرومينَ من دولةِ الدنيا، فسَيَحْرَمُونِ مِنَ المغفرةِ والرحمةِ وحنانِ النعيمِ والمسكنِ الطيبةِ في الآخرةِ؛ لأنَّهم قد غَيَّرُوا ما بأنفسِهِمْ من الوظائفِ الإيمانيةِ واللوازمِ الإسلاميةِ، فغَيَّرَ اللهُ تعالى عليهم؛ جزاءً وفاقاً، ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾^(١).

فيا أيُّها المسلمون! آمِنُوا باللهِ ورسولِهِ إيماناً صادقاً كاملاً مشيراً مقترناً بالعملِ بموجبه، ولا تَخْدَعُوا أَنْفُسَكُمْ، ولا تَخْدَعُوا بِشَوَاطِلِ شياطينِكُمْ من العلماءِ السوءِ الذينَ جعلوا العلمَ فخاً ومصيدةً لمآكلِهِمْ وشهواتِهِمْ، وشيوَاجِكُمْ الذينَ هَمَّوْا في الدُّجَلِ حتى جعلوا الطُّريقةَ والتَّصَوُّفَ غَيْرَ الشَّريعةِ^(٢)، حتى قالوا بلا تحاشٍ: الطُّريقةُ غَيْرُ الشَّريعةِ، فخرجوا عن الشَّريعةِ المحمَّديةِ إلى الطُّريقةِ الوُثنِيَّةِ، وهُم لا يَشْعُرُونَ؛ لجهْلِهِمْ بمعاني كتابِ اللهِ وسنةِ رسولِ الله ﷺ.

(١) البقرة: ٥٧.

(٢) قارنْ تعليلي على المتنفي بالنفي (ص ٤٣٣).

فيا أيُّها الناسُ! إلى متى هذا الضَّلَالُ؟ وإلى أينَ هذا الخَبَالُ؟ أما تَفْقِهُونَ مِنَ السَّكرةِ؟ أما تصحونَ مِنَ الغفلةِ؟ أم أنتمُ حُرْجَمٌ عن مرتبةِ الإنسانيةِ، فهبطتمُ في مهاري الحويَّةِ، وسلكتُمُ المسالكَ الشَّيطانيةَ وقد غرَّتْكمُ الدُّنيا!! فلا تَغْرُتُكُمْ الحَيَاةُ الدُّنيا وزينَتُها، ولا يَغْرُتُكُمْ باللهِ الغرورُ.

الآيةُ الرابعةُ والسَّعونُ فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لَلخَوَارِجِينَ مِّنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِجُونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَأَمَنَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾^(١).

قد نادى اللهُ تعالى وخاطَبَ عبادهَ المؤمنينَ؛ آمراً بإيَّامِهِمْ أَنْ يكونوا أنصارَ اللهِ في جميعِ أحوالِهِمْ؛ بأقوالِهِمْ، وأفعالِهِمْ، وأنفُسِهِمْ، وأموالِهِمْ، وأنَّ يستجيبوا للهَ ولرسولِهِ كما استجابَ الحواريونَ لعيسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ حينَ قالَ: ﴿مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ؟﴾ أي: مَنْ مَعْنِي في الدَّعوةِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ؟ ﴿قَالَ الْخَوَارِجُونَ﴾ - وهم أتباعُ عيسى عليه السَّلامُ - ﴿نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ﴾؛ أي: نحنُ أنصارُكَ وساعدوكَ يا رسولَ اللهِ على ما أُرْسِلْتُ بِهِ، ومؤازرُوكَ على ذلكَ، ولهذا بعثَهُم دُعاةً إلى الناسِ في البلدانِ.

وهكذا كانَ رسولُ الله ﷺ يقولُ في أيامِ الموسمِ: «هل من رجلٍ يؤتيني حتى أبلغَ رسالةَ ربِّي؟ فإنَّ قريشاً قد منعتوني أن أبلغَ رسالةَ ربِّي؟»^(٢)، حتى

(١) الصف: ١٤.

(٢) رواه: أبو داود (٤٧٣٤)، والترمذي (٢٩٢٥)، والسنائي في الكبرى - كما في

فِيضَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ الْأَرْضَ وَالْخَرْجَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ، فَبَاعُوهُ وَازَرَوْهُ وَشَارَطُوهُ أَنْ يَمْنَعُوهُ مِنَ الْأَسَدِ وَالْأَحْمَرِ أَنْ هُوَ هَاجِرٌ إِلَيْهِمْ، فَلَمَّا هَاجَرَ إِلَيْهِمْ بَمَنْ مَعَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ؛ وَقَفَا لَهُ بِمَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ، وَلِهَذَا سَمَّاهُ اللَّهُ تَعَالَى وَرَسُولُهُ ﷺ الْأَنْصَارَ. وَصَارَ ذَلِكَ عِلْماً عَلَيْهِمْ، رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ وَأَرْضَاهُمْ، وَجَعَلْنَا فِي زُمْرَتِهِمْ وَمِنْ مُحِبِّينَ وَتُحِبِّينَ، وَحَشَرْنَا مَعَهُمْ بِفَضْلِهِ وَمَنَّهُ.

اعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَعْلَمْنَا أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ افْتَرَقَتْ طَوَائِفُ، فَأَمِنَتْ طَائِفَةٌ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ، وَقَدْ غَالَتْ فِيهِ طَائِفَةٌ حَتَّى قَالَتْ: إِنَّهُ ابْنُ اللَّهِ، وَافْتَرَقُوا فِرْقًا وَشَيْعًا، فَجَادَلُوا وَتَقَاتَلُوا، فَأَيَّدَ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ، فَأَصْبَحَ الْمُؤْمِنُونَ ظَاهِرِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ ظُهُورًا بَيِّنًا، وَقَدْ إِزَادَ ذَلِكَ ظُهُورًا بِبَيْعَةِ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّهُ كَمَا اخْتَلَفَتْ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ؛ كَذَلِكَ اخْتَلَفَتْ وَكَفَرَتْ طَوَائِفٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَغَلَتْ فِي نَبِيِّهَا وَآلِهِ؛ كَالرَّافِضَةِ، وَالشَّيْعَةِ، وَغُلَاةِ الصُّوفِيَّةِ، وَالْحَنْفِيَّةِ الْهِنْدِيَّةِ الْبَرِيلَوِيَّةِ^(١)، فَادَّعَتْ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ يَعْلَمُ الْغَيْبَ الْآنَ، وَأَنَّ حَالَهُ ﷺ بَعْدَ مَوْتِهِ كَمَا بَلَغَ قَبْلَ مَوْتِهِ، وَهَوَّجَتْ فِي قَبْرِهِ كَتَبَاتِهِ الدُّنْيَوِيَّةَ، وَلِهَذَا يَنَادُونَهُ وَيَسْتَعِينُونَ بِهِ، حَتَّى إِنَّهُمْ حِينَمَا يَقْرَءُونَ قِصَّةَ الْمَوْلِدِ يَقُومُونَ قِيَامًا بِغَايَةِ التَّعْظِيمِ، وَيَقُولُونَ:

مَرْحَبًا يَا مَرْحَبًا يَا مَرْحَبًا مَرْحَبًا جَدُّ الْحُسَيْنِ مَرْحَبًا

= «تَحْفَةُ الْأَشْرَافِ» (٢/ ١٧٧) -، وَابْنُ مَاجَهَ (٢٠١)، وَاحِدٌ (٣/ ٣٩٠)، وَابْنُ خَرَّازٍ فِي «وَحَلِّ أَعْمَالِ الْعِبَادَةِ» (٨٠٦)، وَغَيْرُهُمْ؛ عَنْ جَابِرٍ، بِسَنَدٍ صَحِيحٍ. (١) وَلِلشَّيْخِ إِحْسَانِ إِبْرَاهِيمَ طَهْرِي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى كِتَابَ كَبِيرٍ كَشَفَ فِيهِ زُيُوفَ الْبَرِيلَوِيَّةِ وَضَلَالَاتِهِمْ، طُبِعَ فِي الْبَاكِسْتَانِ، فَلْيَنْظُرْ.

وَأِنَّمَا يَقُومُونَ لِأَنَّهُمْ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ رُوحَهُ ﷺ قَدْ حَضَرَ هُنَاكَ.

وَزَادَ غُلُوَّ مُتَأَثِّرِيهِمْ حَتَّى صَارُوا يَعْتَقِدُونَ أَنَّ الْأَوْلِيَاءَ - كَعَبِيدِ الْقَادِرِ الْجِبَالِيِّ - مِثْلًا - يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ، وَيَتَصَرَّفُونَ فِي الْأُمُورِ، فَلِهَذَا تَرَاهُمْ يُنَادُونَهُمْ وَيَسْتَعِينُونَ بِهِمْ وَيَتَدَرَّسُونَ لَهُمْ، فَهَؤُلَاءِ أَمَنَاتُهُمْ كَقَرَّةٍ مَشْرُوكِينَ، وَالْعِبَادُ بِاللَّهِ تَعَالَى.

وَعَنْ هَذَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «سَفَتَرْتُ أُمْنِي ثَلَاثًا وَسَبْعِينَ فِرْقَةً؛ كُلُّهَا فِي النَّارِ إِلَّا وَاحِدَةً». قِيلَ: مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «هُمْ عَلَى مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي»^(١).

وَقَدْ أَشَارَ إِلَى هَذِهِ الْفِرْقَةِ الْوَاحِدَةِ النَّاجِيَةِ بِقَوْلِهِ ﷺ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ، حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ، أَوْ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ، وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ، وَحَتَّى يُقَاتِلَ أَخْرُجُهُمُ الدُّجَالُ مَعَ الْمَسِيحِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ»^(٢).

فَسَأَلْتُ اللَّهَ أَنْ تَجْعَلَنَا مِنْ هَذِهِ الْفِرْقَةِ الظَّاهِرَةِ عَلَى الْحَقِّ، وَهُمْ أَنْصَارُ دِينِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَهُمْ السَّادِعُونَ إِلَى الْحَقِّ وَالِى التَّوْحِيدِ؛ تَوْحِيدِ الْإِلَهِ الْوَحِيدِ وَالْعِبَادَةِ، وَالِى الْعَمَلِ بِكِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

(١) حَدِيثٌ حَسَنٌ، انْظُرْ تَخْرِيجَهُ فِي «إِرْبَاعِي الْأَجْرِي» (رَقْم ١٣) بِتَحْقِيقِي وَتَخْرِيجِي.

(٢) رَوَاهُ: أَبُو دَاوُدَ (٢٤٨٤)، وَالحَاكِمُ (٤/ ٤٥٠)، وَاحِدٌ (٤/ ٤٢٩) ٤٣٤ وَ(٤٣٧) عَنْ عُمَرَ بْنِ حَصِينٍ، وَسَنَدُهُ صَحِيحٌ. وَهُوَ حَدِيثٌ مُتَوَاتِرٌ، لَهُ طَرُقٌ كَثِيرَةٌ.

الآية الخامسة والتسعون في سورة الجمعة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(١).

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين؛ منيها إياهم أنه إذا نادى المنادي لصلاة الجمعة؛ فالواجب عليهم أن يسعوا إلى أداء الصلاة وسماع الخطبة، وأن يتركوا البيع وكل عمل يشغلهم عن أداء الصلاة، فأداء صلاة الجمعة وسماع الخطبة والذكر والوعظ هو الخير النافع للمؤمنين إن كانوا يعلمون مصالح أنفسهم وما ينفعهم في دينهم ودنياهم وآخرتهم.

ومعنى السعي: الذهاب والحضور، لا العُدُو، والمراد من هذا النداء هو النداء الذي يكون بين يدي الخطيب إذا جلس على المنبر، وأما النداء الذي على المنابر؛ فإنما زاده عثمان رضي الله عنه في إمارته^(٢) لما كثُر الناس، فليس بمراد، فمن حين النداء يجب المشي والحضور، وبحرم البيع والاشتغال.

واعلم أن صلاة الجمعة من فروض الأعيان، فتجب على كل مسلم عاقل بالغ حر إذا كان مقيماً في مضر أو قرية، فمن تركها بدون عذر؛ استحق الوعيد الشديد، وقد ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال: «تجب الجمعة على كل مسلم إلا امرأة أو صبياً أو مملوكاً» رواه الترمذي والنسائي^(٣).

(١) الجمعة: ٩.

(٢) كما رواه البخاري (٢ / ٣١٤) وغيره.

وانظر له لزماً والأجوبة النافعة: (١٧ - ٢٦) لشيخنا الألباني.

(٣) لم أر هذا الحديث عندهما!

ولكن؛ رواه بنحوه أبو داود (١٠٦٧) عن طارق بن شهاب.

والعذر المسقط للجمعة المرض، أو تعهد مريض، أو خوف، أو مطر، أو وحل كثير.

ومن لا يجب عليه حضور الجمعة، إذا حضر وصلى مع الإمام الجمعة؛ سقط عنه فرض الظهر؛ لأنها فرض الوقت.

وقد صرح عن رسول الله ﷺ: «مَنْ تَرَكَ الْجُمُعَةَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ تَهَاوَنَّا بِهَا؛ طَعِنَ اللَّهُ عَلَى قَلْبِهِ»^(١).

ولا شك أن صلاة الجمعة من أوكده فرائض الإسلام، ومع هذا؛ فإننا قد شاهدنا كثيراً من المسلمين يتركون الجمعة؛ تهاوناً بها، حتى إنني قد رأيت رجالاً من أغنياء مكة، وأنا نازل عنده ضيفاً في أيام الصيف في الطائف، وهذا الغني لا يحضر لصلاة الجمعة، وعنده السيارات والمراكب الفاخرة، وإذا قيل له في ذلك؛ يتعلل بوجع الرجل أو صداع الرأس، ولكن أراه يسعى كل يوم بعد صلاة الفجر ماشياً على رجله؛ لزيارة قبر عبدالله بن عباس رضي الله عنهما، فلما رأيته مراراً؛ قلت له: يا فلان! لم لا تحضر صلاة الجمعة وهي فرض عين؟

وقال عفيه: «طارق بن شهاب رأى النبي ﷺ ولم يسمع منه شيئاً».

فقال النووي في «الخلاصة»: «وهذا غير قاطع في صحته؛ فإنه يكون مرسل صحابي، وهو حجة، والحديث على شرط الشيخين».

نقله الزيلعي في «نصب الرتبة» (٢ / ١٩٩).

وقال شيخنا في «الإرواء» (٣ / ٥٥): «وكان لذلك صرحه غير واحد».

ثم ساق له شيخنا شواهد عدة.

(١) رواه: أبو داود (١٠٥٢)، والترمذي (٥٠٠)، والنسائي (٣ / ٨٨)؛ عن أبي

الجعد الضمري.

وسنده حسن.

فَأَجَابَ بِأَنَّهُ مُتَأَثِّرٌ أَوْ رَأْسُهُ دَائِعٌ أَوْ مَرِيضٌ، فَأَعَدْتُ الْقَوْلَ، فَقُلْتُ: لَمْ تَذْهَبْ كُلَّ يَوْمٍ مَاشِياً إِلَى زِيَارَةِ قَبْرِ أَبِي عِيسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَلَا تَتَأَثَّرُ وَلَا تَسْلَمُ؟ فَأَجَابَ بَأَنَّ شَيْخَهُ فَلَانٌ أَوْصَاهُ بِأَنَّ لَا يَتْرَكَ زِيَارَةَ قَبْرِ الْخَيْرِ؛ فَإِنَّهُ مُنْتَجِبُ الْبَرَكَاتِ! وَهَذِهِ الدَّوْلَةُ الَّتِي يَنْتَهِي كُلُّهَا بِبِرْكَةِ هَذَا الْخَيْرِ. فَقُلْتُ: يَا هَذَا! أَتَى اللَّهُ؛ إِنَّ الْبِرْكََةَ إِنَّمَا هِيَ بِيَدِ اللَّهِ، وَعِنْدَهُ جَلُّ جَلَالِهِ، لَا عِنْدَ أَحَدٍ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ، وَرُؤْيَا الْبِرْكََةِ مِنْ غَيْرِ اللَّهِ - وَخُصُوصاً مِنْ الْقُبُورِ وَأَصْحَابِ الْقُبُورِ - مِنْ شِعَارِ عِبَادِ الْأَنْصَامِ وَالْأَوْثَانِ وَالْمُشْرِكِينَ. وَلَكِنْ لَمْ يَقْبَلْ نَصِيحَتِي، وَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَى مَا قُلْتُ، وَقَالَ: الْوَهَابِيُّونَ يَقُولُونَ هَكَذَا! فَقَطَاعَتُهُ قَائِلًا: هَذَا فِرَاقِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ^(١).

فَانظُرْ يَا أَخِي الْمُؤْمِنُ إِلَى حَالِ الْمُسْلِمِينَ وَجَهْلِهِمْ، وَحَالِ مَنْ يَسْكُنُ فِي الْحَرَمِ، قَدْ سَخِرَ مِنْهُمْ الشَّيْطَانُ، وَلَجِبَ بِهِمْ، وَأَغْفَلَهُمْ عَنْ أَمْرِ اللَّهِ، وَأَبْعَدَهُمْ عَنْ فَهْمِ مَعَانِي كِتَابِ اللَّهِ وَالْعَمَلِ بِهِ وَبِسُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

ثُمَّ أَعْلَمْتُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَأْمُرْ عِبَادَهُ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَتْرَكُوا الْأَشْغَالَ الْمَعَاشِيَّةَ وَيَجْلِسُوا فِي الْمَسَاجِدِ مُعْتَكَفِينَ كَمَا يَفْعَلُهُ الْجَهْلَةُ وَأَهْلُ الْبَطَالَةِ مِنْ أَهْلِ السُّطُورِ وَالْكَتَابِ، بَلْ أَمَرَهُمْ بَعْدَ آدَاءِ فَرَائِضِ الصَّلَوَاتِ أَنْ يَنْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ، وَيَطْلُبُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ الرَّزْقَ وَالْمَعَاشَ.

وَمِنْ هَذَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: مَنْ بَاعَ وَاشْتَرَى فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ؛ بَارَكَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ سَبْعِينَ مَرَّةً.

وَكَانَ عِرَالُ بْنُ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِذَا صَلَّى الْجُمُعَةَ؛ انْصَرَفَ، ثُمَّ وَقَفَ

(١) هَذَا هَجْرٌ مُشْرَعٌ، لَيْسَ لِلنَّفْسِ فِيهِ نَصِيبٌ، إِنَّمَا هُوَ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - لِلَّهِ سَبْحَانَهُ وَجَدَهُ، وَانْظُرْ: «هَجْرُ الْمُتَبَدِّعِ» لِلْأَخِ الشَّيْخِ بَكْرِ أَبِي زَيْدٍ.

عَلَى بَابِ الْمَسْجِدِ، فَقَالَ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَجَبْتُ دَعْوَتَكَ، وَصَلَيْتُ فَرِيضَتَكَ، وَانْتَشَرْتُ كَمَا أَمَرْتَنِي، فَارْقُزْنِي مِنْ فَضْلِكَ، وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ». رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ.

﴿وَاذْكُرُوا لِلَّهِ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾؛ أَي: فِي حَالِ بَيْعِكُمْ وَشُرَائِكُمْ، وَأَتَّخِذْكُمْ وَأَعْطَاكُمْ، وَفِي كُلِّ حَالَاتِكُمْ؛ اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً، وَلَا تَشْغَلْكُمْ الدُّنْيَا عَنِ الَّذِي يَنْفَعُكُمْ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، وَلَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنَ الذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً حَتَّى يَذْكُرَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَاضْطِجَاعاً.

وَمِنْ فَضْلِ اللَّهِ طَلِبُ الْعِلْمِ؛ كَمَا أَنَّ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ الْمَالِ الْحَلَالَ وَالرِّزْقَ الْحَلَالَ.

وَأَصْلُ الذِّكْرِ أَنَّ يَذْكُرَ الْعَبْدُ أَمْرَ اللَّهِ فِي كُلِّ شَوْؤِهِ، فَيَأْتِيهَا مُوَافِقاً لِأَمْرِهِ بِرِغَابَةٍ حُدُودِهِ.

قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «الذِّكْرُ طَاعَةٌ لِلَّهِ، فَمَنْ أَطَاعَ اللَّهَ؛ فَقَدْ ذَكَرَهُ، وَمَنْ لَمْ يَطِعه؛ فَلَيْسَ بِذَاكِرٍ، وَإِنْ كَانَ كَثِيرَ التَّسْبِيحِ بِاللِّسَانِ؛ كَمَا هُوَ شَأْنُ كَثِيرٍ مِنَ الْمُتَجَالِبِينَ الْمُكَارِبِينَ، وَذَكَرَ اللَّهَ حَقّاً سَبَبَ الْفَوْزِ وَالْفَلَاحِ فِي الدَّارَيْنِ، وَمَوْجِبَ لُجْجَةِ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ، ﴿وَلَا يَذْكُرُ اللَّهَ تَطَهُّتِ الْقُلُوبِ﴾^(١).

الْآيَةُ السَّادِسَةُ وَالتَّسْعُونَ فِي سُورَةِ الْمَنَافِقِينَ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَلْهَوْكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ

(١) الرعد: ٢٨.

الْخَاسِرُونَ»^(١).

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين؛ أمراً إياهم بكثرة ذكره، ونهاياً إياهم عن أن تشغلهم الأموال والأولاد عن ذكر الله، وأخبر تعالى أن من انتهى وتلهم بمتاع الحياة الدنيا وزينتها عما خلق له من طاعة ربه وذكره؛ فإنه من الخاسرين، الذين يخسرون أنفسهم وأهلهم يوم القيامة، ثم حثهم ورغبهم على الإنفاق في طاعة الله ومرضاته.

وقد روى الترمذي في «سننه»^(٢) بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه قال: «من كان له مال يبلغه حج بيت ربه أو تجب عليه فيه زكاة، فلم يفعل؛ سأل الرجعة عند الموت». فقال رجل: يا ابن عباس! أتق الله؛ فإنما يسأل الرجعة الكفار. فقال: «سأتلو عليكم بذلك قرأنا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ. وَاتَّقُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصِلَقْ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ. وَلَنْ يُؤَخَّرَ اللَّهُ نَفْساً إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ»^(٣). قال: فما يوجب الزكاة؟ قال: «إذا بلغ المال ميتين فصاعداً». قال: فما يوجب الحج؟ قال: «الزاد والراحلة».

(١) المنافقون: ٩.

(٢) برقم (٣٣١٣).

وأورده السيوطي في «الدرر» (٨ / ١٧٩)، وزاد نسبه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه. وفيه ضعف وانقطاع.

(٣) المنافقون: ٩ - ١١.

فيا أيها المسلمون! لا تشغلكم الاهتمام بتدبير أموالكم وأولادكم، والاعتناء بمصالحها، والتعنى بها، عن الاشتغال بذكر الله تعالى؛ من الصلاة والزكاة والحج وسائر العبادات المذكورة للمعبود. وذكر الله إماماً للقلب وإماماً لللسان وإماماً للجوارح، والمراد هنا كل ذلك، وبالله التوفيق.

الآية السابعة والتسعون في سورة التغابن: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعَفَّوْا وَتَضَعُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ. إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ. فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَتَّقُوا خَيْرًا لَأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ»^(١).

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين؛ منيها إياهم، ومخبراً أن بعض الأرواح والأولاد عدو الزوج والولد؛ فإنه بسببه يتلهم ويشغل عن العمل الصالح، أو يرتكب بسببه بعض المحظورات؛ من السرقة، والغش، والخيانات، فلهذا قد أمر الله تعالى المؤمنين أن يحذروا من الوقوع بسببهم في المحظورات، وكم من زوجة تحيل الزوج على قطع الرحم، أو معصية ربه، فلا يستطيع الرجل مع حبه لها إلا أن يطيعها.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن رجلاً أسلموا من أهل مكة، فأرادوا أن يهاجروا إلى رسول الله ﷺ، فأبى أزواجهم وأولادهم أن يذعنوهم،

(١) التغابن: ١٤ - ١٦.

وقالوا: لا نصبر على فراقكم، فأطاعوهم، وتركوا الهجرة، ثم لما هاجروا بعد مدّة إلى رسول الله ﷺ ورأوا الناس الذين سبقوهم أنهم قد فقّهُوا في الدين؛ همّوا أن يماقبوا أزواجهم وأولادهم الذين نعوهم، فأنزل الله: ﴿وَأَنْ تَقْعُوا وَتَضْحَكُوا وَتَفْتَرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، فأمرهم الله تعالى بالعفو عنهم والصّحّ^(١).

فيا أيّها المؤمنون! إنّما الأموال والأولاد فتنة، أي: اختبار وإبتلاء من الله تعالى لخليقه؛ ليعلم من يطيعه ممّن يعصيه، ويقبضها الإنسان في العظام. ومنع الحقوق وتناول الحرام، ﴿والله عنده أجر عظيم﴾.

وقد روى الزّائر^(٢) بسنده عن أبي سعيد رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «الولد ثمرة القلوب، وإنهم مجبنة مبخلة محزنة».

وحيث إنّ الإنسان مبدئي بهذه الفتنة؛ فقد لطف الله تعالى بعبيده المؤمنين، فقال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾؛ أي: جهدكم وطاقتكم، ﴿وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا﴾؛ أي: كونوا متقادين لما يأمركم الله تعالى به ورسوله، ولا تحيدوا عنه يمنة ولا يسرة، ولا تقدّموا بين يدي الله ورسوله، ولا تتخلّفوا عمّا أمرتم به، ولا تركبوا ما عنه نهيتم وحرّمت، واسمعوا وأطيعوا ومواعظه وأطيعوه، وأتقوا ممّا رزقكم

(١) رواه: الترمذي (٣٣١٤)، وابن جرير (٢٨ / ١٢٤)، والطبراني (١١٧٢٠) عن سماك عنه.

ورواية سماك عن عكرمة مضرطرية.

(٢) بزم (١٨٩٢) عن أبي سعيد.

وفي سنده عطية العوفي، وهو ضعيف.

وقد صحّ الحديث؛ دون قوله: «... ثمره القلوب...» كما تقدّم (ص ٢٠١) تخريجه مفصلاً.

الله تعالى على الأقارب والمساكين وذوي الحاجات، وأحسنوا إلى خلق الله كما أحسن الله إليكم؛ يحسن خيراً لكم في الدنيا والآخرة.

فيا أيّها المؤمنون! كونوا على حذر واحتياط من أزواجكم وأولادكم وأموالكم، واعدلوا في معاملتهم، ولا تلقوا أنفسكم بسببهم إلى المهلكة، وكم من مال أوقع ماله في أنواع البلاء، حتى في الدنيا!

فاتقوا كلّ ما يكون سبباً لمواخذة الله إليكم في تدبير أمورهم، وترك تعليمهم أمور دينهم، ولا ترتكبوا ما يخالف أمر الله تعالى من فعل أو ترك، واتقوا أموالكم فيما أمركم الله تعالى بالإتفاق فيه خالصاً لله تعالى، وفي تربية أولادكم، واتقوا الشحّ والبخل، ﴿وَمَنْ يُوقْ شَحْ نفسه﴾؛ أي: من يقه الله ويعصمه من بخل نفسه الذي هو الرذيلة المعجونة في طينة النفس؛ ﴿فَأُولَئِكَ﴾ المحفوظون من الشحّ، والسامعون لمواعظ الله، والمطيعون لأوامره، والمنفقون فيما أمر الله تعالى بالإتفاق فيه ﴿هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ في الدارين، والفاخرون بالسعادتين، اللهم وفقنا لما فيه رضاك.

الآية الثامنة والسعون في سورة الطلاق: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا. رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّخُرْجِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ وَرِزْقًا^(١)﴾.

(١) الطلاق: ١٠ - ١١.

قد أمر الله تعالى الغفلة من عباده المؤمنين وأصحاب اللب وهم الذين آمنوا بالله ورسوله إيماناً صحيحاً بتقوى الله تعالى، والحذر من غضبه وعقابه، فخطبهم منادياً إليهم بيا ذوي الألباب والمقول السليمة! الذين عرفوا ربهم فأمنوا به إيماناً صادقاً؛ أي: يا أيها المؤمنون ذور الألفهام السليمة والمقول المستقيمة! اتقوا الله، ولا تكونوا مثل الذين خالفوا أمره، وكذبوا رسله، وغيروا ما شرعته، وابتدعوا في دينه وعبادته، فأصابهم ما أصابهم من بلاء الله وغضبه وعذابه ولعنته.

فيا ذوي الألباب الذين أنصفوا بصفة الإيمان الصادق! ﴿قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ تعالى ﴿إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾؛ يعني القرآن و﴿رَسُولًا﴾؛ يعني: محمداً ﷺ، ﴿يُنَلِّئُ عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مَبِينَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾؛ أي: من ظلمات الشرك والكفر والجهل والضلال إلى نور الإيمان والوحيد والعلم، وإنما وحّد الله تعالى لفظ النور وجمع الظلمات؛ لأن الحق واحد، وسبيله واحد، وهو ما جاء به محمد رسول الله ﷺ اعتقادياً وعملياً، وأما الظلمات والكفريات والشركيات؛ فأنواعها كثيرة، وطرُقها متعدّدة؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾^(١).

وأفادت الآية أن ذوي الألباب إنما هم المؤمنون بالله إيماناً صادقاً، وأما غيرهم من الكافرين والمشركين والزنادقة؛ فليسوا من ذوي الألباب، وإن اخترعوا الصنائع العجيبة من السيّارات والطّيّارات والقنابل الذريّة والمكينات

(١) الأنعام: ١٥٣

الجهنمية، وحصلوا من الدنيا بالمليارات؛ فإنهم من قُرط جهلهم أعداء أنفسهم كما لا يخفى، فهم كالشياطين الذين كانوا يعملون في دولة سليمان عليه السلام من محارب وتمانيل وجفان وقُدور راسيات^(٢)، وكذلك كانوا يتجشّون من الجبال بيتراً ومصانع لهمهم يخلّدون^(٣)، فانتهاوا يا ذوي الألباب.

قاله تبارك وتعالى وإنما يُخْرِجُ بكتابه المؤمنين الغفلة المتفكرين من الضلالة إلى الهدى، ومن الباطل إلى الحق، ومن الجهل إلى العلم، ومن الكفر إلى الإيمان، ومن الشرك إلى التوحيد، ومن الشبهات إلى الدلالات والبراهين الواضحات، ومن الغفلة إلى اليقظة، ومن الأنس بغير الله إلى الأنس بالله؛ على حسب طبقاتهم ودرجاتهم، ويقدر استعدادهم وأهليتهم في السعي والاجتهاد بعبادة الله تعالى وتوفيقه، اللهم اهدنا فيمن هديت، يا رب العالمين!

الآية التاسعة والتسعون في سورة التحريم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ لَا يَخْفُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾^(١).

قد نادى الله تعالى وحاطب عباده المؤمنين؛ أسراً إليهم أن يحفظوا أنفسهم وأهليهم وأولادهم وأزواجهم ممّا يصير سبباً للدخول في نار جهنم،

(١) كما في سورة سبأ: ١٣.

(٢) كما في سورة الشعراء: ١٢٩ و١٤٩.

(٣) التحريم: ٦.

ووقوداً وحطب تلك النار إنما يكون من الأدمي والحجارة المعبودة من الأوثان والأصنام والهيكل والقبب المنيئة على قبور الأنبياء والأولياء وغيرها.

ولا شك أن الوقاية منها إنما تكون: بالإيمان بالله ورسوله، والعمل بمقتضاه، وتبذير الأولاد وتعليمهم الإيمان الصحيح والإسلام الصحيح والإحسان والأخلاق الإنسانية والعمل بطاعة الله والاحتراز عن معاصي الله.

فيا أيها المؤمنون! اتقوا الله، وأوصوا أهليكم بتقوى الله، فتأمرهم بطاعة الله، وتنهؤهم عن معصية الله، وأن تساعدوهم على ذلك، فإذا رأيتم منهم معصية الله؛ فذعنموهم منها، وزجرتموهم عنها، فالحق الواجب على المسلم أن يعلم أهله وأولاده وقربائه وعبيده ما فرض الله تعالى عليهم، وما أمرهم بفعله، وما نهاهم عنه.

ومما يفسر هذا ما رواه أبو داود والترمذي وأحمد^(١) عن رسول الله ﷺ: أنه قال: «مروا الصبي بالصلاة إذا بلغ سبع سنين، فإذا بلغ عشر سنين؛ فاضربوه عليها، وكذا الصوم؛ ليكون ذلك تمريناً له على العادة، والله سبحانه هو الموفق».

وقد أخبر الله تعالى أن وقود تلك النار وحطبها: ما يلقي فيها من جثث بني آدم، والحجارة؛ الأصنام والأوثان التي تعبد وتُعظم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ

(١) رواه: أبو داود (٤٩٤)، والترمذي (٤٠٧)، والدارمي (١/ ٣٣٣)، والحاكم (١/ ٢٠١)، وأحمد (٣/ ٢٠١)، والبيهقي (٢/ ٣٤ / ٨٣ - ٨٤)؛ من طريق عبد الملك ابن الربيع بن سبرة عن أبيه عن جده.
وسنده حسن.
وللمحدث طرق أخرى.

وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حُصْبٌ جَهَنَّمُ^(١)»، فالمشركون والكفار من وقود جهنم، وكذا الأصنام المعبودة، والأوثان المسجودة، والقبب على القبور المراكعة، ويدخل فيه الذين يأمرون الناس بالسجود والركوع لهم، أو النذر لهم ولأرواحهم بعد وفاتهم، أو يأمرون مريديهم بأن يطلبوا حاجاتهم منهم؛ متوجهين إلى قبورهم وفيهم، هؤلاء هم الطواغيت، والطواغيت في النار، ﴿جَهَنَّمُ يَصْذَقُهَا وَيُسَنِّ الْقَرَارِ^(٢)».

فيا أيها المؤمنون! اتقوا الله، وارحموا أنفسكم وأهليكم من الشراكات والكفرات والضلالات والجهالات وكل ما نهى الله تعالى عنه، وهذا يقتضي ويوجب على المؤمنين معرفة كل ما أمر الله تعالى به وما نهى عنه، ولا شك أن هذا موقف على معرفة معاني القرآن وأحاديث رسول الله ﷺ.

فعلينا أيها المسلمون بالسعي والاجتهاد في تعلم القرآن وفهم معناه؛ كي نتقوا أنفسكم من نار الجحيم والعذاب الأليم في الدنيا والآخرة، والله الموفق.

الاية المتممة للمثمة فيها أيضاً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوَنُّوا إِلَى اللَّهِ تَوَنُّةً نَصُوحاً عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَخَفِّرَ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نَوْمَهُمْ يَسَٰئَرُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا آتِنَا لَنَا نَوْمَنَا وَغَيْرَ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ^(٣)».

(١) الأنبياء: ٩٨.
(٢) إبراهيم: ٢٩.
(٣) التحريم: ٨.

قد نادى الله تعالى وخاطب عباده المؤمنين؛ أمراً إياهم بالتوبة والأوب والرجوع إلى الله توبة ناصحة خالصة صادقة، تمحو ما قبلها من السيئات، وتلم شعث النائب وتجمعه، وتكفه عما كان يتعاطاه من الذنابات.

وقد روى أحمد^(١) في «مسنده» عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «التوبة من الذنب: أن يتوب منه ثم لا يعود فيه».

فالتوبة النصوح^(٢): هي أن يقلع عن الذنب في الحاضر، ويندم على ما سلف منه في الماضي، ويعزم على أن لا يفعل في المستقبل، ثم إن كان الحق لأدمي رده إليه بطريقه، والتوبة الصحيحة تجب ما قبلها، كما أن الإسلام الصحيح يجب ما قبله^(٣).

فيا أيها المؤمنون! توبوا إلى الله قبل القوت؛ فإنك لا تدري متى تموت، ولا بد منه، فالبدار البدار، والاستغفار دائماً أثناء الليل وأطراف النهار.

فتوبوا أيها المؤمنون من هذه المذاهب المتبذعة المفرقة، والطرق الوثنية المضللة، والتوجه إلى القبور والأرواح، والاستمداد من الأموات والروحانيات،

(١) برقم (٤٢٦٤).

ورواه البيهقي في «الشعب» (٧٠٣٦).

وهإسناده ضعيف لضعف الهجري؛ كما قال الشيخ أحمد شاكر.

وصنفه الهيثمي في «المجمع» (١٠ / ١٩٩ - ٢٠٠).

(٢) ولأخينا سليم الهلالي رسالة مفردة في «التوبة النصوح»، وهي مطبوعة.

(٣) كما في الحديث الذي رواه مسلم (١٢١) عن عمرو بن العاص.

أما «التوبة تجب ما قبلها»، فمما لا أصل له في المرفوع، وإن اشتهر على ألسنة

العامة!

فاتركوا كل هذه الخرافات، وارجعوا إلى العلم والعمل بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، واجتهدوا في استحصال العبد والآلات الدفاعية بالاتفاق والاتحاد، ولكنتكم لا تتجدون ما لم تتجدوا في التوحيد والاعتقاد، فجاهدوا أعداء الله تعالى وأعداءكم لتخليص البلاد، عسى الله تعالى أن يغفر ذنوبكم الماضية، ويكفر عنكم سيئاتكم، ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار، فتخلصون في هذه الدنيا من براثن أهل الاستعمار واستعبادهم، فتغفرون بلادكم وأوطانكم بشعائر دين الإسلام؛ من إقامة حدود الله، ورفع منار الدين، وأما في الآخرة؛ فيدخلكم الله تعالى بهذه الأعمال الصالحة جنات تجري من تحتها الأنهار؛ لأن الله جل جلاله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

وأما التوبة والاستغفار باللسان بلا رجوع عما كنتم عليه من الضلال؛ فلا تنفع؛ كما هو شأن كثير من المغرورين المغفلين من أهل الغفلة، وإن ادعى أنه من أهل المعرفة، فهؤلاء قد اتخذوا دينهم لهواً ولعباً، وصلواتهم وأذكارهم مكاءً وتضدياً، فتوبتهم صورة بلا روح، وغرض بلا ذات؛ كمدفع بلا قنبلة، وسيارة بلا بنزين، فماذا تنفع؟ هيهات هيهات.

اللهم إنا الحق حقاً ووفقنا لأتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وسهل لنا اجتنبه.

والعبد الضعيف راقم هذه الحروف، حينما كنت في بلدة غولجة من بلاد الصين كنت ألفت كتاباً في التوبة والاستغفار، وسميتُه «تحفة الأبرار في فضائل سيّد الاستغفار»، وكان قد طبع هناك عام ١٣٥٠هـ. ونشر في الأفاق، فأسأل الله تعالى التوفيق والثبات على الحق المبين والصراط المستقيم.



فهذه مثله آية؛ قد ذكرناها وفسرناها على ما يشر الله تعالى؛ مقتبساً من تفاسير السلف الصالحين والعلماء المحققين رضي الله عنهم وأرضاهم، وما شاكلها من الآيات كثيرة على هذا المعنى، قد خاطب الله تعالى بها عباده المؤمنين كلهم، وتاداهم، وأمرهم، ونهاهم، وشرهم، وأندزهم، وزجرهم، وخوفهم، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ولم يقل: يا أيها العلماء، أو: يا أيها العرب، أو: يا أيها السادات والأشراف، ولكن قد خاطب كل المؤمنين بـ (أنتم) و(كم) و(كنتم)، فإذا؛ كل المؤمنين سواء في التكليف، وكلهم مخاطبون بهذه الخطابات الإلهية؛ كما أن كل البشر مخاطبون بـ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾، و﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾، فهذا قد توجه الخطاب إليهم، وكل واحد منهم أهل لفهم ذلك ما دام عاقلًا بالغًا، ولأنهم لو لم يكونوا أهلاً؛ لما خاطبهم الله تعالى، ولما كلّفهم، فلا يُعذر أحد بالجهل^(١)، سواء كانوا عرباً أو عجماً، فارسياً أو هندية، جاوياً أو صينياً، رومياً أو حبشياً، جابانياً أو أمريكانياً... أو أي جنس كان.

فما يقوله أو يقوله كثير من المؤلفين - وقُلدهم عامّة غوغاء المسلمين -؛ بأنهم ليسوا أهلاً لفهم معنى القرآن والعمل بمقتضاه، وإنما يُقرأ القرآن للتزيّن وتحصيل الثواب فقط، ولو بلا فهم؛ لأنّ فهم معاني القرآن مختص بالأئمة المجتهدين، وهم قد انقضوا منذ تاريخ أربع مئة، فبعد ذلك العصر انسَد على الناس باب الفهم والاجتهاد؛ أي: باب رحمة الله وقضيه، فالناس قد صاروا محرومين عن فهم كلام ربهم، كأنهم قد سبّخوا عن الإنسانية إلى الحيوانية، وعن الأدمية إلى البهيمية، وانسلخوا عن صفّة العلم والإيمان إلى سفاهية

(١) انظر (ص ٨٩) فيما سبق.

الفلسفة وتزّهات الصوفية، فبذلك صاروا محرومين من السعادتين، وقد صاروا مُحَكَمِينَ ومُرَدُولِينَ وَمُخَذَلُولِينَ تحت حكم الكفار، فيخيمونهم آناء الله وأطراف النهار؛ كما لا يخفى على من له أدنى عقل سليم أو فهم مستقيم.

فهؤلاء المحرومون وإن ادّعوا العلم والفضل والكمال، وتلقوا بالعلامة المحقق والفهامة المدقّق، أو الألميّ اللوذعي، أو الشاعر الفريد الفرزدقي؛ لكنهم لا يعلمون الإله ولا معناه، حيث لا يعرفون معنى الإله فقد اتّخذوا إليهم هواهم، وعبدوا غير الله وهم لا يشعرون، وأشركوا بالله رب العالمين شركاً صريحاً كبيراً، بل أكبر، وهم وإن قالوا: الله رب العالمين، ولكنهم يعتقدون أنّ الروحانيات لها حقّ التربية، فترى من يدعوها، وتُعين من يستعين بها، وكذا أرواح الأنبياء والأولياء يعلمون الغيب ويتصرفون في الكون.

فهؤلاء المحرومون؛ لو استعملوا عقولهم وفكرهم التي صُرفوا في فهم فلسفة أفلاطون ودراسة حكمة أرسطو ومذاكرة ديوان ابن الفارض والفارابي والمنتبي وما ألفه الغير المعصومين من المؤلفات الغامضة والأغلوطنات والألغاز والمعمّيات الغوية في فهم كتاب رب العالمين وتدبر معانيه كما أمر الله جلّ جلاله؛ لوصلوا إلى الحقّ الصريح الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ونالوا رضي الله تعالى ورضوانه، فكانوا من أهل السعادتين في الدارين.

وما علم هؤلاء المحرومون أنّهم إن كانوا مؤمنين؛ فهم داخلون البتّة في خطاب وتداء يا أيّها الذين آمنوا، ومكلّفون بامتثال هذه الأوامر. والامتثال لا يتحقّق إلا بالفهم، ولكنهم كأنهم لم نسوا أمر ربهم وفهم

كلام خالقهم؛ فأنساهم أنفسهم، وأهمل أمرهم وشأنهم؛ جزاء وفاقاً.

وهذه الآيات صريحة في إيجاب الله تعالى على المؤمنين خصوصاً وعلى عامة البشر عمومًا تعلُّم لغة القرآن، ومعرفة كلام العرب، ولا يُعَدُّ أحدٌ بالجهل بها؛ لأنَّ الإنسان قابلٌ للتعلُّم ومعرفة اللغاتِ والصَّنائعِ والأشياء كُلِّها، فمتى تساهل وقصُر في التعلُّم؛ فهو المَقْصُرُ المسؤولُ في الدُّنيا والآخرة، وكيف لا تجبُ على العبدِ معرفة كلام مولاه وخالقه وربِّه؟ فاعتبروا يا أولي الألبابِ والأبصارِ.



فصل

اعلم أنَّ اليهودَ عندهم التَّوراةُ، والنصارى عندهم الإنجيلُ، وهم يقرؤونهما تعبدًا في معابدهم، ولكن لا يعملون بأمرهما ونهيهما، فهل نفعهم الإنجيلُ والتَّوراةُ؟! كلا، بل صاروا ملعونين وضالِّين ومغضوباً عليهم بعد أن قامت حجَّةُ الله عليهم؛ كما اختيرَ الله تعالى عن ذلك في سورة المائدة: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُفَيْمُوا التَّورَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ (١).

فمن يتأمل هذه الآية؛ يعلم يقيناً أنَّ حفظَ الكتابِ ودراسته بدون فهمٍ وعملٍ اعتقادياً وعملياً ليس بشيء، بل هو وبالٌ عليه، وتضييعٌ للعرِّ والوقتِ بلا ثمرة.

ومن قرَّأ حالَ المسلمين اليومَ وقبلَ اليوم؛ فإنهم، وإنَّ حملوا القرآنَ وحفظوه غيباً، وحسَّنوا خطه ونقشه، وزخرفوه بأنواع الزخارف والنقوش، ولكنهم عن معانيه غافلون، وعن تدبُّر ما فيه فارغون، وعن الاعتقاد والعمل بما فيه بعيدون.

(١) المائدة: ٦٨.

والعبرة للمسلم في هذه الآية أن يعلم أن المسلمين لا يكونون على شيء يعتد به من أمر الدين حتى يقيموا القرآن وما أنزل إليهم من ربهم فيه، ويبتدوا بهدائه، فحجة الله تعالى على جميع عباده واحدة، فإذا كان الله تعالى لا يقبل من أهل الكتاب قبلنا تلك التكاليف التي صدت عنهم عما عندهم من وحي الله تعالى على ما كان طراً عليه من التعريف بالزيادة والنقصان؛ فإن لا يقبل منا مثل ذلك مع حفظه لكتابنا أولى، والناس عن هذا غافلون، وبالاتساب إلى المذاهب راضون، ويهدي أئمة الدين لا يقتدون، وإلى حكمة الدين ومقاصده لا ينظرون، «وَيَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَّا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ» (١).

وأفاد الله تعالى أن الانتساب إلى الدين لا يفيد في الآخرة إلا بإقامة كتاب الدين.



فصل

اعلم أن الأمة إذا تركت العمل بكتابها المنزّل من ربها اعتقاداً وعملاً؛ قست قلوبها، فصارت ملعونة؛ كما قال الله تعالى: «فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَافِيَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ» الآية (١)، «وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» الآية (٢)، ونقض الميثاق يندس النفوس، ويُفسد الفطرة، ويُسي القلوب، فلا تؤثر فيها الحجة والموعظة، فبسبب ترك العمل بالكتاب يقع التفرق في الدين، وتحدثت العداوات والبغضاء.

والمسلمون منذ تركوا التدبر في كلام ربهم، وأهملوا العمل به حق العمل، وكذا تركوا العمل بسنة رسول الله ﷺ إلا ما وافقت هواهم وشهواتهم؛ تفرقت الآراء، وتعددت المذاهب والطرق، وحدثت الشراكيات والكفریات والبدع والضلالات، فعادى بعضهم بعضاً، فبأغصوا وتدابروا وتقاتلوا إلى أن

(١) المائدة: ١٣.

(٢) المائدة: ١٤.

صاروا طعمةً لتعابين الإفرنج والروس والعلبان والبالاشفة والأمريكان وهم لا يشعرون، ومن سكرتهم لا يُعيقون، وعن غيهم لا يرجعون؛ فإننا لله وإنا إليه راجعون.

فيا أيها المسلمون! لا تغفروا بمجرد تلاوة القرآن بلا فهم معناه والعمل بمقتضاه، وأنتم إنما تقيمون الحجة على أنفسكم؛ كما أخبر النبي ﷺ: «القرآن حجة لك أو عليك» رواه مسلم^(١)، وكما قال النبي ﷺ: «رُبَّ تَالٍ لِلْقُرْآنِ وَالْقُرْآنُ يُلْعَنُهُ»^(٢).

فحيث ترك المسلمون العمل بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ؛ تركهم الله تعالى، بحيث تسلطت عليهم الكُفَّار، واستولت على أوطانهم الفُجَّار، فحكمت عليهم بما شئت من قانون جبار، وأدلتهم تذليل الخمار للجمار، وهذا هو جزاؤهم في هذه الدار، وأما جزاء إعراضهم عن العمل بالقرآن واتخاذهم الأرباب من دونه من الأحرار والرهبان، واتخاذهم القبور وأصحابها معبوداً كالأوثان، واستغاثهم بالأرواح، ونذرهم للجن والشيطان، وتباغضهم وتدابروهم لأهل التوحيد والإيمان، وتركهم الجهاد في سبيل الله، ومثولتهم لأهل الخذلان؛ فهو تعالى العليم الخبير، يجزيهم يوم الدين بالعدل، وهو جل جلاله قد أخبر أن جزاء المشركين والكفار النيران، فعنوه بالله منهما ومن شروور أنفسنا وسيئات أعمالنا، ومن شر شياطين الإنس والجان.

(١) برقم (٢٢٣) عن أبي مالك الأشعري، وهو قطعة منه.

(٢) لا أصل له في المرفوع.

فأنظر تعليقي على «الفتاوى المهمة».

فصل

في ذكر الأحاديث النبوية الواردة الثابتة في الصَّحاح والسُّنن والمسائيد المعتمدة في لزوم فهم معنى الكتاب والسنة والعمل بموجبهما

وذلك أن تعالى أمر رسوله محمداً ﷺ ببيان ما أنزله الله تعالى إلى الناس، فقال جل جلاله: «وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ» الآية^(١)، وهو صلى الله عليه وسلم بين بَيَاناً واضحاً، فالأحاديث النبوية كلها - قولية كانت أو فعلية - بيان لما في القرآن، وتفسير له كما لا يخفى.

الحديث الأول: ما رواه الإمام ابن ماجه في «سننه»، والإمام البيهقي في «مُعْجَبِ الإيمان»؛ عن أنس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «عَلِّبُ العلمَ فريضةً على كلِّ مسلم، ومسلمة، وواضع العلم عند غير أهله كَمَقْلِدِ الخنازير الجوهر والمُلُوءِ والذهب»^(٢).

(١) النحل: ٤٤.

(٢) الحديث بهذا التمام موضوع؛ كما تراه مبيناً في تعليقي على «جزء حديث طلب

ولا شك أنَّ العلمَ المفروضَ ظَلَمَهُ إنَّما هو علمُ التوحيد، والحلال والحرام، وهو المَبِينُ في الكتابِ والسنة لا غير.

فإذا؛ يجبُ على كلِّ إنسانٍ مسلمٍ معرفةَ معاني القرآنِ والحديثِ، وخصوصاً ما يتعلَّقُ بالتوحيد، ثمَّ الحلالِ والحرامِ، ولا يُعَدُّ أحدٌ بتركه والجهلِ به، وهو فرضٌ عَنِ بِلَا خلافٍ، وكذا علمُ ما يحتاجُ إليه الإنسانُ في حياته ومعاشه، فينَّ ذلك الصَّنَاعَةُ الصُّرُوفِيَّةُ، ومعرفةُ لغةِ العربِ، وإعدادُ آلاتِ الجهادِ والدِّفاعِ، وحفظُ دارِ الإسلامِ.

وفي روايةِ ابنِ عبدِالبرِّ: «طَلِبُ العلمِ فريضةٌ على كلِّ مسلمٍ».

وفي «مسندِ الفردوس»^(١): «طَلِبُ العلمِ أَفْضَلُ عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الصَّلَاةِ وَالصَّيَامِ وَالْحَجِّ وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ».

وعن ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما: «طَلِبُ العلمِ ساعةٌ خيرٌ من قيامِ ليلةٍ»^(٢) الحديث.

العلمُ (رقم ١)، وأما زيادةُ: «... ومسلمة...» فيه؛ فلا أصلَ لها؛ كما بُدِّعَ عليه غيرُ واحدٍ من أهل العلمِ فيما نقلتهُ عنهم في مقدمةِ الجزءِ المذكورِ (ص ٧ - ٨).

وقد سبق (ص ٢٠) بيانُ حُسْنِ «طلب العلمِ فريضةً على كلِّ مسلمٍ».

(١) أوردَه السيوطي في «جمع الجوامع» (٢٨٦٥٥ - ترتيبه)، وعزاه للطبراني وابنِ عبدِالبرِّ!

ولم أجدهُ عندهما، ولم أرَ أحداً عزاه إليهما؛ إلا أن يكونَ وهماً أو غلطاً طباعياً! ثم رأيتُه عزاه في «الجامع الصغير» (٣٦٢٣ - ضعيفه) إلى «مسند الفردوس» حسب! وقد وقفتُ على سندِه في «أملالي الشجري» (١ / ٦٠)، وفي تصحيقات، وفي سندِه وشاع! (٢) أوردَه السيوطي في «جمع الجوامع» (٢٨٦٥٦)، وعزاه لـ «الفردوس»!

ولا شك أنَّ هذا المفروضَ إنَّما هو علمُ الدين؛ من التوحيد، ومعرفةُ ربِّ العالمين بصفاته جلَّ جلاله، والحلالِ والحرامِ، والجهادِ، وما تنوَّفتُ عليه الحياةُ الإنسانيةُ دنيويةً وأخرويةً.

والتكتمُلُ بهذه العلومِ كُلِّها إنَّما هو القرآنُ والحديثُ النبويُّ، وأما الاشتغالُ بالفلسفةِ والأشعارِ؛ فنزغيلاتٌ وتزغاتٌ، وكذا ما يدعيه أكثرُ متصوِّفِ الزمانِ كما لا يخفى.

الحديثُ الثاني: ما رواه الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «تَعَلَّمُوا الْفَرَائِضَ وَالْقُرْآنَ وَعَلِّمُوها النَّاسَ؛ فَإِنِّي مَقْبُوضٌ»^(١).

والفرائضُ: جمعُ فريضةٍ، وهي كُلُّ ما أَوْجَبَهُ اللهُ تعالى على عباده؛ من علمِ التوحيدِ وكُلِّ ما يتعلَّقُ بالدينِ، وتعلُّموا القرآنَ، وأفهموا معناه، وعلمُّوهُ النَّاسَ، ولا شك أنَّ العلمَ مقدَّمٌ على العملِ؛ لأنَّه تعالى يقولُ: «فَاعْلَمُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»^(٢).

قالُ التُّورِيشِي: «الظَّاهِرُ أنَّ المرادَ ما افترضَه اللهُ تعالى على عباده؛ كأنه = وأوردَ ابنُ جِراقٍ في «تنزيه الشريعة» (١ / ٢٧٨)، وزادَ نسبته لابي الشيخ، وقال: «وفي تهنُّل بن سعيد».

قلتُ: وهو متروكٌ منهم!

(١) أخرجه: الحاكم (٤ / ٣٣٣)، والترمذي (٢٠٩٢)، والبيهقي (٦ / ٢٠٨)، والدارقطني (٤ / ٦٧).

وفي ضعف واضطراب؛ كما شرحه شيخنا في «الإرواء» (١٦٦٤).

(٢) محمد: ٢٩.

قَالَ: تَعْلَمُوا الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ... إلخ.

وَذَكَرَ الْجَلَالَ السَّيُوطِيُّ فِي «الْجَامِعِ الصَّغِيرِ»^(١) مَا يُؤَيِّدُ هَذَا، وَهُوَ: «تَعْلَمُوا مَنَابِكُكُمْ؛ فَإِنَّهَا مِنْ دِينِكُمْ»^(٢)، وَ «خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكُكُمْ»^(٣)، وَ «صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أَصَلِّي»^(٤).

فَتَعْلَمُ كَيْفَةَ الْحَيِّ وَالصَّلَاةِ وَصِفَاتِهَا مِنَ الْفُرُوضِ الْعَيْنِيَّةِ عَلَى كُلِّ مَنْ وَجِبَ عَلَيْهِ الْحَيِّ وَعَلَى كُلِّ مَنْ وَجِبَتْ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ.

الْحَدِيثُ الثَّلَاثُ: مَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ^(٥) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «تَعْلَمُوا الْقُرْآنَ وَاقْرَؤُوهُ...» الْحَدِيثُ.

(١) برقم (٣٣٢).

(٢) رواه ابن عساکر (٨ / ٨٧٢ - مصوَّري) من طريق عبادة بن نَسِيٍّ عن أبي سعيد.

وعُبَادَةُ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ مَنْقُطٌ؛ كَمَا فِي «جَامِعِ التَّحْصِيلِ» (٢٨٦).

وَسَكَتَ عَنْهُ النَّسَائِيُّ فِي «الْفَيْضِ» (٣ / ٢٥٣)!

(٣) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (١٢٩٧) عَنْ جَابِرٍ.

(٤) سَبَقَ تَخْرِيجُهُ.

(٥) رواه: التِّرْمِذِيُّ (٢٨٧٩)، وَابْنُ مَاجَةَ (٢١٧)، وَالنَّسَائِيُّ فِي «الْكَبَرِيِّ» - كَمَا فِي «التَّحْفَةِ» (١٠ / ٢٨٠) -، وَابْنُ خَزِيمَةَ (١٥٠٩)، وَابْنُ حِبَّانَ (٨٧٩ - مَوَارِدُ) - مِنْ طَرِيقِ عَطَاءِ مَوْلَى أَبِي أَحْمَدَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ.

وَعَطَاءُ هَذَا مَجْهُولٌ.

وَقَدْ أَعْبَلُ أَيْضاً بِالإِسْرَافِ.

وَرَوَى أَحْمَدُ فِي «مُسْنَدِهِ»^(١) عَنْ عَقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «تَعْلَمُوا كِتَابَ اللَّهِ، وَتَعَاهَدُوهُ، وَتَعْتَنُوا بِهِ».

أَيُّ: أَحْفَظُوا الْقُرْآنَ وَفَهَمُوهُ وَاقْتَنُوهُ وَالزَّمُّوهُ؛ لِأَنَّ الْمَقْصُودَ مِنَ الْقُرْآنِ فَهْمُهُ وَالْعَمَلُ بِمَوْجِبِهِ؛ لِأَنَّهُ قَدْ كَثُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ يَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ، وَأَنْ يَقُولُوا بِلَا دَلِيلٍ: هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ؛ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ.

وَالْعَمَلُ بِلَا عِلْمٍ فَاسِدٌ، كَمَا أَنَّ الْعِلْمَ بِلَا عَمَلٍ بَاطِلٌ، بَلْ حِجَّةٌ عَلَى صَاحِبِهِ، وَخِزْيٌ وَنَدَامَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ وَلِأَنَّ الْعِلْمَ كَالشَّجَرَةِ، وَالْعَمَلُ بِهِ كَالثَّمَرَةِ، فَإِذَا كَانَتِ الشَّجَرَةُ لَا ثَمَرَةً لَهَا؛ فَلَا فَائِدَةُ فِيهَا، وَإِنْ كَانَتْ حَسَنَةً الْمَنْظَرِ.

الْحَدِيثُ الرَّابِعُ: مَا رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَةَ وَالدَّارِمِيُّ^(٢) عَنْ زِيَادِ بْنِ لَبِيدٍ وَأَبِي أَمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ قَالَ: قَدْ ذَكَرَ النَّبِيُّ ﷺ شَيْئًا هَائِلًا، فَقَالَ:

(١) (٤ / ١٤٦).

وَرَوَاهُ: الدَّارِمِيُّ (٢ / ٤٣٩)، وَابْنُ أَبِي شَيْبَةَ (١٠ / ٤٧٧)، وَالنَّسَائِيُّ فِي «فَضَائِلِ الْقُرْآنِ» (٥٩)، وَالتَّطَبُّرِيُّ فِي «الْكَبِيرِ» (١٧ / رقم ٨٠١)؛ مِنْ طَرِيقِ عَنْ عَلِيٍّ بْنِ رَبِيعٍ عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ.

وَسَنَدُهُ صَحِيحٌ.

(٢) رواه: أَحْمَدُ (٤ / ٢١٨)، وَابْنُ مَاجَةَ (٤٠٤٨)، وَالحَاكِمُ (١ / ٩٩)، وَأَبُو خَيْثَمَةَ فِي «الْعِلْمِ» (٢٣)، عَنْ زِيَادِ بْنِ لَبِيدٍ.

وَفِي سَنَدِهِ انْقِطَاعٌ.

وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ (٢٦٥٥) عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ.

وَرَوَاهُ الدَّارِمِيُّ (٧٧ / ١) عَنْ أَبِي أَمَامَةَ.

فَالْحَدِيثُ بِهَذِهِ الشَّوَاهِدِ صَحِيحٌ، وَأَنْظَرِ التَّعْلِيلُ عَلَى «الْمَشْكَاتَةِ» (رقم ٢٤٥).

«ذلك عند أوان ذهاب العلم». قلت: يا رسول الله! كيف يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن، ونقرئه أبناءنا، ونقرئه أبناءنا أبناءهم إلى يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ: «مكثتكم أمك زياداً إن كنت لأراك من أفقه رجل في المدينة، أوليس هذه اليهود والنصارى يقرؤون التوراة والإنجيل ولا يعملون بشيء مما فيها؟».

قال عليّ الغارقي في «مقارعة المفاتيح»^(١): «أي: فكما لم تُقدّم قراءة تهمنا مع عدم العلم والعمل؛ فكذلك أنتم، والجملة حال من «يقرؤون»؛ أي: يقرؤون غير عالمين بمعناها، ولا عابدين بموجبها، ففيه تنزيل العالم الذي لا يعمل بعلمه منزلة الجاهل، بل منزلة الحمار الذي يحمل أسفاراً، بل أولئك كالأنعام، بل هم أضل».

الحديث الخامس: ما رواه البيهقي في «شعب الإيمان»^(٢) والخطيب في «المشكاة»^(٣) عن عليّ رضي الله عنه: قال: قال رسول الله ﷺ: «ويشك أن يأتي على الناس زمان لا يبقى من الإسلام إلا اسمه، ولا يبقى من القرآن إلا رسمه، مساجدهم عامرة وهي خراب من الهدى، علمائهم شر من تحت آدم

(١) (١ / ٢٤٦).

(٢) برقم (١٧٦٣)، وفي سنده ضعف وانقطاع.

وله طريق أخرى عنده (١٧٦٤)، وعند ابن عدي في «الكامل» (٤ / ١٥٤٣).

(٣) وفي سنده بشر بن الوليد؛ ضعيف، وانظر ما سبق (ص ٩١).

(٤) برقم (٢٧٦).

وعزو المصنف له غير علمي، إذ الخطيب - وهو التبريزي - لا يُسند الأحاديث في «مشكاته»، فلا يقال لما أورده فيه: «رواه» فتنبه.

السماء، من عندهم تخرج الفتنة وفيهم تعود».

أي: لا يبقى من علوم القرآن وآدابه إلا أثره الظاهري؛ من قراءة لفظة، وكتابة خطه بطريق الرسم والعادة، لا على جهة تحصيل العلم والعمل والعبادة، فالقراء إنما يراعون التجويد وحفظ مخارج الحروف وتحسين الألحان فيه؛ دون التفكير في معانيه، والأمثال بأوامره، والانتها عن نواهيه، وأكثر الناس ساهون عن الصلاة، هم يراؤون ويمتنعون الماعون.

قال الإمام البخاري في «جامعه الصحيح»^(١): «العلم قبل القول والعمل؛ لقوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾^(٢)، ﴿وَمَا يَتَّبِعُهَا إِلَّا الْغَالِمُونَ﴾^(٣)، ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾^(٤)، وقد قال النبي ﷺ: «من بُرد الله به خيراً؛ يفقهه في الدين»^(٥)؛ أي: يفهمه، والمراد به علم الدين وما جاء به محمد ﷺ من العقائد والأعمال والأقوال والأخلاق، و«إنما العلم بالتعلم».

وروى الطبراني^(٦) عن معاوية رضي الله عنه مرفوعاً: «يا أيها الناس!

(١) (١ / ١٥٩) كتاب العلم.

(٢) نحمد: ١٩.

(٣) النعكوت: ٤٣.

(٤) المُلْك: ١٠.

(٥) رواه: البخاري (٦ / ١٥٢)، ومسلم (١٠٣٧)؛ عن معاوية.

(٦) في «المعجم الكبير» (١٩ / ٣٩٥).

قال في «المجمع» (١ / ١٢٨): «وفي رجل لم يسم، وعنه بن أبي حكيم وثقه أبو حاتم وزبوع وأبو حيان، وضعفه جماعة».

تعلّموا؛ إنّما العلم بالتعلّم، والفقه بالتفقه، ومن يرد الله به خيراً يفقهه في الدين».

أي: لا يحصل العلم المعتد به النافع إلا المأخوذ عن الأنبياء عليهم الصلوات والتسليمات على سبيل التعلّم والتعليم؛ لا بالكشف والإلهام، أو الخيال والتمائم، ولا بالفلسفة والسفسطة، ولا بالمنطق والشمسية وحكمة العين والشفاء والإشارات؛ كما يدعيه كثير ممن غرق في رذغة الفلسفة أو سفاسف الصوفية.

قال العلامة العيني في «عمدة القاري»^(١): «لا شك أنّ من أراد شيئاً؛ تعلّم علم ذلك الشيء، ثم يعمل به، فالعلم مقدّم على العمل بالذات، كما أنّه لا عمل إلا بالنية، ولا توجد النية إلا بالعلم؛ لأنّ النية إنّما هي قصد فعل الشيء بعد العلم به كما لا يخفى. وأفادت الآية الكريمة أنّ التوحيد ممّا يجب العلم به، ولا يجوز فيه التقليد، فإذا لا بدّ لكلّ طالب نجاة وسعادة من طلب علم الكتاب والسنة، وهذا لا يحصل إلا بتعلّم لغة الكتاب والسنة، فيجب على كلّ البشر عموماً والمسلمين خصوصاً تعلّم معنى الكتاب والسنة، ومعرفة ما معرفة صحيحة كما لا يخفى».

وللحديث طرق أخرى وشواهد، فانظر: «تغليق التعليق» (٢ / ٧٨)، و«مجمع الزوائد» (١ / ١٢٨)، و«العلل المتناهية» (١ / ٧٦)، و«السلسلة الصحيحة» (٣٤٢)، و«المدخل» (٣٨٥) للبيهقي.
(١) (٢ / ٣٩).

الحديث السادس: ما روى البخاري ومسلم وأصحاب السنن^(١) عن جابر ابن عبد الله رضي الله عنه: أنّ النبي ﷺ قال: «أعطيتم حسماً لم يعطهن أحد قبلي...» (فذكر منها: وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة).

أي: العرب والعجم، والأسود والأحمر؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾^(٢)، و﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً﴾^(٣).

فالواجب على المرسل إليهم معرفة كلام رسول الله إليهم، وإلا فلا يحصل من الإرسال شيء.

فيا أيها المسلم! إن كلّ عاقل يعرف أنّ رعايا الحكومات يتشبهون بتعلّم لغات حكوماتهم، ويعلمون أولادهم إياها؛ لما يعلمون أنّهم يتفهمون بها في معاشهم ومعاملاتهم وحياتهم الدنيوية، وكذا يحصلون بها بعض المناصب العالية والدرجات السامية في هذه الحياة القصيرة الفانية، فإذا كان الأمر هكذا؛ أليس الأزم الأبجّ الأنفع عاجلاً وأجلاً تعلّم كلام ربّ العالمين تعلّماً تامّاً حتى يعرفوا مقاصد ربهم الحكيم ومرضاة مولاهم الرؤوف الرحيم، فيعملوا به؛ لينالوا العزّ والشرف في الدنيا والآخرة، ويفوزوا بدولة الرضى والرضوان

(١) رواه: البخاري (١ / ٣٦٩)، ومسلم (٥٢١)، والنسائي (١ / ٢١٠)، والدارمي (١ / ٣٢٢ - ٣٢٣)، والبيهقي (١ / ٢١٢)؛ عن جابر.

وروى نحوه: البخاري (٦ / ٩٠)، ومسلم (٥٢٣)، والترمذي (١٥٥٣)، والنسائي (٣ / ٣)؛ عن أبي هريرة.

(٢) سبأ: ٢٨.

(٣) الأعراف: ٥٨.

والرحمة في دار النعيم، والخلود الدائم أبداً الأبدية؟

فانتبهوا يا أيها المفتونون والمغرورون؛ إما بزخارف الدنيا الفانية، وإما بدجل الدجالين ووساوس الشياطين.
اللهم نودّ بصرتنا وبصيرتنا، واهدنا صراطك المستقيم، آمين يا مجيب السائلين.

الحديث السابع: حديث جبريل الذي رواه الشيخان وأصحاب السنن^(١) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ، ففيه آخراً: قال رسول الله ﷺ: «فإنه جبريل، أتاكم يعلمكم دينكم».

فاعلم أن رسول الله ﷺ قال: «يعلمكم دينكم»، ولم يقل: يروي لكم دينكم؛ ليعيد بذلك أن المقصود العلم والفهم؛ كما أن الإيمان التصديق، وهو لا يحصل إلا بالعلم بالمؤمن به، فإذا؛ يجب العلم على كل مؤمن ومسلم، فلا يصح إيمانه ولا إسلامه إلا بالعلم؛ علم ما جاء به رسول الله ﷺ، فنتبه.

الحديث الثامن: ما رواه ابن الأنباري في كتاب «الوقف»^(٢) والسيوطي في

(١) أخرجه: البخاري (٥٠ و ٤٧٧)، ومسلم (٩)، وابن ماجه (٦٤)، والنسائي (٨ / ١٠١)، وأحمد (٢ / ٤٢٦)؛ عن أبي هريرة.
وأما ما ذكره المصنف عن عمر؛ فأخرجه: مسلم (٨)، وأبو داود (٤٦٩٥)، وابن ماجه (٦٣)، والنسائي (٨ / ٩٧ و ١٠١)، وأحمد (٢٨ و ٥١ و ٥٢)، ولم يخرجها البخاري.

(٢) (١ / ٢٥ - طبع الشام).

=

«الجامع الصغير»^(١) عن أبي جعفر الأنصاري^(٢) رضي الله عنه: أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أغربوا الكلام كي تغربوا القرآن».

وروى الحافظ ابن كثير في «فضائل القرآن»^(٣)، قال الحافظ أبو يعلى^(٤) بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «أغربوا القرآن، والتبسوا غرائب».

وحيث إنه يجب معرفة معاني القرآن، وذلك موقوف على معرفة لغة العرب معرفة كاملة؛ لأن ما يتوقف عليه الواجب واجب كما لا يخفى.

والعبد الضعيف قد بينت هذا الأمر في (رقم ٩٥٥) من كتابي «حبل الشرع المتين»، فعليك به.

= وأخرجه أبو عبيد في «غريب الحديث» (٩٩ / ١) معضلاً عن أبي جعفر.

وفيه ضعيفان ومدلس ومجهول.

وقد حكم عليه شيخنا في «الضعيفة» (١٣٤٧) بأنه منكر.

(١) برقم (٩٣٧ - ضعيف)، ويقال أيضاً: «ذكره»، لا «رواه»!

(٢) ليس هو الأنصاري؛ كما رجحه شيخنا في «الضعيفة» (٣ / ٥٢٤).

(٣) (ص ٢٤).

(٤) برقم (٦٥٦٠).

١ - رواه: ابن أبي شبة (١٠ / ٢٥٦)، والحاكم (٢ / ٢٣٩)، والخطيب في «التاريخ»

(٨ / ٧٧)؛ عن عبدالله بن سعيد المقرئ عن جده - وبعضهم قال: عن أبيه - عن أبي

هريرة.

وعبدالله متروك.

وبه أعلم: الذهبي في «تلخيص المستدرک»، والهيثمي في «المجمع» (٧ / ١٦٣)،

والبوصري - كما في حاشية «المطالب العلية» (٣ / ٢٩٨) -، وغيرهم.

الحديث التاسع: ما رواه في «شرح السنة»^(١) والنووي في «أربعينه»^(٢) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به».

فإذا؛ لا بد لكل من يريد أن يكون مؤمناً بالله ورسوله وينال ما وعد الله ورسوله المؤمنين أن يعلم كل ما جاء به محمد رسول الله ﷺ من الدين والشرع، وأما من لم يعلم ذلك؛ فكيف يتبعه؟ وإنما يتبع هذا الرجل من يظنه إماماً أو يعتقد عالماً؛ من غير معرفة دليل ذلك الغير، ومن كان حاله هكذا؛ فهو قد اتخذ ذلك الغير أرباباً من دون الله؛ كما هو شأن كثير من مقلدي المذاهب وأصحاب الطرق، فتنبه.

الحديث العاشر: ما رواه زرّين والخطيب في «المشكاة»^(٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما؛ قال: «من تعلم كتاب الله، ثم أتبع ما فيه؛ هداه الله» (١) رقم (١٠٤).

(٢) برقم (٤١)، والنووي ذكره ولم يروه!
وهو حديث معلول، انظر تخريجه ونقده في تعليقي على رسالة «ذم الهوى واتباعه» (ص ٨ - ٩) لابن القيم، طبع المكتبة الإسلامية، عمان.
(٣) أوردته ابن الأثير في «جامع الأصول» (١ / ٢٩٢) دون عزو لأحد! وكذا سكت عليه محققه!

وهو - يبين - من زيادات زرّين! كما صرح به التبريزي في «المشكاة» (رقم ١٩٠). وقد قال الشوكاني في «الفوائد المجموعة» (ص ٤٩) عن كتابه: «... ولقد أدخل في كتابه الذي جمع فيه بين دواوين الإسلام بلايا وموضوعات لا تعرف، ولا يُدرى من أين جاء بها، وذلك خيانة للمسلمين».

من الضلالة في الدنيا، ووقاه يوم القيامة سوء الحساب».

وفي رواية^(١)؛ قال: «من اقتدى بكتاب الله؛ لا يضل في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة»، ثم تلا هذه الآية: «فَمَنْ أَتَّبِعْ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى»^(٢).

ويؤيده ما رواه مالك في «موطئه»^(٣) مرسلاً عن أنس رضي الله عنه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «تركتم فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله وسنة رسوله».

فأذا رضي الله عنه أن تعلم كتاب الله وفهم معناه مقدّم على الأتباع؛ لأن الأتباع موقوف على معرفة ما يتبعه، فهذا يوجب على كل مسلم تعلم كتاب الله وسنة رسوله ومعرفة معناهما.

ولكن الأسف أن عامة المسلمين تركوا تعلم كتاب الله وأحاديث رسول الله ﷺ، والذين تعلموا القرآن أو حفظوه؛ فإنما تعلموا قراءته فقط، وحفظوا حروفه والفاظه؛ من غير معرفة معناه، فحيث إنهم جاهلون بالمعنى تراهم قد خالفوا اعتقاداً وعملاً، فصار القرآن حجّة عليهم؛ كما لا يخفى على كل من له عقل أو ألقى السمع وهو شهيد، ويقولون: «الحمد لله رب العالمين»، ثم

(١) تابع لقيه.

(٢) طه: ١٣٣.

(٣) (٢ / ٨٩٩).

وهو عن مالك بلاغاً، وليس فيه ذكر أنس!!

وانظر له «تجريد التهديد» (ص ٢٥١) لابن عبد البر.

ولكن له طرقاً أخرى تحسنه، فانظرها في «أربعي الدعوة والدعاة» (رقم ٧) بقلبي.

يقولون: إِنَّ الْأَرْوَاحَ تُرْبِي، ويقولون: ﴿إِنَّكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾^(١) ثم يركعون ويسجدون لأكابريهم عند الملاقاة، وتُذَرُونَ لِلرُّوحَانِيَّاتِ وأهل القبور، بل الجن والشيطان، ويستعينون بأهل القبور، ويستمدون من الأرواح - أرواح مشايخهم - وعبيد القادر الجليلي، أليس هؤلاء قد خالفوا ما قرؤوا؛ لأنهم جاهلون بمعنى ما تَلَوْا، ومحرومون من الانتفاع بكلام رَبِّ الْعَالَمِينَ، ويعيدون عن سَنَةِ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ؟! فلماذا تراهم قد ضَلُّوا وأضَلُّوا، وَإِنْ ادَّعَوْا أَنَّهُمْ مسلمون، ولكنَّ إِسْلَامَهُمْ لَفُظِي فقط، أو إِسْلَامٌ جغرافي، فتدبَّر.

الحديث الحادي عشر: ما رواه الشيخان^(٢) عن معاوية رضي الله عنه؛ قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ يَرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا؛ يَفْقَهُهُ فِي الدِّينِ، وَإِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ، وَاللَّهُ يُعْطِي».

وروى مسلم^(٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه؛ قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «النَّاسُ مَعَادِنٌ كَمَعَادِنِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فُقِهُوا».

وروى مسلم^(٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه أيضاً؛ قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ؛ انْقَطَعَ عَمَلُهُ عَنْهُ؛ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: صَدَقَةٌ جَارِيَةٌ، أَوْ عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٌ صَالِحٌ يَدْعُو لَهُ».

(١) الفاتحة: ٥.

(٢) سبق تخريجه (ص ٣٣١).

(٣) برقم (٢٦٣٨)، ورواه البخاري (٦ / ٧٦) ضمن حديث.

(٤) برقم (١٦٣١).

فهذه الأحاديث الثلاثة صريحة في أَنَّ الْخَيْرَ كُلَّ الْخَيْرِ، والسعادة كُلُّ السعادة، والشرف كُلُّ الشرف، في التفقه في الدين.

وفقه الدين وعلمه إنما يؤخذ من الكتاب والسنة، ولا اعتبار هنا للرأي والهوى والتفلسف؛ لأنَّ الدِّينَ مَا يُدَانُ بِهِ فِي يَوْمِ الدِّينِ، وذلك لا يكون إلا عند الله، فلا يُعْرَفُ إِلَّا بِاخْتِيارِ الله تعالى؛ إما في كتابه القرآن، أو بيان رسوله محمد ﷺ، ولا مدخل للعقل والقياس هناك، وأهل الضلال ما ضلُّوا إلا بقياهم ربَّ العالمين بالمخلوقين^(١)، فقاوسوا الله بالملوك، وقاسوا عالم البرزخ بهذا العالم، وقاسوا الغائب بالشاهد، فضلُّوا وأضلُّوا، فاستحقوا غضب الله تعالى، وصاروا من المحرومين، فتدبَّر.

الحديث الثاني عشر: ما رواه البخاري^(٢) عن أنس رضي الله عنه؛ قال: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَعَادَهَا ثَلَاثًا حَتَّى تَفْقَهُمْ عَنْهُ، وَإِذَا أَتَى عَلَى قَوْمٍ سَلَّمَ عَلَيْهِمْ ثَلَاثًا».

فقد ظهر من هذا الحديث أَنَّ الْمَقْصُودَ مِنَ الْكَلَامِ إِنَّمَا هُوَ الْفَهْمُ وَالْإِنْفَافُ، فالواجب على كُلِّ مَكْتَلِفٍ الْفَهْمُ وَالْإِنْفَافُ، ولأجل تعليم العباد أنزل الله القرآن، فمن لم يفهم؛ فليس من بني الإنسان، بل هو حيوان في صورة إنسان.

(١) قارن بكتاب «التوسل» (ص ١٣٢ - ١٣٦) لشيخنا الألباني

(٢) (رقم ٩٥).

الحديث الثالث عشر: ما رواه الترمذي^(١) عن ابن عباس رضي الله عنهما؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابده».

لأن الفقيه لا يقبل إغواءه، ويأمر الناس بالخير والترحيد والاعتماد على الله وحده والعمل بكتابه وأتباع سنة نبيه، ويصونهم عن إغوائه؛ ببيان الصراط المستقيم، وإيضاح صراط أهل الجحيم؛ من دعاء غير الله أيًا كان، وعبادة غير الله أيًا كان، والاعتماد على غير الله أيًا كان، وتقليد غير المصومين في الدين، والتقول على الله وعلى الرسول بالظن والتخمين.

ولا يخفak أن إمام الفقهاء على الإطلاق إنما هو سيد المرسلين سيدنا محمد ﷺ، ثم بعده أبو بكر الصديق، ثم بعده عمر الفاروق؛ رضي الله عنهما، الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «يا ابن الخطاب! والذي نفسي بيده؛ ما لقيك الشيطان سالكا فجا قط؛ إلا سلك فجا غير فجا»^(٢)، وهو الذي قال حينما حج وأراد طواف البيت حينما وصل إلى الحجر الأسود: «إني أعلم أنك حجر لا تضر

(١) رواه: الترمذي (٢٦٨١)، وابن ماجه (٢٢٢)، والطبراني (١١ / ٧٨)، وابن الجوزي في «الواحيات» (١٩٢)، وابن حبان في «المجروحين» (١ / ٢٩٨)، وابن عبد البر في «العلم» (١ / ٢٦)، والمخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١ / ٢٤).

وفي سننه روح بن جناح؛ منهم.
وله طريق آخرى عند: المخطيب في «تاريخه» (٢ / ٤٠٢)، وابن الجوزي (١٩٤)، وابن عبد البر (١ / ٢٦).

وفي يزيد بن عياض، وهو كذاب.

(٢) رواه: البخاري (٣٢٩٤)، ومسلم (٢٣٩٦)، عن سعد بن أبي وقاص.

ولا تنفع، ولولا أنني رأيت رسول الله ﷺ فليكن؛ ما قبلك»^(٣)، فقبل اقتداء النبي ﷺ، وأتباعه له، وهو الذي أمر بقطع شجرة الرضوان^(٤) التي كانت في الحديبية، وذكرها الله تعالى في كتابه، وقد جلس النبي ﷺ تحتها، وأخذ البيعة من أصحابه هناك، وإنما قطعها حينما رأى الناس يتحشرون عنها ليتبركوا بها، وهذا هو الفقيه الذي هو أشد على الشيطان من ألف عابده.

ثم من الفقهاء عبد الله بن مسعود، وعثمان، وعلي، وحذيفة، وسائر الصحابة رضي الله عنهم وأرضاهم، ثم تابعوهم بإحسان، ومن هذه الأمة الإمام شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، وابن قيم الجوزية، ومحمد بن عبد الوهاب النجدية، وأمثالهم ممن أنعم الله تعالى عليهم بالعلم النافع والعمل الصالح، جعلنا الله تعالى منهم، وحشرنا في زميرتهم، فهؤلاء هم فقهاء ملية الإسلام، وهداة الأنام، وهم وإن كانوا قليلين عدداً، ولكنهم كثيرون درجة ورفعة عند الله تعالى.

وأما غيرهم من أدياء العلم والدين والزهد والتقوى؛ فهم وإن سؤدوا الدفاتر وألفوا الأساطير وصنّفوا الكتب، ولكنهم مُحَلَطُونَ، ولعقيدة الأنام مُحَرَّبُونَ، قد ملؤوا الدنيا بالخرافات، وأفسدوا العقول بالثرهات والخيالات، ولقيروها بالتصوف، وزينوها بالفلسف، فصار النقي عندهم من يدعو غير الله، ويعبد من دون الله، وينذر لغير الله، ويرجو غير الله، ويخاف غير الله؛ مسمياً

(١) رواه: البخاري (١٦١٠)، ومسلم (١٢٧٠)، عنه.
(٢) انظر تعليقي على «الحوادث والبدع» (ص ٣٨) للإمام الطرطوشي، طبع دار ابن الجوزي، الدمام.

إِيَّاهُ بِالْأَقْطَابِ وَالْأَبْدَالِ وَالتَّجْبَاءِ وَالْأَوْتَادِ وَرِجَالِ الْغَيْبِ، فَبِذَلِكَ أَشْرَكُوا بِاللَّهِ شِرْكًا أَكْبَرَ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ، وَقَدْ لَعِبَتْ بِهِمُ الشَّيَاطِينُ وَهُمْ لَا يَفْهَمُونَ، وَقَدْ حَصَلَ إِسْلَاسٌ مَقْصِدُهُ مِنْهُمْ يَقُولُهُ: ﴿لَا غَوْثُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ^(١)، وَلَكِنْ قَلِيلٌ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ الشُّكُورُ الْمُخْلَصُونَ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِنْ عِبَادِكَ الْمُخْلَصِينَ وَالْمُؤَحِّدِينَ الشَّاكِرِينَ.

كُلُّ جَمْعٍ تَجَمُّعُوا
لَا أُبَالِي بِجَمْعِهِمْ
وَبِنَفْسِي تَحَدَّثُوا
كُلُّ جَمْعٍ مُؤْتَتْ

*
أَوَّلُكَ آيَاتِي فَجِئْتَنِي بِمِثْلِهَا
إِذَا جَمَعْتُنَا يَا عُسُوءَ الْمَبَاجِثِ

*
وَوَهَّدَنِي فِي النَّاسِ مَعْرِفَتِي بِهِمْ
فَلَمْ تُرْسِي الْأَيَّامَ خِلَافَ يُرْسِي
وَطَوَّلَ اخْتِبَارِي صَاحِبًا بَعْدَ صَاحِبٍ
مَبَادِيهِ إِلَّا سَاعَتِي فِي الْعَوَاقِبِ

*
لِقَاءِ النَّاسِ لَيْسَ يُقَدَّرُ شَيْئًا
فَقَلَّلَ مِنْ لِقَاءِ النَّاسِ إِلَّا
جَوَابِيسُ الْغُيُوبِ بِكُلِّ خَالٍ
سَوَى الْهَدْيَانِ مِنْ قِبَلٍ وَقَالَ
لَا تُخَذِ الْعِلْمُ أَوْ إِصْلَاحُ خَالٍ
جَوَابِيسُ الْغُيُوبِ بِكُلِّ خَالٍ

●●●●●

(١) ض: ٨٢

فصل

فِي أَقْوَالِ الصَّحَابَةِ الْكَرَامِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانِ رِضَى اللَّهِ عَنْهُمْ فِي لَزُومِ فَهْمِ مَعَانِي الْقُرْآنِ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ مِنْ أَيِّ جِنْسٍ كَانَ عَرَبِيًّا أَوْ عَجَمًا شَرْقِيًّا أَوْ غَرْبِيًّا وَلَا يُسْتَنَى مِنْهُ إِلَّا الصَّيِّ الْغَيْرُ الْمُبَالِغُ وَالْمَجْنُونُ الَّذِي لَا يَعْقِلُ أَصْلًا؛ لِأَنَّهُ لَا يَتَوَجَّهُ عَلَيْهِمَا الْخُطَابُ، وَلَا فَرْقَ بَيْنَ الذَّكَرِ وَالْأُنْثَى

وَقَدْ ذَكَرَ الْحَافِظُ مُحَمَّدُ صَالِحُ الْفُلَانِيُّ الْمَتَوَفَّى عَامَ ١٢١٨ هـ فِي كِتَابِهِ «إِقْبَاطُ هَمَمٍ أُولَى الْإِبْصَارِ»^(١) (ص ٨٠) مَا نَصَّهُ:

«قَالَ حَافِظُ الْمَغْرِبِ أَبُو عَمْرٍو بْنُ عَبْدِالْبَرِّ^(٢): طَلَبَ الْعِلْمُ دَرَجَاتٍ، فَأَوَّلُ الْعِلْمِ: حِفْظُ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَفَهْمُهُ، وَكُلُّ مَا يَبْعُنُ عَلَى فَهْمِهِ مِنْ لِسَانِ الْعَرَبِ، ثُمَّ النَّظَرُ فِي السَّنَنِ الْمَأْتُوْرَةِ الثَّابِتَةِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فِيهَا يُصَلُّ الطَّالِبُ إِلَى فَهْمِ مُرَادِ اللَّهِ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ، وَكَانَ عَمْرٍو بْنُ الْخُطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ

(١) وَهُوَ مِنْ الْكُتُبِ النَّافِعَةِ جَدًّا، رَحِمَ اللَّهُ مُؤَلِّفَهُ رَحْمَةً وَاسِعَةً.

(٢) فِي «جَامِعِ بَيَانِ الْعِلْمِ» (٢ / ٣٤).

عنه يَكْتَبُ إِلَى الْأَفَاقِ أَنْ يُبَلِّغُوا السُّنَّةَ وَالْفَرَائِضَ وَاللَّحْنَ^(١)؛ يعني النَحْوَ؛ كما يُتَعَلَّمُ الْقُرْآنَ.

وعن أبي عثمان؛ قَالَ: كَانَ فِي كِتَابِ عَمْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: تَعَلَّمُوا الْعَرَبِيَّةَ، فَتَفَهَّمُوا فِي السُّنَّةِ.

وقال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى: مَنْ حَفِظَ الْقُرْآنَ؛ عَظُمَتْ قِيَمَتُهُ، وَمَنْ طَلَبَ الْفِقْهَ؛ بَيَّلَ قَدْرَهُ، وَمَنْ كَتَبَ الْحَدِيثَ؛ قَوِيَتْ حُجَّتُهُ، وَمَنْ نَظَرَ فِي النُّحْوِ؛ رَفَّ طَبْعُهُ، وَمَنْ لَمْ يَضُنْ نَفْسَهُ؛ لَمْ يَضُنْ الْعِلْمَ، وَمَنْ عَارَضَ السُّنَّةَ بِرَأْيِهِ؛ فَهُوَ ضَالٌّ وَمُضِلٌّ^(٢).

واعلم أَنَّ الْقُرْآنَ وَالسُّنَّةَ هُمَا الْأَصْلُ وَالْمَعْيَارُ وَالْمِيزَانُ، وَلَيْسَ الرَّأْيُ وَالْقِيَاسُ مَعْيَارًا عَلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَمَنْ جَهِلَ الْأَصْلَ لَمْ يَصِبِ الْفَرْعَ أَصْلًا.

وروي في «جواهر الأدب» أَنَّهُ رُوِيَ عَنْ عَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي التَّفَكُّرَ وَالتَّدَبُّرَ لِمَا يَتْلُوهُ لِسَانِي مِنْ كِتَابِكَ، وَالفَهْمَ لَهُ، وَالْمَعْرِفَةَ بِمَعَانِيهِ، وَالنَّظَرَ فِي عَجَائِبِهِ، وَالْعَمَلَ بِذَلِكَ مَا بَقِيَ؛ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

قال الحافظ ابن الجوزي في كتابه «تلبيس إبليس»^(٣): «إِنْ مِنْ تَلْبِيسٍ لِإِبْلِيسَ أَنَّهُ قَدْ شَغَلَ الْقُرَّاءَ بِتَحْسِينِ الْقِرَاءَةِ وَالِاشْتِغَالِ بِالشَّاذِّ طَوِيلَ عُمُرِهِمْ، مَعَ

(١) «المدخل» (٣٧٦) للبيهقي.

(٢) أخرجه: الخطيب في «الفتاوى والمفتق» (١ / ٣٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (٩ / ١٢٣).

(٣) انظر: «المنتقى النفيس»... (ص ١١٥) بقلبي.

الغفلة عن المعاني وفهمه والعمل به. قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: أُنْزِلَ الْقُرْآنُ لِيُعْمَلَ بِهِ، فَاتَّخَذَ النَّاسُ تِلَاوَتَهُ عَمَلًا؛ يَعْنِي أَنَّهُمْ اقْتَصَرُوا عَلَى التِّلَاوَةِ وَتَرَكَوا الْعَمَلَ بِهِ».

قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره»^(١): «وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا^(٢)»، فَمِنْ هُجْرَانِهِ تَرْكُ الْإِيمَانِ بِهِ، وَمِنْ هُجْرَانِهِ تَرْكُ تَدْبِيرِهِ وَتَفْهِيمِهِ، وَمِنْ هُجْرَانِهِ تَرْكُ الْعَمَلِ بِهِ وَتَرْكُ امْتِنَالِ أَمْرِهِ وَتَرْكُ اجْتِنَابِ زَوَاجِرِهِ، وَمِنْ هُجْرَانِهِ الْمُدُولُ عَنْهُ إِلَى غَيْرِهِ مِنْ شَيْعِرٍ أَوْ قَوْلٍ أَوْ غِنَاءٍ أَوْ لَهْوٍ أَوْ كَلَامٍ أَوْ طَرِيقَةٍ أَوْ مَذْهَبٍ مَأْخُوذٍ مِنْ غَيْرِهِ، وَالصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كَانُوا يَقْرَءُونَ وَيَفْهَمُونَ فَيَعْمَلُونَ أَنَّ الْعَمَلَ بِهَا فَهْمٌ وَعِلْمٌ مُتَعَدِّدٌ.

وقال الإمام حُجَّةُ الْإِسْلَامِ أَبُو حَامِدٍ مُحَمَّدُ الْغَزَالِيُّ الطُّوسِيُّ فِي الْفَصْلِ الثَّالِثِ مِنْ قَوَاعِدِ الْمَعَالِدِ مِنْ «إحياء علوم الدين»^(٣): «إِنَّ عَصَابَةَ السُّنَّةِ وَأَمَلِ الْحَقِّ، الَّذِينَ حَفِظَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ زَيْغِ الرَّاغِبِينَ وَضَلَالِ الْمُلْحِدِينَ، وَوَقَّعَهُمُ لِلْاِقْتِدَاءِ بِسِيْرِ الْمُرْسَلِينَ ﷺ، وَيَسَّرَ لَهُمُ اقْتِفَاءَ آثَارِ السَّلَفِ الصَّالِحِينَ؛ هُمْ تَحَقَّقُوا وَاتَّقَفُوا عَلَى أَنَّ النُّطْقَ بِمَا تَعَبَّدَ بِهِ مِنْ قَوْلٍ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ لَيْسَ لَهُ طَائِلٌ وَلَا مَحْصُولٌ إِنْ لَمْ تَتَحَقَّقْ الْإِحَاطَةَ بِمَا تَدْرُسُ عَلَيْهِ هَذِهِ الشَّهَادَةَ مِنْ الْأَقْطَابِ وَالْأَصُولِ، وَقَدْ عَرَفُوا أَنَّ كَلِمَتِي الشَّهَادَةَ عَلَى إِجْازَتِهَا تَضُمُّنُ

(١) (٣ / ٥٠٧).

(٢) الفرقان: ٣٠.

(٣) (١ / ١٠٤).

وانظر لزماً كتابي «إحياء علوم الدين في ميزان العلماء والمؤرخين»، طبع دار ابن الجوزي.

إثبات ذات الإله، وإثبات صفاته، وإثبات أفعاله، وإثبات لا معبود بحق إلا هو وحده لا شريك له، وإثبات صدي الرسول ﷺ، وأن مخالفته توجب تكذيبه، فنية.

قال الإمام محيي السنة البغوي في «تفسيره»^(١): «إن الناس كما أنهم متعبدون بتأسيح أحكام القرآن وحفظ حدوده ومعرفة معانيه؛ فهم متعبدون بتلاوته وحفظ حروفه أيضاً».

فقد تبين أن فهم معاني القرآن والحديث والتفهم لها واجب؛ لأنه لا يصح العمل إلا بعد العلم، والعلم لا يحصل إلا بالفهم والتفهم، والقرآن وإن كانت تلاوته عبادة مطلوبة يتعبد بها، ولكن المقصد الأصلي منه الفهم والعمل، فمن يتلو ولا يفهم معناه ولا يعمل به؛ فهو كمثل الحمار يحمل أسفاراً، أو كمثل اللون بلا طعم، ولا لائحة طيبة، أو كمثل بُدقيٍّ أو مدفع بلا قنابل ولا رصاص، أو كمثل سيارة بلا بنزين فتتبه.

قال الجلال السيوطي في النسخ الحادي والخمسين من كتابه «الإتقان»^(٢): «روى البيهقي وأبو عبيد عن ابن مسعود رضي الله عنه؛ قال: إذا سمعت الله تعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾؛ فأوعه سمعك؛ فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه».

وأخرج الترمذي وابن ماجه وأحمد^(٣) عن علي رضي الله عنه: «من قرأ

(١) قارن بـ «معالم التنزيل» (٤ / ٢٣٦) له.

(٢) (٣ / ١٠٠).

(٣) رواه: عبد الله بن أحمد (١ / ١٤٨)، والترمذي (٢٩٠٥)، وابن عدي في

القرآن، فاستظهره، فأحل حاله وحرم حرامه، أدخله الله الجنة».

وعن عائشة رضي الله عنها: «الماجر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة، والذي يقرأ القرآن ويتنحش فيه وهو عليه شاق له أجران»^(٤).

ثم ذكر الجلال في النسخ السابع والسبعين منه^(٥): «اعلم أن من المعلوم أن الله تعالى إنما خاطب خلقه بما يفهمونه، ولذلك أرسل كل رسول بلسان قومه وأنزل كتابه على لغتهم».

وقال الإمام ابن تيمية: «يجب أن يعلم أن النبي ﷺ بين لأصحابه معاني القرآن كما بين لهم الفاظه، فقوله تعالى: ﴿لَتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾^(٦) يتناول هذا وهذا».

وقال أبو عبد الرحمن السلمي: «حدثنا الذين كانوا يقرئون القرآن؛ كعثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما رضي الله عنهم؛ أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات؛ لم يتجاوزوها حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل؛ قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً»^(٧).

= «الكامل» (٢ / ٧٨٨)، وابن ماجه (٢٤٣٦)، والبيهقي في «الشعب» (٢٤٣٦) مرفوعاً.

وفي سنده حفص بن سليمان؛ متروك.

(١) رواه: البخاري (٨ / ٥٣٢)، ومسلم (٨٩٨).

(٢) (٤ / ١٧٠) ناقلاً له عن (بعضهم).

(٣) النحل: ٤٤.

(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (رقم ٨٢) من طريق جرير عن عطاء بن السائب

عنه.

ورواية جرير عن عطاء بعد الاختلاط.

وَأَقَامَ ابْنُ عَمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَلَى حِفْظِ الْبَقَرَةِ ثَمَانِ سَنِينَ . أَخْرَجَهُ فِي «الْمَوْطِئِ»^(١) .

لأنه تعالى قَالَ : ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ ﴾^(٢) ، وَقَالَ : ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْقَانَ ﴾^(٣) ، وَتَدَبَّرُ الْكَلَامَ بِدُونِ فَهْمٍ مَعَانِيهِ لَا يُمْكِنُ ، وَكَيْفَ لَا يَجِبُ فَهْمُ كَلَامِ اللَّهِ الَّذِي هُوَ عَصَمَهُمْ ، وَبِهِ نَجَاتُهُمْ وَسَعَادَتُهُمْ وَقِيَامُ دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ . . . إلخ ؟!

● ● ● ● ●

فِي أَقْوَالِ عُلَمَاءِ أَصُولِ الْفِقْهِ مِنْ أَهْلِ الْمَذَاهِبِ الْأَرْبَعَةِ الْمَشْهُورَةِ - كَالْحَنْفِيَّةِ وَالْمَالِكِيَّةِ وَالشَّافِعِيَّةِ وَالتَّحَابِلَةِ - وَالظَّاهِرِيَّةِ وَأَهْلِ الْخَدِيثِ مِنْ عُلَمَاءِ أَصُولِ الشُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ ، شَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى سَمْعَهُمْ ، وَرَجَمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى رَحْمَةً وَاسِعَةً ، وَأَدْخَلَهُمْ فِي فِرْقَةِ الْبِئْسَاتِ ، فِي أُرُومِ فَهْمٍ مَعْنَى الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَالْخَدِيثِ النَّبَوِيِّ عَلَى كُلِّ مُكَلَّفٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَأَنَّهُ لَا يُعَذَّرُ أَحَدٌ فِي تَرْكِ ذَلِكَ مَا دَامَ عَاقِلًا بَالِغًا ، وَالْعِبَادُ كُلُّهُمْ مُكَلَّفُونَ بِمَعْرِفَةِ اللَّهِ وَتَوْحِيدِهِ وَالْإِيمَانِ بِهِ وَبِرَسُولِهِ ؛ كَمَا أَنَّ الْمُسْلِمِينَ كُلَّهُمْ مُكَلَّفُونَ بِفَهْمِ مَعَانِي الْكِتَابِ وَالشُّنَّةِ وَالْعَمَلِ بِمُقْتَضَى ذَلِكَ ، فَأَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى الْكَرِيمَ الْوَهَّابَ أَنْ يُوفِّقَنَا لِذَلِكَ بِفَضْلِهِ وَمَنِّهِ ؛ فَإِنَّهُ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ

قَالَ الشَّيْخُ مُوَفَّقُ الدِّينِ أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ قُدَامَةَ الْحَنْبَلِيُّ الْقُدْسِيُّ فِي كِتَابِهِ «رَوْضَةُ النَّاظِرِ وَبُحْتَةُ النَّاطِرِ» (٢ / ١٤٧) : «مَا وَرَدَ مِنْ خِطَابٍ مُضَافًا إِلَى النَّاسِ وَالْمُؤْمِنِينَ ؛ دَخَلَ فِيهِ الْعَبْدُ ؛ لِأَنَّهُ مِنْ جُمْلَةِ مَنْ يَتَنَاوَلُهُ

وَلَكِنْ ؛ ذَكَرَ الذَّهَبِيُّ فِي «طَبَقَاتِ الْفَرَاءِ» (١ / ٥٤) أَنَّ حَمَادَ بْنَ زَيْدٍ رَوَاهُ عَنْ عَطَاءٍ أَيْضًا ، وَرَوَاتِهِ عَنْهُ قَبْلَ الْإِخْلَاطِ .
فَصَحَّ السَّنَدُ بِمُحَمَّدِ اللَّهِ .
وَلَهُ شَاهِدٌ عَنْ ابْنِ سَمُودٍ ، أَخْرَجَهُ الطَّبْرِيُّ (٨١) أَيْضًا .
(١) (١ / ٢٠٥) : يَلَاغَى .
(٢) ص : ٢٩ .
(٣) النِّسَاء : ٨٢ .

اللفظ، ويدخل النساء في الجمع المضارع؛ كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ، وَتَوَسَّوْا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ﴾^(١)، و﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(٢)، ونحو ذلك يتناول العبد والمرأة؛ لأنهما من الناس. والمؤمنين والأمة والمكلفين، واللفظ (الناس) و(البشر) و(الإنسان) وُضِعَ للعموم، فيتناول الذكر والإناث والعبد والأمة والصغير، وخروج العبد والأمة والصغير والنساء عن بعض التكليف لا يوجب رفع العموم فيه؛ كالمرضى والمسافرين والحائض، وأكثر خطاب الله تعالى في القرآن بلفظ التذكير؛ كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، و﴿يَا عِبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا﴾^(٣)، و﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾^(٤)، و﴿يُشْرَى لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾^(٥)، والنساء يدخلن في جمليته، وذكره تعالى لهن بلفظ مفرد تبييناً وإيضاحاً لا يمنع دخولهن في اللفظ العام الصالح لهن، وما من عموم إلا وقد تطرق إليه التخصيص إلا اليسير، فالعام إذا دخله التخصيص يبقى حجة فيما لم يخص عند الجمهور؛ لأن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يتمسكون بالعمومات، فتدبر... إلخ.

وفيه أيضاً (٢ / ١٥٧): «اللفظ العام يجب اعتقاد عمومته في الحال، ولفظ العموم يفيد الاستغراق، ولا يجب البحث عن المخصص، وإذا ظهر المخصص، فلا يسقط قيام الحجة بالعام، ثم يجب اعتقاد عمومته في الحال.

(١) المؤمنون: ٣١.

(٢) آل عمران: ١١٠.

(٣) الزمر: ٥٣.

(٤) البقرة: ٣.

(٥) البقرة: ٩٧.

والزمان ما لم يرد نسخ، وكذلك في الأعيان، ولا نعلم خلافاً في جواز تخصيص العموم، ويستحيل خطاب وتكليف من لا يفهم؛ كالصبي والمجنون.

وفيه أيضاً: (١ / ٣٣٢): «والأمة كلها متعبدة بالتخصص والأدلة القواطع، معرضون للعقاب بمخالفتها... إلخ».

وفيه أيضاً: (٢ / ٩٧): «الأمر لجماعة يقتضي وجوبه على كل واحد منهم، ولا يسقط الواجب عنهم بفعل واحد منهم؛ إلا أن يدل دليل عليه، فيكون فرض كفاية... إلخ».

وقال محمد بن إسماعيل الأمير الصنعائي الشوكاني^(١) في كتابه «إرشاد النقاد إلى تيسير الاجتهاد» (١ / ٣٨): «ومعلوم يقيناً أن كلام الله وكلام رسوله أقرب إلى الأفهام وأدنى إلى إصابة بلوغ المرام؛ فإنه أبلغ الكلام بالإجماع، وأعذب في الألفاظ والأشعار، وأقرن إلى الفهم والأنفع، ولا يُتَكَبَّرُ هذا إلا جُلُود الطباع، ولا حظ له من النفع والأنفع، والأفهام التي فهم بها الصحابة رضي الله عنهم الكلام الإلهي والخطاب النبوي هي كأفهامنا، وأحلامهم كأحلامنا، إذ كانت الأفهام متقاربة تفارقت بسقط مع فهم العبارات الإلهية والأحاديث النبوية؛ لما كنا مكلفين ولا مأمورين ولا متهمين؛ لا اجتهداً ولا تقليداً... إلخ».

وفيه أيضاً (١ / ٤٦): «لا بد للمكلف من تفهم معاني ما كلف به من كلام ربه أو كلام رسوله ﷺ أو من كلام شيخه وأستاذه؛ ضرورة أنه لا يتم له

(١) لا، ليس شوكانياً، وإنما الشوكاني آخر، واسمه محمد بن علي، توفي سنة (١٢٥٠ هـ)، ترجمته في «الدر الطالع» (٢ / ٢١٤) له.

التكليف إلا بالفهم، وإلا كَانَ معدوراً غير مكلف ولا مخاطب بشيء من الشريعات، فالفهم الذي يصرِّفه في حلِّ عبارات شيوخه وبيان معانيها لو صرفه في تفهم كلام ربِّه وحديث رسول الله ﷺ؛ لَوَصَّلَ إلى المقصود بأسهل طريق، ولا شك أنَّ أكثرَ العلَّوم التي يَشْتَغِلُ أَكْثَرُ النَّاسِ بها فضول... إلخ».

وفي «روضة الناظر» أيضاً (٢ / ١٥٤): «ذهب بعض القديريِّ إلى أنَّ العامة يزلُّهم النظر في الدليل في الفروع أيضاً كما يزلُّهم في الأصول، وهو باطل بإجماع الصحابة رضي الله عنهم؛ فإنهم كانوا يُقَوِّنون العامة ولا يأمرُونهم بتبيل درجة الاجتهاد، وذلك معلوم بالضرورة والتواتر من علمائهم وعوامهم، وضدَّهم ما ذهب إليه الحشوية والتعليمية من أنَّ طريق الحق ومعرفته التقليد، وهذا هو الواجب، وأنَّ النظر والبحث حرام، وهؤلاء نزلوا أنفسهم منزلة الحيوانات العجم، وهؤلاء هم أكثر من يدعي الإسلام اليوم وقيل اليوم، والحق سؤال الجاهل العالم؛ لقوله تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^(١)».

وفيهِ أيضاً (٢ / ٣٢١): «قد أجمع المسلمون على وجوب تعلُّم علم الدين على كلِّ مسلم، وأجمعوا أيضاً على جواز شرح الشرع للعجم بلسانهم؛ لضرورة التعليم والتفهم، وكذلك كان سفراء النبي ﷺ يبلِّغُونهم أوامره بلسانهم؛ لأن المقصود فهم المعنى وإبصاره إلى الخلق... إلخ، وأنَّ التعلُّب في الحديث بالمعنى؛ لأنه المقصود؛ لا باللفظ، ولهذا قد جوزوا رواية الحديث بالمعنى؛ بخلاف القرآن؛ فإنَّ التعلُّب بمعناه للإبلاغ، وبلغته للتلاوة

(١) النحل: ٤٣

والإعجاز؛ بدليل الحروف المقطعة في أوائل السور؛ فإنه ليس لها معنى يُفهم فيُتَّبَل، ونحن متعبدون بلفظها، والأجر يرتب عليها على كلِّ حرف عشر حسنة؛ كسائر حروف القرآن... إلخ».

وفيهِ أيضاً (٢ / ٣٤٨): «إنَّ العوام لا يُعْتَبَر قولهم عند الاكثرين، والمقلد حُكْمه حكم العامي؛ يعني أنَّ لفظ العامي يشمل كلَّ من ليس مجتهداً وعالمًا، والحقُّ أنَّ المقلد والعامي من وإد واحد، فلا عبرة بقولهم ولا بقلوبهم؛ سواء وافق أو خالف، والمحققون لا يُقيمون لقولهم وزناً؛ لأنهم كالذابة والأنعام، والعامي إذا قال قولاً فإنما يقوله عن جهل وتقليد وليس يدري ما يقول، ولهذا قد انعقد الإجماع على أنه يُعَصِي بمخالفة العلماء، ويحرم عليه مخالفتهم، ولذلك ذمَّ النبي ﷺ الرؤساء الجهال الذين أقنوا بغير علم، فضلُّوا وأضلُّوا... إلخ».

وفي «إتحاف السادة المتقين» شرح إحياء علوم الدين للمُرْتَضَى الزَّيْنَبِيِّ (١ / ٤٣٢): «أعلم أنه يجب على كلِّ مسلم معرفة ما ثبت عن رسول الله ﷺ قولاً وفعلًا؛ لأنَّ أتباعه إنما يحصل لمن عِلِمَ ذلك، والإمام المقلد إنما هو محمد رسول الله ﷺ، وهو الإمام الأعظم ﷺ حقًا، وأما بقَدِّ الصحابة رضي الله عنهم من حيث إنَّ فعلهم يدلُّ على سماعهم من رسول الله ﷺ، وهذا هو الذي أمرنا باتباعه لا غيره، ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما: «ما من أحدٍ إلَّا يؤخِّذ من علمه ويترك لإِرسول الله ﷺ؛ فإنَّ كلَّ ما ثبت عنه ﷺ مقبول». قال العراقي: رواه الطبراني في «الكبير»، وإسناده حسن، وكذا في «قوت القلوب»... إلخ».

(١) كما في حديث قبض العلم، رواه: البخاري (١ / ١٧٤)، ومسلم (٢٦٧٣).

قال الإمام علي بن أحمد بن حزم الأندلسي في كتابه «النَّبَذَ» (١) / ٥٤: «التقليد في الدين لغیر المعصوم حرام، ولا يحل لأحد أن يأخذ بقول أحد بلا بُرهان لقوله تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾»، والعالم والعامي في هذا سواء؛ كل على قدر خطئه ونصيبه، ولم يخص الله تعالى عالماً من عاَمٍ، ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾»، وإنما نحن نسأل العلماء ليجيرونا بما عندهم من أوامر الله تعالى الواردة على لسان محمد ﷺ لا عن شرع يشرعونه لنا من قبل أنفسهم».

قال: «ثم العجب أن يكون الله تعالى فرض للعامي الذي بالاندلس تقليد مالك، ومن باليمن ومصر تقليد الشافعي، ومن بخراسان وما وراء النهر تقليد أبي حنيفة، لا غير، وإذا أسلم رجل من أهل دار الحرب وشهد بـ (لا إله إلا الله محمد رسول الله)؛ فهذا لا شك دخل في دين الإسلام، فهل الفرض عليه السؤال عما فرض الله تعالى عليه وأمره به وأمر رسوله محمد ﷺ، أو يلزمه أن يسأل عما قال أبو حنيفة أو مالك أو الشافعي أو أحمد رحمهم الله تعالى؟ فما يقول فيه هذا المقلد... الخ، وبماذا يجيب؟».

قال العبد الضعيف جامع هذه الكلمات: أي قد ألفت في هذه المسألة رسالة حينما ورد على سؤال من مسلمي الشرق الأقصى بلاد الجاباب، وسميتها «هدية السلطان إلى مسلمي بلاد جاباب»^(٣)، فجاءت رسالة بديعة؛ فعليك بها إن أردت التحقيق، وبالله التوفيق.

(١) الأعراف: ٣. (٢) مزين: ٦٤.

(٣) وقد اشتهرت وطُبعت باسم «هل المسلم ملزم باتباع مذهب معين؟». وانظر التعليق المتقدم (ص ٣٣).

وفي «الوحي المحمدي» للسيد محمد رشيد رضا (١ / ١٢٢): «يجب على كل المسلمين تعلم اللغة العربية؛ لغة القرآن، وهذا جمَع عليه بين المسلمين؛ كما قرره الإمام الشافعي رحمه الله تعالى في «رسالته»^(١)، وقد جرى عليه العمل في عهد الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين رضي الله عنهم، ثم الخلفاء الأمويين والعباسيين، إلى أن كثُر الأعاجم، وقَلَّ العلم، وغلب الجهل، فصاروا يكتفون من لغة الدين بما فرضه في العبادات من القرآن والأدكار، وقد جعل الله تعالى لغة الدين والتشريع لغة لجميع المؤمنين، والمؤمنون باعتقادهم الإيمانية يكونون مسوقين إلى معرفة لغة كتاب الله وسنة رسوله ﷺ؛ لفهمهما، والتعبد بهما، والاتحاد بأحوتهم فيهما، وهما مناط سعادتهم وسيادتهم في الدنيا والآخرة، ولذا قد كرّر في القرآن بيان كونه كتاباً عربياً، وحكماً عربياً، وكُرّر الأمر بتدبره والتفقه فيه والاعتاط والتأدب به.

اعلم أنه ما أفسد المسلمين وما أذلهم إلا جهلهم بكتاب ربهم، وسنة نبئهم، وعدم فهمهم معانيهما ومواعظهما، وما أوقعهم في البدع والخرافات إلا هذا الجهل، ومن الجهل ينشأ التقليد، والبدع تروج في سوق التقليد والجهل، لا في سوق الدين والعلم الصحيح المأخوذ من الدلائل، ومن باب الجهل والتقليد دخل أكثر الخرافات على المسلمين؛ لانتساب جميع الدجالين إلى أهل الطرائق وغيرهم من أئمة المذاهب المعتنقين، وهم في دعوى أتباعهم من الكاذبين، وذكر في كثير من كتب التفسير والفقه والتصوف شروح الأحاديث للعلماء المنسوبين إلى الأئمة كثيرين من البدع والخرافات التي

يبتدأ منها أئمة الهدى، وترى علماء الرسوم الجابدين يحتجون بذكرها في هذه الكتب على شرعيتها، وعلى رد نصوص الكتاب والسنة الصحيحة بها، فإننا لله وإنا إليه راجعون.

وكذا في المجلد (١١) من «تفسير المنار» (ص ٢٥٨).

قلت: كما ذكر الحافظ ابن كثير في «تفسيره»^(١) رواية العنبي قصة الأعرابي المجهول^(٢) في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاوَزُوا فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾^(٣)، ولم يتعقبه، وكان اللازم عليه تعقبه، وبيان حال الخير، أو عدم ذكره أصلاً؛ كما لا يخفى، ولكن الجواز قد يَكُون، والصارم قد يَبْنُو، فنتبه.

قال ابن القيم في «إعلام الموقعين» (٢ / ١٨٦): «وما قيل بأن الناس لو كلفوا كلهم فهم الخطاب؛ يلزمهم الاجتهاد، وأن يكونوا علماء؛ لصاعت مصالح العباد، وتعطلت المصانع والمناجر، وهذا مما لا سبيل إليه شرعاً وقدرأ؛ فالجواب من وجوه:

أحدها: أن من رحمة الله تعالى ورافته أنه لم يكلفنا بالتقليد، فلو كلفنا به؛ لصاعت أمورنا، وفسدت مصالحنا؛ لأننا لم نكن ندرى من نقله من العلماء والمفتين، وهم عدد لا يُحْصَرُونَ وقد انتشر الإسلام بحمد الله وفضله، فلو كلفنا

(١) (١ / ٧٨٧).

(٢) انظر نقدها وردها في «القول الجلي في حكم التوسل بالنبي والولي» (ص ٣٥).

للسقري - بتحقيق.

(٣) النساء: ٦٤.

بالتقليد؛ لوقعنا في أعظم العت والفساد، ولكلفنا بتحليل الشيء وتحريمه وإيجاب الشيء وإسقاطه معاً إن كلفنا بتقليد كل عالم، وإن كلفنا بتقليد الأعلام فالأعلم؛ فمعرفة ما دل عليه القرآن والسنة من الأحكام أسهل بكثير من معرفة الأعلام، وإن كلفنا بتقليد البعض، كان جُمل ذلك إلى تشهينا واختيارنا؛ صار دين الله يتبع لإرادتنا وشهوتنا، وصار الدين العوبة.

قلت: كما هو الواقع الآن، بل منذ عصور وأزمان.

«فلا بد أن يكون ذلك راجعاً إلى من أمر الله باتباع قوله، وتلقي الدين من بين شفقتي، ألا وهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم، رسول الله، وأمينه على وجهه، وحجته على خلقه، ولم يجعل الله تعالى هذا المنصب لسواه بعده أبداً، صلوات الله وسلامه عليه.

الثاني: بالنظر والاستدلال صلاح الأمور لا ضياعها، وبإهماله وتقليد من يخفى ويصيب إضاعتها وفسادها، كما أن الواقع شاهد بهذا.

الثالث: أن كل واحد منا مأمر بأن يصدق الرسول محمد ﷺ فيما أخبر به، ويطيعه فيما أمر، وذلك لا يكون إلا بعد معرفة أمره وتبره، ولم يوجب الله تعالى من ذلك على الأمة إلا ما فيه حفظ دينها ودنياها، وصالحها في معاشها ومعادها، وبإهماله ذلك تضيق مصالحها وتفسد أمورها، فما خراب العالم إلا بالجهل، ولا عمارته إلا بالعلم، وإذا ظهر العلم في بلد أو محلّة؛ قل الشر في أهلها، وإذا خفي العلم هناك؛ ظهر الشر والفساد، ومن لم يعرف هذا؛ فهو ممن لم يجعل الله له نوراً.

قال الإمام أحمد: لولا العلم كان الناس كالبهائم.

والعلم النافع هو الذي جاء به محمدٌ رسولُ الله ﷺ؛ دونَ مقدوراتِ الأذهانِ ومسائلِ الخرصِ والألغازِ، وذلك بحمدِ الله تعالى أيسرَ على النفوسِ تحصيله وحفظه وفهمه؛ فإنه كتابُ الله الذي يشهَرُ للذكرِ، وكذا سنةُ رسولِهِ ﷺ، وهي بحمدِ الله تعالى مضبوطةٌ محفوظةٌ، وأسهلُ من كُلِّ سهلٍ، وإِنما الذي هو في غايةِ الصعوبةِ والشقَّةِ مَقْدَرَاتُ الأذهانِ، وتُرْهَاتُ اليرنانِ، وأغلوطاتُ المسائلِ والفروعِ والأصولِ التي ما أنزلَ اللهُ بها مِنْ سلطانٍ، وإِنما هي مِنْ دسائسِ الشيطانِ؛ انتهى.

وفيه أيضاً (٢ / ١٣٨): «إِنَّ أَفْحَحَ التَّقْلِيدِ وَأَشْنَعَهُ الإِعْرَاضُ عَمَّا أَنْزَلَهُ اللهُ تَعَالَى، وَعَدَمُ الْإِتِّفَاقِ إِلَيْهِ؛ اكْتِفَاءً بِتَقْلِيدِ الْأَبَاءِ وَالْمَشَايِخِ.»

تنبيه: على أي شيء كان الناس قبل أن يولد فلان وفلان الذين قلدتموهم وجعلتم أقوالهم بمنزلة نصوص الشارع، أفكان الناس قبل وجود هؤلاء على هدى أو ضلالة؟ فلا بد أن يُقَرَّوا بأنهم كانوا على هدى، فيقال لهم: فما الذي كانوا عليه غير اتباع القرآن والسنة والآثار، وتقديم قول الله وقول رسوله وأثار الصحابة على ما يخالفها، والتحاكم إليها دون قول فلان وفلان؟ فإذا كان هذا هو الهدى؛ «فماذا بعد الحق إلا الضلال فأتى تُصَرِّفُونَ»^(١).

اعلم أن الله تعالى قد دَمَّ مَنْ إذا دُعِيَ إلى الله ورسوله؛ أعرض ورضي بالتحاكم إلى غيره، وهذا شأن أهل التقليد؛ قال الله تعالى: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتُ الْمُنَافِقِينَ يُصَدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا»^(٢).

(١) يونس: ٣٢.

(٢) النساء: ٦١.

فكُلُّ مَنْ أَعْرَضَ عَنِ الدَّاعِي لَهُ إِلَى مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ إِلَى غَيْرِهِ فَلَهُ نَصِيبٌ مِنْ هَذَا الدَّمِّ، فَمَسْتُكِرٌ وَمَسْتَقِلٌّ.

فالواجبُ على كُلِّ مسلمٍ: طلبُ الحقِّ، وبذلُ الاجتهادِ في الوصولِ إليه بحسبِ الإمكانِ؛ لأنَّ الله سبحانه أوجِبَ على الخلقِ تقواه بحسبِ الاستطاعةِ، وتقواه إِنما هو فعلٌ ما أَمَرَ به وتركُ ما نَهَى عنه، فلا بدَّ أن يَعْرِفَ العبدُ ما أَمَرَ به ليعمله، وما نَهَى عنه ليُجَنِّبَهُ، وما أَمَرَ به لِيَأْتِيَهُ، ومعرفة ذلك لا تكونُ إلا بنوعِ اجتهادٍ وطلبٍ وتحرُّرٍ للحقِّ.

وقد دَمَّ اللهُ تعالى مَنْ حَاكَمَ إِلَى غَيْرِ الرُّسُولِ ﷺ في حياته، فكذا هذا ثابتٌ بعد مماته ﷺ؛ لأنَّ سنتَه وما جاء به مِنْ الهدى ودينِ الحقِّ لم يُعْمَدْ، وإنَّ قُفُودَ مَنْ بَيْنَ الْأُمَمَةِ شَخْصَهُ الْكَرِيمِ؛ فلم يُفَقَدْ مِنْ بَيْنِنَا سنتَه ودعوته وهديه بحمدِ الله، وقد ضَمِنَ اللهُ تعالى حفظَ الذكرِ الذي أنزله على رسوله محمدٍ ﷺ، فلا يزالُ محفوظاً بحفظِ الله؛ لنقومِ حجةَ الله على عبيده إلى أبدِ الأبدِينِ.

وفيه أيضاً (٤ / ٢٠٦): «وَلَا يَسَعُ الْحَاكِمَ وَالْمُفْتِي إِلَّا الْحُكْمُ بِكِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ أَلَيْتَهُ عِنْدَ جُودِ الْمَسْأَلَةِ فِيهِمَا؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَأَلَ كُلَّ أَحَدٍ عَنْ رَسُولِهِ وَمَا جَاءَ بِهِ، لَا عَنِ الْإِمَامِ الْمُعَيَّنِّ وَمَا قَالَهُ، وَإِنَّمَا يُسْأَلُ النَّاسُ فِي قُبُورِهِمْ وَيَوْمَ مَعَادِهِمْ عَنِ الرُّسُولِ ﷺ، يُقَالُ لَهُ فِي قَبْرِهِ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ السَّيِّئِ بَعَثَ فِيكُمْ؟ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُنَادِيهِمْ يَقُولُ: «مَآذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ»^(١)، وَلَا يُسْأَلُ أَحَدٌ قَطُّ عَنْ إِمَامٍ وَلَا شَيْخٍ وَلَا مُتَّبِعٍ غَيْرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، بَلْ يُسْأَلُ عَنِ اتِّبَاعِهِ وَاتِّمَامِهِ بِغَيْرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ فَلْيَنْظُرْ بِمَاذَا يُجِيبُ؟

ففي ذلك اليوم يتبرأ التابع من المتبوع، والمتبوع من التابع.».

والعبد الضعيف قد ألفت في هذه المسألة رسالتي «البرهان الساطع في تبرؤ المتبوع من التابع»، فعليك بها؛ فإنها مطبوعة في مصر، ومنشورة في العالم الإسلامي كله.



خاتمة

قال العبد الضعيف محمد سلطان المعصومي رَزَقَهُ اللهُ تعالى الحُسنى وزيادة: وقد فتح اللهُ تعالى لي اليوم فتحاً، وهو أن الله تعالى حينما أراد تعبير الدنيا؛ قال: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(١)، ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ الآية^(٢)، ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾^(٣).

فهذه الآيات تفيد أولاً - وبالأدب - أن الله تعالى جعل آدم عليه وعلى نبيينا محمد أفضل الصلاة والسلام خليفته^(٤) في الأرض، ثم أولاده إلى يوم القيامة، فهم يتصرفون فيها، ويعبرونها، ويعيشون فيها بما منحهم الله تعالى من العقل والفهم والذكاء وأودع الله تعالى فيهم من قوة التعلم؛ يتعلمون

(١) البقرة: ٣٠.

(٢) البقرة: ٣١.

(٣) البقرة: ٣٣.

(٤) لا يقال: «خليفة الله»؛ كما سبق (ص ٢٣)

باستعمال تلك القوة جميع العلوم والصنائع، فبذلك يعرفون ربهم وخالقهم، وأنه واحد لا شريك له؛ لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، فلا يستحق العباد إلا هو وحده جلّ جلاله.

فبنو آدم كلهم - أولهم وآخرهم - لهم أهلية العلم والتعلم، فإذا استعملوا قواهم فيما خلقوا له؛ نالوا السعادة في الدارين، وإذا أهملوا وقصروا في ذلك؛ خابوا وخسروا، فكانوا من الهالكين.

فحيث إن بني آدم لهم أهلية العلم والفهم، وجّه الله تعالى إليهم الخطاب وخطبهم أولاً بـ (يا أيها الناس)، ثم بـ (يا أيها المؤمنون)، فأمرهم ونهاهم، وبشرهم وأنذرهم، فعلمنا منها قطعاً أنه يجب فهم خطاب الله تعالى على كل إنسان، ولا يخرج منه إلا الصبي والمجنون، فهذا يجب الإيمان بالله وبالرسل على كل بني آدم، ثم خصص الله تعالى المؤمنين بخطاب خاصة، وأوامر مخصوصة بـ (يا أيها الذين آمنوا) ... الآيات، فهل بعد هذه الآيات يُعذر أحد بترك تعلم الخطاب الإلهي؟ كلا؛ لا يُعذر أبداً، فجزاؤه في الدنيا المذلّة والحقارة والإساءة، وأما في الآخرة؛ فالعذاب أشد وأبقى.

فانتبهوا يا أيها الذين ضيعوا أعمارهم في الشهوات والخرافات والفلسفة اليونانية والأشعار الجاهلية وديوان ابن الفارض والمتنبي أو ميرزا عبدالقادر «البيد» الفارسي؛ كما هو شأن أهل ما وراء النهر؛ فإنهم بذلك افتتنوا وأوقعوا الناس في الفتن العمياء كما لا يخفى.

قال العبد الضعيف جامع هذه الكلمات: هذا آخر ما قصدت جمعه وبيانه مما يتعلق بالمبحث، فأسأله تعالى أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم،

وينفع به العباد في عامة البلاد بفضلِهِ ومنه وإحسانه، وكان ذلك في داري الكائنة في مكة المكرمة، قريبة من المسجد الحرام، في زقاق البخاري، من حارة المسفلة، في ١٥ / ٤ / ١٣٦٦ هـ.

وآخر دعوانا ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعَزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(١).



(١) الصفات: ١٨٠ - ١٨٢.

قال أبو الحارث الحلبي الأثري عفا الله عنه: هذا آخر ما أردت تعليقه على هذا الكتاب المبارك من رأس القلم؛ سائلاً المولى عز شأنه أن ينفع به ويوصله. ولقد استراح القلم من الخزيان قبل غروب يوم الثلاثاء لتسعة أيام يقين من شهر صفر سنة إحدى عشرة وأربع مئة وألف، والبال مهموم، والقلب مغموم، ولا مفرج إلا الله جلّ شأنه، ولا حول ولا قوة إلا به.

الفهارس

فهرس الأحاديث والآثار المخرّجة على الترتيب الهجائي

٢٨٠	الذنوا له، ويش أخو العشرة
٢٧٣	آل محمد كلّ نبيّ
٢٩٦ ، ١٩٧	آية المنافق ثلاث
٢٠٨	أخرجوا المشركين من جزيرة العرب
٢٣٠	أتيت النبي ﷺ في دين كان على أبي
١٩٧	إذا حدث الرجل بحديث ثم التفت
٢٤٥	إذا دعا أحدكم أخاه
٢٧٢	إذا دعا المسلم لأخيه بظهر الغيب
٢٤١	إذا دُعيت إلى كراع ؛ فأجيبوا
٢٥١	إذا سمعتم المؤذن ؛ فقولوا مثل ما يقول
٣٣٨	إذا مات الإنسان ؛ انقطع عمله إلا
٢٧٦	اذكروا الفاجر بما فيه كي يحذره الناس
٢٣١	ارجع فقل: السلام عليكم، أَدْخِلْ؟
٣١٠	أسلم رجال من أهل مكة، فأرادوا
٣٣٥	أعربوا القرآن والتمسوا غرائبه

١٨٧	بل ائتمروا بالمعروف، وتناهوا عن المنكر
٣٠٤	تجب الجمعة على كل مسلم إلا
٩١	ترفع الأمانة، ويُقال للرجل: ما أحذقه!
٣٣٧	تركزت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتن
١٦١	تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله
٣٢٧	تعلموا الفرائض والقرآن، وعلموها الناس
٣٢٨	تعلموا القرآن واقرؤوه
٣٢٩	تعلموا كتاب الله وتماهدوه
٣٢٨	تعلموا مناسككم؛ فإنها من دينكم
٢٧٧	التائب من الذنب كمن لا ذنب له
٢٦٩	التبَّت من الله، والمجلة من الشيطان
٣١٦	التوبة تجب ما قبلها
٣١٦	التوبة من الذنب: أن يتوب منه، ثم
٣٣٠	تكتلك أمك يا زياد
١٧٠	ثلاث من كنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان
٥٤	ثلاث من رواجع على أهلها
٢٩٨	جاهدوا المشركين والكفار بأموالكم
٢١٦	حب الدنيا رأس كل خطيئة
٢٦٥	الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله
٣٤٧	حدثنا الذين كانوا يقرئون القرآن
٣٠٤	حديث أذان عثمان
٢٣٠	حديث الاستئذان للدخول
١٨٠ و ٨١	حديث الثلاثة الذين أطبق عليهم الغار
٣٣٤	حديث جبريل في الإيمان
٢٨٧	حديث سبب نزول: ﴿إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ...﴾
٢٦٩	حديث سبب نزول: ﴿إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ...﴾
٨١	حديث السبع الموفيات

٣٣٥	أعربوا الكلام كي تُعربوا القرآن
٣٣٣	أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي
٢٣٤	أفعميما أُنتم؟
١٨٢	أفي كل عام الحج يا رسول الله؟
٢٠١	أما إنهم مبخلة محبة
٢٩٤	امتحانها أن تُستخلف أنها ما خرجت
٢٨٠	أما معاوية؛ فصعلوك
٢٧٩	إن كان فيه ما تقول؛ فقد اغتبهته
١٦٧	أنا بريء من كل مسلم يُقيم
٢٢١	أنا الضحوك القتال
١٨٤	إن هذا الدين يسر
١٨٢	إن الله فرض فرائض؛ فلا تضيعوها
٢٤٧	إن الله وملائكته يصلون على ميامن الصفوف
٢٤٧	إن الله وملائكته يصلون على الذين يصلون الصفوف
٣٥٣	إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً
٨٣	إن الله لا ينظر إلى صوركم وأعمالكم
٢٨٦	إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً
١٥٢	إن المراد بالمعقود عهد الله
١٨٥	إن الناس إذا رأوا منكراً لم يغيروه
٢٣٠	إنما جعل الاستئذان من أجل النظر
٣٤٠	إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع
٢٥٠	أولى الناس بي يوم القيامة
٢٧٩	إياكم والظن؛ فإن الظن أكذب الحديث
٣١٦	الإسلام يجب ما قبله
٢٧٠	الأنامة من الله، والمجلة من الشيطان
٢٤٩	اللهم صل على محمد وأزواجه
١٨٣	بُعِثت بالحنيفية السمحة

٣٢٦	طلبُ المعلم أفضل عند الله من الصلاة
٣٢٦	طلب المعلم ساعة خير من قيام ليلة
٣٢٥ و ٢٠	طلب المعلم فريضة على كل مسلم
٢١٩	عليكم بالصدق؛ فإن الصدق يهدي إلى البر
٦٣	العلماء ورثة الأنبياء
٣٤٠	فقيه واحد أشد على الشيطان
٢٦٠ و ١٦٠	قال الله: إذا عصاني من يعرفني
٢٥٤	قال الله: من عادي لي ولياً
٢٤٨	قولوا: اللهم صل على محمد
٣٢٤	القرآن حجة لك أو عليك
٢٣٠	كان رسول الله ﷺ إذا أتى باب قوم
٣٣٩	كان النبي ﷺ إذا تكلم بكلمة؛ أعادها ثلاثاً
١١٩	كتاب الله هو جبل الله الممدود
٢٥١	كل دعاء محبوب حتى يصلّي على النبي ﷺ
٢٨٥	كنا إذا أتينا النبي ﷺ؛ جلس أحدنا
٢٧٤	الكبير بظر الحق وعظم الناس
٢٠٨	لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب
٢١٢	لشيعة سنن الذين من قبلكم
٢٨٥	لم يكن شيء أحب إلينا من رسول الله
٢٣٠	لو أن امرأة أطلع عليك من غير إذن
٢٤٦	لو دُعيت إلى ذراع؛ لأجبت
٢٦٨	لو كنتم من أهل المدينة؛ لأوجعكم ضرباً
٢٨١	ما أعطتكم وأعطكم حرمكم!
١٧٤	ما بال أقوام يقول أحدهم كذا وكذا
٢٢٥	ما تواد رجلان في الله؛ ففرق بينهما
٥٤	ما من ذنب يعجل الله تعالى لصاحبه العقوبة
٢٧٢	مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم

١٦٩	حديث قتال ماتني الزكاة
٢٩١	حديث قصة حاطب بن أبي بلتعة
١٤٦	حديث ماعز والعامدية
٢٥٣	حديث موسى وبني إسرائيل
٢٩	حديث الملاكمة الكرويين
٢٠٠	حديث نفاق (١) ثعلبة بن حاطب
٣٢٨	خذوا عني مناسككم
٢٢١	خير الناس قرني؛ ثم الذين يلونهم
١٦٥	الدعاء مع العبادة
٢٥١	الدعاء موقوف بين السماء والأرض
١٦٥	الدعاء هو العبادة
٣٨	الدنيا مزرعة الآخرة
١٨٢	ذروني ما ترككم
٢٧٥	رب أشعث أغبر ذي طمرين
٢٧٥	رب أشعث أغبر مدفوع بالأبواب
٣٢٤	رب تال للقرآن والقرآن يلعب
٢٨٥	رحم الله تعالى رجلاً يفسخ لانيه
٥٩	الراحمون يرحمهم الرحمن
٥٧	الرحم شجرة من الرحمن
٣٢٢	سألت النبي ﷺ عن نظر الفجأة
٣٠٣	ستغرق أمتي ثلاثاً وسبعين فرقة
٢٧٣	سلمان منا آل البيت
٩١	سيكون في آخر الزمان قوم يجلسون
١٣٥	صلوا كما رايتموني أصلي
٣٢٨	صلوا كما رايتموني أصلي
٢٥٠	صلاة أمتي تعرض علي في كل يوم جمعة
١٥٢	الصلح جائز بين المسلمين

٣١٠	الولد ثمرة الغلوب، وإنهم مُجَنَّبَةٌ مُحَزَنَةٌ
٢٠١	الولد من رَحْمَانِ الْجَنَّةِ
١٩٧	لا إيمان لمن لا أمانة له
٢٥٢	لا تجعلوا قبري عيداً
٢٨	لا تحاسدوا، ولا تذايروا
٣٠٣	لا تزال طائفة من أُمَّتِي ظاهرين
٢٧٨	لا تَنْظُرْ بكلمة خرجت من أَمْسِكِ المؤمن
٢٦٥	لا تَقْرَأُوا خلافَ الكتاب والسنة
٥٨	لا تَنْزَعِ الرحمة إلا من شَقِيحٍ
٨٢	لا فضل لعربي عن أعجمي
٣٣٦	لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً
٢٠٩	لا يجتمع دينان في جزيرة العرب
٢٢٤	لا يُشِيرُ أحدكم إلى أخيه بالسلاح
٢٨٥	لا يُقِيمُ الرجلُ الرجلَ من مجلسه
٢٨٥	لا يُقِيمُ أحدكم إخوانه يوم الجمعة
٩١	يأتي زمان لا يبقى من القرآن إلا رسمه
٩١	يأتي على الناس زمان يجتمعون ويصلون
٣٤٠	يا ابن الخطاب! والذي نفسي بيده ما لقيك
١٨٥	يا أيها الناس! إياكم والكذب
٣٣١	يا أيها الناس! تَعَلَّمُوا؛ إِنْما العلم بالتعلم
٢٣٢	يا علي! لا تَتَّبِعِ النظرة النظرة
٨٤	يا مشعر قريش! إن الله قد أذهب عنكم
٢٨٠	يا مشعر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه
١٨٤	يسروا ولا تعسروا
٣٣٠	يوشك أن يأتي على الناس زمان لا يبقى



١٧٨	ملعن الخمر كعابد وثن
٣١٤	مُرُوا الصَّيَّ بِالصَّلَاةِ إِذَا بَلَغَ سَبْعَ سَنِينَ
٣٣٧	من اقتدى بكتاب الله لا يَضِلْ
١٨١	مَنْ أَنَا وَمَنْ أَبَاي؟
٣٠٥	مَنْ تَرَكَ الْجُمُعَةَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ تَهَوَّنَا
٣٣٦	من تَعَلَّمَ كتاب الله ثم أَتْبَعَ ما فيه
٢٢٥	مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْعَرَبِ تَرْكُهُ مَا لَا يَغْنِيهِ
٦٣	مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ مِنْهُ عِلْمًا
١٠٢	مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا
٢٥٠	مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا
٢٤٩	مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً، لَمْ تَزَلِ الْمَلَائِكَةُ
٢٥٦	من قرأ دينه من أرض إلى أرض
١٣٢	من قتل نفسه بحديدة
٣٤٧	مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ فَاسْتَظْهَرَ
٣٠٨	مَنْ كَانَ لَهُ مَالٌ يُبْلَغُهُ حَيْثُ بَيْتُ رَبِّهِ
٢٢٥	مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
٢٧٦	مِنْ الْكِبَارِ شَتَمَ الرَّجُلَ وَالِدِيهِ
٢٥١	مَنْ نَسِيَ الصَّلَاةَ عَلَيَّ؛ أَخْطَأَ طَرِيقَ الْجَنَّةِ
٣٣١ و ٣٣٨	مَنْ يَرُدُّ اللَّهَ بِه خَيْرًا؛ يَفْقَهُهُ فِي الدِّينِ
٣٤٧	المأهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة
١٩٦	المجالس بالأمانة إلا ثلاثة مجالس
٢٢٥ و ٢٧٢	المسلم أخو المسلم
١٠٣	المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده
١٥٣	المسلمون على شروطهم
٦٥	نهى عن الأغلوطنات
٣٣٨	الناس معادن كعادن الذهب والفضة
٣٠١	هل من رجل يؤويني حَتَّى أُلْبِغَ رسالة ربي؟

فهرس فوائد التعليقات

الاستدراك على رسالة «الذين ترجعوا لأنفسهم من العلماء»
(الإشراقون) و«المشائون» من هم؟
نُبذة عن ابن سينا الفيلسوف!
«خليفة الله» من الألفاظ المخالفة للشرع
التنبه على خطر قولهم: «لا معبود إلا الله»
من انتسب إلى بلاد المعجم من العلماء
الملائكة الكروبيون!!
نقد «دلائل الخيرات»
لم يصح في السنة تسمية ملك الموت (عزرائيل)
حديث قدسي مشهور لا أصل له!
لفظ «العارفين» من ألفاظ الصوفية المتبعة
كتاب «تسهيل المنافع» للأزرق!!
التنبه على خلط في مطبوعة «لسان الميزان»
سكوت الحافظ ابن حجر في «فتح»
تساهل ابن حبان في توثيق المجاهيل
«نهى عن الأغلوطات»!
كلمة حول (عبدالقادر الجيلاني) وما يُنسب إليه
رواية إسماعيل بن عُليّ عن الجُبَرِيّ قبل الاختلاط
الدفاع عن حديث في «صحيح المسلم» أُعلِّ بالوقف
الإلصاق إلى مسألة العذر بالجهل
حديث ضعيف، وذكر ما يعني عنه
نُبذة في ذكر أحوال الحزبيين
«واتقوا الله ويعلمكم الله»؛ معناها الصحيح
كمال أتاتورك... الذلب الأغبر!
ما أشبه اليوم بالأمس

حمار توما!!

نظرية دارون البائدة!

وسقطت الشيوعية!

«... وأولي الأمر منكم...» من هم؟

قلب الوقائع بتسميات مخالفة

التنبه على وهم في عزربعض الفضلاء حديثاً لـ «صحيح مسلم»

قاعدة (البُاع التركية) أهميتها وبيئاتها

تعقب الحافظ ابن حجر في تجويد إسناد حديث

خفاء علل حديثية على بعض فضلاء العصر

تطويل في تخريج حديث نبوي والجمع بينه وبين ما تعارض معه

القومية!

قصة نوبة الفضيل بن عياض

العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب

التنبه على بطلان قصة نفاق ثعلبة

تحسين حديث ضعّفه شيخنا الألباني

تعقب الشيخ عبدالقادر الأرنؤوط

«حب الدنيا رأس كل خطيئة»!

«أنا الضحوك القتال» لا أصل له!

لفظ «الوهابيين» من اختراع أعداء التوحيد

طائفة (البُهرّة)!

راي ضعّفه ابن حجر وحسن حديثه!!

«الإلصاق إلى مسألة العذر بالجهل»

شذوذة رواية «إن الله وملائكته يصلون على ميامن الصوف»

ذكر شاهد لها لا يُقر به

تسلّل لطيف في تخريج حديث غريب!

التنبه على ضعف حديث معاذ في الرأي!

الحكم بغير ما أنزل الله؛ حكمه!

١٢٨
١٣٤
١٣٤
١٣٧
١٥٠
١٦٥
١٧٣
١٧٨
١٨٢
١٨٦
١٩١
١٩٤
١٩٦
٢٠٠
٢٠١
٢٠٩
٢١٦
٢٢١
٢٢٢
٢٢٧
٢٣٤
٢٤٣
٢٤٧
٢٤٨
٢٥٦
٢٦٥
٢٦٧

- ٤٨ حكاية الأطباء.
- ٤٩ تفسير: ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِذَا يَأْتَيْتَكُمْ رَسُولٌ مِّنْكُمْ يَفْضُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي...﴾ الآية.
- ٥٠ تفسير: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا...﴾ الذي له ملك السموات والأرض...﴾ الآية.
- ٥١ إن أبا مسلم الخراساني منع الناس عن تعلم العربية.
- ٥٢ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بُعِثْتُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا...﴾ الآية.
- ٥٦ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِدَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ...﴾ الآية.
- ٥٩ تفسير: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ...﴾ الآية.
- ٦١ تفسير: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ...﴾ الآية.
- ٦١ تفسير: ﴿وَأَنذَرْتُ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا آخِرْنَا...﴾ الآية.
- ٦٢ تفسير: ﴿هَذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنْذِرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُهُ وَاحِدٌ...﴾ الآية.
- ٦٣ تفسير: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لَتُبَيِّنَ لِّلنَّاسِ مَا نَزَلَ إِلَيْهِمْ وَلِيُعْلَمَ أَنَّكَ مُبَيِّنٌ...﴾ الآية.
- ٦٥ تفسير: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِّلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا...﴾ الآية.
- ٦٦ تفسير: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِّلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جِدَلًا...﴾ الآية.
- ٦٨ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ...﴾ الآية.
- ٦٩ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ...﴾ الآية.
- ٦٩ تفسير: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ...﴾ الآية.
- ٧٠ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبٌ مِّثْلَ فَاسْتَمَعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ...﴾ الآية.
- ٧١ تفسير: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولُنَّ الدِّينُ كُفْرًا...﴾ الآية.
- ٧٢ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّيْزِيهِمُ اللَّهُ...﴾ الآية.
- ٧٣ إن الدجالين يعتقدون أن الرسول ﷺ يعلم الغيب.
- ٧٤ تفسير: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ...﴾ الآية.
- ٧٤ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَذْكَرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ...﴾ الآية.
- ٧٥ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلَفُ فَلا تَعْرَبُوا عَلَى اللَّهِ فَعَلَّمَا تُبَدِّلُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَلَا يَغْنَبُ كُمْ بِاللَّهِ الْغَوْرُ...﴾ الآية.
- ٧٦ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَتُمُ الْفِرَاقَ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ...﴾ الآية.
- ٧٧ تفسير: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ...﴾ الآية.
- ٧٨ تفسير: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ...﴾ الآية.
- ٧٩ تفسير: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ...﴾ الآية.
- ٨٠ تفسير: ﴿هَٰذَا بَصَائِرُ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ...﴾ الآية.
- ٨١ تفسير: ﴿وَرَوْسِنَا الْإِنْسَانَ بُولَدِيهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّ كَرِيمًا وَضَعَتْهُ كَرِيمًا...﴾ الآية.
- ٨٢ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا...﴾ الآية.
- ٨٥ تفسير: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ...﴾ الآية.
- ٨٦ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّبَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسُوِّكَ...﴾ الآية.
- ٨٧ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ...﴾ الآية.
- ٨٨ تفسير: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ...﴾ الآية.
- ٨٩ السُّدُورُ الْفَاصِلُ بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَالْحَيَوَانِ وَكَمْ مِنْ مَتَاعَلٍ لِّسَلِّ لَيْسَ لَهُ إِيمَانٌ.
- ٩٣ فصل: فِي بَيَانِ الْآيَاتِ الْمَوْجِبَةِ إِلَى الْمُؤْمِنِينَ.
- ٩٣ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا اسْمَعُوا...﴾ الآية.
- ٩٥ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ...﴾ الآية.

- ٩٦ معنى الصبر، وتحقيق ما يتعلق به، وسرّ قرنه بالصلاة.
- ٩٨ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ...﴾ الآية.
- ٩٩ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرِّ بِالْحَرِّ...﴾ الآية.
- ١٠١ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ...﴾ الآية.
- ١٠٣ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ...﴾ الآية.
- ١٠٦ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا انْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْيَوْمُ...﴾ الآية.
- ١٠٨ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَى...﴾ الآية.
- ١٠٨ الإنفاق في سبيل الله أشق الأمور على النفوس، وبيان المن والأذى.
- ١١٠ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا انْفِقُوا مِّن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ...﴾ الآية.
- ١١١ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.
- ١١٣ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَيْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسمى فَاكْتُمُوهُ...﴾ الآية.
- ١١٣ قد أرشد الله تعالى عباده المؤمنين إلى نظام المدنية العليا لحفظ الحقوق، ولكن الأسف أن المسلمين محرومون عن هذه الميراث الإنسانية والإكاملات المدنية.
- ١١٧ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فِي رِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمُ...﴾ الآية.
- ١١٨ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُوا إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾.
- ١١٩ واعتصموا...﴾ الآية.
- ١٢١ الاجتماع على الاعتصام بكتاب الله يوجب الوحدة والقرّة، ومن حاد عنه: هلك.
- ١٢١ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خِيَالًا...﴾ الآية.
- ١٢٢ سبب عز الدولة وقوتها: الاعتصام بكتاب الله، وسبب ضعفها وسقوطها: الاعتماد على الأجانب.
- ١٢٣ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ...﴾ الآية.
- ١٢٥ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمُ عَلَى أَعْقَابِكُمْ...﴾ الآية.
- ١٢٥ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ...﴾ الآية.
- ١٢٧ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.
- ١٢٩ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمُ أَن تَرْتُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضِلُوهُنَّ...﴾ الآية.
- ١٣٠ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ...﴾ الآية.
- ١٣١ ومن الأكل الباطل الغصب والغش والسرقه والخداع والرشوة ونحوها.
- ١٣٣ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرِبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ...﴾ الآية.
- ١٣٤ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِّنكُمْ...﴾ الآية.
- ١٣٥ من المراد بـ ﴿أُولِي الْأَمْرِ﴾ المأمور باتباعهم.
- ١٣٧ المسائل الدينية لا ينبغي أن يكون فيها تفرق واختلاف.
- ١٣٨ الأسف على حال المسلمين الذين جمدوا على التقليد على كتب المتأخرين.
- ١٤٠ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفَرُوا ثِبَاتٍ وَأَنْفَرُوا جَمِيعًا﴾.
- ١٤١ بيان فنون الحرب في كل زمان ومكان والقبلة الدرية المهلكة.
- ١٤٢ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَيْنُوا وَلَا تَقُولُوا...﴾ الآية.
- ١٤٤ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَامِينَ لِلْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ...﴾ الآية.
- ١٤٧ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَلَ عَلَى رَسُولِهِ...﴾ الآية.
- ١٤٩ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِّن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ...﴾ الآية.
- ١٥٠ من وإلى من ملوك المسلمين ملوك الكفار ندم آخرًا ودلّ لا محالة.

- ١٥١ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ...﴾ الآية.
- ١٥٣ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشُّعُورَ الْحَرَامَ...﴾ الآية.
- ١٥٤ من لم يسر على سنن الله في الكون هلك لا محالة.
- ١٥٦ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ...﴾ الآية.
- ١٥٧ الصلاة الحقيقية تظهر الروح كما يظهر الماء الصافي الظاهر.
- ١٥٨ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اقْرَأُوا لِلَّهِ شُهَدَاءَ الْبَقِطِ...﴾ الآية.
- ١٥٩ العدل سبب نمو الدولة والسعادة والظلم سبب الخراب والمذلة.
- ١٦٠ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ...﴾ الآية.
- ١٦٢ قصة هذا الفقير في بلاد فرغانة وحفظ الله إياه من القتل.
- ١٦٣ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ...﴾ الآية.
- ١٦٤ بيان الوسيلة الشرعية وأنها أحدثها الدجالون في القرون المتأخرة.
- ١٦٦ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ...﴾ الآية.
- ١٦٨ أسراء المستعمرين الأجانب بلاد عظيم على أمتهم.
- ١٦٨ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ فِي دِينِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفُجُورُ...﴾ الآية.
- ١٧١ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوعًا وَلَعِبًا...﴾ الآية.
- ١٧٢ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْمِلُوا طِيَابًا مِنْ أَحْلَى اللَّهِ لَكُمْ...﴾ الآية.
- ١٧٣ من البدع التركية التعبد بترك الطيبات وتغذيب النفس.
- ١٧٥ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ...﴾ الآية.
- ١٧٩ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيُؤْتِكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالَهُ أَيْدِيكُمْ...﴾ الآية.
- ١٨٠ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حَرَمٌ مِنْ قَتْلِهِ مِنْكُمْ...﴾ الآية.
- ١٨١ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَنْسَؤُنَا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ تَبَدَّلَ لَكُمْ تَرَوْكُمْ...﴾ الآية.
- ١٨٣ لا يجوز التنطع في الدين، ولا الزيادة على نصوص الشارع.
- ١٨٤ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اعْتَدَيْتُمْ...﴾ الآية.
- ١٨٧ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ...﴾ الآية.
- ١٨٨ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْزَحُوا عَنْهُمْ...﴾ الآية.

الآية.

١٩٠ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنَّهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾.

١٩١ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ...﴾ الآية.

الآية.

١٩٢ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾، وهذا أخوف ما يخافه العبد المتقي.

١٩٥ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَنْفُسَكُمْ...﴾ الآية.

١٩٧ علامات المناق، وفترة الأموال والأولاد.

١٩٩ خيانة الوزراء تسقط الدولة.

١٩٩ قصة أبي لبابة وحاطب بن أبي بلتعة.

٢٠٢ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَقُوا اللَّهَ لَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ...﴾ الآية.

الآية.

٢٠٣ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاغْلِبُوا وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا...﴾ الآية.

٢٠٥ منذ تفرق المسلمون وأخذوا المذاهب والطرق، تلاشوا وتشتتوا.

٢٠٦ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنْ اسْتَحْبَبَا...﴾ الآية.

الكفر... الآية.

٢٠٧ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ...﴾ الآية.

٢٠٨ عدم جواز سكنى الكافر في الحرمين وجزيرة العرب.

٢١٠ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ كَثُرَ مِنْ الْأَحْيَاءِ وَالرِّهَانِ...﴾ الآية.

٢١١ ما يأخذه القضاة من الرشوة وتأخذه سدنة القبور والمشاهد.

٢١٣ طريق صدّ الأحبار والرهبان عن الإسلام الصحيح والدين القيم.

٢١٦ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ اتَّقُوا اللَّهَ فَمَا لَا تُحْشِرُونَ...﴾ الآية.

٢١٨ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾.

٢٢٠ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا...﴾ الآية.

٢٢١ انعكاس حال المسلمين في تواضعهم للكفار وغلظتهم للمؤمنين.

٢٢٣ تفسير: ﴿قُلْ لِعِبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا بِقِيَمَةِ الصَّلَاةِ...﴾ الآية.

٢٢٤ تفسير: ﴿قُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ بَرَزَ مِنْهُمُ...﴾ الآية.

٢٢٦ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ...﴾ الآية.

- ٢٢٨ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوطَ الشَّيْطَانِ...﴾ الآية.
- ٢٢٩ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتَسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا...﴾ الآية.
- ٢٣١ تفسير: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ بَعْضُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَحَفَظُوا فُرُوجَهُمْ...﴾ الآية.
- ٢٣٣ تفسير: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَحَفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ...﴾ الآية.
- ٢٣٦ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيْسَ ذَنْبُكَمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ...﴾ الآية.
- ٢٣٧ تفسير: ﴿يَا عِبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةً فَلِيَإِيَّ فَاغْبِذُوا...﴾ الآية.
- ٢٣٩ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذَا جَاءَكُمْ جُنُودُ فَارِسَئِلا عَلَيْهِمْ...﴾ الآية.
- ٢٤١ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا...﴾ الآية.
- ٢٤٢ الذكر نوعان: بالقلب واللسان، وأذكار صوفية الزمان وأربطتهم... إلخ.
- ٢٤٤ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَحَرْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ...﴾ الآية.
- ٢٤٤ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِذَا يَدْعُوكُمْ إِلَى طَعَامٍ...﴾ الآية.
- ٢٤٦ تفسير: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا...﴾ الآية.
- ٢٥٣ بيان الصلوات والأحزاب المتبعة كـ «دلائل الخيرات» وصلوات الشتاء... إلخ.
- ٢٥٣ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا...﴾ الآية.
- ٢٥٤ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا...﴾ الآية.
- ٢٥٥ تفسير: ﴿قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً...﴾ الآية.
- ٢٥٦ الترغيب إلى الهجرة من دار الشرك إلى دار الإيمان لحفظ الدين والإيمان، وحال بعض المهاجرين في مكة.
- ٢٥٨ تفسير: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ...﴾ الآية.
- ٢٥٩ تفسير: ﴿فَاشْرَ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ...﴾ الآية.
- ٢٦٠ تفسير: ﴿يَا عِبَادَ لَا خَوْفَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ...﴾ الآية.
- ٢٦١ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصَرُوا لِلَّهِ بِنَصْرِكُمْ وَبَيَّتَ بِكُمْ مَكْرًا...﴾ الآية.
- ٢٦١ مخالفة المتأخرين لأمر الله، وحرمانهم من نصر الله، وبيان دجل الدجالين.
- ٢٦٢ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اطِّيعُوا اللَّهَ وَاطِّيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْغُوا عَمَالِكُمْ...﴾ الآية.
- ٢٦٤ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ...﴾ الآية.
- ٢٦٥ مبنى العبادات على الاتباع، وصوم يوم الشك، وما يتفرع عليه.
- ٢٦٧ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ...﴾ الآية.
- ٢٦٨ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ فَبَيِّنُوا أَنْ تُصَيِّبُوا قَوْمًا...﴾ الآية.
- ٢٧١ تفسير: ﴿وَإِذَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ...﴾ الآية.
- ٢٧٤ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ...﴾ الآية.
- ٢٧٨ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنْ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا...﴾ الآية.
- ٢٨١ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَأَمَّا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كَقْلِينَ مِنْ رَحْمَتِهِ...﴾ الآية.
- ٢٨٣ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَنَاجُوا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ...﴾ الآية.
- ٢٨٤ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَسْمَعُوا فِي الْمَجَالِسِ فَاصْبِرُوا وَخَشَافُوا فَسَخِ اللَّهُ لَكُمْ...﴾ الآية.
- ٢٨٧ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْهِ جُؤَاكِمَ صَدَقَةً...﴾ الآية.
- ٢٨٩ تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْتَرْقِبْ نَفْسَ مَا قَدَّمْتُمْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ...﴾ الآية.

- ٢٩١ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق...﴾ الآية.
- ٢٩٢ مولاة الكفار والمشركين والقبوريين غير جائزة.
- ٢٩٣ الحب في الله والبغض في الله.
- ٢٩٣ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن...﴾ الآية.
- ٢٩٥ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم قد يفسدوا من الآخرة...﴾ الآية.
- ٢٩٦ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون . كبر مقتاً عند الله أن تقولوا...﴾ الآية.
- ٢٩٨ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجنيكم من عذاب أليم . تؤمنون بالله ورسوله...﴾ الآيات.
- ٣٠٠ الخلف قد خالفوا السلف، ولم يعملوا بموجب الإيمان، فجازوا بالخذلان.
- ٣٠١ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا متصافين بالله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين...﴾ الآية.
- ٣٠٢ قد اختلفت هذه الأمة كما اختلفت بنو إسرائيل إلى مذاهب وطرائق شتى.
- ٣٠٤ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسموا إلى ذكر الله...﴾ الآية.
- ٣٠٥ قصة من لا يحضر صلاة الجمعة، ولكن يمشي إلى زيارة قبر ابن عباس، ويستمد منه الإعانة.
- ٣٠٧ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله...﴾ الآية.
- ٣٠٩ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدو لكم فاحذروهم...﴾ الآية.
- ٣١١ تفسير: ﴿فاتقوا الله يا أولي الألباب الذين آمنوا قد انزل الله إليكم ذكراً...﴾ الآية.
- ٣١٣ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا أنفسكم وأهلكم ناراً وقودها الناس والحجارة...﴾
- الآية.
- ٣١٥ تفسير: ﴿يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم...﴾ الآية.
- ٣١٦ التوبة من حقوق الأدمي تكون برد هذه الحقوق إلى أربابها، وبيان التوبة الصحيحة المنتجة النافعة.
- ٣١٨ سرّ الخطاب والنداء بـ: ﴿يا أيها الناس﴾ و﴿يا أيها الذين آمنوا﴾؛ دون: (يا أيها العلماء)، (يا أيها السادات).
- ٣١٨ الذين لا يفهمون القرآن كأنهم قد مسخروا عن الإنسانية فصاروا من المحرومين.
- ٣٢١ فصل: القرآن لا ينفع المسلمين، بل هو حجة عليهم، وذلك إذا لم يعملوا به، فحالهم في ذلك حال اليهود والنصارى.
- ٣٢٣ فصل: إن الأمة إذا تركت العمل بكتاب الله المنزل قست قلوبها فصارت ملعونة.
- ٣٢٤ سبب ذهاب الدولة عن المسلمين: اغترارهم بمجرة تلاوة القرآن من غير فهم وتفهم والعمل بمقتضاه.
- ٣٢٥ فصل: بيان الأحاديث الواردة في لزوم فهم معنى القرآن والعمل به.
- ٣٢٥ الحديث الأول: «طلب العلم فريضة على كل مسلم...» الحديث.
- ٣٢٧ الحديث الثاني: «تعلموا القرائن والقرآن، وعلموها...» الحديث.
- ٣٢٨ الحديث الثالث: «تعلموا القرآن، واقرؤوه...» الحديث.
- ٣٢٩ الحديث الرابع: «تعلموا؛ إنما العلم بالتعلم...» الحديث.
- ٣٣٠ الحديث الخامس: «يوشك أن يأتي على الناس زمان لا يبقى من الإسلام إلا اسمه...» الحديث.
- ٣٣٣ الحديث السادس: «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي...» الحديث.
- ٣٣٤ الحديث السابع: «... فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم».
- ٣٣٤ الحديث الثامن: «أعربوا الكلام؛ كي تعربوا القرآن».
- ٣٣٦ الحديث التاسع: «لا يؤمن أحدكم؛ حتى يكون هواه تبعا لما جئت به».
- ٣٣٦ الحديث العاشر: «من تعلم كتاب الله، ثم اتبع ما فيه...» الحديث.
- ٣٣٨ الحديث الحادي عشر: «من يرد الله به خيراً؛ يفقهه في الدين...» الحديث.
- ٣٣٩ الحديث الثاني عشر: «كان النبي ﷺ إذا تكلم بكلمة؛ أعادها ثلاثاً...»

الحديث .	
الحديث الثالث عشر: وفقه واحد أشد على الشيطان من ألف عابده .	٣٤٠
فصل : أقوال الصحابة والتابعين في لزوم فهم معاني القرآن والحديث .	٣٤٣
فصل : أقوال علماء الفقه وأصوله في لزوم فهم معاني القرآن والحديث	٣٤٩
الخاتمة .	٣٦١
فهرس الأحاديث على الترتيب الهجائي .	٣٦٥
فهرس فوائذ التعليقات .	٣٧٢
الفهرس التفصيلي .	٣٧٥

